

منير الخوري
صيدا
عبر حقب التاريخ
منشورات
المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت

منير الخوري

الأمين المساعد لمكتبة المركز الاقليمي
لتدريب كبار موظفي التعليم العرب - بيروت

صيدا
عبر حقب التاريخ

من ٢٨٠٠ ق.م. إلى ١٩٦٦م.

منشورات
المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت

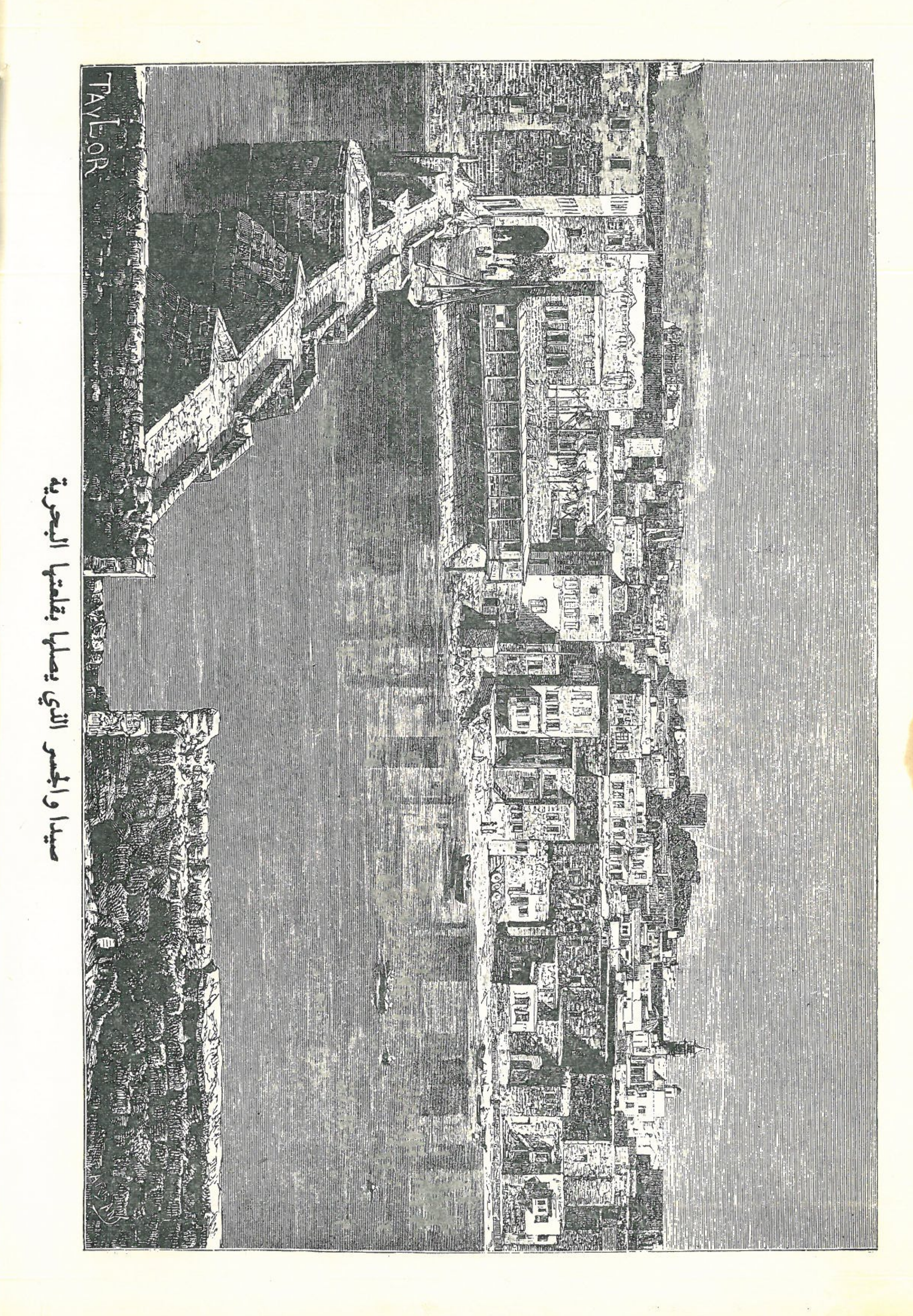
احترم مجد المؤسسين القديم ، وشيخوخة الانسان المكرمة ، وقداسة المدن العريقة .

أدِّ الاكرام للآثار القديمة ، والاحترام للاعمال العظيمة ، ولا تحقرنَّ الاساطير .

الخوري عيسى أسعد

بالأساطير ايها الموج رفقاً بلهاث القلوع في صيدون
خلف طياتك الغضاب اختلاج لشراعٍ راخٍ وهزج سفين
كم تعرى في ظلها الفجر وانداح نجوماً نشرن شوق عيون
كلما موّج العباب تلثّمين سنيناً الى صدور سنين
فالشواطىء طروسك الشهب ما هزت شمال وشع وحي يمين
وسطور الخلود سمراء لم تجنح الى غيرها من التلوين
قف تمهل تفضّ ختم كتاب لمّ في دفتيه سر الفنون

الدكتور علي الشلق



صيدا والجسر الذي يصلها بقلعتها البحرية

الإهـداء

الى شريكتي في الحياة وزميلتي في العمل المثمر البنّاء ، الى ذلك القلب الكبير الذي تنسمت بواسطته اريج صيدا فتغلغلت الى مكنون كنوزها ، ووعيت ملاحم بطولاتها، وألممت بفضلها على ما قدمته مدينتها من حضارة للعالم عبر حقب التاريخ ، الى ابنة صيدا - زوجتي :

حنينة نحاس الخوري

اهدي ثمرة جهدي، اقراراً مني بالفضل، وشعوراً بالحب، واعجاباً بشعب مدينتها الابي .

منير

المقدّمة

بقلم : الدكتور عبد الرزاق الحفار

امين عام المركز الاقليمي واستاذ العلاقات الدولية
في كلية الحقوق ـ الجامعة اللبنانية

أخي منير

... طالعت كتابك « صيدا ، عبر حقب التاريخ » فطالعتني من خلاله صورة لما عُرفتَ به من طموح وتعطش للكشف ، وما تتحلى به من جلد في تقصّي الحقائق بدأب الباحث الحصيف .

لم ترهبك أحداث القرون الخمسين التي انقضت على مولد « صيدون » ، ولم تقعدك قلة المصادر عن أحوالها ولا ندرة الوثائق عن وضع مؤلفك ؛ بل انصرفت الى التنقيب عنهـا بحماسة المغامر ، تستوقفك طويلاً دراسة حول رسالة من طين ، وتهش لتقرير والٍ عثرت على بعض ما تسرب من مقاطعه .

وعرضت في بعض المراحل صفحات منسية من تاريخ لبنان بشكل عـام لتبرز من خلالها فكرة عن وضع صيداء إبان حقبة معينة عزت المراجع عنها.

وجعلت من كتابك في كل حال ، سيرة لكفاح لبناني متواصل في سبيل ادراك الأسمى وبلوغ أعلى مراتب المجد .

وصورت نضال صيداء ، في عهود مختلفة ؛ فما كان الدمار الذي تلقاه ، إلا ليزيدها قوة على الانبعاث فتنهض كمارد بحري ، تهفو إليه قلوب الملوك ، ويتسابقون على اتخاذهـا قاعدة بحرية ونقطة انطلاق لتشييد امبراطورياتهم ، ومعين خير لا ينضب .

لقد كانت صيداء قبلة للتجار ومحجة للصناع ، فعظم دورهـا في دنيا الاقتصاد وامتد نشاطها الى قبرص ورودس وكريت وجزر ايجه .

جاليات تتقاطر اليها وتتزاحم على الإقامة في ربوعها ، تؤثر في حضارتها وتتأثر بها ؛ ويزيد في ازدهارها ما كانت تقدم من تيسيرات اقتصادية واسعة دون جنوح الى فرض سيطرتها بالقسر والاخضاع ؛ بل بالاتفاقات الاقتصادية الودية ، تنسجها بحنكة وفن ، وتدلل بها على قدرتهـا في اجتذاب الشعوب واكتسابهم بحسن التعامل وجودة النتاج .

فزجاج « مورانو » في ايطاليا هو صنو لزجاج نفخ في صيدون ، وخشبها المحفور ، وعاجها المنحوت ، وخزفها الملون ، وأقمشتها الارجوانية كلها كانت سبباً لتعزيز مكانتها الخارجية .

على أن حب الكسب ، لم يصرفها عن العناية بعالم الفكر ، بل لعل مدى كسبها المادي جاء حصيلة عنايتها بالحرف .

أفلم تحضن مدرسة بيروت فترة من الزمن ؟ ألم تدع عنايتهـا بالطب وباستنباط العقاقيرعلاجاً شافياً، يؤكد مدى تطورها العلمي منذ غابر العصور؟ أفلا تشهد الأسنان الذهبية التي أظهرتها حفرياتهـا الاخيرة على روعة في هذا المجال تميزت بها صيدون ؟

وتبقى هذه البلدة الجميلة مهبط وحي ومنزل حكمة وميدان فداء ، تخرج للبنان أناساً أمناء على حمل الرسالة الانسانية .

ولئن شحت المعلومات عن نشاطهـــا إبان القرون الخمسة الماضية ، فلقد وجدت ، في بعض أبنائها ، ومنهم منير الخوري ، عزمـــاً على تدارك ذلك النقص ، بالسعي الى استقراء الوثائق المحفوظة في استانبول ، ان في سجلات « المفصل » التي حوت اخبار الولايات جغرافياً وماليـــاً ، أم في سجلات « الالتزامات » و « الطابو » و « الأحكام » .

لقد جمعت في هـذا المؤلف خطوط تاريخ صيداء عبر الأحقاب فأغنيت مكتبتنا اللبنانية بدفقة جديدة ، نتعشم ان تتبعهـا دفقات أُخر تكشف ما زال خافياً علينامن معالم صيداء في حياتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

بيروت في ١٥ / ٧ / ١٩٦٦

عبد الرزاق الحفار

الحقبة الأولى

صيدا

من ٢٨٠٠ حتى ميلاد السيد المسيح

استهلال

حمداً لمن لا يدركه القِدم ، ولا تصل إليه عوامل العدم . وبعد ، يسهل على المرء ان يجلس منفرداً على الشاطىء أو تحت شجرة في ليلة مقمرة ويحوك من مخيلته أفكاراً يبرزها الى العالم نسيجاً لامعاً فينال حظه من إطراء لما أحدثه فيها من جميل الشكل وحسن الوشي .

ولكن المؤرخ لا يستطيع ان يكون ذلك الرجل ، لأن موضوع بحثه ليس ابتكار فكرة ، او تصوير خيال ، وانما يرجى منه دقة شعور ، وحسن نظر ، وقوة ملاحظة يستطيع بها أن يرد الحوادث المروية الى بواعثها الأصلية في صور جديدة ناطقة ينطلق بها قلمه في إحسان وصفها ، بعد ضبط حقيقتها.

ويحظر على المؤرخ الصادق الاستسلام الى التخيلات ، فلا يسوغ له ان يضم ما يتخيله الى ما رواه من سبقه من المؤرخين عن حوادث الكون ، بل يجب عليه ان يعمد الى المجلدات والأسفار يقلب صفحاتها بإمعان ، وأن يحتضن المجلات والطوامير ينقب في ثناياها ليعثر على المادة التي يكوّن منها هيكل مؤلفه .

ولا يقتصر عمله على هذا فحسب ، بل يجب عليه بعد التقاطه نثار ضالته ،

ان يمحّصها ويغربلها ويعرضها على النظر الدقيق لتمييز صحيحها من فاسدها، ثم ينظم ما تيقن انه در ، قلادة لجيد الدهر ، يرتاح اليها الناظر ، ويطمئن لها الخاطر ، وعليـــه ايضاً ان يحسن التنسيق والتبويب فيسهل على المطالع استيعاب ما نضده وتمثيل ما هضمه فلا يصاب باكتظاظ حينما يدفع اليه طبق المرويات صبرة واحدة .

وعلى المؤرخ ايضاً ان يستخرج من مروياتـه النتائج والعبر التي هي هدف التاريخ الحقيقي . والمؤرخ النزيه يقضي ردحاً من الزمن في المراقبة والتفكير ليقدم الى العـالم مجهودات كبيرة في سفر صغير قد يطالعه القارىء في بضع ساعات ، ولكنه لا يطوي آخر صفحة منـــه حتى ترتسم في مخيلته صورة واضحة لحوادث الدهر ، تنير سبيله لاقتفاء الأثر ، وتجنب مـــا في ارتياده من الخطر .

حقائق وأفكار ساورتنا حينما قررنا اصدار تاريخ للبلد المحبوب« صيدا ». ولكننا ما ان حبونا قليـــلا حتى اصطدمنا بعقبات في اساس الموضوع . اذ وجدنا أن النصوص التي في متناول اليد قليلة جداً . وكلها او جلها انما يرد فيها ذكر صيدا عرضاً لأنها ليست الهدف الذي ريشت اليـــه سهام اولئك المجتهدين . وليس لدينا من انباء العصور القديمة ، إلا ما يمكن استقطاره من الاساطير واعتصاره من الآثار ومـــا رواه بعض المؤرخين الأجانب عن الحضارات السامية القديمة... ثم اصطدمنا إبان متابعتنا البحث بانقطاع سلسلة التاريخ اكثر من مرة قديماً وحديثاً ولا سيما في القرون الوسطى ، ومع ذلك فاننا لم نقع في لجة اليأس،بل رأينا ان ما لا يدرك كلّه لا يترك جلّه.وبالرغم من كل هذه الصعوبات فقد حصلنا على مادة جديرة بالمطالعة تصلح ان تكون اساساً الى ما نرجو ان يستخرجه المنقبون .

وخطتنا وان لم يكن حديدياً تسير عليه قطر الافكار آمنة ، لكنه على كل حال درب يسهل السير عليه بين أدغال المرويات ...

وإني لأترك الحكم على ما انتجته لمن خصّوا بمثل هذه المباحث وتقدير ما جنحت فيه عن رأي العامـة ، بعد رجوعي الى مصادر يوثق بهـــا من عربية وأجنبية .

فإن أصبت في مـــا سعيت اليه فذاك ما يطمح اليه البصر ، وإلا فلست بأول سار غرّه القمر ..

الفَصْلُ الأول

« نحن صيدونيون موطننا الارض   ونأبى اقل ساح الحيــاة »

« سعيد عقل »

تاريخ صيدا

من يقـدم على كتابة تاريخ صيدا منذ نشأتها الاولى يصطدم بعقبة كأداء حالماً يمسك بيده اليراع، ولا يستطيع اجتيازهـا إلا عندما يجد جواباً على هذه الاسئله :

١ — متى وجدت صيدا ؟

٢ — من وضع اسمها الاولى ؟ ومن نسل من ؟ وما هو الاسم الذي وضـع لها — هل اشتق اسمها من اسم اول واضع حجر في اساسها او عن معنى يتضمنه موقعها ؟

٣ — كيف كانت معيشة قاطني هذه البلد ؟ وممن استمدوا نظام مجتمعهم ؟ امن دين تمسكوا به ام من سياسة خاصة كانت تدير شؤونهم ؟ ما هو ذلك الدين او تلك السياسة ؟

أنها اسئلة تحتاج الى أجوبة يقينية لمعرفتها او لترجيحها ، والا تطرق الشك الى صحة ما يرويه المؤلف . ومعرفتها واجبة عن طريق الوصول الى مكتوبات تعاصر الوقت الذي بنيت فيـه ، وهو امر متعذر (اذ ان صيدا بنيت – كما سنرى – في عصر سابق للتاريخ المدون) .

ولذا كان لا بد لنا من اللواذ بوسائل اخرى تنيلنا هذه الامنية ، وهـذه الوسائل هي :

١ – الآثار القديمة المكتشفة حديثاً .

٢ – اساطير الامم وتقاليدها بعد تنقيتها من شوائبها .

٣ – ما نشر في الاسفار التاريخية القديمة .

٤ – ما استنبطه رهط من كبار المؤرخين وعلماء الآثار الاجانب من حضارات الامم القديمة بتحقيقاتهم الشخصية المدعومة بدراسات علمية عميقة.

واذا اضفنا الى ذلك ما حوته التواريخ القديمة وقابلناها جميعاً استطعنا ان نستخرج التاريخ المطلوب بصورة مأمونة او قريبة من اليقين .

لمحة جغرافية عن صيدا

مدينة صيدا واقعة خلف رأس ممتد في البحر الابيض المتوسط الشرقي على خط عرض ٣٣َ و ٣٥° وخط طول ٢٣َ و ٣٥° الى الجنوب من مدينة بيروت وعلى مسافة ٢٥ ميلاً منها ، والى الشمال من مدينة صور على بعد ٢٠ ميلاً ، ويبتعد الجبل عنها شرقاً مسافة ميلين .

تبلغ مساحة المدينة ٧ كيلومترات مربعة وسكانها ٣٥ الف نسمة واذا اضفنا اليهم ٢٠ الف عائد فلسطيني بلغ تعداد مجموع السكان الحالي ٥٥ الف نسمة أو يزيدون قليلاً .

تربتها

ارض صيدا ذات تربة مارنية – وهي مزيج من الفخار والكلس . فالمناطق المرتفعة منها كالهلالية والبرامية ودرب السيم هي مارنية بكر . امـا المناطق الساحلية المنخفضة فهي مارنية رسوبية (تربة تكونت من الاتربة المجروفة من الاعالي بواسطة السيول والطمي الناتجة عن طغيان مياه المجاري المائية والانهار) واكثرها مزيج من اتربة مختلفة كلسية وعضوية ، ويمكننا تسميتها بالتربة الحديثة التكوين من الناحية الجيولوجية ومن اقدم الاراضي التي اخصبهـا الانسان على الشاطىء اللبناني .

الفصل الثاني

تاريخ لبنان

من المؤكد ان تاريخ لبنان لم يبحث بحثاً علمياً دقيقاً ، ولا يزال المؤرخون حتى عصرنا الحاضر يفتقرون الى مؤلف علمي صحيح يكشف دفائن التاريخ ويستخرج من المكنونات ما ينير السبيل امام المحققين المحدثين .

واستناداً الى هذا رأينا المؤرخ اللبناني الكبير المرحوم الدكتور اسد رستم يقول : « ان اكثرية من كتب في تاريخ لبنان لم يكن مستعداً الاستعداد الكافي . لذلك لم تكن المؤلفات مستكفية الشروط ، ولا علمية موضوعية ، ولذا فــإن تاريخ لبنان بمعناه المفهوم يبتدىء منذ ثلاثة آلاف سنة قبل الميــلاد – اي منذ الهجرة السامية الاولى الى هذه البلاد – أ هـ (مجلة الاذاعة اللبنانية – شباط ١٩٦٥) .

ونحن وبعد أن اعيتنا السبل في مراجعة المخطوطات الكثيرة واستقراء مــا دونه علماء الآثار واستقصاء المراجع المختلفة التي دونت حوادث التاريــخ القديم نجد ذاتنا امام الحقيقة التي ذكرها الدكتور رستم ، ولذا فقد عمدنا الى تــدوين الحوادث المتعلقة بتاريخ صيدا انطلاقاً من تلك الفترة فنقول :

الهجرات السامية

إن اول هجرة سامية حدثت في التاريخ هي تــلك التي انطلقت من اليمن حوالي سنة ٣٥٠٠ ق . م . تحمل القبائل الكلدية متجهة على ساحل البحر الأحمر وملتفة بعدئــــذ حول شبه جزيرة سيناء ومنطلقة نحو مصر لتنزل على سكانها الحاميين فيتولد من المزيج الذي حصل بــين الشعبين – المصريون القدماء – .

وفي الوقت نفسه تقريباً تدفقت هجرة سامية ثانية عن طريق ساحل الخليج العربي لتستقر في وادي دجلة والفرات .

ثم لا تلبث الجزيرة العربية ان تقذف بموجة جديدة من البدو هم المسمون (الاموريون) ومنهم (الكنعانيون) الذين نزل قسم منهم في جنــوبي سورية والقسم الآخر الشواطىء وذلك في منتصف القرن الثالث قبل المسيح .

ويؤكد هيرودوتس وهو المعروف بأبي التاريخ وكذلك العلامة الانكليزي بت والعلامة ول ديورانت : ان قسماً ممن اطلق عليهم اسم الفينيقيين فيما بعد ، جاء من جزيرة البحرين والآخر من سواحل البحر الأحمر ؛ وفي الحالتين فــان هذا الشعب هو من اصل سامي عربي ، سيما وان الحفريات التي اجراها في البحر العلامة بت تثبت ذلك .

ويذهب صاحب كتاب « قصة الحضارة » ديورانت : ان الفينيقيين جاؤوا الى سواحل البحر الابيض المتوسط في القرن الثامن والعشرين قبل ميــلاد المسيح .

الفينيقيون : تسميتهم ومن اين جاءت

يقول الدكتور اسد رستم : « الفينيقيون كشعب ، افتراض غير مــوجود

اصلاً ، بمعنى ان سكان البلاد القدماء الذين يطلق عليهم اسم « فينيقيين » لقبوا بهذا الاسم نسبة الى الصباغ الاحمر ، وهو لفظ يوناني اغريقي معناه « قوم الصباغ الأحمر » او « شعب الصباغ الأحمر » . وقصة الصباغ الأرجواني الذي اكتشفه سكان هذا الشاطىء القدماء معروفة . وكذلك فقد لقب سكان جزيزة « كريت » بالفينيقيين . وطبعاً لم يكن هنالك صلة بين اهل كريت والشعب الذي سكن هذه المنطقة سوى ان الاثنين استعملا الصباغ الارجواني الأحمر . ومن هنا اتت التسمية .

أما حقيقة ذلك الشعب فهو كنعاني. وكان الفينيقيون يدعون انفسهم «ابناء كنعان » وبلادهم « بلاد كنعان » رغم معرفتهم بالكنية التي كنوا بها .

اذاً فلفظة « فينيقيون » كانت مجرد كنية او لقب لقّب به الكنعانيون الذين اتوا من البحرين والحجاز وسكنوا لبنان وفلسطين ولم يذكروا انفسهم كفينيقيين بل ربما قالوا صيدونيين او صوريين او بيروتيين ، أما تلك اللفظة فلم يستعملوها ابداً مع أنهم كانوا يعرفون ان اللقب مطلق عليهم . وهم شعب سامي من جملة الشعوب السامية التي نزحت من الجزيرة العربية. ولغتهم — لغة كنعان — هي لغة سامية قريبة من اللغة العربية الحالية (اسد رستم : مجلة الاذاعة اللبنانية شباط ١٩٦٥) .

وأعظم دليل على ان الفينيقيين هم شعب كنعاني هو ما ورد في الانجيل الشريف (متى ١٥ ص ٢١ — ٢٨) : وخرج يسوع من هناك ، ومضى الى نواحي صور وصيدا **واذا امراة كنعانية من تلك الجهات** اقبلت تصيح قائلة : يا سيدي يا ابن داود ، ارحمني ان ابنتي بها شيطان يعذبها جداً الخ ...

كما ورد ذكر الحادثة نفسها في انجيل مرقس (٧ : ٢٤ — ٣٠): ثم نهض من هناك (السيد المسيح) وانطلق الى نواحي صور وصيدا ودخل بيتاً وكان يرغب ان لا يعلم به احد ، بيد انه لم يقدر ان يستتر . وان امرأة لها

ابنة صغيرة بها روح نجس ، ما ان سمعت به حتى اقبلت ووقعت على قدميه ، **وكانت المرأة وثنية فينيقية المولد** فجعلت تسأله ان يخرج الشيطان من ابنتها... الخ ..

هذه الاثباتات الجلية توضح معالم الطريق امام المؤرخ الصادق حتى انه لا يستطيع تجاهل حقيقة اصل هذا الشعب الذي استوطن شواطيء بلادنا وانه تحدر من اصل سامي خرج من الجزيرة العربية . كما وان عدداً من المؤرخين الاجانب الذين لا يصح اتهامهم بالتغرض للعرب يؤكدون صحة ما رويناه ، امثال العالم الانكليزي سايس والعالم الالماني اشرودر فضلاً عن قدامى المؤرخين اليونان .

الفصل الثالث

صيدا

تسميتها ـ تاريخ بنائها

مدينة صيدا ، اسمها باللاتينية واليونانية « صيدون » وفي العبرانية « صيدو » والاسم مشتق من كون السمك في شواطئها كثير أو ان اهلها الأقدمون عملوا كصيادي سمك .

وذكرت صيدا في الكتاب المقدس مرات كثيرة ، كما ذكرها المؤرخ اليهودي يوسيفوس في تاريخه : « انتشار الناس على وجه الارض » : ان من أبناء كنعان « صيدونيوس » الذي بنى مدينة أسماها باسمه (قدميات : ٣٧ و ٦ ع ٢) كما وان العهد القديم من الكتاب المقدس يذكر انه عندما جاء الاسرائيليون الى الأرض المقدسة ، كانت مدينة صيدون مشهورة لأن يشوع ابن نون دعاها بـ « صيدون العظيمة » . مما يرجح ان تاريخ بناء هذه المدينة لا بد ان يكون قد تم قبل تاريخ مجيء يشوع بزمان بعيد حتى تستحق في عصره ان يتحدث عن عظمتها وقوتها .

ويقول جاك نانتي المؤرخ الفرنسي في كتابه : « تاريخ لبنان » [1] .

ان اول مدينة اسسها الفينيقيون هي مدينة صيدا حوالي سنة ٢٨٠٠ ق . م ثم بنيت مدينة جبيل فأرواد فطرابلس .

وقد بنى الصيدونيون مدناً اخرى على طول الساحل ولكن اشهرها كانت مدينة صور وقد بنيت حوالي سنة ٢٧٥٠ ق . م

وكذلك يقول الاديب المفكر الاستاذ سعيد عقل : « صور أسسها الصيادنة عام ٢٧٥٠ وجبيل وصيدون يغرق تاريخها في ليل الزمن (لسان الحال العدد ٢٠٠٥٣ في ٢٩ نيسان ١٩٦٥) » .

ويذكر جاك نانتي ان مؤسس مدينة صيدا هو ابن كنعان البكر صيدون الذي اخذت اسمها منه .

ويقول المرحوم الشيخ احمد عارف الزين في مؤلفه « تاريخ صيدا » : ان صيدا من أقدم مدن العالم واسمها مأخوذ من بكر كنعان حفيد نوح وكان ذلك سنة ٢٢١٨ ق . م . أو قبل ذلك ، وكانت في ايام يشوع بن نون ام المدن الفينيقية ، وحداً لتخم سبط اشير إلا أن الاسرائيليين لم يمتلكوها .

أما القديس اغسطينوس فيؤكد قائلاً : « ان اقدم واشهر الممالك الكنعانية هي مملكة صيدون التي وضع اساساتها بكر كنعان « صيدونيوس » ودعيت مدينة الصيادين اشارة الى سلطانه الأبوي وشجاعته ، وان هذا الأسم لا يدل على القوة والحذاقة في صيد الحيوان فحسب بل على الشجاعة والمهارة في التسلط على الناس واسترقاقهم ، وهكذا فقد رفع هذا البطل (أي صيدون) مقام عشيرته بشهامته وحسن سياسته في صدر الاجيال

---

(1) راجع ص ٢٢ – Histoire Du Liban; J. Nantet

الاولى ، فجاء شعباً مقداماً سعى وراء المنـافع ، ونال قصبات السبق في التسلط على البحار ، وضارع بذلك نمرود الكوشي . ولقب شعب صيدون وكل الشعب الكنعاني بالصيدوني ، إلا أن هذه المملكة لم تكن متسعة الحدود لان العشائر المتسلسلة منها قد اخذت استقلالاً منفرداً عنها ، ولكنهم كانوا جميعاً مشتركين في اللغة والدين والعادات يضافرون بعضهم بعضاً ابان الشدة ويدعون الخارجين عنهم امبين ، كراهة وتحقيراً كما ذكر هيرودوتس » .

ويقول المؤرخ موسكاتي ص ٩٨ :

« ان فلسطين وسورية الجنوبية والغربية كانت مأهولة بشعوب سامية منذ اوائل الالف الثالث قبل المسيح وفي ذات العصر الذي جاء فيه الساميون الى جهات ما بين النهرين حيث اسسوا بعد فترة من استيطانهم امبراطوريات كبيرة ، كما يذكر التاريخ اخواناً لهم من نفس الجنس والعنصر جاؤوا الى جهات البحر الابيض المتوسط وسكنوا الشواطىء ، ولقد اطلقت على منطقة — سورية الجنوبية والغربية المتوسطية — اسم ارض كنعان وشعوبها اسم الشعب الكنعاني .

« وهكذا نرى ان الفينيقيين انفسهم هم جزء من الشعب الكنعاني السامي ويؤكد ذلك الفينيقيون انفسهم الذين درجوا على العادات الكنعانية فأسماؤهم كنعانية وكذلك اسماء مستعمراتهم مثل قرطاجة — القرية الحديثة — كانت تعني ذلك ، وظلوا محتفظين بتلك التسمية والانتماء الى الكنعانيون حتى ايام القديس اوغسطينوس ا هـ » .

ولقد شعر الكنعانيون — الفينيقيون — باهمية البلاد التي استوطنوها وبموقعها الستراتيجي الممتاز وقربها من القارات الثلاث المعروفة وقتئذ ، وكانوا قد تمرسوا باعمال الملاحة منذ ان كانوا على ساحل الخليج العربي ، هذه الاسباب وقد تجمعت لديهم زادت رغبتهم نحو امتطاء متن البحار وتعاطي

التجارة حتى تفوقوا فيها . ثم تعددت رحلاتهم التجارية في البحر الابيض المتوسط ولكنهم كانوا في اوائل عهدهم لا يجسرون على الابتعاد عن الشاطيء كثيراً ، لا سيما وان سفنهم كانت ذات طابق واحد وصف واحد من المجاذيف .. ثم ما لبثوا ان تفننوا في صناعة السفن بعد استجلابهم الاشجار الصنوبريه والارز الضخمة من اعالي الجبال واخذوا يبنون السفن ذات الطابقين والثلاثة وذات الصفين أو الثلاثة صفوف من المجاذيف وانطلقوا على مياه البحر الابيض المتوسط يتوغلون في لججه ويجوبون اصقاعه ويؤسسون المستعمرات على سواحله وشطئانه — في قبرص ورودس وتاسوس وغيرها .

حكومة صيدون

اما مدينة صيدون فكانت لها حكومة تدير شؤونها وهي مستقلة عن غيرها من المدن الفينيقية . وهذه الحكومة مؤلفة من جماعة الاعيان الذين كانوا يعضدون السياسة الاريستوقراطية — أي المنسوبة الى فئتهم وحزبهم فيسيرون امور مدينتهم الادارية وفق مصالحهم المادية — وهي قريبة في تشكيلها من مجالس الادارة في العهد العثماني أو مجالس المحافظات في عهد الانتداب — يجتمعون في دار الندوة كلما دعت الحاجة الى ذلك برئاسة زعيم المدينة الذي يسمونه ملكاً .

وشان الفينيقيين انقسامهم الى عدة ممالك ، ولذا فقد كانت صلة المملكة الواحدة بالاخرى ضعيفة جداً ، وكان بعض العشائر ينضم الى البعض الآخر فيؤلف دولة تسلم قيادتها الى زعيم المدينة الكبرى وهكذا تعدد ملوك الشواطىء بتعدد المدن الكبرى فيها .

ونمت صيدون نمواً هائلاً وتزايدت مواردها فاضحت كعبة للتجار والمغامرين وتضاعف عدد سكانها لدرجة ان بعض المؤرخين بالغ في القول :

ان سكان مملكة صيدون بلغ في مـــا بعد القرن العشرين قبل الميلاد مليوني نسمة ونيف وذلك خلال فترة عمرانها وزهوها واستفحال سيطرتها التجارية .

وكانت حدود مملكة صيدون تمتدّ بعيد تأسيسها من الدامور شمالاً وحتى جبل الكرمل جنوباً والى منحدرات الجبال شرقاً .

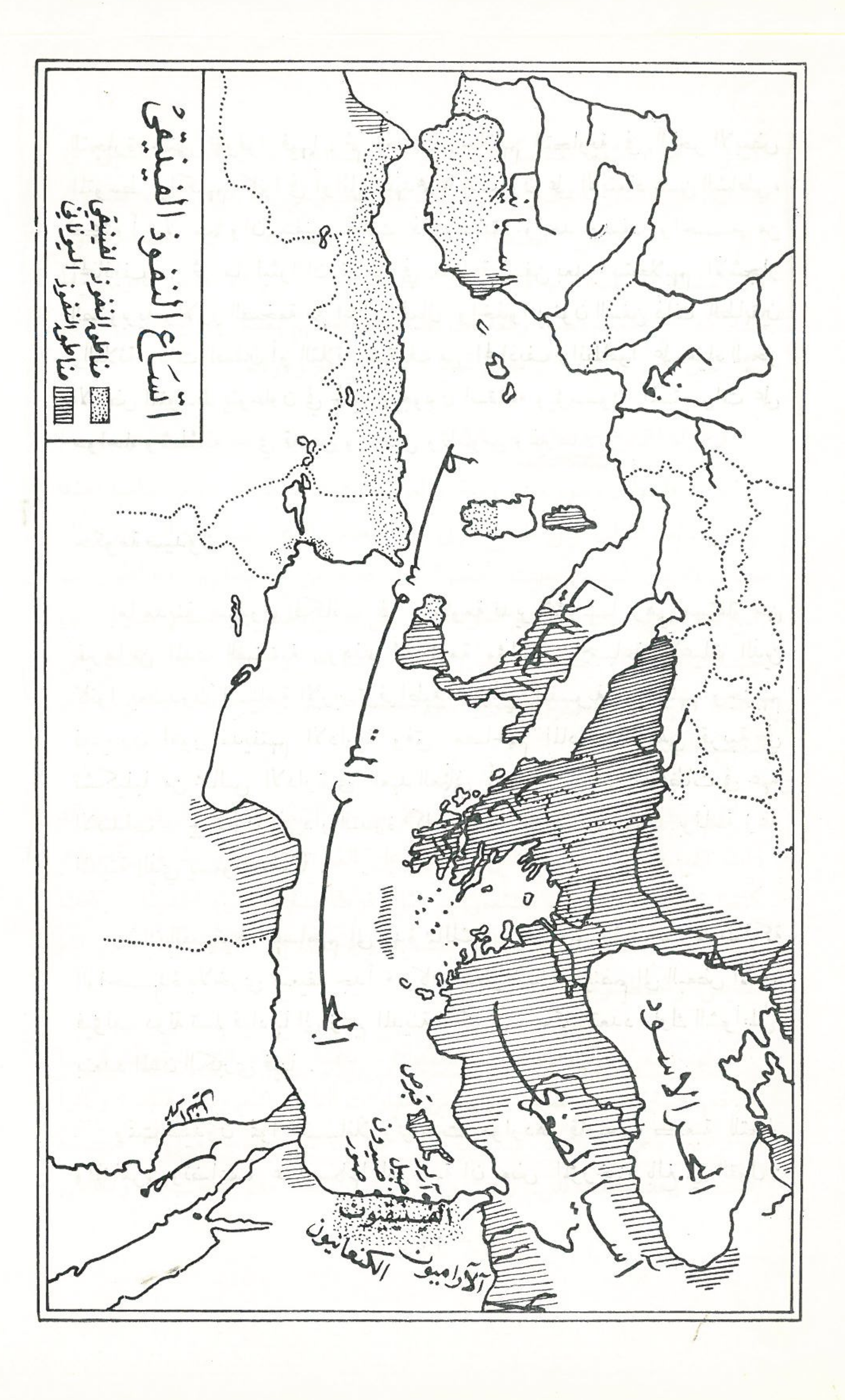
اما مدينة صيدون القديمة فقد كانت منقسمة الى محلتين : صيدون الكبرى وهي الرابضة على شاطىء البحر ، وصيدون الصغرى وهي الواقعة على مسافة منها، قريبة من الجبل .

ديانة السكان

ديانة الفينيقيين هى الديانة الوثنية بوجه عام ، وكان لكل مدينة من المدن الفينيقية إلهها الخاص بها ، به تفتخر وتعتز وله تقدم الأضاحي والقرابين ، فالإله أشمون (موجد عقاقير الطب) خاص بمدينة صيدون ، والإله ملقارت بصور ، وعشتاروت ببيروت وأدونيس بجبيل وبشاطىء نهر ابراهيم المقدس



عشتروت | مراسم التضحية للالهة | الاله بعل



بالأضافة الى الآلهتين الفينيقيتين الرئيسيتين إيل وبعل ، حيث كان اتباع كل منهما ينتصر لآلهته فيجادل ويناقش خصمه بالحجج والبراهين على تفوق آلهته وعظمتها مما قد يدفع الامر حين احتدام النقاش بين المتنازعين الى حد الاقتتال .

ومن معبودات الفينيقيين ايضاً الأجرام السماوية ولا سيما الشمس التي اتخذوها بمنزلة الإله الاكبر باعتبار انها مصدر النور والحرارة والحياة ولأنها مقياس الزمن . وكانوا يعتقدون ان مرجع جميع الآلهة الى الشمس وهكذا تطرقوا الى عبادة الأسرة الفلكية .

وكانت الحية عندهم مثالاً لهذه الكواكب ، فكانت الحيّات في هياكل أشمون تلحس جراح المؤمنين فيبرأون ولأن اشمون في اعتبارهم هو الذي اوجد عقاقير الطب (العلامة المطران بولس الخوري : أحاديثه في الاذاعة اللبنانية).

التجارة والحضارة

تاريخ صيدون القديم يقتصر على معرفة تاريخ تجارتها وصناعتها وملاحتها والمستعمرات التي انشأتها والهجائية التي انبعثت منها فكانت نوراً للمعرفة في العالم .

وبفضل ما كان يتاجر به سكان صيدون مع البلاد العريقة في قدمها وما كانوا يستوردونه من تلك الأصقاع البعيدة المختلفة لحسابهم ثم يعيدون تصديره الى مناطق مفتقرة اليها ، بات ميناء صيدون يعج بالمراكب التي كانت تحمل اليه الواردات التالية :

من بلاد العرب : البخور والمر والعقيق

ومن الهند : الحجارة الكريمة ، الماس ، البهارات وجميع انواع التوابل ، العاج والاخشاب الثمينة

ومن مصر : الخيل والكتان والاصواف

ومن تونس والجزائر : الابنوس ، العاج ، ريش النعام

ومن اسبانيا : القمح ، الفضة ، الزئبق

ومن انكلترا والدنمارك : القصدير ، الكوربا والعنبر

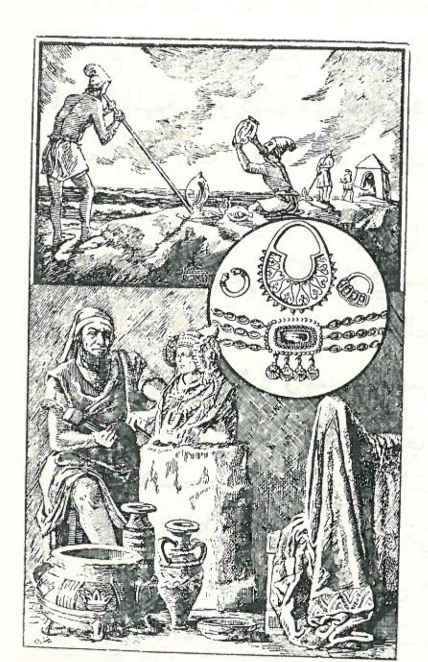
ومن جزر الأرخبيل : النحاس ، الرخام الابيض والاصواف

ومن بلاد ما بين النهرين : الأقمشة الثمينة ، الطنافس والسجاد وأنواع الطيوب والحبوب

ومن القوقاز : المعادن بمختلف انواعها والعبيد

أما صناعات صيدون فكانت التالية :

١ – الصباغ الأرجواني
٢ – الزجاج
٣ – انشاء السفن
٤ – صناعة التعدين



الصناعة عند الفينيقيين

وصناعة البرفير او الارجوان المنسوب الى صور ، ليس هنالك من دليل على انها سبقت صيدا الى اكتشافه اللهم إلا تلك الرواية المتداولة عن ان كلب ابنة ملك صور تلوث فمه بلون احمر بنفسجي يوم كانت تتنزه على شاطىء البحر وعندما بحثت عن سبب تلوثه بهذا اللون الجميل اكتشفت

ومن معها انه ناتـــج عن صدف الموريكس الموجود بكثرة على الشواطىء ، ولكن وجود جبل كامل في صيدا – عند أباروح – من هذه الاصداف والـتي يعود تاريخها الى اوائل الالف الثاني قبل المسيح يظهر بوضوح ان صيدون هي السابقة الى اكتشافه ، أضف الى ذلك الى ان آثارات مصانع الارجوان حول مدينـة صور تعود الى القرن الثاني عشر قبـل الميلاد فقط . وهكذا تكون صيدون هي مكتشفة الصباغ الارجواني .

لقد اكتشفت مادة صباغ الارجوان في حيوانات بحرية ذات أصداف تسمى بالموريكس وكان لونها احمراً بنفسجياً . وعمـد الصيدونيون والصوريون الى استعماله في صباغة الحرير والقطن والصوف الناعم . ثم تفنن الصوريون بعدئذ في استعماله فكان لهم قصب التفوق في صناعته .

وعمل الصيدونيون في نسج الصوف والكتان وصبغها بعدئذ .

وهم اول من اصطنع الزجـاج ولا سيما الشفاف منه وأنشأوا لصنـاعته المعامل المهمة . وكانت مصانعهم في صيدون والصرفند اشهر معامل من نوعها في العالم المعروف وقتئذ . وفي متـاحف اوروبا الآن الكثير من مصنوعات صيدون الزجاجية الملونة الجميلة .

وبرع الصيدونيون كذلك في صنع الاواني الخزفية فكانت من اخص اصناف تجارتهم ، وهم اول من نقل هذه الصناعة الى بلاد اليونان ، كـما تفوقوا في صناعة الحفر والنقش وصب الذهب والفضة ومختلف المصنوعـات المعدنية وامتازوا بالمصنوعات النحاسية التي تناهت في الزخرف ودقة الصنعة وبرعوا في صنع الاسلحة وحلي العاج واشتهروا ايضاً في زراعـة الكرمة واستخراج الخمر منها . وكان للخمر الصيدوني شهرة كبيرة ولا سيما في بلاد اليونان ، وصنعوا آلات الحراثة ومهروا في هندسة البناء وهم اول من عنوا بتبليط الشوارع . واحرزوا في صناعة السفن نصيبـاً وافراً من المجد والشهرة وكانوا اسبق الامم الى ركوب البحر والتوغل فيه .

اللغة والكتابة :

من اعظم اعمال انسان ما قبل التاريخ وضعه للغـة ، وهو عمل شاق قام به بفطرته وسليقته دهوراً طويلة . اذ جعل هذا الانسان بالاتفـاق مع بني قومه من الاشارات والحركات والاصوات لغة يعبر بها عن كل مـا يخالج عقله من تصورات ، ونفسه من شعور. وقد كان لوضع اللغة اهمية كبرى، اذ لولاها لبقيت البشرية في حالة مؤلمة من الجمود العقلي والتحجر الفكري .

ثم عمد الانسان بعدئذ الى اختراع الكتابة ، وهذا الاختراع لم يكن اقل قيمة وأثراً من وضع اللغة؛ وإليه يرجع حقيقة بدء التاريخ .

وأول انواع الكتابة هو الكتابة الصورية التي تدل على المعنى بصور تمثل الافكار والشعور وهي مرجع الخط واللغـة الهيروغليفية المصرية القديمـة وكتابة بعض هنود اميركا . ثم الكتابة الصوتية القائمة على علامات تدل على الصوت وهي ثلاث درجات متنوعة :

تدل العلامة والصورة في الدرجة الأولى على كلمـة كاملة كما في الكتابة الصينيـة . وتـدل العلامات في الثانية ، على مقاطع صوتية ، كما في الكتابة البابلية والآشورية . أما في الدرجة الثالثة ، فتتألف الكتابة من علامات تدل ليس على المقاطع بل على ابسط الأصوات البشرية اللفظية . وهـذه العلامات صارت حروفاً ، دعي مجموعها حروف الهجاء .

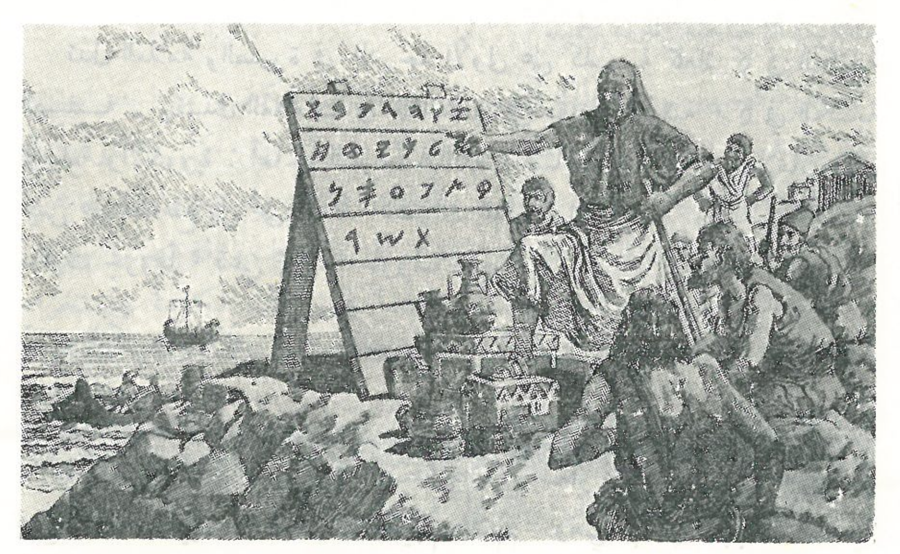
ويذكر وليم لانجر في « موسوعة تاريخ العالم ج ١ ص ٧٢ » في حديثه عن الفينيقيين ما يلي :

« الفينيقيون – المعروفون بالصيداويين في اشعار هوميروس وفي التوراة – فرع من الكنعانيين اذا ما حكمنا عليهم بلغتهم – وهي لهجة من اللهجات السامية العربية وتقرب من العبرية – كانت لغة كنعان. وأعظم عمل قام به الفينيقيون

للحضارة هو اختراع الابجدية الهجائية في القرن الرابع عشر ق. م. او قبل ذلك بقرنين. وتتكون هذه الابجدية من ٢٢ حرفاً ساكناً وليست بها حروف متحركة. ولقد اشتقت الابجديات القديمة والحديثة من الابجدية الفينيقية. أ هـ » .

وهذا القول يؤكد روايات مؤرخي اليونان انهم عرفوا الهجائية عن طريق الصيدونيين الذين جاءوا الى بلاد اليونان صحبة (قدم) او قدموس حوالي سنة ١٥٨٠ ق. م. والذي حمل معه الحروف الهجائية وبنى مدينة تيبة وتملكها (الخوري عيسى اسعد: تاريخ حمص ج ١ ، وسعيد عقل: قدموس).

ويقول الأب بولس مسعد : « ان الفينيقيين استنبطوا الابجدية ونشروها في الانحاء ابتداء من اليونان بواسطة قدموس الصيدوني » ويقول ايضاً : « ان الامم التي سبقتهم في المدنية اكتنزت علومها وصنائعها وجعلتها اسراراً لها . أما فينيقية فان ابناءها كانوا رسل الحضارة البابلية او الكلدانية وحسب الفينيقيين ان تكون الملاحة وفن الكتابة من اخص مميزاتهم ليشغلوا المركز الاول بين الامم التي اسست الحضارة العالمية أ هـ » .



الفينيقيون يعلمون اليونانيين الهجائية

الفصل الرابع

صيدا قبل الغزو العموري (الآموري)

٢٨٠٠ — ٢٠٠٠ ق.م

يقول العلامة الاثري موريس دونان في كتابه « حضارة الفينيقيين وآثارهم ص ٣١ ما ترجمته » :

« لقد حمل الالف الثالث قبل المسيح في تضاعيف حقبه تقدماً ملموساً في الحضارة في بلاد فينيقية اذ ظهر الى عالم الوجود عدد من المدن الفينيقية مثل شمرا (اوغاريت) الواقعة عند مصب نهر الابرش شمالاً والبترون وصيدون التي ظهرت في العصر الانيوليتيكي . وبدأت تجارتها تتغلغل داخل سورية حتى وصلت خلال فترة وجيزة من الزمن الى ضفاف الفرات شرقاً شمالاً والى دمشق التي تبعد عنها حوالي المئة كيلومتر جنوباً شرقاً » .

ويقول البابليون عن العموريين انهم شعب كان يعيش في الصحراء بين الفرات وسورية وهم قبائل قوية ومتنقلة ، وبعضها كان نصف حضري فعمل في الزراعة . وتذكر المخطوطات تاريخ مجيئهم الى سورية انه تم خلال القرن

الثاني والعشرين ق.م وانهم مزيج من بني يمن وبني اسماعيل . ولقد قام الملك
قبل الاخير من السلالة الحاكمة لأور – ليحفظ مملكته من عدوانهم – ببناء
حصن للمراقبة حوالي سنة ٢١٠٠ ق.م (سيديرسكي وتورو) كما فعلت مصر
التي رأت نفسها عرضة للغزوات القبلية عند الدلتـــا منذ ايام السلالة الرابعة
وثانية في ايام السلالة الثانية عشرة عندما قـام الفرعون امنيمحات الاول في
العـام الرابع والعشرين لحكمه – اي حوالي سنة ١٩٦٧ ق.م بتشييد خط
دفاع اطلق عليه اسم حصن (حائط) الامير .

صيدا والعموريون : (٢٠٠٠ – ١٧٢٥ ق.م) .

وطد العموريون اقدامهم في سورية وفينيقية وفلسطين في اوائـــل القرن
العشرين قبل المسيح او قبل ذلك بقليل ولكن ليس باستطاعة المؤرخ الصادق
اطلاق لفظة استيطان على شعب ما قبل ان يبدأ هذا الشعب عملياً في استثمار
خيرات المنطقة التي يعيش على ارضها حتى تحمل اسمـــه بصورة واقعية ولذا
فان اسم العموريين اقترن بالمنطقة واصبح حقيقة ملموسة خلال القرن العشرين
ق.م اذ انتشرت فروعهم بـــين جبال الامانوس شمالاً وسيناء جنوباً ومن
سواحل البحر الابيض المتوسط الشرقية غرباً حتى الفرات شرقاً وهذا مـــا
اكدته المخطوطات المكتشفة على الشاطىء الايمـــن لنهر العاصي قرب مجراه
الادنى والتي تقول : انه بين القرن العشرين واوائل القرن الثامن عشر قامت
اسرة عمورية فاستلمت زمام الامور في بابل طيلة ثلاثمئة عام . وكانت مـدن
ايزن ولارسا وايشنوناه وسيبار وكازاللو واشور وحران في بلاد ما بين النهرين
وحلب والالاخ وماري وجبيل وقطنه يحكمها امراء عموريون .

ويذهب العالم هورميس Hormis الاخصائي في علم الآثار ان هذه المنطقة
عرفت مزيداً من الحضارة اعتباراً من القرن التاسع عشر وحتى عـام ١٧٥٠
ق.م ولا سيما في الزراعة والفنون الجميلة ، كما يتحدث عن ظهور عـــدد من

المدن خلال هذه الفترة من الزمن مثل آكو وفيق واورشليم اضافة الى المدن
العريقة الرابضة على الساحل : صيدون وبيروت وجبيل وعرقـه واوغاريت
وفي الداخل كدمشق وقطنه وحماه وحلب . وهذا التقدم للمنطقة في الزراعة
والاقتصاد وضع الدولتين المجاورتين لهـا – اي في مصر وفي بلاد مـا بين
النهرين – امام قوة جديدة يحسب حسابها لا سيما وان اعداداً لا يستهان بهـا
من قبائل شرق الاردن اندفعت نحو الشمال لتستوطن المناطق الخصبة بعد ان
امتزجت بالسكان لتعمل معها في استغلال خيرات ارضها ، الامر الذي دفـع
سكان المدن الفينيقية وفي طليعتها صيدون الى تحسين صلاتها التجارية معها اولاً
ومع سكان القوقاس وكريت ومصر وبابـــل عن طريق التفنن في صياغة
المجوهرات والحلى الذهبية . وبـدأت صناعة الذهب تظهر في تزيين الهياكل
ومساكن المـلوك والامراء والنبلاء كما تطورت صناعة الاسلحة فظهر السيف
الدقيق والخنجر والسيف القصير العريض النصل والرمـح ذو السنان الرفيع
الى جانب المنشار والقدوم والازميل كادوات رئيسية للنجار .

الفصل الخامس

صيدا

ايام المصريين والحثيين والعثمانيين

من يكتب في تاريخ لبنان كاملاً كان او مجزوءاً لا يستطيع افهام قارئيه ما يكتبه ان لم يحسن تعريف الامم التي سكنته او تلك التي كانت لها بـه صلة ما . سواء أكانت تلك الصلة صلة صداقة او عداء . ولذا فاننا نرى لزاماً علينا ونحن نود الاحاطة بتاريخ جزء من هذه البقعة الغالية من الارض ان نرسل اشعة على خبايا هذه الامم حتى لا يؤدي الاغضاء عنها الى غموض ما نريد جلاءه من تاريخ صيدون .

ان لصيدون صلات كثيرة بأمم متعددة قديمة بعضها ممن سكنها وبعضها ممن اقتحمها لبسط سيطرته عليها او ليثأر من قاطنيها ، كالمصريين من الجنوب الغربي والآشوريين والكلدان من الشمال والجنوب الشرقي وبما ان حديثنا يدور عن الفترة الواقعة بين سنة ١٩٠٠ و ١٢٢٥ ق. م. فلنتكلم بإيجاز عن المصريين والحثيين والميتانيين :

١ – المصريون :

المصريون شعب من اصل حامي خالطهم في الازمنة القديمه اقوام ساميون جاءوا الى مصر من الجزيرة العربية عن طريق برزخ السويس . فشكلوا الامة المصرية التي تعتبر من أعرق الامم مدنية .

وأقدم من كتب من المؤلفين عن مصر بإسهاب وتفصيل هو الكاهن المصري مانيتون الذي نبغ في القرن الثالث ق. م. وألم بتاريخ مصر القديمة ناقلاً مروياته عن السجلات الرسمية لدولها الاحدى والثلاثين التي ندون في ما يلي خلاصة عن اهم الحوادث في ايامها :

في عصر الدولة الاولى بنيت مدينة منف التي انشأها منيس اول ملوكها .

وفي عصر الدولة الثانية خوّل الناس حق الجلوس على العرش بأمر الملك بينوتريس .

وفي عصر الدولة الثالثة بني تمثال ابي الهول .

وفي عصر الدولة الرابعة بنيت اهرامات الجيزة وقد بنى اكبرها الفرعون خوفو .

وفي عصر الدولة الخامسة بنيت مقبرة سقاره .

ثم توحدت أقسام مصر كلها تحت لواء واحد قاعدته مدينة طيبة في ايام الدولة الثانية عشرة ومن مآثر أحد ملوكها ارواء الفيوم بمياه بحيرة مورس كما أقام أحدهم مسلة المطرية .

أما الدول الـ ١٥ و ١٦ و ١٧ فملوكها غرباء قدموا من آسيا فدعاهم البعض عمالقة ورأى آخرون انهم عرب وقال البعض الآخر انهم حثيون اقتحموا الاراضي المصرية بداعي القحط لايجاد المراعي لمواشيهم ولقد أسعفتهم

الفتن الأهلية القائمة في مصر وقتئذ من احتلال قسم منهـــا ، ثم أتوا احتلال الباقي بعدئذ . ويعتقد ان طلائعهم قدمت في مدة الدولة الرابعةعشرة كرعاة. ولكنهم ما لبثوا ان وطدوا أقدامهم بعدما استولوا على مراعي الدلتا النضرة وأنشأوا ثمة دولة عرفت فيما بعد بدولة الرعـــاة (الهكسوس) . وفي ايام دولتهم الثانية (وهي الـ ١٦ من الدول المصرية) قدم الى مصر عدد كبير من السوريين العرب فأكرمهم الرعاة وجندوا من القادمين جيشاً استعانوا به على الفتح وجعلوا اواريس معسكراً لهم. ومن ملوك هذه الدولة « راكان »الذي يسميه العرب الريان بن الوليد وفي ايامه بيع يوسف بن يعقوب للعبودية .

ثم جاءت السلالات المصرية الـ ١٨ و ١٩ و ٢٠ و ٢١ وتعرف في تاريخ مصر بـ « دول مصر الحديثة » ومن مشاهير ملوكهـا تحوتمس الثالث الملقب اسكندر التاريخ المصري وامنهوتب الرابع وكلاهما من ملوك الدولة الثامنةعشرة. وساتي الاول ورعمسيس الثاني الملقب بالكبير وابنـــه منفتاح الذي طرد الاسرائيليين من مصر . وكانت صلات دول مصر الحديثة متينـة وقوية بصيدون .

وفي ايام الدول الـ ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ دبّ الوهن في حكوماتمصر فتسنى للأشوريين أن يبسطوا سيطرتهم عليهـــا سنة ٩٥٠ ق.م كما سادها الأيثيوبيون وأنشأوا فيهـا الدولة الـ ٢٥ . ولكن الامير بساماتيك المصري تمكن في اواسط القرن السابع ق.م من طرد الغزاة وإقامـة الدولة الـ ٢٦ .

واقتدى نخو الثاني بأبيـه المذكور فهاجم الاشوريين وصرع يوشيا ملك يهوذا لوقوفه في طريقه حتى بلغ الفرات ، مجتاحاً في طريقه الأقاليم السورية واللبنانية ، ثم عـاد الى مصر . ولكن نبوخذ نصر سعى لاسترداد سورية فبادر اليه نخو ليشتبك معه في معركة عنـد الفرات سنة ٦٠٥ ق.م كانت نتيجتها اندحار نخو وعودته الى بلاده .

ثم خلف نخو ابنه بساماتيك الثاني سنة٥٩٦ق.م الذي خلفه ابنه خفرع سنة ٥٩٠ وفي ايامهذا غزا نبوخذنصر مصر سنة ٥٧٢ ق.م. وقتل آنئذ الفرعون خفرع في المعركة .

وفي ايام آخر ملوك هذه الدولة اقتحم قمبيز الفارسي مصر وأسر بساماتيك الثالث بن احمس سنة ٥٢٧ وأنشأ في مصر الدولة السابعـة والعشرين وهكذا خضع المصريون للفرس طيلة ١٢١ سنة ولكنهم مـــا لبثوا ان تمردوا في ايام داريوس اوخوس وتمكنوا من طرد الغزاة ثم انشأوا الدولة الـ ٢٨ المصرية (٤٠٦ — ٣٩٦ ق.م).

ولم يلبث المصريون ان ثاروا على امبرتيوس منشىء هذه الدولة لأنـــه لم يكن من سلالة ملكيـة وتولى العرش اسرة اخرى عرفت بالمنديسية وهي الدولة الـ ٢٩ (٣٩٣–٣٧٨ق.م) التي عاضد ثالث ملوكها بعض ملوك الفينيقيين ضد الفرس .

ثم تسنم العرش المصري اسرة سمنودين (٣٧٨ — ٣٤٠ق.م) وهي الدولة الثلاثون . قام منها ثلاثة ملوك ، اهـاج ثالثهم الفينيقيين على الفرس فاستاء الاخيرون وبعدمـــا حطموا ثورة الفينيقيين هاجموا مصر فكسروا جيشها الكبير وفر ملكها الى كوش .

وعادت مصر بعد ان نعمت باستقلالها ١٦ سنة لتخضع ثانيـة لنير الفرس طيلة ثماني سنوات (٣٤٠ — ٣٣٢) وهي مدة الدولة الحادية والثلاثين .

وفي ايام دارا الثالث الفـارسي ضعفت دولة الفرس وعلا نجم اليونان بظهور الاسكندر المكدوني الذي ثل عرش الفرس واستولى على مصر سنة ٣٣٢ ق. م.

٢ – الحثيون :

الحثيون من عرق آري . وجدوا لاول عهدهم بالتاريخ في جبل اللكام ثم انحدروا نحو السهل في القرن الحادي والعشرين بسبب تكاثر عـددهم فذهب فريق منهم الى كبادوكية غرباً وانتشر فريق آخر في الشرق الجنوبي ما بين الفرات وحلب وحمص . ولما تكاثر عدد هؤلاء انحـــدر بعضهم الى الجنوب مستوطنين البقعة الجنوبية من سوريا واتصلوا بالفينيقيين .

ويظهر ان الحثيين كانوا أقوياء الشكيمـة ذوي بـأس في الحروب فقضوا بصولتهم على كثير من العناصر السامية واجتاحوا بلادها وشادوا فيها مملكة قوية منذ الالف الثانية قبل الميلاد ، ولقد أرشدتنا الآثار الى اسماء عدد من ملوكهم اليك أشهرهم :

١ – تورهاليا الذي ظهر في القرن التاسع عشر ق.م ووسع حدود بلاده فكانت للحثيين أربع عواصم هي : حاتوشا وكوثر وفازا وزايا .

٢ – حاتوشيل الاول الذي اقتحم سوريا الشماليـة وبسط سيطرتـه على مدينة حلب .

٣ – مورسيل الذي زحف على بابل في القرن الثامن عشر وعـاد منها بغنائم وافرة الى عاصمته حاتوشا .

٤ – سوبيلوليوما (١٣٨٧ ق.م) وهو أعز الملوك الحثيين شأناً ، امتدت فتوحاته الى نهر دجلة وطوق مملكتي الحوريين والميثانيين وحرر غربي الفرات ودانت له كركميش فجعلها قاعدة الشمال ودمّر قطنه(المشرفة – شرقي حمص) واستولى على قادش ووصلت حدود مملكته الى فلسطين جنوباً وفينيقية غرباً ولولا فتن الاناضول (١٣٧٨ – ١٣٥٨) لغزا مصر.

٥ – مواتعلو بن مورسيل الثاني(١٣٢٠ق.م)الذي حدثت في ايامه حروب ساتي الاول (١٣١٨ق.م) ورعمسيس الثاني (١٢٩٤ق.م) .

٦– اورخي تحشوب (١٢٩٢–١٢٨٥ق.م)الذي رأب الصدع الذي احدثه المصريون في المملكة .

٧ – حاتوشيل الثالث (١٢٨٥ق.م) الذي ظهرت في ايامه مطامع شلمناصر الاول الاشوري(١٢٨٠–١٢٦٠ق.م) فاضطر بسبب ذلك ان يعاهد رعمسيس سنة ١٢٧٨ق.م ويزوجه ابنته.

بعد هذا كبر العراك بين الحثيين والأشوريين مما يترك بحثـــه الى وقت حديثنا عن الاشوريين وعلاقتهم بصيدون. وخلاصة القول عن الحثيين في هذه الحقبة انه كان لهم اربعة مراكز حربية : كركميش في الشمال وياتبن عنـــد مصب العاصي ، وقادس في وادي العاصي ومجدو في سهل بزرعبل (مرج ابن عامر) في الجنوب .

٣ – الميثانيون

هم شعب قوي كان في شمال الجزيرة في اوائل الألف الثالثة قبـل الميلاد وقد ورث الحضارة السومرية وشاد حضارته على انقاض تلك .

كانت دولتهم متاخمة للدولة الحورية في الشمال ، اذ كانت قاعدة الحوريين أورفا وقاعدة الميثانيين شوكاني . ولما تضاءلت قوة الحوريين في الألف الثاني وخبا ذكرهم تألق نور الميثانيين واتسع نطاق مجدهم .

وبلغ من سؤددهم انهم مـــدوا سيطرتهم حتى بلغوا شواطىء العاصي وتحالفوا مـــع بعض ممالك الفينيقيين ، ووصلوا الى درجة من الترف جعلت

ملكهم سوزارطا (في اواسط القرن الخامس عشر) يعمل لعاصمته ابوابا من فضة وذهب . واعترف الفراعنة ان الميثانيين صدوا غـارة تحوتمس الاول ، ولكنهم يذكرون ان تحوتمس الثالث كسرهم في حملته على سورية . غـير ان هذه العداوة بين المصريين والميثانيين انقلبت الى صداقة وصارت مملكة ميثاني في مقدمة الممالك الموالية لمصر .

وفي مسلة امنوفيس الثـاني صورة لكبراء الميثانيين يقدمون له الجزية . ولعل هذه الصداقة نتجت عن معاداة الميثانيين للحثيين اذ سلبهم هؤلاء مـا اقتطعوه من وادي العاصي. وتعززت اواصر الصداقة بين المصريين والميثانيين بزواج تحوتمس الرابع ابنة ملكهم ارنطاما كما ان ملك الميثانيين سوطارنا قدم ابنته جيلوهيبا حظية لامنوفيس الثالث .

على ان هذه المصاهرة اساءت سوبيلوليوما الحثي فأخذ يطرق المقاطعات السورية الخاضعة لنفوذ الميثانيين ويحتلها بالدهاء واحدة اثر الاخرى . مما دفع بالميثانيين الى الثورة على ملكهم توزارطا سنة ١٣٧٠ق.م وقتله.فاستغاث ابنه الصغير مايتعوذا بسوبيلوليوما فأيده واسترد له عرش ابيه وزوجه ابنته على شرط ان يكون عرش ميثاني للمولودين منها دون ذراري نسائه العشر . ولكن حظ مايتعوذا افل بوفاة حميه سوبيلوليوما سنة ١٣٤٧ ق.م اذ شعر الاشوريون بضعفه فهاجموه واستولوا على منطقته كلها ملحقينها بالبـلاد الاشورية . وهكذا باد ذكر الميثانيين من تاريخ الامم في اواخر القرن الرابع عشر (المقتطف ٩٣ : ص ٤٢) .

اهم حوادث هذه الحقبة

صيدون من ١٧٢٥ – ١٢٢٥ق.م

كانت صيدون تحتل المقـام الاول وتقتعد مقعد الزعامة على الشواطىء

الفينيقية ولذا كان من الطبيعي ان يحول بحارتها وجههم شطر الحوض الشرقي من البحر الابيض المتوسط حيث حطوا رحالهم على شاطىء بحر ايجـه والارخبيل فاستعمروا جزر سيكلاد وجزر سبوراد وبنوا فيها مستودعات تجارية ، ثم رادوا جزيرة كريت وعاشوا فيها اجيالاً .

ولقد حملهم مجذافهم الى ارض اليونان ، واليونان يومذاك في حالة البربرية فنقلوا اليها البضاعة والفكر وأسس الصيدونيين في الارض اليونانية مستعمرة « تيبه » .



قدموس

أما كيف تأسست هـذه المستعمرة من قبل الصيدونيين فيرويه الأب العـالم « بوفييه لابيير » كما يذكره الاستاذ سعيد عقل في مسرحيته « قدموس » وغيرهما نقلا عن الاساطير اليونانية المخطوطة بما موجزه :

لما اختطف زوس (زفس) كبير الالهـة ، اوروب بنت ملـك صيدون اجينور لحق بها قدموس بن اجينور الى بلاد الاغريق ليسترد اخته. وفي البيوسي قتل تنيناً كان قد فتك بإثنين من رجاله، وبأمر من آلهة الحكمـة بـذر قدموس اضراسه في الارض فأنبتت له رجـالاً شاكي السلاح اقتتلوا الاخمسة أصبحوا فيما بعد نبلاء « تيبه » التي بنـاها قدموس وأعلنته اثينا عليها ملكاً . ووهبه

زفس[١] زوجة هي « ارمونيا » ابنة افروذيتي [٢] وآريس [٣] .

وحضر هذا الزواج جميع الآلهة الذين اجتمعوا في « قدميّا » التي صارت بعدئذ اكروبول « تيبه » .

وأوروب هي التي أعطت الغرب اسمها كما أعطاها قدموس حروف الهجاء.

ويعتقد غالبية المؤرخين أن أسطورة قدموس وإن لم تكن حقيقية مئة بالمئة فان سفره الى بلاد الاغريق مع حفنة من رجالة بقصد الثأر لأخته من جهة وفتح آفاق جديدة لتجارة بلاده من جهة ثانية امر قد حصل فعلا وذلك فيما بين سنة (١٥٨٠ – ١٥٦٠ ق. م.) .



اوروب

وهكذا كان أوروب وقدموس ، الاولى رسالة الحب والثاني رسالة المعرفة الى اوروبا .

ويقول الأب لابيير : انه حتى ذلك الوقت ، كان الصيدونيون ينزلون في الاراضي ويقيمون فيها مستودعات تجارية لأجل كسبهم المادي فقط ، غير انهم حين استعمروا مدينة « تيبه » ارسلوا اليها فلاحين ليحرثوا الأرض ويستثمروا خيراتها لأنفسهم .

---

(١) زفس : إله الآلهة .
(٢) افروذيتي (افروديت) : آلهة الجمال .
(٣) آريس : إله الحرب .

الفصل السادس

صيدون خلال الصراع الحثي والمصري

دخلت جبيل تحت الحماية المصرية منذ الألف الثاني قبل المسيح وكانت تشكل حكماً داخلياً على شيء من الاستقلال الذاتي رغبة منها في اتقاء أخطار الحثيين الجاثمين الى جوارها وتأميناً لأرباحها الناتجة من بيع خشب الأرز الثمين والبضائع المختلفة الى السلالات المصرية الحاكمة .

أما صيدون فكانت تتمتع بالاستقلال التام ، يحكمها ملوكها الوطنيون ويؤازرهم مجلس من الاعيان قوامه مئة عضو ولذلك كانت تتسلق ذرى المجد في التجارة والاقتصاد كما في السياسة . وهكذا احتفظت صيدون بتسلم زمام المدن والممالك الفينيقية المستقلة الاخرى كصور وبيروت وطرابلس وأرواد .

ثم ما لبثت جبيل ان أصبحت تابعة لملوك مصر يعينون أمراءها ويتحكمون بأمورها ، الأمر الذي خشي معه الصيدونيون ان يمتد الحكم المصري الى مملكتهم فعمدوا الى تحصين مدينتهم وإحاطتها بسور من جهاتها الثلاث والى تأسيس جيش من المرتزقة الذين كانوا يؤمونها من الانحاء المجاورة سعياً وراء الكسب .

ولكن ما ينفع الجيش المأجور الذي يدافع عن منطقـة هي ليست وطنه الاصلي امام قوة عسكرية هائلة مدربة يقودها قادة دهاة محنكون ؟

اذ ما ان غزا تحوتمس الثالث فرعون مصر (١٥٠٣ — ١٩٤٩) في اواسط القرن الخامس عشر البلاد السورية وانتصر في معركة مجـدو حتى خضعت له معظم المـدن الفينيقية وفي عدادها صيدون التي قدمت له الجزية المفروضة صاغرة وأصبح ملوكها تحت الحماية المصرية في نفس الوقت الذي كان به ريب عداي امير جبيل يحارب الحثيين الى جانب المصريين .

وما ان انكفأ المصريون الى ديارهم بعـد ان فازوا بالغنائم الهائلة معتمدين على المحالفات التي عقدوهـا مع بعض امراء سورية وفينيقية . حتى هب الحثيون للثأر من حلفاء المصريين وفي طليعتهم امير جبيل الفينيقي الذي دلت رسائله العديدة التي وجدت بين مجموعة رسائل تل العمارنـه على شكواه المرة من خصم قوي بطاش يدعوه عبـد الشرى وابنه اريزو ويتمرمر لأن ولاة المدن السورية والفينيقية كلهم لم يعبـأوا بأمره ويتهمهم بالاتفاق مع الخصم عليه .

ويفهم من هذه الرسالة ايضاً ان الناظر المصري (وزير البلاط) امانيـا اشار على ريب عداي ان يرسل من قبـله رسولاً الى بلاط الملك المصري لاستشارة حماسته ، فقبل ريب عداي هـذا الرأي والتمس من امانيا ابقـاء ذلك سراً بينهما خشية ان يدري عبد الشرى بالامر فتسوء النتيجة (آثار لبنان ص ٧٩) .

ويروي الاب لامنس ان اريزو بن عبد الشرى لما عرف بعدم مبالاة ملك مصر بأمير جبيل ، اغتنم الفرصة وغزا ايالته وأخذ يحتل بلاده قطعة فقطعة حتى ضبط كل النواحي المجاورة وترك له مدينته منفردة .

ويقول العلامة (شارل كنت) في مؤلفه جغرافية الكتاب (ص٦٥-٩٨): ان السلطة المصرية حالت دون الحروب بين الامارات الصغيرة مدة . ولكنها لم تستطع ضبطها كما يجب اذ أبقت امراء البلاد في مناطقهم على ان يؤدوا لها أكبر جزية يمكن استيفاؤها منهم .

وتذكر الرسائل الـتي وجدت في تل العمارنة ان مصر في زمن امنحوتب الرابع (اخناتون) وقعت في حالة فوضى، لانهماك الملك المذكور بالاصلاحات الدينية ، فضعفت سلطته على ولاياتـه البعيدة ولذلك هبّ أكثرها لاستعادة استقلالها وفي طليعتها صيدون التي كان يحكمها الملك الفينيقي زميردا في ذات الوقت الذي وحد فيه الحثيون قواهم ومدوا سيطرتهم على البلاد الداخليـة أيام سوبيلوليوما .

وتفصيل ذلك : ان الملك الحثي سوبيلوليوما (١٣٨٨ — ١٣٤٧ ق. م.) تمكن من توحيد الامارات الحثية تحت رايته ، ثم انقض على مملكة الميثانيين عام ١٣٥٥ ق. م. ، وملكها وقتئذ ماتيوازا حليف مصر ، فقضى عليهـا نهائياً وادخل بلادها تحت حكمه ولم يبادر المصريون الى نجـدة حليفهم نظراً لانهماك امنحوتب الرابع في اصلاحاته الدينية في بـلاده . الامر الذي شجع عدداً مـن امراء شرق البحر الابيض المتوسط للتحالف فيما بينهم على طرد الغزاة المصريين . وسرعان ما قامت الثورات في كل مكان . ففي قادش هب ملكها اتيكا لمهاجمة بيبلوس حليفة مصر وصنيعتها في هذه المنطقة ، كما أعلن ملك صيدون زميردا الثورة على المصريين متحالفاً مع الحثيين، وبادر نحو صور في عام ١٣٥٤ ق.م فتمكن من دخولها واخضاعها لحكمه مزيلاً عنها التبعية المصرية.

اما فرعون مصر ساتي الاول ١٣١٨ — ١٢٩٩ ق. م. فقـد تابع سياسة والده رعمسيس الاول اذ دفـع في السنوات الاولى لملكه ، غزاة العرب عن بلاده ، ولكنه في عـام ١٣١٣ اخترق صحراء سيناء الى فلسطين محققاً بالسلم

أهدافه الرامية الى اعادة سلطة مصر على هذه الديار وتسنى له اخضاع بيسان وصور وعدلون (في وسط الطريق بين صور وصيدون) وحوران ولكنه لم يتمكن من اخضاع صيدون التي كانت على صلة بملك الحثيين في قادش « موتنار» ولذلك فقد حول وجهه شطر سورية الوسطى التي قدمت له الهدايا لاسترضائه وتابع سيره نحو قادش التي وقفت في وجهه ببسالة اضطر ان يعقد معها معاهدة صلح مع ملكها موتنار وان ينكفىء عائداً الى بلاده مكتفياً بما ناله من غنائم في البلاد التي مر بها .

أما صيدون فكانت لا تزال معتصمة بقوتها وبزعامة الساحل الفينيقي خلال هذه الحقبة من الزمن .

وفي عام ١٢٩٩ ق. م. اعتلى العرش المصري رعمسيس الثاني (ميامون) ابن الملك ساتي الاول ، الذي يعتبره المؤرخون احد افذاذ القادة العسكريين الذين انجبهم التاريخ .

سار رعمسيس في السنة الخامسة لتوليه العرش — ١٢٩٤ ق. م. — على رأس اربعة جيوش فاجتاز صحراء سيناء وانطلق منها نحو بلاد كنعان الساحلية فدخل صور التي هبت لاستقباله مرحبة ومعلنة ابتهاجها بقدومه وخلاصها من تسلط مدينة صيدون عليها .

وما ان وصلت انباء هذا الزحف المصري الى مسامع ملك صيدون حتى دب الهلع الى فؤاده وعرف انه ليس في قدرته مجابهة هذه الجيوش الجرارة فجمع مجلس الاعيان وعرض عليهم الأمر للتداول وبعد بحث طويل وتفكير عميق تقرر ارسال وفد لمقابلة فرعون مصر لعرض خضوعهم وولائهم وقد قبل هذا رجاءهم وجاء الى صيدون فدخلها سلماً بعد ان اخذ منها جزية ضخمة .

وتابع رعمسيس الثاني زحفه نحو بيروت فدخلها وأخذ منها الجزية . ثم سار حتى وصل الى نهر الكلب فانعطف نحو سورية ليهاجم في داخليتها قادش وملكها وقتئذ (مونتنار مواتالي) الحثي. وهناك جرت المعارك الدامية التي استبسل فيها الحثيون ولكن فرعون مصر تمكن بالرغم من ذلك من تحقيق انتصاره وفرض الجزية عليهم بعد ان فاز بغنائم واسلاب ثمينة جداً مما دفع بالحثيين الى التراجع نحو مناطقهم الشمالية وعودة حكم البلاد الى سكانها الأصليين من الآراميين .

ولم يعد الفينيقيون يأبهون خلال القرن الثالث عشر ق. م. وبعد فرض الحماية المصرية عليهم للنواحي السياسية ، حتى ما تعلق منها بأمر استقلالهم او الدفاع عن موطنهم ضد المغيرين ، الأمر الذي لاحظه المؤرخون عند دراستهم اسباب الحروب المستقلة بين المصريين والحثيين لأنهم — اي الفينيقيين — كانوا يسيرون في ركاب الدولة المحتلة ويقدمون لها مختلف الخدمات لقاء احتفاظهم بحق العمل التجاري ووسائل الربح المادي كما ظهر بوضوح تفسخ الصلات بين المدن الفينيقية المختلفة بأجلى مظاهره ، اذ ان كل مدينة اخذت تسعى وراء نجاح تجارتها ورفع نسبة ارباحها حتى ولو جاء ذلك على حساب شقيقتها المدينة الفينيقية الثانية وهلاكها .

وبدا هذا جلياً عند مجيء الفلسطينيين الى بلادنا خلال القرن الثالث عشر ق. م. من جزر بحر الروم .

وكان الفلسطينيون قد حاولوا في بداية الامر الاستيلاء على مصر ولكن رعمسيس الثاني صدهم عنها عام ١٢٥٦ ق. م. فتوجهوا نحو الارض الواقعة بين مصر وسوريا — جهات غزة واشدود وعسقلان وجت وعقرون .

ولم يمض على وصول الفلسطينيين (قوم كريت) الى تلك المنطقة اكثر من قرن حتى اشتد ساعدهم فضايقوا بني اسرائيل نحواً من نصف قرن ، ثم

سيروا اسطولاً قوياً باغتوا به مدينة صيدون سنة ١١٠٥ ق. م. وتمكنوا من دخولها فأبسلوا أهلها وقضوا على سؤددها وسيادتها حقبة من الزمن.

وكانت حروب رعمسيس الثالث سنة ١١٨٨ ق. م. قد سجلت آخر انتصارات مصرية في سورية وفينيقية .

...ما لبثت صيدون ان قامت من عثرتها وفي ذات الوقت تمكنت ارواد ربيبة صيدون ان تقضي على قوة اوغاريت وتطفيء نورها وتأخذ منها زمام العمل التجاري لا سيا وأنه لم يكن لارواد اي مجال حياتي اللهم الا مناعتها كصخرة حصينة لجزيرة قائمة في البحر وليس هنالك من مجال لحياة مرفأين قويين متقابلين وفي منطقة واحدة .

الفصل السابع

صيدون من سنة ١١٠٠ — ٥٣٩ ق.م.

حمل القرنان الثاني والحادي عشر في تضاعيفهما الى صيدون تغيراً ملحوظاً، فالشعوب التي وصلت الى الشواطىء من اوروبا وامتزجت بالسكان ساهمت في تطوير الحياة الفكرية والمعيشية، إذ اخذت الاعمال الفنية الدقيقة ذات الطابع الغربي في الظهور ، كما ان وصول العبرانيين والآراميين الى المناطق المجاورة أضفى لوناً جديداً على الاعمال الصناعية بشكل نستطيع معه القول انه بواسطة هذه الصناعات توصل اليونانيون أولاً ثم الغرب المعروف وقتئذ ثانياً الى التعرف على فينيقية التي كانت حدودها تمتد على طول الشاطىء السوري وتتصل شرقاً بالمرتفعات الآرامية وجنوباً بفلسطين الاسرائيلية التي لم تصل حدودها مطلقاً الى البحر المتوسط .

هذه الأمور عرفناها من مدونات كبار المؤرخين وعلماء الآثار ومن الياذة هوميروس بالذات الذي ، بعد ان نذكر لمحة عن حياته ، نذكر بعض ما دوّنه عن صناعات صيدون وأهميتها .

هوميروس

هوميروس او اوميروس لفظ يوناني ترجمته الحرفية : « الذي بلا بصر » وهو لقب لا اسم له في الاصل ، وقد اشتهر به بعدما كفّ بصره حتى نسي اسمه الاصلي .

قيل ان والدته كريتيس ولدته على ضفة نهر ميلس قرب ازمير فدعته ميلسيجينيس ، اي « وليد النهر » ولم تذكر المؤلفات شيئاً عن ابيه لأنه توفي وابنه طفل. ولما فطمته امه عن الرضاع سلمته الى استاذ بارع في ازمير يدعى فيميوس ، فأستأجرها هو لغزل الصوف . وكانت كريتيس راجحة العقل هادئة ، فأعجب بها فيميوس وخطبها لنفسه واعداً إياها بجعل ابنها الذكي نابغة عصره . فرضيت به بعلاً ، وبرّ هو بوعده لها. ففاق ميلسيجينيس جميع اقرانه ، وما مر بضعة اعوام حتى كاد يبز استاذه نفسه .

توفي فيميوس وانحصر ارثه في هوميروس ، فقام مقامه في المدرسة . وأعجب به الأزميريون، وطارت شهرته في الآفاق ، فقصده الداني والقاصي، وصار مجلسه كعبة الحكمة وديوان الادب .

وممن اختلف الى مدرسته ربّان حكيم محب للعلم ، اسمه منتس . وهذا رغبة منه في ملازمته حبب اليه الاسفار ومشاهدة الامصار لاستزادة معارفه واعداً إياه بحمله في سفينته ان رضي مرافقته . فقبل هوميروس رأيه وغادر المدرسة ممتطياً متن البحار ، حيث اختزن من المعلومات التي مرت به شيئاً كثيراً . ولكنه اصيب لكثرة ما نقب بالرمد . واضطر منتس ان يبقيه في جزيرة ايتاكي عند صديق له فيها ريثما تعود اليه صحة النظر ، فأحسن هذا ضيافته ، وإذ لم يكن رمد هوميروس ليمنعه من المطالعة والتبحر ، التقط اخبار اوذيس التي جعلها بعدئذ مادة لقصيدته الاوذيسة .

ولما عاد الربان من رحلته اخذه في سفينته واستأنفا السفر . فاشتد عليه الرمد حتى فقد بصره وظل كفيفاً حتى مات ولقب منذئذ هوميروس .

فلما كف بصره قصد ازمير وأخذ ينظم الشعر ليعيش ، واضطر بعدئذ ان يجوب الاصقاع اليونانية يستثمر قصائده . وأصيب بعدة نكبات كانت السبب لزيادة شهرته . وأخيراً عول ان يقصد اثينا فركب سفينة مع جماعة من ساموس ، فمرض ونزل الى جزيرة « يوس » بغية ابلاله من مرضه ولكن الداء اشتد عليه فاحتضر ومات ودفن قرب الشاطىء .

أما الزمن الذي نشأ فيه هوميروس فبين المؤرخين خلاف بشأنه ولكنهم يجمعون انه عاش بين القرنين الثاني عشر والعاشر قبل الميلاد .

ولقد استفدنا من منظومات هوميروس تصويره حالة الشعوب القديمة المعاصرة لصيدون ، كما تحدث اكثر من مرة عن نتاج صيدون وتجارتها وغناها فيقول :

« ان الحذق والمهارة والشهرة التي كانت للصيدونيين في صنائعهم والقوة والبأس والبطش التي كانت في جيوشهم لم تنحصر في سوريا بل انتشرت منهم الى اقاصي الارض ، فان في زمان حروب تروادة الشهيرة كان الصيدونيون يقومون بأمور كثيرة عدوانية ضد الترواديين، على ان هؤلاء عملوا على الانتقام منهم ، فمزقوا ثياباً ثمينة جداً من صنع بنات صيدون، وكان يظن ان تقدمة اي منها لمعبودة الحرب واسطة لاستجلاب رضاها نحوهم . »

ولم يكتف هوميروس بهذه الاشارة الى صيدون في شعره ، بل ذكرها مراراً: « فان صناعتها بلغت اقصى اليونان حتى ان اشيل البطل اليوناني اجاز اللاعبين بتذكار جناز بتروكلس بقدح من الفضة كان قد صاغه رجل من حذّاق الصيدونيين . وكذلك الرداء الذي قدمه هيكوبا كفارة عن ذنوبه الى

مينرفا – كان صنع امرأة صيدونية اخذها باريس مختطف هيلانة بعد ان زار فينيقية . »

ومن رواية عن اوليس ان صيدون كانت كثيرة السكان ، ولم تكن صور ذات شهرة مثلها بل انها كانت خاضعة لصيدون في هذه الفترة . وكما روى سترابو : « ان الصيدونيين خلال القرن الثاني عشر كانوا متقدمين في معرفة الفلك والهندسة والتجارة ومسالك البحار والفلسفة » .

ويقول موسكاتي في كتابه « تاريخ وحضارة الشعوب السامية » :

« انه حتى القرن الحادي عشر قبل المسيح كانت صيدون متفوقة على كل المدن الفينيقية وتتزعمها ولكنه بعدئذ جاء دور صور التي بواسطتها تأسست اعظم المستعمرات الفينيقية على الاطلاق – قرطاجة – » .

صيدون
في أيام أشور وكلدة وفارس
٨٨٥ – ٣٣١ ق.م

الأشوريون

أشور هو الابن الثاني لسام . ومن اشور هذا تسلسلت القبائل الاشورية الساكنة في الشرق من دجلة وقد صارت دولة عظيمة عاصمتها نينوى .

ويحد بلاد اشور من الشمال ارمينيا ومن الجنوب العراق ومن الشرق جبال زاغروس ومن الغرب الفرات وبلاد ما بين النهرين (قاموس الكتاب ١ ص ١٠٢) .

وقد قسم ثقات المؤرخين تاريخ اشور القديم الى ثلاث حقب . الاولى من بداءة امرهم الى فتح بابل سنة ١٣٠٠ ق. م. والثانية من فتح بابل الى ملك تغلات بلاسر الثالث سنة ٧٣٥ ق. م. والثالثة من تغلات بلاسر الثالث الى انقراض دولتهم سنة ٦٢٥ ق. م.

ودلت الآثار على ان الدولة الاشورية بلغت قمة المجد ثلاث مرات في التاريخ . الاولى في عهد تغلات بلاسر الاول (١١٣٠–١١١٥ق.م) والثانية في عهد اود نيراري الثاني وخلفائه (٩٠٠–٧٨٣ق.م) والثالثة في زمن تغلات بلاسر الثالث (٧٤٥ – ٧٢٧ق.م) .

ونجاح الأشوريين في هذه الفترات من الزمن خولهم عظمة وعتواً دلت عليها كتاباتهم المنقوشة على المرمر ، والتي وجدت في صروح ملوكهم حتى سماهم بعض المؤرخين « برابرة آسيا » وقال: انهم كانوا يقودون ملوك الأعداء بصنارات ينشبونها في شفاههم ، ويسلخون جلود الأسرى وهم أحياء ، ويقورون عيون بعضهم بروؤس السنان ، ويقتلعون السنة البعض الآخر (مايار ع: ٦٥) .

رأى الأشوريون الفرصة سانحة لتوسيع نطاق حدودهم في الشمال السوري فلم يفلحوا في بداية الأمر ، ولكن بغيتهم هذه اخذت تتحقق في منتصف القرن التاسع يوم بلغ اشور نازيربال سنة ٨٧٠ ق. م. ساحل البحر المتوسط ولكنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بمواقعهم أمداً طويلاً .

وفي اواسط القرن الثامن استأنفوا مساعيهم فنجحوا؛ اذ اخضعوا سوريا ولبنان شيئاً فشيئاً ضامين أجزاءها المتفرقة الى ولايتهم لعدم استطاعة ملوكها الضعفاء الوقوف امام جيوش اشور القوية .

على ان اتساع نطاق المملكة الاشورية أدى في النهاية الى ضعفها . اذ

كثرت الثورات في البلاد ، وبينما كان الآراميون يزحفون من جهة الهلال الخصب ، كان الكلدان يزحفون من جهة الخليج العربي منتشرين في طول البلاد وعرضها . وهب نبوبلاسر (٦٢٥-٦٠٥ق.م) الذي كان من أتباع ملك اشور فقلب لمتبوعه الاعظم ظهر المجن واسقط اشور سقوطاً لم تقم بعده، سنة ٦١٢ ق.م. (براستد ص ١٠٦ — ١٢٥) .

الكلدانيون

هم احدى الامم القديمة في التاريخ وجدت في العراق العربي ونشأت كأمة ودولة في القرن الثالث والعشرين ق.م. ومؤسسها حسب التقليد المتناقل نمرود الجبار وأقدم دولها الدولة الأكادية . ويأتي بعد هذه الدولة في الاهمية دولة قيل انها عربية . وهي خامس دولة في تاريخ الكلدان (بورتر ص ٤١) أنشأها الاموريون القادمون من سوريا حوالي سنة ٢٢٠٠ ق. م. فاستولوا على بابل الصغيرة .واخذوا يشنون الغارات على (سومير واكاد) للاستيلاء عليها. ومن مشاهير هذه الدولة حمورابي سادس ملوكها الذي ملك نحو ٣٠ سنة صرف معظمها في الحروب ففاز على جميع خصومه وجعل بابل قاعدة ملكه ، سيدة مدائن البلاد منذ القرن الحادي والعشرين وقد برهن خلال فترة حكمه انه اقدر ملوك الأسرة الامورية ودلت رسائله الباقية على انه كان من اعاظم المتشرعين .

وولي الدولة العربية المذكورة دولتان اخريان . ثم انحطت دولة بابل القديمة بعد ان ظلت قاعدة المدنية الشرقية ازيد من ألف وخمسمائة سنة.وإبان هذا الضعف زحف المصريون على الفرات وتمكنوا من اخضاعها ٢٤٥ سنة وبلغ عدد من ملك من الكلدان تحت سلطنة الفراعنة تسعة ملوك يقول بيروس عنهم انهم من اصل عربي من سوريا (بابل وآشور (المدور) ص ١٨١) ثم استخلصها منهم سنة ١٣١٤ ق. م. تغلت سمدان فخضعت بابل للآشوريين

حتى اواسط القرن الثامن حينما كسر نير اشور من اعناقهم نبوخذنصر سنة ٧٤٧ ق. م. (بورترص ٧٤) . وفي ايام نبوخذنصر الشهير ، بسط هذا سيطرته التامة على بلاد الرافدين وسوريا وفلسطين ومات بعد ما ملك٤٣ سنة وفي سنة ٥٣٨ق.م قضى كورش الفارسي على نبونادورس الكلداني كما قضى نهائياً على الدولة الكلدانية .

الفرس

امة آرية الاصل كانت قبائلها تسكن هضبة ايران وقد خضعت في القرن العاشر للسلطة الآشورية . وظل ذلك شأنها حتى برزت دولة مادى في القرن السابع وهذه أقدم دول ايران ثم تلتها الدولة الكيسانية في اواسط القرن السادس وبها يبدأ العصر الفارسي الحقيقي (الهلال ١٦ : ٣٤٥ و ٥٧:٢٥) .

اول ملوكها كورش (٥٥٨-٥٢٩ق.م) اخضع لحكمه البرتيين والأرمن والأناضول وما بين النهرين وسوريا وجزءاً من بلاد العرب ومات بعد ما ملك ٣٠ سنة .

وآخر ملوكها هو داريوس قدمان سنة٣٣٥ق.م. الذي بطش به الاسكندر المكدوني سنة ٣٣١ ق. م. .

صيدون في هذه الفترة



في ايام حيرام الاول بن ابيبعل ملك صور (٩٦٩-٩٣٦ ق.م) خضعت صيدون سياسياً لمدينة صور وساهمت في تزويد الملك سليمان بالصناعين وبالمواد اللازمة له في اعماله البنائية كما ساهمت ايضاً في بناء اسطول له في البحر الأحمر وكانت تتمتع في ادارتها الداخلية بشيء من الاستقلال الذاتي .

ثم لما اجتاز سوريا نيبال الثاني الآشوري (٨٨٣ – ٨٥٩ ق.م) الفرات واحتل شمالي سوريا انحدر الى سهول العاصي ومنها الى شواطىء البحر الأبيض المتوسط الامر الذي ارتأى معه ملوك المدن الفينيقية الذين كان همهم الرئيسي المحافظة على تجارتهم وأرباحهم أن يجمعوا الأموال ويقدمونها له كهدية وجزية .

وكذلك فعلت صيدون في ايام ابنه شلمناصر الثالث (٨٥٨ – ٨٢٤ ق.م.) الذي تابع انقضاضه على الغرب واستحم هو وجيشه في البحر الكبير اذ قدمت له مع المدن الفينيقية الاخرى الجزية بعد ان حطم جموع الامراء الآراميين في معركة قرقر وأصبح امام المدن الفينيقية .

وبهذه الواسطة تمتعت صيدون وبقية المدن الفينيقية بحياة وتجارة مزدهرة وصناعة جميلة كانت تصدر الى العالم المعروف وقتئذ، كما ساهم ابناؤها في تزيين بيوت ملوك آشور ودمشق واسرائيل بأدق النقوش وأجملها والتي شوهدت في العديد من الهياكل والمعابد في السامرية ومجدو وآخاب وغيرها كما ان تزيين سروج الخيل والعربات يعود الى الصناع الصيدونيين وليس للعناصر الغربية (موريس دونان ص ٨٥) .

اما تغلات فلاسر الثالث (٧٤٥ – ٧٢٧ ق. م.) الذي كان يملك قوى حربية هائلة فقد تمكن من السيطرة على كل البلاد التي تفصله عن وادي النيل سنة ٧٣٨ وبينها صيدون وأرواد وبيبلوس ما عدا صور التي كان يحكمها وقتئذ حيرام الثاني التي دفعت له الجزية دون ان تسمح للفاتح بدخولها . وفي عام ٧٣٠ ق.م دفع له متينا (متان) ملك صور جزية ضخمة .

سنة ٧٠٦ ق.م استعاد اليلايوس ملك صور وصيدون (٧٢٥–٦٩٠ ق.م) حكم جزيرة قبرص التي سبق لسرجون ان احتلها عام ٧٠٩ ق.م وهرب اليها عندما استولى سنحريب (٧٠٥ – ٦٨١ ق. م.) على فينيقية .

صيدون في عهد سنحريب

على أثر تولي سنحريب العرش (٧٠٥ – ٦٨١ ق. م.) قام سنة ٧٠١ بغزو البلاد المجاورة له فاخترق بلاد حثو بعد ان قتل ملوكهم ثم اتجه نحو الشاطىء وكان ملك صيدون وصور وقتئذ الملك ايلولايوس الذي سبق له ان استولى على قبرص سنة ٧٠٦ مستخلصاً إياها من حكم سرجون .

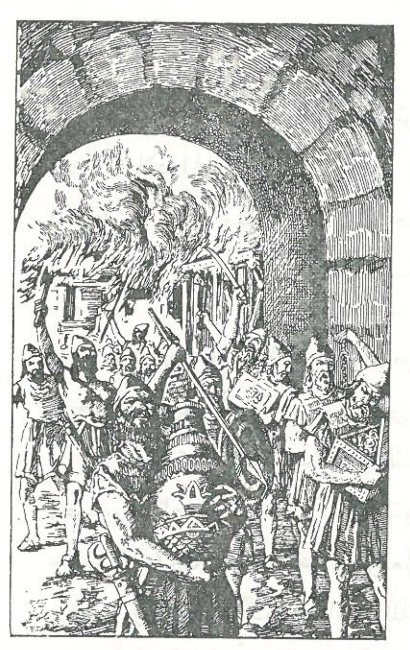
وعندما شعر الملك ايلولايوس بعجزه عن الوقوف في وجه الفاتح ركب البحر وانطلق نحو احدى الجزر حيث توفي فيها . اما سنحريب فقد احتل الموانىء الفينيقية كلها بعد ان اعلنت خضوعها وطاعتها، وهي صيدون الكبيرة وصيدون الصغيرة (كما تذكر التوراة) وساريبتا وعكا . وعين سنحريب على صيدون ملكاً جديداً هو ايتوبعل . وقد اسرع ملوك وامراء ارواد وجبيل وعمون ومؤاب وآدوم لمقابلة الملك في صيدون ، معلنين خضوعهم التام له ، مرتمين على اقدامه للعفو عنهم ، فقبل رجاءهم وهداياهم (شعوب وحضارات لبيير جوغي ورفاقه ج ١ ص ٣٨١ – ٣٨٢) .

ثورة صيدون سنة ٦٧٦ ق.م.

وفي ايام اسرحدون (٦٨١–٦٦٩ ق.م) اشتعلت الثورة في بلاد حثو بتحريض من ملك صيدون عبد ملكوتي ، فأسرع اسرحدون سنة ٦٧٦ ق.م على رأس جيشه لتأديب العصاة وجعل هدفه الرئيسي مدينة صيدون ، ودافع الملك عبد ملكوتي مع الاهلين دفاعاً شديداً عن مملكته ، ولكنه اضطر اخيراً للفرار عن طريق البحر الى كيليكية، حيث عقد محالفة مع الملك صاندواري ملك كوندي (بالقرب من فارس وسيرو) ولكن ملك الاشوريين بعد ان تم له الاستيلاء على صيدون أحرقها ونهب كنوزها وخيراتها، ولم يهدأ له بال، فطارد الحليفين حتى وقعا بين يديه الواحد أثر الآخر ، ثم أسر عبد ملكوتي

خلال شهر تشريت (ايلول – تشرين الاول سنة ٦٧٦ ق.م.) فقطع رأسه وأرسله الى نينوى حيث طيف بـه امام الاهلين، وكان مصير صاندوارى شبيهاً بعبد ملكوتي، إذ بعد سقوطه في الأسر قطع رأسه وطيف بـه في نينوى في شهر ادّار (شباط – آذار سنة ٦٧٥ ق. م.) .

ولكي يتمكن اسرحدون من مراقبة فينيقية وأمرائها وحكمها مباشرة، عمد الى بناء مدينة اطلق عليها اسمه (كاراشور اكالدين) ومعناها : مدينة اسرحدون.



الاشوريون يحرقون صيدا

ونتيجة لغزوة اسرحدون الى صيدون عقد هذا محالفة مع ملك صور، بعل، منح الاخير بموجبها حق الاشراف على عدد من الموانىء الفلسطينية والفينيقية مثل عكا ودور وجبيل (تحت الحماية الاشورية) وقد شهد على هذا التحالف آلهة الاشوريين الى جانب الاله بعل الفينيقي وملكارت معبود صور.

وهذه الاحداث تؤكدها الصورة المنقوشة على الصخور المكتشفة في نينوى وهي تتحدث عن انتصارات اسرحدون وتصور الملك الصيدوني عبد ملكوتي يقدم خضوعه للملك الاشوري بيدين مبسوطتين ورأس منخفض (شعوب وحضارات لموسكاتي) .

ويذكر المؤرخون الثقات ان ملوك اشور فرضوا الخضوع التام منذ عام ٧٤٠ ق. م. على كل البلاد السورية والفينيقية ولم يبقَ خارج هذه السيطرة إلا

امارة صيدون التي كانت تقدم الجزية فقط والتي خضعت نهائياً عام ٦٧٧ ق.م وصور التي اخضعت عام ٦٧٥ ق.م ولكنها ظلت محتفظة بقوتها وبشرط تعيين ملوكها من أبنائها (يوسيفوس الذي يذكر أسماء ستة ملوك تعاقبوا على حكمها منذ عام ٧٥٠ ق.م هم :

موتون الاول – الولا (البلايوس) – ايتوبعل الثاني – بعل – يملك .

وعلى أثر وفاة اشور بانيبال سنة ٦٢٥ ق.م اشتعلت الثورات في كل الجهات التي كانت تخضع للاشوريين فكانت ثورة الكلدانيين في بابل فلجأت اشور عندئذ الى طلب مساعدة مصر عام ٦١٢ ق.م، وهب ملكها بساماتيك الى الاستيلاء على سورية وفينيقية التي انتقلت من يد أجنبية الى يد أجنبية اخرى.

ولما تسلم عرش مصر نيخاو سنة ٦٠٩ ق.م اجتاز سورية للانقضاض على بابل ولكنه انهزم عام ٦٠٥ ق.م امام نبوخذنصر في كركميش فاضطر الى مغادرة البلاد السورية محتفظاً بصيدون التي تمكن نبوخذ نصر من الاستيلاء عليها عام ٥٨٦ ق.م واورشليم التي فتحها عام ٥٨٦ ق.م وأرسل أهلها سبايا الى بابل. اما صور التي دافعت عن نفسها طيلة ١٣ سنة فقد اجبرت على دفع الجزية للكلدانيين سنة ٥٦٧ ق.م في ايام ملكها ايتوبعل الثالث (٥٧٤ – ٥٦٤ ق.م) .

وظل الصوريون محتفظين باستقلالهم الذاتي ايام ملوكها بعل لاتور وميربعل وحيرام الرابع الذي حضر حفلة تتويجه في صور سنة ٥٥٢ ق.م الملك نبونيد آخر ملوك بابل .

وابان هذه الحوادث التي كانت تجري في الغرب كانت امور خطيرة تقوم في الشرق اذ اعتلى عرش بلاد فارس ومادي رجل جبار هو الملك كورش الذي وحد المملكتين عام ٥٥٥ ق.م ووجه الضربة القاضية الى الحكم الكلداني سنة ٥٣٩ ق. م.

الفصل الثامن

صيدون تحت الحكم الفارسي

٥٣٩ – ٣٣٣ ق.م.

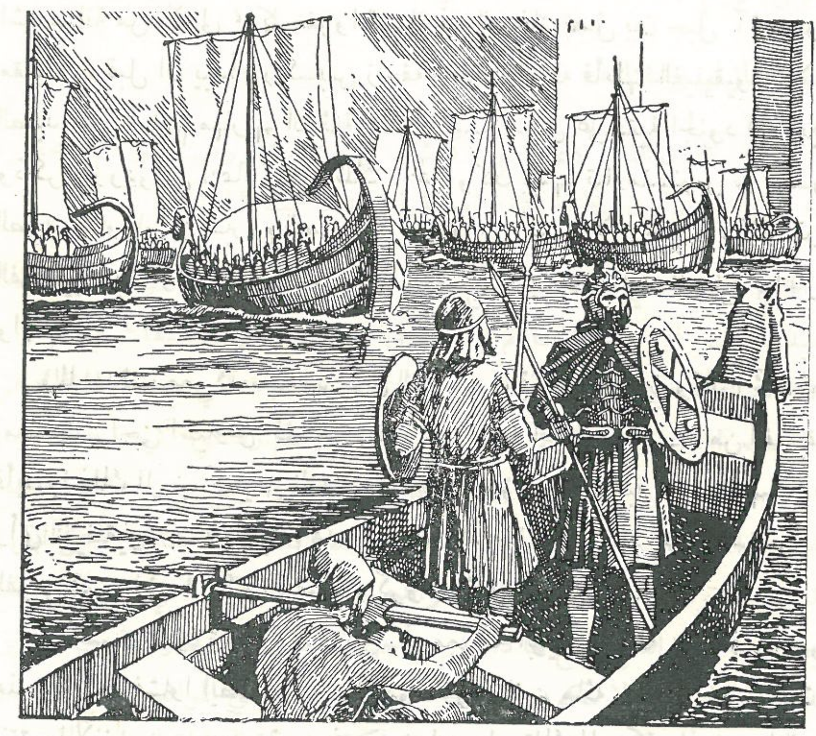


دارا الكبير

على أثر استيلاء الفرس على بابل سنة ٥٣٩ ق. م. في عهد الملك كورش دخلت كل البلاد الواقعة بين جبال الآمانوس وسيناء تحت حكمهم وبموجب التقسيم الاداري الذي أحدثته الدولة الفارسية اصبحت فينيقية تشكل مع قبرص الولاية الخامسة في الامبراطورية الفارسية كما اتخذ الوالي الفارسي من صيدون عاصمة للولاية وبنى فيها قصراً ملكياً ساهم الصيدونيون في بنائه وزخرفته .

وفي عام ٥٢٥ ق.م قام قمبيز بن كورش الفارسي بحملة على مصر في ايام ملكها بساماتيك الثالث آخر ملوك السلالة الفيلهينية فأخضعها لحكمه ثم تابع زحفه حتى وصل الى واحة امون وهناك فكر بالزحف على قرطاجة لاخضاعها وفاوض الصوريين والصيدونيين الذين كانوا يساعدونه خلال حروبه في مصر – لتقديم اسطولهم حتى يتابع زحفه ويستولي على قرطاجة ولكن اولئك رفضوا الانصياع لرغبته معتذرين بأنهم لن يقاتلوا ابناء عمومتهم في افريقيا كما عرضوا عليه استعدادهم التام لخدمة الفرس في حروبهم مع اليونانيين .

وبموجب معاهدة كالياس ٤٩٤ ق. م. استطاع ارتاكزكسيس (داريوس) الاول ان يعتمد على الاسطولين الصيدوني والصوري خلال زحفه على بلاد اليونان والذي مني بالفشل في معركة ماراثون ، التي نفصلها فيما يلي :



الاسطول الفينيقي وملك صيدا — في معركة سلاميس

معركة سلاميس

رافق الحملة الهائلة التي قام بها زركسيس لليونان عمارة كبيرة من سفن الفينيقيين قيل انها كانت مؤلفة من ١٢٠٠ سفينة كبيرة ذات ثلاث طبقات و ٣٠٠٠ سفينة صغيرة (تاريخ سورية لبني) وعندما وصل الجيش والجند الى بوغاز (جناق قلعة — مقابل الاستانة حالياً) المعروف وقتئذ بالهليسبونت، امر زركسيس ان تصف المراكب والقوارب ملاصقة لبعضها البعض حتى يمر الجنود من فوقها الى الضفة الثانية وكان الفينيقيون يربطون السفن بحبال ضخمة قوية فلما تم العمل جاءت موجة قوية تحركها رياح عاصفة فهدمت ذلك الجسر فغضب زركسيس غضباً شديداً وأمر بقطع رؤوس المهندسين ثم امر ببناء جسر آخر فشرع القوم بصنعه واستخدموا لذلك ذات المواد على ان الحبال كانت اشد متانة من الاولى ، كما حفروا قناة في البوغاز تصل بين جبل آثوس والبر مقابله ، وقبل ان يبدأ زركسيس زحفه امتحن قواته فأظهر الفينيقيون ولا سيما الصيدونيون منهم مهارتهم الفائقة ونالوا قصب السبق على بقية الجنود المحاربين . وذكر هيرودوتس اسماء قادة تلك الحملة وكان بينهم تبترمنستوس بن انيسوس الصيدوني ومابن بن سيروم الصوري وماربال بن اكبال الاروادي . وكان نوتية الفينيقيين يرتدون الخوذ المشابهة لخوذ اليونانيين ويحملون الرماح والدروع والمجان .

ولما حدثت معركة سلاميس تولى الفينيقيون قتال الاثينيين وكانوا تحت امرة اميلياس اخي اشيلوس ففشلوا وظن الفرس ان الامر خيانة من الفينيقيين فأبلغوا ذلك الى زركسيس الذي امر بقطع رؤوس عدد كبير من قادتهم . فلما رأى الفينيقيون هذا الغبن وهذه المعاملة السيئة عرفوا ان الدائرة ستدور على الفرس فسرعان ما ركبوا سفنهم وكروا عائدين الى ديارهم .

ولكنهم عادوا ثانية فاشتركوا في معركة ابريمدون سنة ٤٦٦ ق. م. وفي هذه المعركة فشلوا ايضاً وأسر الاثينيون من سفنهم مائة سفينة . وسرعان ما انتقموا لأنفسهم بعد مضي خمس سنوات على تلك المعركة اذ دمروا السفن

الاثينية بالقرب من مانديسيا عند مصب النيل .

وأبان الحروب التي دارت بين اسبارطة وأثينا (٤٣١–٤٠٤ ق.م) تحالف الفينيقيون بموافقة الفرس مع الاثينيين ونتيجة لهذا التحالف عمل فارنابازوس رئيس سفن الفينيقيين والقبرصيين تحت قيادة كونون رئيس عمارة الاثينيين فانتصروا على الاسبارطيين في معركة كنيدوس . وهذا الانتصار دعم صلات الوداد والتجارة بين الشعبين اذ اخذ الفينيقيون يترددون على بلاد الاثينيين ويقطنون فيها حيث اشادوا المباني والصروح والمعابد ، يمارسون فيها طقوس ديانتهم . ولقد وجد القوم ثلاث صفائح حجرية فينيقية احداها بلغتهم والاثنتان باليونانية . أما تاريخها فبعد السنة المائة الاولمبادية بزمن قصير (تعادل سنة ٣٨٠ ق. م.) .

اشمون عازار وسلالته :

في ١٩ كانون الثاني ١٨٥٤ م. اكتشف في صيدا ناووس عظيم كان محفوراً عليه اثنان وعشرون سطراً باللغة الفينيقية وقد ترجمت كما يلي :

« في شهر بول في السنة الرابع عشرة توفي ملك الملوك اشمون عازار ملك الصيدونيين . اني قد حملت ثم ابتلعت في مدفني . انتهت المشقات في رواقي . وأنا راقد في حظيرتي وقبري في موضع قد بنيته . ودعائي مع كل الممالك هي ان لا يفتح احد موضع راحتي ولا يطلع داخل موضع رقادي كيف حالة البشر في محل نومي ، ولا ينزع حائط مكان راحتي ، ولا يرفع ما داخل موضع راحتي ، ان دخلت موضع راحتي ، وإن كنت انساناً . الحاكم الأعلى ابل ، فلتسمع دينونته من كل الممالك ، والذي يفتح مدخل راحتي ، والذي يفتح محيط سراحي والذي يرفع ما داخل مراحي ، فلا يكون له راحة بين الجبابرة ولا يدفن في قبر ولا يكون له عقب ، وليكن له شر في المواضع السفلى ، ومن عصا فليدن من الآلهة والمقدسين ومن المملكة بواسطة السلطة العظمى لإبن ملك

الصيدونيين على المالك ، من فتح مدخل موضع راحتي ، من رفع حائطي فليختبر بنفسه صحة هذا القول ، ليت من فعل لا يعد له حقل راحة لذيذة بين معالي النور ، بين العائشين تحت الشمس مثل راحتي . قد حملت ، قد ابتلعت في مدفني . انا اشمون عازار ملك الصيدونيين ها قد بنينا بيت الآلهة ، بيت حكم حكم البر والبحر وشيدنا بيت عشتروت ، فليتعالى إسم النور ، نحن الذين بنينا بيت امي رحباً غنياً . النور على الأكمة ، وبنينا الهياكل لآلهة الصيدونيين ، هيكل بعل صيدون وهيكل عشتروت ليتعالى إسم بعل حتى يعطينا رب الملك اللذة والحسن . قد امتلكنا المحاصن وزودناها قلاع اطراف البلاد لحماية الصيدونيين الى الابد » .

ويظهر من هذه الكتابة نسب هذا الملك وعظمة ما قام به من اعمال وانه هو باني الهياكل لبعل وعشتروت غير انه ليس لهذه الكتابة المهمة تاريخ يظهر زمان حفرها ولكن ما يؤكده خبراء الآثار انها تعود الى ما بين القرنين السادس والرابع قبل المسيح . وهذه الصفيحة موجودة الآن في متحف اللوفر بباريس.

وفي مطلع عام ١٩٦٤ بدأ المهندس الفرنسي السيد دونان ، تحت اشراف الامير موريس شهاب مدير الآثار اللبنانية حفرياته في هيكل اشمون إله الصحة والشفاء عند الفينيقيين – الواقع على الضفة الجنوبية الغربية لنهر الاولي وعلى مسافة ٣ كيلومترات من صيدا شرقي جسر الاولي في بستان آل الشيخ فعثر بين المدرجات ذات الحجارة الضخمة وفي بقايا الهيكل المتاخمة لضفة النهر على ثلاثة عشر تمثالاً لاطفال فينيقيين .

وتشير الكتابات الفينيقية المكتشفة والتي قام بترجمتها العالم الأثري الامير موريس شهاب الى ان هؤلاء الاطفال كانوا مرضى وقد جيء بهم الى هيكل اشمون كي يمنحهم الاله الشفاء والصحة ، فغمسوا في حوض الماء المقدس الشافي من الامراض الامر الذي يثبت ان ذوي هؤلاء الاطفال كانوا يقدمون تماثيل اطفالهم بعد شفائهم هدية للاله اشمون اعترافاً

بفضله في شفاء اطفالهم ، ولكي تحفظ في اماكن خاصة حتى يشاهدها زوار الهيكل .

وهذا الاكتشاف ينفي التهمة عن سكان صيدون بصورة خاصة وفينيقية بصورة عامة ، بأنهم كانوا يضحون بأطفالهم على مذابح الآلهة ، ويعود تاريخ هذه التماثيل الى القرن الخامس قبل الميلاد .

والتماثيل المكتشفة منحوتة من حجر المرمر الوردي اللون نحتاً بلغ غاية الاتقان والابداع حتى ان الناظر اليها يعتقد انها من صنع عصرنا الحاضر ، مما يوضح ان صناعة النحت في صيدون كانت عريقة القدم .

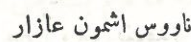
وأما الهيكل الكبير لمعبد اشمون فقد اكتشفه المهندس العثماني مكريدي بك سنة ١٩٠١ الذي بعد ان أزاح التراب عن اطرافه كشف سوراً عرضه ٥٩ متراً وطوله ٤٥ متراً وهو ينحدر باتجاه النهر ، وحجارته ضخمة جداً ... (انظر جريدة « الجريدة » اللبنانية العدد ٣٨٤٢ تاريخ ٦٥/٦/١٩ ص ٧ بقلم صبحي سعيد) .

واستناداً الى ما توفر لدينا من معلومات وثيقة عن مراجع صادقة نستطيع ان نضع جدولاً باسماء ملوك صيدون خلال هذه الفترة وسني حكمهم بوجه التقريب لا على التحديد :

١) اشمون عازار الاول ٤٧٢ – ٤٥٧
٢) تبنيت الاول ٤٥٧ – ٤٢١
٣) اشمون عازار الثاني ٤٢١ – ٣٩٦
٤) تبنيت الثاني ٣٩٦ – ٣٨٤
٥) استراتون الاول ٣٨٤ – ٣٦٢
٦) تنيس ٣٦٢ – ٣٤٦
٧) ايفاغوراس القبرصي ٣٤٦ – ٣٤٥
٨) استراتون الثاني ٣٤٥ – ٣٣٣

وفي مطلع القرن العشرين اكتشف في احد بساتين صيدا عـــدة نواويس بينها ناووس في داخله جثة محنطة وقـد كتب على الناووس باللغة الفينيقية ما ترجمته :

« انا تبنيت كاهن عشتروت ملــك الصيدونيين ، ابي اشمون عازار الراقد في هذا القبر . اعلن كل من يريـد فتح قبري ان ليس فيـه ذهب ولا فضة ولا حجارة كريمة ، فاذا تجاسرت واقلقت راحتي لا يكون لك توفيق تحت الشمس ولا يكون لك راحة في قبرك » .


ناووس اشمون عازار

كما وجد في صيدا ناووس اطلق عليه الاثريون اسم ناووس الملكة الذي يعود تاريخه الى هذه الفترة من الزمن ويعتقد انه ناووس الملكة امعشترت امرأة تبنيت المذكور آنفاً .

صيدون واثينا :

في سنة ٣٩٢ ق.م شعرت صيدون بالضعف يدب في اوصال المملكة الفارسية لذلك وبمحافظة على زعامتها التجارية اتجهت بابصارها الى اثينا اليونانية فعقدت معها محالفة تجارية وسياسية سمح بموجبها لاهـالي البلدين بتعاطي التجارة بحرية مطلقة كل في اراضي حليفه والسكن فيها .

وبموجب الاتفاق الذي عقده ستراتون الاول ملك صيدون سنة ٣٦٨ ق.م مع مجلس الشيوخ الاثيني اعفي كل الرعايا الصيدونيين الموجودين في اثينا من دفـع الخراج والضرائب التي يدفعها رعايا تلك الدولة ومحالفوها .

وعمت النقمة ارجاء الامبراطورية الفارسية أثر تزايد الضرائب عليها فاندلعت الثورة في آسيا الصغرى وسوريا وفينيقية وأعلن استراتون الاول استقلاله التـام سنة ٣٦٢ ق.م مشكلاً قوة حربية اطلق عليها اسم جيوش التحرير ، وبادرت دولة اسبارطة الى مـده بالمال والرجال براً وبحراً . وعندئذ هب ملك مصر تاخوس لمهاجمة سوريا والاستيلاء عليها ولكنه التزم اخيراً ان يترك الملك وقيادة الجيش ويلجأ الى ارتحششتا نفسه حيث قتل عند اسوار طانيس سنة ٣٦٠ ق . م .

وفي سنة ٣٥٩ ق. م. مات ارتحششتا الفارسي ثم ابنه الاكبر داريوس فاستلم العرش ابنه الصغير (اوخوس) المعروف باسم ارتحششتا الثالث .

بطولة صيدون وحريقها :

توفي الملك البطل استراتون الاول عام ٣٦٠ ق. م فتولى عرش صيدون بعده تنيس .

وتابع تنيس هـذا لأول وهلة السياسة الاستقلاليـة التي وضع اسسها سلفه استراتون .

وكانت مصر قد أعلنت استقلالها التام عن الفرس ، ولذا عمد اوخوس الى ارسال جنوده الى فينيقية لتقي ثغورها وتحفظها تحت الطاعة والخضوع ، فنزل والي الفرس وجيشه مقابل صيدا وأخذوا يعاملون الاهالي معاملة قاسية جداً ، ثم تابع الجيش الفارسي زحفه لمقـابلة الجيش المصري الذي كان يقوده وقتئـذ القائدان اليونانيان ديوفانتوس ولاميوس فالتقا به في جهات غزة فكسراه شر كسرة وذلك في عام ٣٥٣ ق. م. واضطر اوخوس على اثرهـا ان يتراجع الى بلاده .

فلما ذاعت هذه الاخبار في البلاد وكان الاهلون قد ضجروا من مظالم الفرس ومصادرتهم لإملاكهم وأموالهم بما لا يستطيعون البقاء معه في رغد من العيش .

فتنادى اعيـان المدن الفينيقية للاجتماع في دار مشورتهم في طرابلس سنة ٣٥٢ ق.م (كما يقول نيني) وسنة ٣٤٨ق.م (كما يقول العلامة الخوري عيسى اسعد والاثري دونان) وقرروا خلع سلطة الفرس واعلان استقلالهم .

وعلى اثر عودة ممثلي مدينة صيدون اليها هـاجموا قصر نائب الملك الفارسي الذي كان يقيم فيه مع بطانته وقد سبق له ان سام اهلها مـا يكرهون وقتلوه جميعاً معلنين استقلالهم التام عن الدولة الفارسية .

وعمد الصيدونيون بعدئذ الى هدم القصر الملكي ومخـازن المؤن والذخائر المعدة لفرسان الفرس في صيدون وحشدوا عمـارة بحرية كبيرة من ذات الثلاث طبقات واستأجروا رجـالاً من الاجانب ليكونوا جنوداً يدافعون عنهم وزودوهم بالسلاح وأرسلوا وفداً يستقدم نيكتانبوس المصري لنجدتهم .

ما ان بلغت هذه الأنباء آذان أوخوس حتى ثارت فيه نخوة اجداده وأقسم ان لا بد له من الانتقـام من الفينيقيين وخصوصاً الصيدونيين ، فأخذ منذ عام ٣٤٨ ق.م يجمع الجيوش من المشاة والفرسان في بابل ولما كملت عدتها سار بها نحو الساحل . اما سوريا فلم تعصَ كفينيقية وكذلك كيليكية بل اعلنت خضوعهـا ولذلك امر اوخوس والي سورية ووالي كيليكية ان يزحفا بجنودهما على فينيقية وكانت مصر قد ارسلت نجدة الى تينيس ملك صيدا قوامها أربعة آلاف رجل من اليونانيين المستأجرين فانضم هؤلاء الى الجنود الصيدونيين وأصبحوا جميعاً يشكلون قوةاستطاعت رد الواليين الى الوراء .

وكان اوخوس وقتئذ لا يزال في بلاده ولذلك اسرع على رأس جيوشه الكثيفة التي قدر بعض المؤرخين عددها بحوالي ٢٠٠ الف جندي ، لتأديب العصاة والقضاء عليهم . وما ان بلغ تينيس ملك صيدون هذا النبأ حتى جزع منه وأخذه الخوف على نفسه فدعا بوزيره تيساليون من ارباب التدبير وارسله

الى الملك الفارسي ليتفق معه على تسليم صيدون عندما يأتي اليها بجنوده وبرغبتـه في السير بركابه لتأديب مصر لأنه يعرف بلدانها ومواقعهـا حق المعرفة .

سرّ اوخوس كثيراً من اخبارية الرسول غير ان كبرياءه ابت عليـه إلا الغضب والانتقام عندمـا طلب منه تيساليون وزير تينيس ان يمد الملك يده اليمنى علامة للقبول ؛ اذ امر بقطع رأس الوزير في الحال ولكن تيساليون قال للملك : انت يا مولاي حر في تصرفك ولكنك مع ذلك لن تتمكن من تنفيذ مأربك بدون مساعدة تينيس . ورجـع الملك عن قراره فبسط يده (وهي عادة مقدسة عند الفرس) . ثم امر الملك عندئذ بالزحف .

اما تينيس فلمـا امن جانب اوخوس (ارتحششتا الثالث) تقاعس عن الاستعداد ولكن الشعب الصيدوني لم يترك الوقت يذهب سدى بل تابع استعداده فأعد عمارة قوية من ذات الخمس طبقات كما تحصن بسور منيع واخذ يعلم الفتيان فنون الجندية . على ان كل ذلك لم يجد نفعاً لقاء خيانة ملكهم تينيس .

اذ ما ان دنا اوخوس من صيدون حتى امر تينيس اسرته الملكية بالتوجه الى طرابلس مع بطانته لعقد المشورة في دارها مع بقية المدن الفينيقيه . ثم اخذ مائة من الاعيان وسار بهم حتى معسكر الملك الفارسي فسلمهم ليده فأمر هذا بقتلهم عن آخرهم ، ثم تقدم الفرس نحو المدينـة فخرج اليه حوالي خمسمئة من رجالهـا وبأيديهم رسائل الخضوع فأخذ اوخوس تلك الرسائل والتفت الى تينيس متسائلاً عما اذا كان باستطاعته تسليم المدينة فأجابه هذا بالايجاب . وكان اوخوس يرغب في الانتقام من الصيدونيين ليلقي الرعب في قلوب الممالك الاخرى ولذا امر بقتل الخمسمئة رافضاً خضوعهم .

وراى الصيدونيون الخطر المحدق بهم وان خيانـة مليكهم جعلتهم فريسة لأعدائهم فأحبوا الموت بأيديهم وفضلوه على الموت بيـد المنتصر العاتي . فبادروا لاحراق سفنهم حتى لا يتمكن احد منهم من الهرب فيها ثم اجتمعوا ودخل كل بيته بنسائه واولاده وامواله واشعلوا النار فماتوا بها حرقاً بعد ان صارت اتوناً من النار المتقدة واحترق فيها زهاء الاربعين الف نسمة مع كنوزهم واموالهم فكانت هذه الحادثة الانتحارية اعظم ما دونه التاريخ في صفحاته المجيدة لبطولة شعب .

اما تينيس الخائن فقد شعر بمدى مـا ارتكبه بحق مدينته من إثم ، فأحب ان يقتل نفسه غير ان امرأته الوطنية سبقته الى ذلك منتقمة منه لمدينتها الحبيبة ثم قتلت نفسها فوقه حتى لا يطالها قانون اوخوس الجائر ...

وعين المنتصر ملكاً على صيدون بعدئذ احـد اتباعه وهو ايفاغوراس من العنصر القبرصي ثم استراتون الثاني الذي في ايامه وصل الاسكندر المكدوني الى هذه البلاد سنة ٣٣٣ ق . م .

حالة صيدون العمرانية والاقتصادية خلال الحكم الفارسي

كانت صيدون خلال القرنين من الحكم الفـارسي شأنهـا شأن بقيـة المدن الفينيقية ترتع في بحبوحة من الازدهار الاقتصادي والعمراني اذ امتدت ابنيتها الى مناطق غير مأهولة سابقاً فبني هيكل اشمون على الهضبة الشمالية الشرقيـة من مدينة صيدون وفي مكان مرتفع يشرف على نهر الاولي والى القرب من مصبه . وكان الفن المعماري الواضح في حجـارته ونقوشه مزيجـاً من الفنين اليوناني والفينيقي .

ونظراً لسعة رقعـة الامبراطورية الفـارسية وامتدادهـا وهي اكبر

الامبراطوريات في عصرها كانت السبل التجارية في ارجائها سهلة وامينة فازدهر الاقتصاد الزراعي والتجاري في صيدون وجنى التجار الارباح الطائلة .

وارتدى الأهلون الملابس على الزي الفـارسي – اي الثوب الطويل الذي يغطي القدمين .

وكانت قوافل سفنهم البحرية تنقل البضائع من موغـادور على الاطلسي غرباً الى بحر آرال شرقاً وقوافلهم تسير من بلاد النوبة جنوباً الى القوقاس شمالاً .

الفصل التاسع

Hellenic period

صيدون في العصر الهلليني ٣٣٣ — ٦٤ ق.م.

من هو الاسكندر المكدوني

هو ابن الملك فيليبس المكدوني الذي تولى عرش مكدونية سنة ٣٥٩ ق.م. وكان مقداماً شجاعاً اهتم بالجندية وهو اول من اخترع نظام الفالانكس — اي ترتيب صفوف كتيبة من اقوياء الجند يحملون رماحاً طويلة جداً متى بسطوها امامهم كانت لهم سياجاً من حديد لا يمكن الدنو منه — كما درب الفرسان على الفنون الحربية واعتمد عليها كثيراً اذ لم يكن للفرسان شأن يذكر قبل فيليبس لان امتطاء الخيول كان خاصاً بالاشراف فقط وادخل الى فن المحاربة تحسيناً آخر اذ الف قلب الجيش من صفوف المشاة المتراصة . وجعل جناحيه من الفرسان تزحف كلها معاً وكأنها آلة حربية واحدة .

استطاع فيليبس ان يوحد كل البلاد اليونانية تحت زعامته سنة ٣٣٨ ق.م. ما عدا اسبارطة .

في اواخر ايامه اختلف مع زوجته اولمبياس (والدة الاسكندر) فطلقها

وتزوج بأخرى اسمها كليوباترا وولد له منها ولد . وحاول فيليبس تعيين ابنه الصغير ولياً للعهد دون الاسكندر فأدى ذلك الى استياء محاربي الاسكندر فاستسنحوا الفرصة وفتكوا بفيليبس ابان حفلة زفاف ابنته سنة ٣٣٦ ق.م وتسلم اسكندر العرش وهو ابن عشرين سنة .

ولد الاسكندر في ٢٩ تموز سنة ٣٥٦ ق.م فعهد ابوه الى ليسيماك بتربيته الاولية . ولما بلغ الثالثة عشرة سلمه لاريسطو الفيلسوف اليوناني الذي عني به عناية خاصة . وكانت الياذة هوميروس اول شيء تعلمه فنشأ منذ حداثته حربياً ميالاً الى الجد.

رافق اباه وهو حدث في عدة معارك ابدى فيها من ضروب الشجاعة والاقدام ما ادهش به الناظرين وشارك في معركة خيرونيا التي وضعت اسس الوحدة اليونانية تحت زعامة المكدونيين — وهو ابن ١٨ سنة فادهش القادة المحنكين والأبطال .

ولما توفي ابوه سنة ٣٣٦ ق.م كان عمره عشرين سنة فقط فتولى الملك والأخطار تحدق به من كل جانب فقضى على كل من توقع مزاحمته على العرش ، كما اهتم بإخضاع الثائرين في الشمال فأدخل الرعب في قلوب العتاة وكل من زينت له نفسه التمرد عليه .

وبعدما هدأت الحركات في اوروبا قرر محاربة الفرس سنة ٣٣٥ ق.م فكتب له الفوز بثلاث معارك عليهم .

الاولى — معركة نهر غرانكوس على سواحل بحر مرمرة في ربيع سنة ٣٣٤ ق.م وكان جيش الاسكندر لا يحسب شيئاً مذكوراً ازاء جيش الفرس العظيم .

الثانية — معركة مضيق ايسوس قرب الاسكندرونه في ٢٩ تشرين الثاني سنة ٣٣٣ ق.م فاز فيها على جيش داريوس الضخم وأسر ام داريوس وامرأته وابنه ، وفر داريوس الى الشرق .

الثالثة – معركة اربل على ضفاف الدجلة في ٢ تشرين الاول سنة ٣٣١ق.م حيث كسر الفرس شر كسره وفرق شملهم تفريقاً لا اجتماع بعده .

وأتم الاسكندر فتح بلاد الفرس بمدة ثلاث سنوات ثم هاجم الهند سنة ٣٢٧ق.م وأخضعها لحكمه وعاد الى بابل سنة ٣٢٤ق.م وفيها سولت له نفسه توحيد الفرس واليونان فصاهرهم وأجبر قادته ان يفعلوا مثله، وأدخل في الجيش اليوناني عدداً كبيراً من جنود الفرس محاولاً ان يجعل العالم كله دولة واحدة وأمة واحدة .

ولكن حظ اليونان لم يكمل لقصر حياة الاسكندر الذي مات سنة ٣٢٣ق.م لمضي ١٢ سنة و ٨ اشهر على ملكه وهو في الثالثة والثلاثين من عمره .

صيدون في عهد الاسكندر



الاسكندر المكدوني

بعد ان تغلب الاسكندر على داريوس الفارسي في معركة ايسوس عام ٣٣٣ق.م وفرار الاخير الى الشرق مع بقية جيوشه اتجه الى الثغور السورية وفي طريقه لقيه ملك ارواد وجوارها وقدم له تاجاً من ذهب ومسلماً اليه جزيرة ارواد، ومر بطرابلس والبترون وجبيل وبيروت فخرج اليه السكان والامراء معلنين خضوعهم . وقبيل وصوله الى صيدون دعاه اعيانها لدخول مدينتهم مرحبين بقدومه ومعلنين خضوعهم له وابتهاجهم بانقاذهم من الفرس فدخلها منصوراً .

وكان الفرس قد عينوا على صيدون الملك استراتون الذي كان قد انضم الى العمارة الفارسية وفر من المدينة . ولذا عمد الاسكندر فور دخوله صيدون الى تعيين ابدالينموس حاكماً عليها وكان هذا من انسباء العائلة المالكة الصيدونية غير انه كان فقيراً بستانياً ولكنه يتمتع بجميع الصفات والمزايا الحميدة والحكمة التي تؤهله للحكم .

ثم تابع الاسكندر زحفه نحو صور التي كان ملكها ازمليكوس متحالفاً مع الفرس فأرسل هذا ولده مع وفد يعلن الطاعة ولكنه يطلب عدم دخول المدينة ومنحه بعض الامتيازات فرفض الاسكندر هذا الطلب وصمم ان يمتلكها (لانه كان يخشى المسير الى مصر تاركاً خلفه مدينة حصينة كصور غير خاضعة له مما قد يسبب له المتاعب لو عادت الى تحالفها مع الفرس) وليقدم بنفسه كفّارة الى ملقارت هركيل (لان الملوك المكدونيين كانوا يعتقدون انهم من نسل ذلك المعبود) . ولكن الصوريين ابوا ذلك ولذا عمد الاسكندر الى فرض الحصار على الجزيرة بعد ان دمر صور البرية .

وطال الحصار زهاء سبعة شهور تمكن بعدها الاسكندر من دخول المدينة البحرية بمساعدة الاساطيل الفينيقية ولا سيما الصيدونية منها التي بادرت للانتقام من جارتها، لأنها لم تبادر الى نجدتها ايام تعرضت لهجوم (اوخوس) الفارسي مما سبب نكبتها الكبرى وقتئذ .

ومما يروى عن شجاعة الاسكندر وبسالته إبان حصار صور، انه تم فتح منفذ في أحد الأسوار فصعد اليه احد قادته الشجعان فقتل، فلم يرد الاسكندر اضاعة الفرصة فأسرع وصعد الى برج عال محاذ للسور فصوب الصوريون اليه سهامهم فلم يخشاهم بل اقتحمهم، فقتل بعضهم بسيفه وبعضهم بمجنه ودخل المدينة على رأس قواته ثم اتجه نحو القصر الملكي وأقام فيه . أما الصوريون فقد ساءهم الفتح فاعتصموا في منازلهم وأقاموا فيها محاصرين حتى قتلوا او اسروا .

ولما استتب الامر للاسكندر في صور أشفق على الناجين وعلى خراب المدينة فاستحضر جماعة من الكاربيين وأسكنهم فيها وسمح لهم باعادة بنائها . ثم تابع زحفه متجهاً الى مصر فاستولى على كل المدن سلماً ما عدا غزة التي قاومته فحاصرها مدة شهرين ثم دخلها عنوة . وفي مصر بنى مدينة الاسكندرية ٣٣١ ق.م ثم عاد الى صور حيث قدم الذبيحة لهركيل . وتابع بعدئذ زحفه الى بلاد فارس والهند .

وبعد وفاة الاسكندر سنة ٣٢٣ ق.م قسمت مملكته الى اربع ممالك كبرى هي :

١ – مصر : تولاها بطليموس سوتير مع بر العرب وفلسطين .

٢ – مكدونية وبلاد اليونان : تولاها كاسندر .

٣ – تراكيا وآسيا الصغرى : تولاها ليسياس .

٤ – سوريا وما بين النهرين الى الهند : تولاها سلوقس .

صيدون تحت حكم السلوقيين والبطالسة

تولى حكم سورية وفينيقية لأول وهلة القائد اليوناني ليومبدون وكان يحكم مدينة صيدون وبقية المدن الفينيقية امراؤها من السلالات الوطنية الحاكمة فنعمت جميعها بالراحة حتى عام ٣١٨ ق.م اذ طمع بطليموس حاكم مصر بضم اليهودية وفينيقية وقبرص الى مملكته اتقاء لهجمات ذوي المطامع فأرسل نيكاتور القائد بجيش بري – عندما بلغته انباء اختلاف القائدين الكبيرين انثيغون واومين – الى سوريا وقاد هو الاسطول لفتح السواحل فتوفق الاثنان بعد ان سقط ليومبدون اسيراً بيد نيكاتور ودخلت فينيقية كلها بما فيها صيدون تحت حكم بطليموس الذي أقام فيها الخفراء للدفاع عنها .

ولكن لما تحالف بطليموس وكساندر وليسيماخوس وسلوقوس سنة ٣١٥ ق.م ضد انثيغون واخذوا منه قبرص . حشد هذا جيشاً كبيراً وقدم به الى سورية للثأر من بطليموس فلم تحل استعدادات الاخير العظيمة دون فوز انثيغون ببغيته فاحتل سورية ولبنان وانشأ مراكز لجمع غلال القمح في كل من طرابلس وجبيل وصيدون .

وحتى يتمكن من الانقضاض على بطليموس اتخذ انثيغون مدينة صيدون مركزاً لقيادته حيث جمع تحت امرته ملوك فينيقية وهيأ الجيش ثم زحف بهم نحو صور ولكن هذه المدينة لم تستسلم لاول وهلة لذلك جمع انثيغون ثمانية آلاف رجل وامرهم بقطع اشجار الارز من جبال لبنان ففعلوا واحضر الف ثور فأمر الرجال بربط الخشب الى اعناقها لجره الى طرابلس وجبيل وصيدون ليبني بها سفناً له ولما تم بناء السفن جاء بهذه العمارة الى صور فحصرها بحراً بعد ان كان يحاصرها براً فقط وتمكن بعد خمسة عشر شهراً من دخول مدينة صور والاستيلاء عليها سنة ٣١١ ق.م .

ومن صيدون ارسل انثيغون عمارته لمحاربة عمارة بطليموس في قبرص فكسرها وشتت شملها واستولى على الجزيرة .

وفي عام ٣٠٧ ق.م حاول انثيغون الاغارة على مصر غير انه لم يكتب له النجاح . وأثر تراجعه عاد بطليموس فاستولى على ثغور فينيقية مدة يسيرة اذعنت له كلها ما عدا مدينة صيدون التي وقفت تدافع عن كرامتها وعن ولائها لانثيغون . وابان حصار بطليموس لها وصله نبأ يقول بفوز انثيغون وقرب مجيئه فجزع وعقد هدنة مع صيدون وانكفأ عائداً الى مصر .

وإثر وفاة انتيغون سنة ٣٠١ ق.م. دخلت صيدون وصور وبقيـة المدن الفينيقية تحت حكم البطالسة بالرغم من محاولات سلوقوس وابنه انطيوخوس الاول وحفيده انطيوخوس الثاني الاستيلاء عليها .

وتمكن السلوقيون في عام ٢٨٤ ق. م. من الاستيلاء على صور وصيدون مع بقية المدن الساحليـة اللبنانية ، وأبقوا الحكم الداخلي في ايدي حكامها الوطنيين .

ثم جـاء بطليموس ايوار جستيس ملك مصر على رأس حملة قوية فاستولى على سلوقية وصور وعكا حرباً؛ أما صيدون فقد استسلمت بدون حرب الى امير البحر المصري نيقولاوس الذي التجأ اليها بعد معركة بحرية بينه وبين السفن السورية سنة ٢٤١ ق. م. .

وتابع بطليموس زحفه في داخلية البلاد دون مقاومـة تذكر حتى بلغ نهري دجلة والفرات .

وفي ايام انطيوخوس الكبير زحف هذا لمقابلة الجيوش المصرية التي كان يقودها القائد سكوباس وبعد معركة حاسمة في بانيوم انهزم القائد المصري ملتجأ الى مدينة صيدون ولكن جيوش انطيوخوس لاحقتـه وحاصرته فيهـا حصاراً شديداً دفعه الى تسليم المدينة .

وبفتح صيدون تم انضمام فينيقية كلها للدولة السلوقية .

وفي سنة ١٨٦ ق.م. قتل انطيوخوس وتولى الملك بعده ابنـه سلوقوس فيلوباتر حتى سنة ١٧٦ ق.م وقتل. فتولى بعده اخوه انطيوخوس ابيفانوس حتى سنة ١٦٤ ق.م. وجلس على العرش بعده ابنـه انطيوخوس اوباتور — وفي ايامه جاء البطالسة وحكموا لبنان فترة من الزمن ثم استردها منهم السلوقيون.

وظلت صيدون وبقية البلاد اللبنانية تتعاورها ايدي البطالسة والسلوقيين حتى سنة ٦٥ ق.م. ولكنهـا مع ذلك ظلت تتمتع باستقلال داخلي بدليل وجود مسكوكات وطنية يعود تاريخها الى سنة ١٢٦ ق.م .

وبعد مدة اخذ النفوذ العربي طريقه الى الظهور . اذ ان الحارث المعروف بكتابات الافرنج باسم ارتاس وهو احـد ملوك العرب من آل غسان اتى مدينة دمشق مسخلصاً اياها من حكم السلوقيين سنة ٨٥ ق.م. ومنذئذ بـدأ تغلغل القبائل العربية الى المناطق الساحلية واستيطانها ولاسيما في منطقتي صور وصيدون ؛ وما لبثت اعدادهم ان تزايدت فيها بعد فترة وجيزة (جاك نانتي وجرجي يني) .

حصار صيدون في هذه الفترة

كانت المدنية التي تربط بين الفينيقيين واليونانيين متقاربة ومتجانسة وهي اقرب بكثير من تلك التي تربطهم بشعوب ما وراء الفرات . ولذا رأينا انه بانتصار الاسكندر تحققت اماني المفكرين من ابنـاء المدن اللبنانيـة المتأثرين بفلسفة اريسطو وافلاطون وسقراط فتلقفوها مستسيغين حكمها وبهاءها ..

وترك الاسكندر لأبناء البلاد حكمهم الاداري الوطني تحت رعايته ورعاية خلفائه .

واستعمل الاهلون الدراخمـا والتيترا دراخمـا كنقد للتداول في البيع والشراء وبنوا المدن الحديثة على الطراز اليوناني كما اخذت المدن القديمة تستعمل في ابنيتها الحديثة الاعمـدة ذات الاشكال الهندسية اليونانية مع الاحتفاظ بطابع بنائها القديم .

والى جانب الفلسفة اليونانية التي تغلغلت في البـلاد دخل معهـا عبـادة

آلهتهم ايضاً مع بعض عاداتهم كالألعاب الاولمبية . فـأصبح الإله هيراكليس عوضاً عن ملقـارت وبعل زيوس عوضاً عن افروديت وتعلم الأهلون اللغـة اليونانية الى جانب لغتهم السامية التي احتفظوا بهـا كما احتفظوا بعـاداتهم الاصلية وبملابسهم (جاك نانتي وجرجي يني) .

الفَصْلُ العَاشِر

صيدون من الحكم الروماني حتي ظهور المسيحية

٦٤ ق.م. - ١ م

الرومانيون - لمحة عنهم

الرومان قبيلة شرقية الأصل ظعنت من الأناضول الى أوروبا وأقامت في وسط ايطاليا نحو اربعة قرون قبل بناء رومة .

وروميلوس احد المتسلسلين من هؤلاء بنى رومة سنة ٧٥٣ ق.م. ثم ملك عليها وخلفه ستة ملوك آخرون في مدة ٢٤٤ سنة عظم خلالهـا شأن رومة ووفرت ثروتها .

ولما امتدت تخوم المملكة تحولت الحكومة الى جمهورية سنة ٥٠٩ ق.م. وضبط زمام أمورها قنصلان كان الاشراف يختاروهما لمدة محدودة .

وفي الحروب التي دارت بين رومـة وقرطاجة انتصرت الأولى وضمت اليها صقلية واسبانيا وافريقيا (٢٦٤ – ١٤٦ ق.م.).

وبالرغم من المنازعات الاهلية فقد اتسعت تخوم الدولة الرومانية وأصبحت فرنسا اقليماً رومانياً وصارت رومة اعظم دول العالم وقتئذ سنة ٥٤ ق.م.

ثم تحولت الحكومة الى الملكية في ايام أغسطس قيصر في اوائل الاجيال المسيحية كما ساد السلام منذ ايامه والى مئتي سنة ويدعوها المؤرخون قرني السلام؛ الاول (٣١ ق.م. – ٦٨ م) والثاني (٦٩ – ١٦٧ م).

صيدون خلال الحكم الروماني

بعد ان تردت حالة الدولة السلوقية جاء الرومان بقيادة بومبيوس سنة ٦٥ ق.م. فاجتاح سورية وفلسطين والسواحل ومصر وأخضعها للحكم الروماني وتم له ذلك في سنة ٦٤ ق.م. وأبقى الحكم الداخلي في البلاد التي مر بها وخاصة في المدن الفينيقية بأيدي ابنائها الوطنيين تحت امرة حاكم روماني .

وعندما جاء القائد مارك انطونيوس كحاكم للشرق وعشق كليوباترة ملكة مصر وهبها كل المدن السورية الواقعة بين مصر ومصب النهر الكبير ما عدا مدينتي صيدون وصور فانه حفظهما لنفسه ومنحهما استقلالهما الذاتي .

ولقد حفظت المدينتان لانطونيوس الجميل اذ انهما لما وقع الخلاف بين اوكتافيوس وأنطونيوس ساعدتا الثاني ولكنهما وقد تغلب اوكتافيوس اذعنتا له سنة ٣٠ ق.م وقدم زعماء المدينتين الخضوع فقبل ذلك .

وعاملت الدولة الرومانية الاهلين بالحلم والرفق والعدل فرتع الناس خلال حكمها بالامن والسلام واعتاضت صيدون عن اهميتها السياسية بالشهرة في المعارف والعلوم واتقان صناعتي الزجاج والارجوان وغير ذلك .

وتأسس فيها مدرسة فلسفية كانت تعلم وفق المنهاج المتبع في مدرسة

الاسكندرية فلسفة ارسطو إلا ان مبادئها كانت مزيجاً من الفلسفة اليونانية والشرقية . وكان بعض اساتذتها يحاول التوفيق بين الفلسفة والدين كما ذكر المؤرخ سترابو .

وفي العصر الروماني المنتهي في سنة ١٠٦ م تمتع عدد من المدن السورية واللبنانية بحريات واسعة وامتيازات متعددة منها انطاكية وصور وصيدون وجبيل وبيروت وتدمر ودمشق كما نال بعضها لقب مستعمرة كصور وصيدون وبيروت وانطاكية بمعنى ان سكان هذه المدن اعتبروا في نظر الشرع الروماني مواطنين رومانيين لهم ما لأهل روما وايطاليا من الحقوق المدنية والامتيازات الادارية مثل اعفائهم من الضرائب الثلاث التي كانت تجبى من غير الرعايا. وهي ضريبة الاعناق والمكلفين وضريبة الاملاك – الويركو – وضريبة الجمارك والمكوس .

وظهر في هذه الفترة عدد من الامارات المستقلة في بلادنا حكمتها حكومات عربية مثل آل سميذع في تدمر وآل سمسيغرام في حمص وفي سورية الداخلية والدولة النبطية في البتراء التي امتد حكمها على دمشق وحوران وسهول مرجعيون والاردن ودام حتى عام ١٠٦ م ثم الدول العربية التي قامت من بطون تنوخ وغسان (امين الريحاني) .

وفي هذه الايام تحول اسم مدينة صيدون الى صيدا .

الحقبة الثانية

صيدا

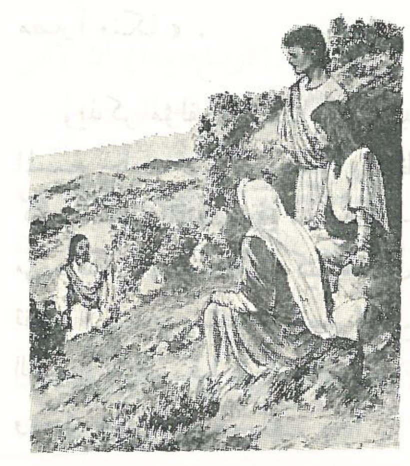
من سنة ١م. إلى ١٢٩١م.

الفَصْلُ الأول

ظهور المسيحيـــة

السيد المسيح وأمه في صيدا

ورد في الإصحـاح الخامس عشر من انجيـل متى عن مجيء السيد المسيح الى صيدا مـــا يلي : « ثم خرج من هناك وانصرف الى نواحي صور وصيدا » .



السيد المسيح وأمه
في ضواحي صيدا (مغدوشة)

وورد في الاصحاح الرابع من انجيل لوقا : « ولم يرسل ايليا الى واحدة منها إلا الى امرأة أرملة الى صرفة صيداء»[1].

وجاء في الاصحاح الثالث من انجيل مرقس : « والذين حول صور وصيدا جمع كبير اذ سمعوا كم صنع، أتوا إليه » .

(١) صرفة صيداء : الصرفند حالياً .

كما ورد في الاصحاح السادس من انجيل لوقا : « ونزل معهم ووقف في موضع سهل هو وجمع من تلاميذه وجمهور كثير من الشعب ومن جميع اليهودية وأورشليم وساحل صور وصيدا الذين جاءوا ليسمعوه ويشفوا من أمراضهم».

وفي انجيل متى الاصحاح الحادي عشر ورد ما يلي : « ويل لك يا كور زين ويل لك يا بيت صيدا ، لأنه لو صنعت في صور وصيدا القوات المصنوعة فيكما لتابتا قديماً في المسوح والرماد ولكن ، الحق اقول لكم ان صور وصيدا تكون لهما حالة اكثر احتمالاً يوم الدين مما لكما » .

وفي انجيل لوقا – الاصحاح العاشر :

« الويل لك يا خورزين ! الويل لك يا بيت صيدا ! لأنه لو جرى في صور وصيدا ما جرى فيكما من العجائب لتابتا من عهد بعيد ، جالستين في المسوح والرماد ، ولذلك فان صور وصيدا ستكونان في الدينونة ، أهون مصيراً منكما » .

ويذكر مؤلف كتاب « سيدة المنطرة » ان العذراء مريم والدة السيد المسيح جاءت الى تخوم صيدا وانتظرت ابنها في المكان الذي يحمل الآن اسم كنيسة سيدة المنطرة في مغدوشة – البلدة الجميلة الواقعة الى الجنوب الشرقي من صيدا وعلى مسافة ٥ كيلومترات منها – ويعلل هذه الحادثة باستناده الى تقليد قديم يستند الى نص الانجيل الشريف الاصحاح السابع من بشارة القديس مرقس فيما يلي : « ثم نهض منهناك وانطلق الى نواحي صور وصيداء ودخل بيتاً . الخ ... »

واستناداً الى هذه النصوص فان التقليد يرجح ان السيد المسيح قد اتى المغارة (كنيسة المنطرة حالياً) ولحق بأمه الى هناك لأنه اذ لم يرد انتدخل امه البتول المدينة الوثنية الملطخة بالفساد اوعز اليها ان تسبقه الى المغارة

برفقة القديس يوحنا الحبيب . فذهبت العذراء الى المغارة واستراحت من عناء الطريق منتظرة رجوع ابنها اليها . ولهذا سميت « المنطرة » ومنذئذ جعل المكان مسكناً للنساك المتعبدين للعذراء القديسة ولإبنها المسيح ...

القديس بولس الرسول في صيدا

وإبّان كرازته وتبشيره بالديانة المسيحية مر بها القديس بولس الرسول . ويختلف الرواة في تاريخ مروره بها . فمن قائل انه انطلق منها الى روما على متن سفينة اثناء رحلته الثانية في عام ٥٨ م. (جاك نانتي) . كما يذكر الاستاذ حليم نجدلاني في كتابه « دليل صيدا الاثري » ان بولس الرسول عندما رفع دعواه الى القيصر سافر الى روما من مرفأ صيدون وكانت الحركة التجارية في هذه المدينة بالرغم مما اعتراها من جمود لا بأس بها .

ويقول الاستاذ الشيخ احمد عارف الزين في كتابه :(تاريخ صيدا) ان بولس الرسول مر في صيدا لتفقد شؤون المسيحيين وذلك حين ذهابه الى روما .

اما الاستاذ سليم بسيسو فيذكر في مجلة « العربي » الكويتية العدد ٤٨ سنة ١٩٦٢ صفحة ٦٨ – ٩١) : ان القديس بولس الرسول مر في صيدا ابان عودته من روما .

والمدقق يلاحظ؛ انه وان اختلفت الآراء حول زمن مرور بولس الرسول في مدينة صيدا في طريق ذهابه الى روما او ايابه منها ، فان من المؤكد ان مروره بها قد حصل وانه وهو المبشر الاكبر بالديانة المسيحية لا بد وان يكون له الفضل في غرس بذرتها في المدينة ونواحيها ..

ومن صيدا ارسل القديس بولس ٩٠ مبشراً بالديانة المسيحية الى ارجاء الجبل اللبناني (تاريخ لبنان لجاك نانتي) .

وهكذا اخذت الديانة المسيحية تنتشر بسرعة في صيدا وجوارها حتى انها اصبحت في اوائل القرن الرابع المسيحي مقر اسقفية .

صيدا في عصر الاباطرة السوريين

ظلت صيدا مع بقية المدن الفينيقية تحتفظ بامتيازاتها السياسية كمستعمرة رومانية الى عهد سبتيموس سيفيروس اذ انــه في عام ١٩٣ ق.م قسم حكم فينيقية الى قسمين : فينيقية الساحلية وتشمل المدن الساحلية ؛ وفينيقية اللبنانية وتشمل الجبل اللبناني وسهل البقاع ومدينة حمص .

وتفصيل ذلـك : ان القيصر سيفيروس عندما استتب له الامر في روما امر سنة ١٩٣ ق.م بوضع فئة من الجيش في مدينة صور بصورة دائمة والغى الامتيازات الممنوحة سابقاً للمدن الفينيقية بعد ان قسمها الى قسمين ساحلية وداخلية ضمن الولاية السورية .

وعندما جــاء الى انطاكية عام ٢٠١ م بايع لأبنه كراكلا من زوجته السورية النشأة والحمصية المولد جوليـــا دمنه التي تزوجها عندما كان قائداً للجيش الروماني في سوريا سنة ١٨٠ م ، ولأن عرّافــاً بشرها قائلا وقتئذ انها ستتولى الملك .

وجلس كراكلا على العرش سنة ٢١١ م وسار الى آسيا سنة ٢١٦ م وامه معه فأقامت في انطاكية . ولمـــا جاءها خبر مقتل ابنها بيد ماكرينوس ، تكدرت كثيراً ، فأماتت نفسها جوعاً سنة ٢١٧ م . أمــا روما فقد بايعت ديادومينوس بن ماكرينوس قيصراً . ولكن السوريين الذين شعروا بلذة الحكم التفوا حول امرأة كراكلا التي اذاعت ان حفيدها باسيانوس (الكاهن اليافع لهيكل الشمس في حمص) هو ابن القيصر ، فألبسته الحـــلة القيصرية وكانت محترمة من الجيش الروماني،وخرجت به من ابواب حمص ومعها العائلة المالكة

وسائر الحشم ومنهم اثيشوس وكافيس المشهور بالحكمة والثبــات في الرأي ، ودخلوا مخيم الجيش الرابض خارج البلدة فاعترفوا بــه قيصراً وسموه باسم اوغسطوس آيلوكابال وقرروا مؤازرته، فأغدق عليهم الاموال . ثم توجه على رأس الجيش لمحــاربة ماكرينوس فتمكن منــه في ٨ حزيران سنة ٢١٨ م بالقرب من انطاكية ، وعم السلام الارجاء السورية بما فيها فينيقية .

ولم يذهب الامبراطور الى روما إلا في سنة ٢١٩ م حيث أدخل معه اليها عبادة الأصنام التي كان من كهنتها في سوريا كما أدخل معه العبادات السورية ، ولكن نسيبه القيصر اسكندر سيفيروس الذي خلفه في الملك عمد الى ابطالها إذ شعر باستنكار الاهلين للديانة الجديدة وأعاد بناء هيكل روما كما أمر بإعادة الاصنام وعباداتها الى سورية .

تسلم اسكندر سيفيروس الحكم سنة ٢٢٢ م ، فأحسن السياسة وعدل بين الناس فأحبه الشعب وأجمعت قلوبهم على الولاء له ، ويذكر المؤرخون سيرته بأحسن ما تميز بها الملوك العادلون المحسنون ، وأشهرها انتصاره على الفرس في أيام ازدشير بن بابك الساماني ومحافظته على الاخلاق وتأثيره على الجنــد . وقد قتل هذا القيصر غيلة بيد مكسيمين سنة ٢٣٥ م ابان حروبه مع الالمان في جوار مايتس .

وظلت فينيقية وسورية تتمتعان بشبه استقلال داخلي في امورهما حتى جاء سابور بن ازدشير سنة ٢٥٨ م الى انطاكية فدمرهـــا وأعمل في سكانهـا القتل والسلب .

اذينة وزنوبيا

في عــام ٢٦٠ م قام اذينة بن السميذع صاحب تدمر العربي بدفع الفرس منجداً الرومانيين ، فانتصر عليهم وأجلاهم عن سورية بعد ان كانوا اسروا

الامبراطور الروماني فاليريانوس . ومكافأة له (أي لأذينة) جعله كالينوس شريكاً له في السلطنة وعينه ملكاً على الولايات الشرقية سنة ٢٦٤ م .

وأثر مقتل اذينة في حمص – صيف سنة ٢٦٦ م – تقلدت زوجته زنوبيا زمام الاحكام سنة ٢٦٧ م كوصية على ابنها البكر وهب اللات .

زنوبيا العربية ملكة تدمر

كانت زنوبيا بديعة الصورة حسنة الهندام ، ولكن جمالها لم يطوح بها الى وادي التهتك بل لزمت جانب العفاف فصانت هيبتها من العبث، وقد حوت في صدرها قلباً لا يخاف الاهوال وفي رأسها دماغاً طموحاً الى المعالي. وروي انها كانت تفقه كل اللغات التي يتكلم بها اهل تدمر واثينا ، كما كانت مولعة بمطالعة كتب هوميروس وافلاطون ، فتفوقت في الشعر والفلسفة ، ولذلك استقدمت اليها من اثينا لونجين الفيلسوف الحمصي الأصل وجعلته وزيراً ومستشاراً لها ، كما استقدمت من انطاكية العالم بولس السميساطي وعينته في بلاطها .

وامتازت زنوبيا ايضاً في الفروسية اذ انها كانت من اقدر الناس على ضبط شكيمة الخيل .

بهذه المواهب الممتازة ملكت زنوبيا قلوب رعيتها فاصبحوا رهن اشارتها وعندئذ شعرت ان الاكتفاء بضبط زمام الاحكام في تدمر وما جاورها انما هو قعود لا يرضاه ذوو النفوس الكبيرة ولذلك فكرت في احياء المملكة السلوقية في الشرق فبادرت الى تجهيز حملة كبيرة اسلمت قيادتها الى البطل التدمري زبدي الذي تمكن من فتح آسيا الصغرى وبادرت زنوبيا لنجدته حينما هب هراكليان على رأس جيش غاليان الروماني لملاقاته فتمكنت من تحطيم جيشه بعد ان قتلت القائد هراكليان الروماني سنة ٢٦٨ م .

ولم تكتف زنوبيا بهذا النصر بل قررت ان تفتح القطر المصري وتضمه الى امبراطوريتها ولذا جهزت جيشاً مؤلفاً من سبعين ألف مقاتل في اواخر سنة ٦٦٩ بقيادة زبدي التدمري . وسار الجيش التدمري ففتحت له المدن السورية ابوابها مرحبة ومعلنة الولاء واتجهت بعض قواته نحو المدن الفينيقية فدخلتها ايضاً دون اهراق قطرة من دماء وفي عدادها مدينة صيدا وتابع الجيش التدمري الزحف على مصر فاستولى على الاعمال الشمالية منها بسهولة ولكن الجيش الروماني الذي تجمع في مصر السفلى بقيادة القائد بروبس تصدى للتدامرة عند منف وبعد حرب طاحنة انتصر الجيش التدمري العربي ووقع بروبس نفسه اسيراً في قبضتهم ...

وباستيلاء زنوبيا على مصر ، اصبحت حدود مملكتها ممتدة من الشمال الى أقاصي آسيا الصغرى، ومن الشرق الى الفرات، ومن الجنوب الى ضفتي النيل، ومن الغرب الى البحر الابيض المتوسط .

هذه الانتصارات التي حققتها زنوبيا في فترة وجيزة من الزمن دفعها الى الالتفات الى الاصلاح داخل مملكتها الواسعة فحققت السلام والراحة والعمل والرخاء لجميع شعوبها مما سر له الشرقيون لا سيما وان الملكة التي تحكمهم هي من بنات وطنهم البالغات في الحكمة شأواً عظيماً .

ثم لقبت زنوبيا ابنها وهب اللات اوغسطوس وأزالت اسم القيصر عن النقود التي سكتها وعمدت الى سك نقود جديدة تحمل صورتها وصورة ابنها.

فاغتاظ القيصر الروماني اورليانوس الذي تسلم العرش سنة ٢٧٠ وعزم على ارجاع شأن السلطنة الرومانية وتعزيز كلمتها في الشرق فأرسل حملة عظيمة على مصر تمكنت من اخراج التدامرة منها بالقوة. ثم جاء بنفسه لمحاربة زنوبيا، وبعد حروب ضارية تمكن من فتح تدمر واقتاد ملكتها أسيرة الى روما بعد

عرضها على جماهير الشعب الروماني تسير أمام موكبه مغلولة الأيدي في قيود من ذهب .

وكانت صيدا مع كافة المدن الفينيقية قد دخلت تحت حكم التدمريين في عام ٢٦٩ م وظلت كذلك حتى تاريخ سقوط زنوبيا سنة ٢٧٣ م فعادت الى الحكم الروماني .

ونتيجة لانتصار اورليانوس حرم هذا سورية من التمتع بلذة الاستقلال – وكأنه كتب على هذه البلاد ألا تحكم نفسها بنفسها – .

ولما مات اورليانوس سنة ٢٧٥ م وأصبح تاسيوس قيصراً عين هذا القائد مكسيميين والياً على سورية .

وكان الاخير متغطرساً قاسياً فهاتج الأهلون من سوء تصرفه لا سيا وأنهم كانوا خارجين بالسيف من تحت حكومة وطنية عربية الى حكومة أجنبية فنشروا راية الثورة في سائر البلاد وقتلوا الوالي المذكور وساروا يقودهم عدد من القادة المدربين الوطنيين لملاقاة القيصر في آسيا الصغرى فقتلوه ثم اتبعوه بأخيه فلوريانوس. فخلفه على العرش الامبراطور بروبوس الذي جاء سوريا سنة ٢٧٩ وقضى على الفتنة وأخضع المدن السورية واللبنانية جميعاً (يني : تاريخ سوريا) .

وفي ايام ديوكليتيانوس الذي تبوأ العرش الروماني سنة ٢٩٢ ق.م قسمت الامبراطورية الرومانية الى اربعة اقسام تولى هو القسم الشرقي منها ولقب نفسه اغسطوس واعطى شريكه الاول كالاريوس حكم الولايات الالمانية وولى مكسيميانوس على ايطاليا وافريقيا واقام قسطنطينوس على الولايات الغربية كاسبانيا وغاليا وبريطانيا ..

الحالة الاقتصادية خلال هذه الفترة

يعتبر العصر الروماني من اسعد العصور للمنطقة السورية واللبنانية . اذ ازدهرت الصناعة والتجارة والزراعة فتدفقت مناهل الثروة ونعم الاهلون برفاهية لم يخبروها لا من قبل ولا من بعد مما جعل بعض المؤرخين يطلق على هذه الفترة من الزمن – العصر الذهبي .

وبلغ عدد سكان سورية ولبنان وقتئذ ما يقارب الثمانية ملايين نسمة .

وتميزت المدن الساحلية بصناعة الارجوان ولا سيما مدينة صيدا التي كانت تحيك الملابس الحريرية وترسلها الى روما ليرتديها الاباطرة وزوجاتهم ورجال البلاط وكبار الاثرياء . وكانت المصنوعات السورية واللبنانية كافة من زجاج ملون واسلحة واقمشة كتانية وجلود وزيوت عطرية واصواف ملونة تعرض في اسواق امهات مدن الامبراطورية الرومانية .

اما التجارة فقد سهلت مرافقها ببناء الطرق الرومانية المعبدة المتينة التي كانت تربط الولايات بعضها ببعض فتسهل معها المعاملات التجارية .

وكذلك قل عن الزراعة فقد اصبحت البلاد بفضل مختلف منتوجاتها الزراعية من اغنى ولايات الامبراطورية (فكانت صيدا تصدر الزيت والزيتون والتين . والبقاع وسورية الداخلية وحوران الحبوب بانواعها المختلفة، ودمشق الفواكه الشهية، وجبال لبنان النبيذ ، وصور وبيروت الكتان) مما جعل المؤرخين يطلقون على سورية آنئذ لقب اهراء روما .

الفنون والعلوم

لم يكن حظ الفنون والعلوم والمعارف في بلادنا بأقل من حظ الصناعة والتجارة والزراعة . فقد تأصلت الحضارة الرومانية في الذوق والفكر

اللبناني والسوري وتهافت عليها أبناء البلاد وتلقفوها — وقد عُرفوا في التاريخ بميولهم الى الآداب الرفيعة والفنون الجميلة — واقتبسوا انوار المدنية الرومانية وأحيوا معالمها بينهم ، فاكتظت البلاد بمعاهد العلم والفن وبالمؤسسات الدينية والمدنية من هياكل ومسارح ومتنزهات عمومية وحمامات وقناطر وأقنية لجر المياه .

وخص الرومان مدينة بيروت بعناية كبرى وذلك في عهد اغسطوس قيصر لحسن موقعها الجغرافي ولمناصرتها له إبان خلافه مع انطونيوس؛ بينما نراه لا يأبه قط لصور وصيدا لاعتناقها قضية خصمه . فشادوا في بيروت الهياكل الفخمة والأبنية الجميلة والمقاصف والملاعب التي تتخللها الحدائق والبساتين . كما أسس في بيروت الفقيهان بابنيان وأوليبيان مدرسة الحقوق .

وكانت اللاتينية لغة الجيش والفقهاء واليونانية لغة الخطباء والفلاسفة والآرامية والعربية القديمة لغتا السواد الأعظم من الشعب .

الديانة

تاريخ بلادنا الديني في هذه الفترة حافل بكبريات الحدثان التي كان لها شأن عظيم على مصير تاريخ البشرية واتجاهها الجديد . ومن ذلك :

١ – ولادة المسيح في السنة الرابعة عشرة من ملك اغسطوس قيصر في بيت لحم اليهودية وعيشته المستورة في الناصرة وتعاليمه السامية التي غيرت وجه تاريخ الانسانية ، وقد دوّن الانجيليون هذه السيرة وتلك التعاليم بأناجيلهم الأربعة المنسوبة الى متى ومرقس ولوقا ويوحنا .

٢ – كرازة الرسل وتبشيرهم بالتعاليم المسيحية في فلسطين ولبنان وسوريا وجميع اقطار العالم المعروف ، فانتشرت المسيحية اولاً بين الجاليات الاسرائيلية ثم بين الأمم المجاورة وهكذا أخذت الوثنية تتقلص وظلها ينكمش

رويداً رويداً ولم يبزغ فجر الجيل الثالث حتى كانت انطاكية وهي عاصمة ولاية سوريا مركزاً أعلى للمسيحية ، حتى ان بطاركة الطوائف الشرقية على اختلافها تحمل لقب البطريرك الانطاكي .

٣ – اضطهاد السلطة الرومانية الزمنية والدينية للمسيحية والمسيحيين اضطهادات شديدة أذاقوهم فيها كل أنواع المظالم والعذاب والتنكيل والتشويه. فكانت هذه الاضطهادات من اكبر عوامل انتشار الديانة المسيحية .

٤ – محاولة الامبراطور يوليان الجاحد بعث الوثنية ونشرها بعد أن تقلص ظلها ، وتجديد روحها وتلقيحها بمبادىء الفلسفة اليونانية الجديدة ومناصرته اليهودية بمحاولة ترميم هيكل اورشليم وفشله في ذلك .

الأسقف زنوبيوس

من أعظم الشخصيات الدينية والعلمية التي نبغت في اواخر القرن الثالث الأسقف القديس زنوبيوس وقد رأس كنيسة صيدا ورعاها باخلاص وألّف كتاب سورية المقدسة . وقد استشهد مع عدد من كهنته إبان حملة الاضطهادات التي وجهها الامبراطور ديوكلتيان سنة ٣٠٣ للمسيحية .

الفصل الثاني

الحكم البيزنطي

قسطنطين الكبير

تولى العرش الروماني الامبراطور قسطنطين سنة ٣٠٦ ق.م. وكان عادلاً محباً للرعية يرعى شؤونها باخلاص وجدارة الى جانب حكمة وقدرة بالغتين جعلت المؤرخين يطلقون عليه بحق اسم قسطنطين الكبير .

شعر هذا الامبراطور بأنه من المتعذر عليه ان يعلن اعتناقه الديانة المسيحية في المدينة المتمسكة بوثنيتها – روما – فقرر الانتقال الى مدينة بيزنطية الواقعة على الضفة الشمالية لمضيق البوسفور وجعلها عاصمة له لكي يتسنى له مراقبة الشعوب المتربصة بأمبراطوريته اولاً ولإعلان اعتناقه الدين المسيحي الذي سبق لوالدته هيلانة ان اعتنقته وأشربت ابنها بتعاليمه السامية ثانياً .

وفي عام ٣٢٤ م ، جاءت هيلانه الى الاراضي المقدسة لتفتش عن عود الصليب الذي صلب عليه السيد المسيح (دائرة المعارف) وكانت قد اقامت

في الاماكن المرتفعة من القدس حتى بيزنطية – التي اصبح اسمها القسطنطينية منذ ان جعلها قسطنطين الكبير عاصمة له – اماكن للحراسة وضعت فيها اكواماً من الحطب لإشعالها فور اكتشافها عود الصليب المقدس .

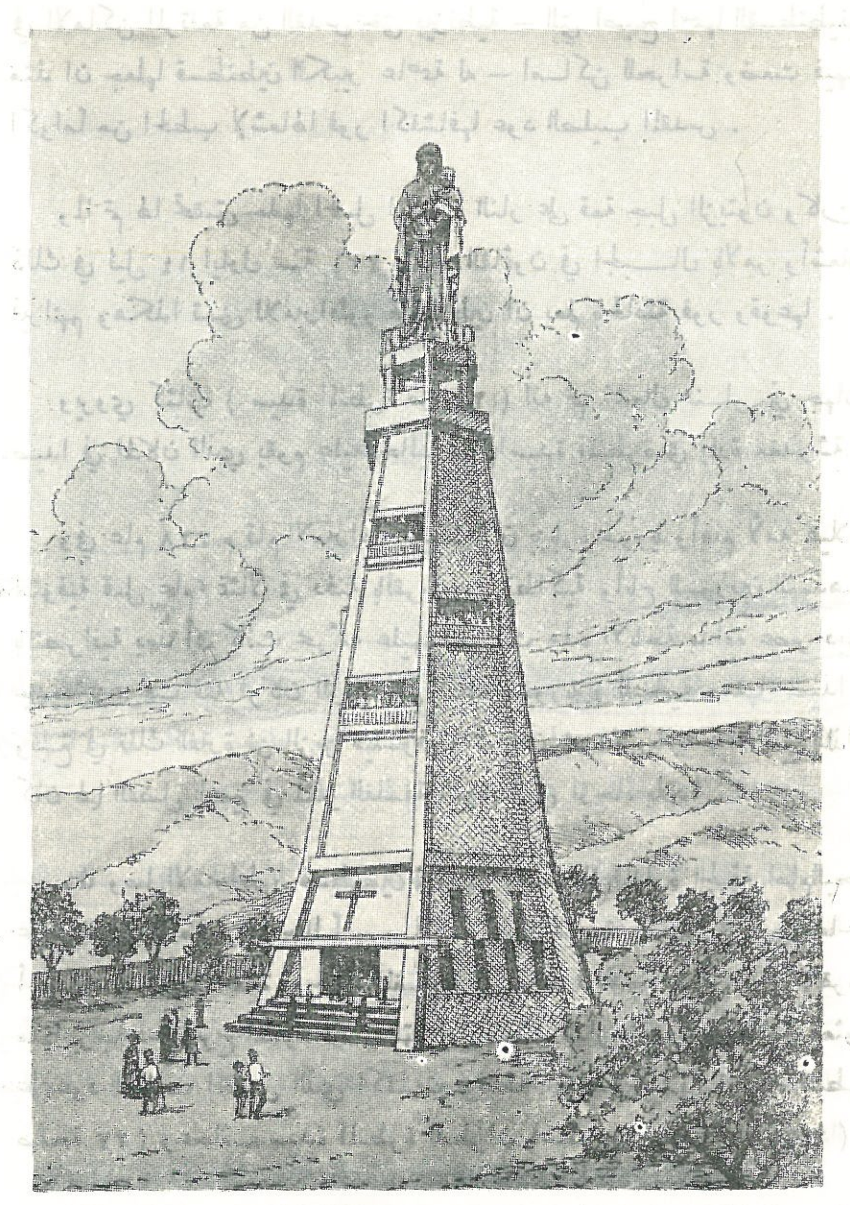
ولما تم لها تحقيق حلمها الجميل اشعلت النار على قمة جبل الزيتون وكان ذلك في ليل ١٤ ايلول سنة ٣٢٤ م فعلم القائمون في الجبال بالامر وأشعلوا نيرانهم وهكذا تسنى للامبراطور قسطنطين ان يعلم بالحادثة فور وقوعها .

ويروي كتاب (سيدة المنطرة ص ٢٧) انه تم اشعال النار في جهات صيدا في المكان الذي يقوم عليه حالياً تمثال سيدة المنطرة في بلدة مغدوشة .

وفي عام ٣٢٨ م قام الامبراطور قسطنطين بزيارة سوريا وأقام لأمه هيلانة المتوفية قبل عام، تمثالاً في دفنة بالقرب من انطاكية وأباح للسوريين التمذهب بالنصرانية بعد أن كانت محرّمة عليهم، فكانت هذه الاباحة بداءة عصر ديني جديد تزعزعت فيه اركان الوثنية من البلاد السورية واللبنانية ومنها صيدا . ونبغ في تلك الفترة من الزمن فيلسوفان كبيران هما سوباتر وسترانج اللذان كان لهما الفضل العميم في نشر الفلسفة اليونانية في ارجاء بلادنا .

ولما وصل الامبراطور قسطنطين الى صيدا وصعد الى المغارة الجاثمة امام البحر على مرتفع بلدة مغدوشة حالياً – والمسيطرة على الاودية والسهول المجاورة لها – ، أحب هذه البقعة الجميلة وحول المغارة الى معبد لوالدة المسيح وبنى بالقرب منها برجاً دعي برج المنارة لأنه سبق ان اشعلت النار على رأسه علامة للعثور على عود الصليب المقدس الذي اكتشفته والدته القديسة هيلانة (سيدة المنطرة صفحة ٢٧) وعجائب سيدة المنطرة للمطران باسيليوس حجار (ص ٣٣) .

وفي عام ٣٣٣ م ، اجتاح البلاد وباء عظيم ومجاعة شديدة ارتفعت فيها اسعار الحنطة كثيراً فأشفق الامبراطور قسطنطين على الشعب وأرسل اليهم



نصب تمثال العذراء مريم في مغدوشة

احمالاً كثيرة منها ، رفع بواسطتها اعباء المجاعة عن كاهل الاهلين .

وعندما توفي قسطنطين الكبير سنة ٣٣٧ م اقتسم ابناؤه الثلاثة السلطة الرومانية فيما بينهم فكان المشرق من نصيب ابنه قوسطانس الذي نعمت بلادنا خلال عهده بالراحة والطمأنينة ٣٣٧ — ٣٤٠ م .

ولكن ما ان تسلم يوليانوس الجاحد وهو ابن اخت قسطنطين الكبير عرش الامبراطورية سنة ٣٦١ م حتى عاد الى الوثنية وحاول اثناء مروره في سورية تثبيت دعائمها ولكنه فشل لأن جذور المسيحية كانت قد تأصلت في نفوس الغالبية المطلقة من السكان .

وبعد مقتل يوليانوس سنة ٣٦٣ م وهو في حرب مع الفرس ، تسلم الحكم جوفيانوس فجعل المسيحية دين الدولة الرسمي وأباح حرية الاعتقاد وتوفي هذا سنة ٣٦٤ م .

وفي ايام الامبراطور فالنتيانوس اصدر هذا أمراً بمعاقبة الولاة الذين يأمرون الفلاحين بالقيام بأعمال غير اعمالهم الزراعية – إذ لاحظ ان مناطق خصبة من بلاده غير مزروعة — وحتّم على الفلاحين استثمار اراضيهم دون أن يعملوا عملاً آخراً .

التشكيلات الادارية البيزنطية

ان اتساع الامبراطورية الرومانية وتبسطها الفخم جعل الاباطرة الرومانيين منذ الجيل الرابع يضيقون ذرعاً في الذود عن حياضها المترامية الاطراف ، كيف لا والشعب الروماني قد هرم وشاخ وأقلع عن عوائده الاخلاقية السامية ملتفتاً الى ملذاته والسعي في القضاء على المذهب المسيحي والتنكيل بأبناء البلاد الذين لا يدينون بالوثنية ، ودب عامل الفساد الى الجيش وقد كان من

قبل اكبر اداة للفتح وإحلال السلام والامن في ارجاء الامبراطورية ، وكانت الشعوب البربرية المتاخمة لأعمال الامبراطورية تشن الغارة تلو الغـارة — والدم الفتي يغلي في عروقها — على الولايات الرومانية طامعة بخيراتها ، مقتطفة منها مـا لذ وطاب لقمة سائغة ، مما دفع الامبراطور ثيودوسيوس العظيم قبيل وفاته الى تقرير قسمة الامبراطورية بين ولديه ، شرقيـة وغربية ، كما حاول ذلك بعض اسلافه تسهيلاً للدفاع عنها. فنال اركاديوس الشرق وكانت عاصمته بيزنطية — القسطنطينية ، وأخذ هنوريوس الغرب وقاعدته ميلانو، وتم ذلك سنة ٣٩٥ م .

ومن ملحقات الامبراطورية الشرقيـة : تراقية ، مكدونية ، اليونان ، آسيا الصغرى ، سورية ولبنان ، مصر ، افريقية الشمالية ، تونس وطرابلس الغرب . ولذا سمي هذا العصر من تاريخ بلادنا العام بالعصر البيزنطي .

وعمل البيزنطيون على تقسيم البلاد الى تشكيلات ادارية تخالف التنظيمات الرومانية ، فأنشأوا في سورية ثـلاث مقاطعات عرفت كل واحدة منها بسورية وليس من مميز بينها سوى العدد او الرقم وقسمت سورية الوسطى الى فينيقية الساحلية وقاعدتها صور، وتشمل عكا وصور وصيدا وبيروت وجبيل وطرابلس، وفينيقية الداخلية وقاعدتها دمشق وتشمل البقاع وحمص وحماه . اما فلسطين فقد اقيم فيها ثلاث ايالات رئيسية .

وهكذا حكم البيزنطيون بلادنا مائتين وخمسين سنة كانت من اشأم عصور تاريخنا الوطني .

اهم العوامل المؤلمة في هذا العصر

كثيرة هي العوامل التي تضافرت على اتعاس البلاد واشقائها اثنـاء العهد البيزنطي، وترجع اسبابها الى امور كثيرة ؛ منها ما هو خارجي ومنها ما هو

داخلي . فمـن الاولى : غارات الشعوب المجاورة المتكررة . ومن الثانية : ١) العوامل الطبيعية « الجراد والهواء الاصفر والمجاعات والزلازل الارضية العنيفة. » ٢) سياسة الولاة الادارية الرعناء اذ كان الولاة ينكبون على جمع المال من الرعية بشتى الطرق ويتحرشون في الجدل القائم بـين ابناء رعيتهم فيسايرون من يدفـع اكثر ويتدخلون في المشاكل الدينية كالدعايات المذهبية والهرطقات ممـا ادى الى تطاحن الاحزاب والمذاهب وقيام السكان بعضهم على بعض .

واشهر الاسباب الخارجية لهذا الشقاء يحل ببلادنا الغارات التي حدثت في هذه الفترة وقد قام بها :

١ — الهون ، وهم شعوب تترية نزحت من اواسط آسيا في اواخر القرن الرابع للمسيح تحت ضغط شعوب اخرى طورانية فهبطت روسيا الجنوبية وضواحي البحر الاسود ودخلت قبائـل منها الى سورية الشمالية فحاصرت انطاكية ثم عادت ادراجها الى ما بين النهرين .

٢ — العرب وهم قبائل تنوخ ولخم البدوية الضاربـة في بلاد الجزيرة بأمر المناذرة ملوك الحيرة وحلفاء أكاسرة الفرس . وعمد البيزنطيون — كأسلافهم الرومـانيين — الى استمالة عرب الغساسنة وملوكهم وقـد هبطوا سوريا في القرون الاولى للميلاد على اثر انهيار سد مأرب وأقاموا في بلاد الشام الجنوبية منتشرين شرقاً الى الصحراء السورية وغرباً الى مشارف البحر ، حيث انشأوا بمساعدة الرومانيين دولة عظيمـة الشأن قاعدتها بصرى اسكي شام ووقفوا احقاباً متطاولة ، سداً منيعاً في وجه المناذرة الذين كانوا من وقت الى آخر يقلقون الامن على تخوم الامبراطورية البيزنطية .

٣ — الفرس الساسانيون ٢٢٦ — ٦٣٤ م . الساسانيون دولة فـارسية ضخمة قاعدتها المدائن ، قامت على انقاض البرثيين ، وقـد نازعوا البيزنطيين

كما نازع اسلافهم الرومانيين من قبل السيطرة على الشرق ، اثنين وثمانين سنة (٥٣٠ – ٦١٢) كانت بلادنا في اثنائها ساحة الميادين لمعارك داميـــة بين الفرس والبيزنطيين وأول من قاد حملات الفرس الملك قباد (٥٣٠ – ٥٣٢ م) الذي ادركته المنية وهو في بدء غارته العسكرية فصمد لهم القائد بلبزاريوس وفل فلولهم .

وتلاه كسرى الكبير الملقب انوشروان (٥٣٢ – ٥٧٩ م) فاكتسح سورية الشماليـة بجيش لجب يربو على ٩٠ ألفـاً فاجتـاز منبج (هيرا بولس القديمة) الى حلب فاستباحها وأحرقها بالنار لعجزها عن دفع الفدية ، وتقدم من انطاكية فاستولى عليها عنوة وأعمل في اهلها السيف واستحل حماهـا واقتاد قسماً كبيراً من سكانهـا اسرى . وحين عجز البيزنطيون عن انقـاذ سورية عملوا على جلاء الفرس عنها بدفع فدية باهظة لهم فرجع كسرى الى بلاده وهو يجر وراءه الاموال والغنائم الكثيرة .

وغشي بلادنا بعده كسرى الثاني وتناولت غارته هـذه سورية من ادناها الى اقصاها فكانت اطول حملات الفرس واشدها على الاطلاق نظراً لما جرّت عليها من ويـلات وخراب عظيم فاستولى على دمشق سنة ٦١٤ ق.م واجتاح السواحل اللبنانية فاستولى على بيروت وصيدا وصور في ذات العـام والقدس سنة ٦١٥ ق.م واستباح المدن واعمل فيها النيران بعـد نهب الاموال واصبحت بلادنا ركاماً وخراباً كما اضحت مقاطعة فارسية .

ولقد ساعد الفرس على هـذا الفتح اليسير نفور قلوب الاهلين من الروم البيزنطيين لسوء ادارتهم من جهة ، ولتطاحن السكان من جهـة ثانية بسبب اختلافهم في الطقوس والمتمذهبين بمذاهب دينية مختلفة والمنتمين الى عدد من البدع المنتشرة في الصقعين السوري واللبناني ، ولخلو البلاد واكثر المدن الهامة من الحاميات العسكرية ثالثـاً ، ومؤازرة اليهود للفرس تشفياً وانتقاماً من

اصحاب الدين المسيحي الذي اوشك ان يقضي على مذهبهم ، ومعرفتهم بان في انتصار الفرس على الروم نجاحاً لقضيتهم ودينهم وقضاء على خصومهم رابعاً .

واثارت اخبار هذه النكبة تحل في بلادنا همـة الامبراطور هرقل بعد اهمال وتجاهل ، فهب لمناوأة الفرس واجلائهم عن المقاطعات المحتلة ، وكانت طلائعهم تدق ابواب القسطنطينية فعمد الى انزال جيوشه مع اعتدتها الحربية في خليج اسوس (الاسكندرونة) وتمكن بست حملات على جيوش الاكاسرة من اجلائهم عن بلادنا. ثم طاردهم الى ما وراء الفرات واستعاد خشبة الصليب من الاسر واحضرها بأبهة واجلال الى المدينة المقدسة .

هذه الهجمات الفارسية التي جرّت الويلات على بلادنا حدثت بـين سنة ٥٣٢ و٦٢٩ ق.م وكان قياصرة هذا العصر :

١ – يوستنيانوس الاول او الكبير — سنة ٥٢٧ – ٥٦٥ م
٢ – يوستنيانوس الثاني — سنة ٥٦٥ – ٥٧٨ م
٣ – طيباريوس الثاني — ٥٧٨ – ٥٨٢ م
٤ – موريق — ٥٨٢ – ٦٠٢ م
٥ – فوكا — ٦٠٢ – ٦١٠ م
٦ – هرقل — ٦١٠ – ٦٤١ م

ونحن اذ نمر في هذه الفترة من تاريخنا نجد من المستحسن ان نذكر لمحة عن تاريخ امبراطورين منهما لهما علاقـة مباشرة بتـاريخ بلادنا وهمـا : يوستنيانوس وهرقل .

يوستنيانوس الكبير : ٥٢٧ – ٥٦٥ م

ان تاريخ يوستنيانوس وملكه لمن أمجد تاريخ القياصرة الروم الشرقيين ،

وذلك لما تم في ايامه وتحت اشرافه من الاعمال الجليلة مثل: فتوحاته الشهيرة بواسطة قائديه بليزاريوس ونرسيس ، وابنيته الفخمة الكثيرة التي من اشهرها كنيسة آجياصوفيا ، مفخرة الكنائس الشرقية ، وتشريعه العظيم الذي يعتبر اس الشرع الحديث وحجر الزاوية في الدساتير العصرية والذي كان لأبناء بلادنا اليد الطولى في انشائه – دوريته واناتوليوس وكلاهما من خريجي جامعة بيروت في الحقوق .

الامبراطور هرقل ٦١٠ – ٦٤١ م

ان حياة هذا الامبراطور وملكه لمن اغرب المدهشات في التاريخ لعدم استقراره على مبدأ راهن ولسباته العميق في الايام العصيبة التي يجب ان لا يكون فيها جباناً فبينما نراه ينهض لتخليص بيزنطية من المغتصب فوكا ، يغشاه بحران السكينة والهدوء فيدع الفرس يمزقون ولاياته الآسيوية فلا تستفزه إذ ذاك الحمية وينقذها من ايديهم الا بعد حين. ثم يعتريه الجمود ثانية وتتخدر جميع اعصابه وقواه فيشهد ولا يتأثر، ولاياته تتناثر امام موجة العرب المظفرة دون ان يعمل على خلاصها .

ونعود الآن الى ذكر الاسباب الداخلية التي أدت الى شقاء بلادنا في هذا العهد وأشهرها : (١) الزلازل العنيفة التي دمرت كثيراً من المدن السورية وعلى الاخص زلزال سنة ٥٥٥ م الذي قوض الشطر الاكبر من مدينة بيروت وذهب بكلية الحقوق فيها وقضى على ثلاثين الف نسمة من السكان كما هدم ما يقارب نصف مدينة صيدا . (٢) وافدة الجراد وهي حشرة تذهب بمواسم البلاد الزراعية وتهدد السكان بخطر المجاعات ، وكانت مكافحتها وقتئذ مشلولة تقريباً . (٣) الامراض السارية والاوبئة الفتاكة من طاعون وهواء اصفر وتيفوس ، وقد ازهقت الوفاً من ارواح السكان . (٤) الهرطقات والمشاحنات الدينية إذ لم تكن المخاصمات الدينية الناجمة عن البدع الكثيرة في

البلاد بأقل شأناً في بؤس هذا العهد ، فكنت ترى البدع في الدين المسيحي والمروق من مذهب الى مذهب آخر، عوامل مؤلمة في تقسيم البلاد احزاباً وشيعاً يقوم بعضها على البعض الآخر .

واذا اضفنا الى ذلك جشع العمال البيزنطيين وابتزازهم اموال الاهلين وإرهاقهم الرعية بالضرائب الفادحة وتحمسهم للمسائل الدينية وإذكاءهم روح الحزبية والمحسوبية لتكونت لنا صورة مصغرة عن العوامل العديدة التي تضافرت على اتعاس بلادنا خلال فترة الحكم البيزنطي مادياً ومعنوياً .

الحركة الصناعية والتجارية في هذا العصر

تغلغل اللبنانيون ومنهم الصيداويون في اسواق اوروبا التجارية وأسسوا جاليات ناهضة في كثير من مدن ايطاليا وفرنسا واسبانيا . اما الصناعة فقد نشطت كثيراً ولا سيما بعد ادخال تربية دودة الحرير الى البلاد وذلك في أواسط القرن السادس (في عهد الامبراطور يوستنيانوس الكبير) بواسطة راهبين ذهبا للكرازة والتبشير في الصين فحملا منها خفية البذرة الثمينة . وقد أصبحت منتوجاتنا من اكبر مصادر ثروة بلادنا وخصوصاً صيدا . غير ان احتكار الحكومة لنسج الحرير وحياكته في معاملها ، حال دون رواج هذه الصناعة في ارجاء البلاد .

الآداب والفنون والحركة الفكرية

العصر البيزنطي هو العصر الذهبي لكلية الحقوق الشهيرة في بيروت ، التي أنشئت في عهد اغسطس قيصر أي في فجر المسيحية وسارت في اطراد التكامل والتحسن تحت رعاية الأباطرة السوريين حتى اصبحت من اواسط القرن الثالث الى منتصف القرن السادس كعبة طلاب الفقه وقبلة المتشرعين في

العالم الروماني، يؤمها الطلبة من كل فج وصوب للدراسة على اساتذتها المشهورين أئمة الفقه في عهدهم مثل اورليان الصوري وبابنيان الحمصي وغيرهما .

وبقيت هذه المدرسة في مقدمة كليات المدن الرومانية الكبرى مثل روما والقسطنطينية وأثينا والاسكندرية حتى دك الزلزال معالمها سنة ٥٥٥ م فانتقلت مدة ٢٠ سنة الى صيدا ولكنها لم تعمر فيها طويلاً للزلزال الذي أصابها سنة ٥٧٣ فطمس أخبارها ومعالمها .

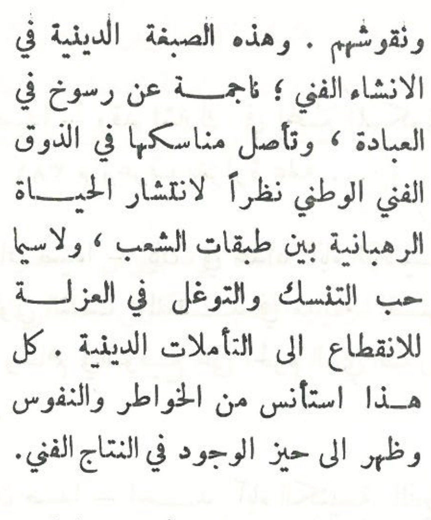
كلية الحقوق في صيدا

اما الاستاذ اميل بجاني استاذ القانون الروماني في كلية الحقوق – بيروت – فيقول في مقال منشور له في ملحق جريدة النهار العدد ٩٢٢٩ الصادرة في اول كانون الثاني سنة ١٩٦٦ ، ص ١٧ ما يلي :

« ولقد ضرب القدر مدرسة الحقوق في بيروت إذ أصابها عام ٥٥١ م ، (والصواب ٥٥٥ م) زلزال مدمر واجتاحتها حرائق هائلة تحت الضوء من تلك المنارة العالية ، ويقال انها لم تأبه لسخط الطبيعة فنقلت نشاطها الى صيدون وربما استمرت هناك حتى الفتح العربي » .

والرواية الاولى اقرب الى الصواب إذ أن الزلزال الذي دمر صيدا عام ٥٧٣ م . لم يبق على معالم العديد من مساكنها بما فيها كلية الحقوق التي دكت معالمها ولم تبقَ حتى الفتح العربي ، كما ذكر الاستاذ بجاني .

أما الفن ولا سيما فن البناء ، فكان دينياً محضاً يمتاز بكثرة القباب وبزخرفة النسق الهندسي المتشابك التقاطيع والمتلاحم الصور والهيئات ، واننا لنرى العرب بعد الفتح الاسلامي ، والغربيين في بدء عصر الانبعاث ، يستوحون هذا الطراز الفني السوري في أبنيتهم ويستلهمونه في رسومهم





الزي خلال عصر الأباطرة السوريين

ونقوشهم . وهذه الصبغة الدينية في الانشاء الفني ؛ ناجمة عن رسوخ في العبادة ، وتأصل مناسكها في الذوق الفني الوطني نظراً لانتشار الحياة الرهبانية بين طبقات الشعب ، ولاسيما حب التنسك والتوغل في العزلة للانقطاع الى التأملات الدينية . كل هذا استأنس من الخواطر والنفوس وظهر الى حيز الوجود في النتاج الفني .

ومن الشخصيات الدينية البارزة في هذه الحقبة القديس مارون شفيع الطائفة المارونية ، والقديس يوحنا الذهبي الفم وليد انطاكية وبطريرك القسطنطينية ، الذي كان له وقفات باسلة في وجه خلاعة الامبراطورة اودكسيا .

ويتميز هذا العصر بخصب غريب في البدع والبيَع الجديدة ذات الاعتقادات المتباينة التي زادت في البغضاء والشحناء بين تلك الجماعات المختلفة النزعات ، التي من أشهرها النساطرة واليعاقبة والآريوسية .

اشهر اساقفة صيدا في هذه الفترة

١ – الاسقف ثاوذورس : مطران صيدا – كان في عداد الآباء الذين اشتركوا في اعمال المجمع المسكوني الاول الذي عقد في فينيقية سنة ٣٢٥ م

ووقع على وثيقة حرم آريوس ...

٢ – الاسقف بولس : مطران صيدا – وقد اشترك في المجمع المسكوني الثاني الذي عقد في القسطنطينية سنة ٣٨١ م وعرف بغزارة علمه ...

٣ – الاسقف لاونديوس : مطران صيدا – كان في عداد آباء الكنيسة الذين اشتركوا في اعمال المجمع المسكوني الثالث المنعقد في مدينة افسس برئاسة القديس كيرلس الاسكندري وساهم في التوقيع على الحرم الذي اصدره المجمع بحق نسطوريوس سنة ٤٣١ م .

٤ – الاسقف داميانوس : مطران صيدا – احد آباء الكنيسة الذين اجتمعوا في مدينة خلقيدونية في جلسات المجمع المسكوني الرابع سنة ٤٥١ م لشجب تعاليم اوطيخا .

٥ – الاسقف بيغاس : مطران صيدا – خليفة الاسقف داميانوس ، وقع مع ذوروثاوس مطران صور ومع أساقفة فينيقية رسالة مجمعية مكانية بعثوا بها الى الملك لاون الكبير بوجوب قبول احكام المجمع المسكوني الرابع وذلك في عام ٤٥٩ م .

مجمع الاساقفة في صيدا

وفي سنة ٥١١ م عقد في صيدا مجمع بأمر الملك انسطاسيوس اشترك فيه نحو ثمانين أسقفاً من الروم . وكان هدف الملك من عقد هذا المجمع ابطال اعمال المجمع المسكوني الرابع الخلقيدوني وممن اشترك فيه البطريرك الانطاكي فلابيانوس والبطريرك الاورشليمي ايليا . ولما علم الملك ان البطريركين لا يوافقانه على مراده امر بحل المجمع قبل ختامه . وكان مطران صيدا اندراوس على مذهب بطريركه الانطاكي .

٦ – الأسقف اندراوس : مطران صيدا – اشترك في مجمع الاساقفة ، ثم امضى سنة ٥١٨ م رسالة مجمعية مع اساقفة فينيقية برئاسة ابيفانيوس مطران صور وأرسلوها الى بطريرك القسطنطينية يوحنا بتأييد اعمال المجمع المسكوني الرابع .

٧ – الاسقف اوسابيوس : مطران صيدا – هو احد الآباء الذين اشتركوا في المجمع المسكوني الخامس المنعقد في القسطنطينية سنة ٥٥٣ م .

الفصل الثالث

الفتح العربي الاسلامي

٦٣٤ – ٦٦١

من هم العرب ؟

العرب شعب سامي ضربت قبائله في شبه الجزيرة العربية والعراق وبادية الشام وهم في طراز معيشتهم على قسمين : الحضر والبدو .

فالحضر ويعرفون ايضاً بأهل المدن يقطنون المدن مثل مكة والمدينة والطائف وحران وبصرى اسكي شام والحيرة . عيشتهم الاتجار وارتياد البلاد والاسواق التجارية بقصد الكسب . اما البدو ويعرفون بأهل الوبر، هم سكان القفر ، والقبائل الظاعنة ، ينتجون السائمة ويكلأون الضرع في الواحات والمراعي الخضرة . حياتهم شن الغارات للغزو والسلب .

والعربي ربيب الحرية والاستقلال ، كثير الاعتداد بنفسه ، فخور بنسبه ، جريء ، صريح ، صادق ، مرهف العاطفة والحس ، مضياف ، صبور .

والقبائل العربية تتفرع الى بطون وافخاذ وفصائل وعائلات تربطها جميعاً اواصر العصبية الوثقى ، يرأسها شيخ القبيلة وبيده زمام امرها السياسي والديني والمدني .

اما ديانتهم فقد كانت الشرك على الاجمال ، ويتخلل عقيدتهم شيء من اليهودية والمسيحية والمجوسية . فهم عبدة الاوثان يكرمون نصباً ورقي وعزائم يرون فيها قوى الهية ومقدرة على الشفاء . لهم مزارهم الديني واصنامهم القومية ، منها اللات والعزى ومناة ، يحتفلون بتكريمها في بعض مواسم السنة للتبرك . واهم هذه المزارات الكعبة في مكة لوجود الحجر الاسود ، وسدنتها من قريش .

وفي الحجاز واليمن ايضاً قامت جاليات يهودية كان لها بعض الشأن في مقدرات البلاد ولا سيما في اليمن حيث اسسوا فيها مملكة ترأسها ملوك يهود . كما نبغ بينهم شعراء مجلون؛ ومنهم السموأل المشهور بالوفاء. اما المسيحية فقد تسربت ايضاً الى الجزيرة العربية، وكان لها فيها بعض الاتباع في الحجاز واليمن (نجران) .

وللعرب مواسم وأسواق ، أشهرها في الجاهلية عكاظ . وفي الاسلام المربد، يعقدونها كل سنة، تحضر اليها القبائل العربية من أقصى البلاد المتاجرة والمباراة الادبية فينظمون فيها القصائد الطوال ، متنافسين متناحرين ، يعلقون أجودها بعد التحكيم على جدران الكعبة ، ولذا عرفت بالمعلقات أو المذهبات وهي من عيون الشعر ، وأصحاب هذه القصائد سبع او عشر .

أما علوم العرب في الجاهلية فأهمها النجامة والعرافة ، وقيافة الأثر ومهب الأرياح ، والطب ، والبيطرة ، والميثولوجيا – التكهن – والأنساب ، وهم شديدو التمسك بها ، نبغ منهم رهط عرفوا بالرواة والنسابين ، كما قام فيهم شعراء مجيدون لا يقلون عن أنبغ شعراء الغرب. وشعرهم على الأغلب قصصي

وصفي حكمي . والشعراء في الجاهلية هم حمـــاة الأعراض وحفظة الآثار ونقلة الأخبار .

النبي العربي محمد بن عبد الله (ص)

في هذه البيئة وذلك المحيط، وتحت تأثير تلك العوامل الأخلاقية والمدنية التي أتينـا على وصفها ، ولد صاحب الدعوة الاسلامية في مكة سنة ٥٧٠ م المعروفة عند العرب بعام الفيل [١] من أبوين همـــا عبد الله بن عبد المطلب وآمنة بنت وهب من قبيلة قريش ومن بيت هاشم . وقد ربي في بيت عمـه ابي طالب بعد يتمه المبكر، فشب نابهاً مستقيما عطوفاً مما جعل له منزلةرفيعة بين صحبه وآله . وقد أكسبته مهارته في التجارة وأمانته وحذقه في الأمور ثقة ذويه فألقت اليه خديجة بنت خويلد ادارة تجارتها فقام بها خير قيام . ثم رغبت فيه وعرضت نفسها عليه للزواج فتزوجها وهي في العقد الرابع ورزق منها أولاده الذين لم يبق منهم على قيد الحيـاة او ينجب إلا فاطمة الزهراء التي تزوج منها علي بن ابي طالب ابن عم النبي وإليهـا ينتسب الفاطميون . وبعد وفاة خديجة تزوج النبي بعدد من الزوجـات أشهرهن عائشة بنت ابي بكر الصديق ولم يرزق النبي منهن بأولاد البتة ..

وفي الأربعين من سنه جاءه الوحي ، ليكون المرسل الذي أرسلته السماء لإحقاق الحق وإهداء قومه الى الصراط المستقيم فعظم شأنه حتى خشي أسياد قريش من ضياع سلطتهم ونفوذهم وديانتهم فعملوا على اضطهاده ، واذ لم يكن له طاقة على احتمال المظالم التي ألحقوها به هاجر الى المدينة — يثرب — وهي

---

(١) عام الفيل ، يوافق هجوم الاحباش بقيادة ابرهة الأشرم على الحجـاز في القرن السادس الميلادي وكان ذلك سنة ٤٨ للملك كسرى انوشروان (٥٣١ - ٥٧٨ م) ومنه اخـــذ اهل الجزيرة يؤرخون وكانوا قبل ذلك يؤقتون بموت الوليد بن المغيرة .

في عداء ومنافسة تجارية مع مكة وبصحبته من آمن بدعوته فعرفوا بالمهاجرين اما اهل المدينة فدعوا بالأنصار لنصرتهم النبي وكان ذلك سنة ٦٣٢ م. وهذه الهجرة هي بدء التاريخ الاسلامي .

ولما اصبح النبي في مأمن من غدر عشيرته انقطع لتنظيم اتباعـــه فتم له بمؤازرة الانصار الغلبة على اعدائه في واقعة بدر ٦٢٤ م والخندق ٦٢٩ م. وفي سنة ٦٣٠ م غزا مكة وقد اشتد ساعده لتغلبه على بني خيبر وقريظة والنضير، ففتحها سلماً ، ثم أوفد البعثات تحمل اهل الجزيرة العربيـة الى الاسلام والاعتراف بنبوته ولم تأت وفاته سنة ٦٣٢م حتى خيم الاسلام برواقه فوق كل أقطار الجزيرة العربية .

العيقدة الاسلامية والتوحيد

أساس الاسلام وكنهه، التوحيد « لا إله الا الله ومحمد رسول الله » ويقول بخلود النفس بعـد الموت وبقيامـة الموتى . أركانه خمس (١) الصلاة مرات خمساً في اليوم — الصبح — الظهر — العصر — المغرب — العشاء . (٢) صوم رمضان. (٣) فريضة حج البيت لمن استطاع اليه سبيلا . (٤) الشهادتان (٥) ايتاء الزكاة .

أما المعاصي التي ينهي عنها فهي : الفحش والسكر وتعاطي الرباء وغير ذلك من الموبقات .

والقرآن الكريم هو دستور المسلم في الدين ويتألف من ١١٤ سورة تختلف طولاً ونزولاً وتقسم الى مكية ومدنية .

الخلفاء الراشدون

قبض صاحب الدعوة الاسلامية ولم يعين خليفته ، وقد كان حياً يرزق ،

القاضي والقائد والحاكم والزعيم والمدبر . ارادته مطلقة في جميع الشؤون فأحدث بموته فراغاً عظيماً . فاجتمع رجالات الاسلام من انصار ومهاجرين وكلهم يرغب في الخلافة لنفسه، استناداً على الاسبقية في الاسلام او النصرة له، او لزعامة عريقة في مكة، او لقرابة من النبي. واشتد الخلاف وكاد يستفحل الامر لولا عبقرية عمر فاستقر بهم الاجماع في الرأي على تولية ابي بكر الصديق ، حمي الرسول ونودي به امير المؤمنين وهو اول الخلفاء الراشدين .

ميزة الخلفاء الراشدين

عصر هؤلاء الخلفاء يعتبر العصر الذهبي للدين الاسلامي . كانت الدولة ترتكز على العدل والتقوى ، عمادها الغيرة الحقيقية على الدين ، ونبذ الدنيا وملذاتها ، وزهد الخلفاء في حطامها .

ابو بكر الصديق ٦٣٢ — ٦٣٤م

هو الخليفة الاول ، قام بحروب الردة — وهي حركة رجعية عقبت وفاة صاحب الشريعة الاسلامية قام بها الذين حطم الاسلام نفوذهم او وقف في سبيل اغراضهم النفعية . مما ادى الى اضطراب اهل الجزيرة . وحمل بعضهم على المدينة وهاجموها وكادوا يأخذونها لولا حزم ابي بكر ودربته السياسية —.

ولما فرغ ابو بكر من تلك الحروب واعاد الامن والدين الى الجزيرة العربية فكر في توجيه الجيوش الى الشام والعراق فعقد الالوية ليزيد بن ابي سفيان وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة وابي عبيدة بن الجراح والمثنى بن حارثة وخالد بن الوليد فدخل هؤلاء مع البيزنطيين والفرس بمناوشات بسيطة عجموا اثناءها عيدان تلك الجيوش ليتبينوا اصلبها فاذا به فتات .

عمر بن الخطاب ٦٣٤ - ٦٤٤ م

رجل الاسلام والعرب ومؤسس الامبراطورية العربية ومنظم ادارتها ، العادل ، الحازم ، النزيه ، المقدام ، في ايامه فتح العرب سورية والعراق وفارس ومصر وطرابلس الغرب .

عثمان بن عفان ٦٤٤ - ٦٥٦ م

أموي النسب ، جامع القرآن الكريم خشية عليه من الضياع والتلاعب ، محب لأسرته وايثارها بالمناصب العليا مما أدى الى حدوث فتنة دموية انتهت بمقتله .

علي بن ابي طالب ٦٥٦ - ٦٦١ م

ابن عم النبي، وزوج ابنته فاطمة، ووالد الحسن والحسين. في خلافته حدثت واقعة الجمل الشهيرة التي كانت الغلبة له فيها على منافسيه طلحة بن محمد والزبيريين العوام وعائشة أم المؤمنين . ثم قيام معاوية بن ابي سفيان مطالباً علياً بدم نسيبه عثمان ، طامعاً بالخلافة، فكانت بينهما معركة صفين التي انتهت بالتحكيم وخروج بعض رجال علي عليه وقد سموا بالخوارج واغتيل علي بيد أحدهم — عبد الرحمن بن ملجم —.

حالة بلادنا قبل الفتح العربي

مات النبي العربي وهو يتأهب لارسال البعثات العسكرية على الفرس والروم. فيجمل بنا والحالة هذه ان نلقي نظرة عابرة على حالة بلادنا من نواحيها السياسية والاجتماعية والاخلاقية والدينية ، والى الفوارق الكائنة في اللغات لدى السكان .

كانت بلادنا تئن من هول ما ألم بها من الخراب والدمار في حروب الفرس، فالفساد والجور والعذاب منتشرة كلها اينما أجلت نظرك .

وزاد الحالة حرجاً مـا كنت تراه من الشحناء والبغضاء بين الطوائف الدينية العديدة التي كانت البلاد تختمر بها وهي بسوادها مغايرة لعقيدة الملوك، وكثيراً ما انقلبت هذه البدع الى احزاب وطنية تسعى لاستقلالهـا السياسي نيلا لاستقلالها الديني . فلا نعجب، اذ نراهم يغتبطون لقدوم الغزاة ، اذ منهم يرجون الأمرين معاً صفقة واحدة ..

ومن دواعي الانقسام الاجتماعي تعدد الألسنة في بلادنا قبيل الفتح العربي. اذ زاد عدد اللغات المتعارف بها وقتئذ عن ٥ لغـات فاللغة اليونانية يعم استعمالها في المدن وحتى بين الطبقات الدنيا ، واللغة السريانية تنتشر في سورية الشمالية وبعض الوسطى بين النساطرة واليعاقبـة والموارنة لاقترابها من الرها منارة العرفان والآداب السريانية في هذه الحقبة . اما في سوريا الجنوبيـة بوجهيهـا الساحلي والداخلي فنرى العربية تتـأصل بواسطة نفوذ الغساسنة في الشام وحوران ولبنان الجنوبي ، وعلى اثر تدفق القبائل من جزيرة العرب المتمخضة بكبريات الحدثان . كما كانت اللغة العبرانية لغـة اليهود الذين كانوا يشكلون جاليات في بعض المدن السورية واللبنانية .

كل هذا يظهر لنا مدى استعداد بلادنا الديني والعمراني والسياسي لاستقبال الفاتح العربي كمنقذ ؛ لا سيما وفيهـا عنصر نشيط نابه لا يستهان به ، تربطه والغازي رابطة اللغة والعصبية والمزاج النفسي والاخلاقي .

القواد الذين تم الفتح على ايديهم

ان فجر الاسلام يعتبر من أخصب عصور التاريخ بنبوغ القادة العظام ومن اشهرهم، القادة الذين عقد لهم الخليفة أبو بكر الأولوية على الجيوش التي أرسلها

الى سورية وبلاد فارس بعد حروب الردة ، وهم بحق من انبغ القادة في الفنون العسكرية وإدارة الجيوش والشجاعة ليس في عصرهم فحسب، بل وفي عصور التاريخ العام على الاطلاق وأشهرهم :

(١) خالد بن الوليد .

(٢) ابو عبيدة بن الجراح .

(٣) عمرو بن العاص .

(٤) يزيد بن ابي سفيان .

(٥) شرحبيل بن حسنة .

اعظم المعارك الفاصلة لهذا الفتح

غشي العرب شرقي البحر الميت وغربه تحت امرة عمرو بن العاص ويزيـد ابن ابي سفيان وشرحبيل بن حسنة فكسروا الجيوش البيزنطية سنة ٦٣٤م . اما المعارك الكبرى الحاسمة فهي :

١ – معركة اجنادين (٦٣٥ م) : احرز الظفر فيها خالد بن الوليد وكان ابو بكر قد استقدمه من العراق على جناح السرعة عندما سمع بأهبة البيزنطيين وحشدهم الجيوش . وبعد ان كسر الروم تقدم بكتائبه من دمشق تاركاً يزيد في مدن فلسطين الساحلية ، فأخذ غوطتها واقام الحصار حول المدينة ، وبعد حصار سبعة اشهر سقطت دمشق .

٢ – معركة اليرموك (٦٣٦م) : وعلى اثر اندحار الروم في اجنادين فر الامبراطور هرقل من حمص وقد دب الذعر في قلبه الى انطاكية ، فاعتصم بها وأخذ يجهز حملة جديدة يهاجم بهـا جموع المسلمين الذين استقر رأيهم على

الانسحاب من سورية والتراجع الى فلسطين فخيموا على شواطىء اليرموك احد روافد الاردن الشرقية .

جمع الامبراطور جيشاً كبيراً مؤلفاً من الروم والارمن وبعض السوريين المرتزقة ، واكثرهم لا خبرة له بالفنون العسكرية والحركات الحربية ، وأرسله بقيادة ابن عمه للاشتباك مع العرب وردهم عن سورية العزيزة .

وكان خالد القائد الاعلى للجيوش العربية ، قد نظم جيشه تنظيماً جديداً لم يكن معروفاً من قبل بشكل كراديس ، وعين رئيساً لكل فرقة وكتيبة .

التحم الفريقان واستطاع فرسان الروم بهجماتهم ، من خرق صفوف العرب ثلاث مرات متوالية ، ولكن سرعان ما كان العرب يرتدون عليهم ويؤلفون صفوفهم وهم يستطيبون الموت على شفرات الاسنة ، وكانت نساء العرب تثرن حماسة الرجال بزغاريدهن واهازيجهن ، ويشجعونهم على متابعة القتال والمصابرة والكل يردد « الجنة امامكم والنار وراءكم » فازدادت بهن قوى العرب المعنوية وانقضوا على الروم وقد اعياهم التعب واضنكهم حر آب اللاهب فمزقوهم شر ممزق ، وتم النصر نهائياً للعرب .

وبهذه المعركة ، تم الاجهاز على البقية الباقية من سيطرة البيزنطيين على بلادنا وفتحت في وجه العرب امهات المدن السورية حتى حلب وانطاكية العزلاء من كل حامية .

وفي سنة ٦٣٨ م ، سقطت مدينة القدس صلحا بعد حصار طويل ، فدخلها الخليفة عمر بن الخطاب وهو راكب راحلته ، مؤمناً الاهلين على ارواحهم ودمائهم واموالهم وكنائسهم .

سرعة هذه الفتوحات

قد يتساءل المرء عن الاسباب المهمة التي ساعدت العرب على هذا الفتح

السريع . ولذلك نجملها بما يلي :

١ – نبوغ رجال صدر الاسلام ودربتهم في قيادة الجيوش ، واختصاصهم بنخبة من قادة المسلمين في الحرب والسياسة والدهاء .

٢ – وهن الامبراطور هرقل وفوضى الاحكام والادارة في المملكة البيزنطية وانحلال الروح العسكرية فيها .

٣ – نقمة (الرعية) على حكامها .

٤ – نجدة عرب الشام وعطفهم على قضية ابناء عمومتهم .

٥ – الضعف العمراني والسياسي والضنك الديني الذي كانت البلاد ترسف فيه من جراء غزوات الفرس والهرطقات .

٦ – خصب البلاد المفتوحة وغزارة مواردها الطبيعية .

٧ – مؤازرة غالبية السكان الكارهة للبيزنطيين .

٨ – عدل المسلمين الأوائل وزهدهم ورفقهم .

التشكيلات الادارية الجديدة

فتح العرب المسلمون بلادنا وعمل عمر على تنظيمها ادارياً فقسم البلاد عسكرياً الى خمسة أجناد تقيم فيها الجيوش للمحافظة على الأمن وجمع الضرائب وهي : شرقي الاردن ، فلسطين ، دمشق ، حمص وقنسرين .. (وكانت صيدا تابعة لجند دمشق) .

وكان المجتمع ينقسم الى فئتين :

(١) العرب المسلمون وهم الطبقة الشريفة المتمتعة بكل امتيازات الفاتح

وهم حصن الدولة وسياجها وسلاحها ولهم وحدهم أعطي شرف التجنيد وحقوقه .

(٢) الذميون الذين دخلوا في ذمة المسلمين وعليهم ان يدفعوا الجزية والخراج . وكانت الجزية تختلف باختلاف احوال الناس ودخلهم ..

ولاة سورية بعد الفتح العربي

كانت الجيوش العربية اثناء الفتح تحت إمرة ابي عبيدة بن الجراح . ولما قبض مع من جرفهم طاعون عمواس الذي ذهب بأكثر من عشرين ألف نسمة خلفه في القيادة يزيد بن ابي سفيان. وكان عمر قد عينه بعد ذلك بسنة واحدة — سنة ٦٣٨ م — حاكماً على الشام ولكن حكمه لم يطل اذ توفي ايضاً ، فخلفه أخوه معاوية (مؤسس خلافة بني امية) .

فتح صيدا

يقول ابن الأثير وجاك نانتي وجرجي يني : لما استخلف ابو عبيدة بن الجراح يزيد بن ابي سفيان على دمشق وسار الى فحل ، سار يزيد الى مدينة صيدا وجبيل وبيروت ٦٣٧م وهي سواحل دمشق وعلى مقدمته أخوه معاوية ففتحها فتحاً يسيراً ، وجلا كثير من اهلها ، وتولى فتح عرقة اخوه معاوية بنفسه في ولاية يزيد ، وفتحت مدينة صور سنة ٦٣٨ م.

ولكن الروم سرعان ما عادوا الى بعض الثغور ومنها صيدا فتغلبوا عليها في آخر خلافة عمر وأول خلافة عثمان ٦٤٣م وما لبث معاوية ان قصدها ثانية ففتحها ورممها وشحنها بالمقاتلة وأعطاهم القطائع .

ولما كان معاوية لا يزال يخشى عودة البيزنطيين ولهم في البلاد الساحلية اكثر من مرقد عنزة كطرابلس مثلاً ، عمد الى انشاء اساطيل حربية

بحرية في مينائي صور وصيدا والخشب متوفر لديه في لبنان ، والمسيحيون وهم ورثة الفينيقيين ، أناط بهم قيادة السفن تحت اشراف قادته ، وهو النازع في سياسته مع عرب الشام الى تأليف قلوبهم حوله ، وكسب عطفهم ، وليجعلهم في المستقبل عضده وذخره في تمدين عرب البادية وصقل طبائعهم الخشنة وترويض أمزجتهم سياسياً وادارياً ، فتم له ما اراد ؛ اذ ما هي إلا سنوات قلائل حتى كان لديه في صور وصيدا اسطول كبير قوامه ١٧٠٠ سفينة حربية ، قاده بحارة مسيحيون استطاع بواسطته اكتساح قبرص ورودس ، ومحطماً عمارات البيزنطيين القوية ...

الفصل الرابع

الامويون

معاوية بن ابي سفيان

لما قتل الخليفة علي بن ابي طالب في الكوفة سنة ٤٠ هـ. ٦٦١ م. خلا الجو لمعاوية ، فاجتمع رجال الاسلام وأمراؤه في القدس الشريف ونادوا به خليفة للرسول وأميراً للمؤمنين . وقد اتخذ معاوية دمشق الشام قاعدة لملكه للاعتبارات الآتية :

١ – ان المدينة المنورة والحجاز لا يزالان في دهشة النبوة، وروعة جلال البيت الكريم (آل هاشم) وليس معاوية منه .

٢ – مناوأة اهل العراق له، وعطفهم على علي وولده من بعده .

٣ – توسط دمشق ومركزها من الخلافة الاسلامية .

٤ – رغبته في اظهار عرفان الجميل لعرب الشام الذين قاموا بقضيته أحسن قيام وللمسيحيين الذين تزوج منهم ميسون أم ولده يزيد .

وتميزت خلافته عن خلافة الراشدين بأن السلطة فيها تحولت من الخلافة الدينية الى السلطة السياسية الزمنية، وعن السلطة العباسية بأنها حزبية بحتة، شديدة التعصب للعرب أياً كان مذهبهم ، كثيرة الاحتقار لسواهم ؛ قامت على الدهاء والسياسة ، بذلت المال وعاشت به، ومعاوية أول من تظاهر بسمة الملوك ، وأول من لبس التاج بين خلفاء المسلمين معززاً في ذلك امر الملك ، معلياً شأنه ، كما كان اول من أنشأ ديوان الخاتم .

أما الاسباب التي ساعدت معاوية على تولي الخلافة ، وفي المسلمين كثيرون ممن هم أحق بها منه فهي :

(١) استخدامه في شد ازره رجالاً هم أشهر دهاة الاسلام استدناهم اليه بالترغيب ، منهم عمرو بن العاص وزياد بن ابيه وابنه عبيد الله بن زياد .

(٢) بذل المال ؛ اذ به كان يصطنع الاحزاب ويستدني الاعداء ، وهو أعرف الناس كيف يلين قناة خصومه .

(٣) الدهاء والحزم وسعة الصدر والحلم فهو يفوق تعقلاً وحكمة ودهاء أكبر رجال السياسة حتى من أهل هذا العصر .

(٤) العطاء من بيت المال ؛ إذ بواسطته اصطنع الرجال وكسر شوكة أخصامه . وببذله الأموال الطائلة ، كان يقبض على رقاب المسلمين ويؤالف القبائل حوله مهما بعدت عنه نسباً وعصبية ...

(٥) قطعه ألسنة الشعراء بتقريبهم منه ومدح هؤلاء له ولخلافته .

بهذه الأسباب استطاع معاوية ان يهذب في الأعراب روح البداوة فيروضها وينفخ فيها روح المدنية والحضارة ؛ وأن يحول بدهائه الخلافة الى ملكية وراثية في بيته بعد ان كانت انتخابية او شورى . كما تمكن من تآلف

المسيحيين حوله إذ اتخذ من أعلامهم مساعدين له ومستشارين وخبراء ؛ ومن أشهرهم الطبيب ابن آثال الذي عينه متسلماً على خراج حمص، كما عين منصور ابن سرجون رئيساً لديوان مال الدولة .

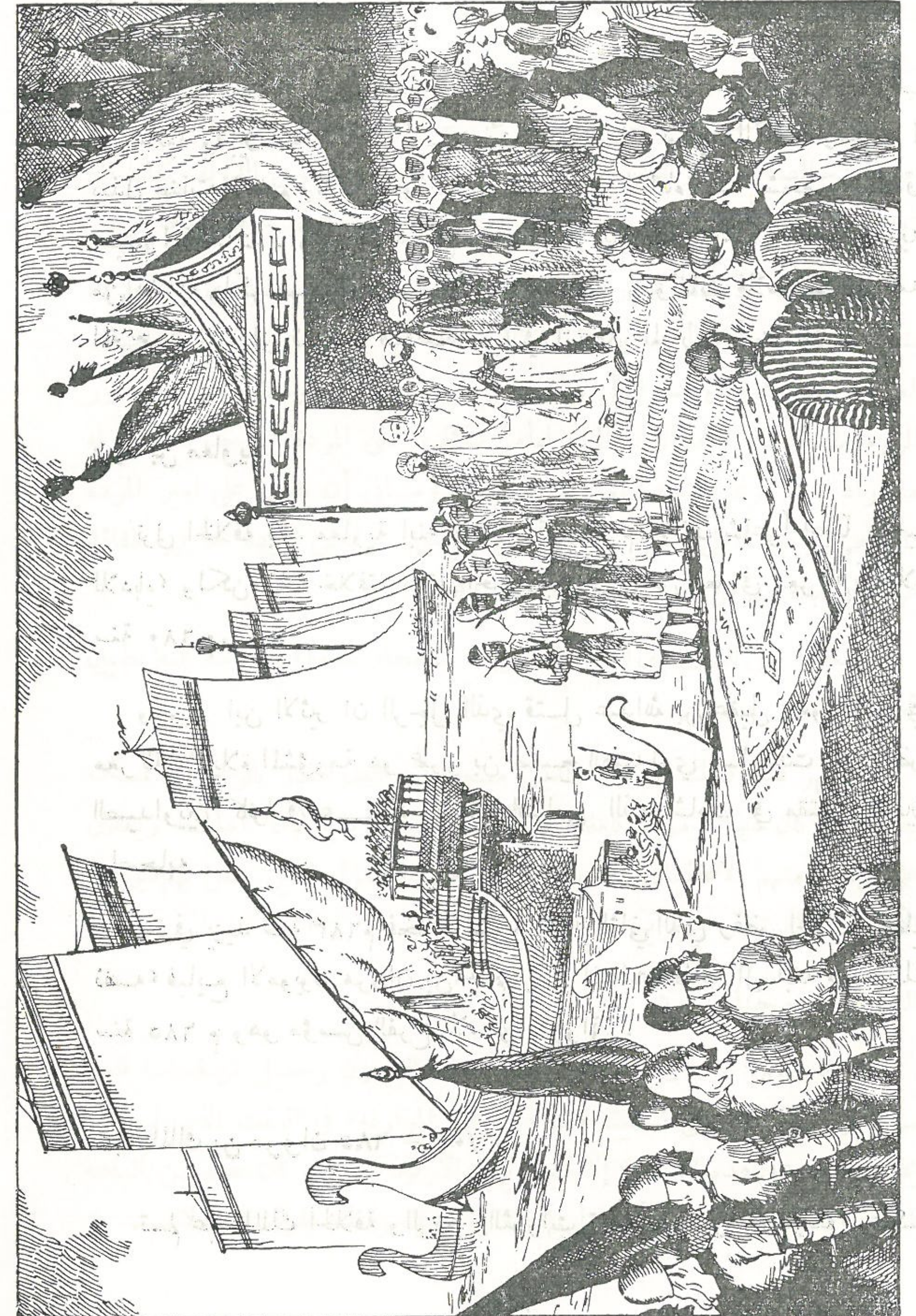
البحرية عند العرب

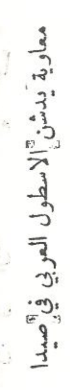
قلما اعتنى العرب قبـل الاسلام بانشاء السفن وركوب البحر واول من فكر منهم بانشاء اسطول بحري هو معاوية بن ابي سفيان الذي بعـد ان استأذن الخليفة عثمان ابتنى له اسطولاً قويـاً في صيدا وصور وجهزه بالمعدات اللازمة ، واستطاع بواسطته اولاً ان يحمي الثغور ثم ان يستولي ثانياً على مـا وراء البحار من جزر البحر الابيض المتوسط في حوضه الشرقي .

ابتدأ هذا الاسطول عمله بتوطيد الامن على الشواطىء السورية واللبنانية فقطع دابر القرصنة التي كانت منتشرة بكثرة في هذه المنطقة .

ثم امر معاوية القائد عبدالله بن قيس اول امير بحر عربي بأن يتوجه مع سفنه الرابضة في ميناءي صيدا وصور الى قبرص للاستيلاء عليها . وهكذا أبحرت السفن العربية وعلى متنها الجيوش العربية المدربة على القتال ؛ ويقودها ربابنة مسيحيون من صيدا وصور حتى وصلت الى مقابل قبرص وبعد معركة بحرية هائلة مع الروم ، تمكن الاسطول العربي من الحاق الهزيـة بالاسطول البيزنطي وبالتالي من نزول الجيوش العربية الى الجزيرة ورفع العلم العربي فوق روابيها .

وتحت قيادة جنادة بن ابي امية الازدي للاسطول العربي ، تمكن العرب من احتلال جزيرة رودس .





معاوية يدشن الاسطول العربي في صيدا

ورأى معاوية ان الفتح الاسلامي حقق الكثير من العلوم والآداب الرومانية والبيزنطية وتأكد انه من العسير عليه توطيد اركان دولته ما لم يبذل عنايته للعلوم والآداب والمعارف فأخذ بيد العلماء وبدأ يشجعهم ويغدق عليهم المكافآت . ولما تم له فتح بعض الجزر اليونانية ، امر باحضار العديد من علمائها واكرامهم وقد جاؤا بعلوم قومهم ومؤلفات فلاسفتهم التي عمد المترجمون لديه الى تعريبها فكانت سبباً في ازدهار المعارف تحت ظله .

يزيد بن معاوية

تولى الخلافة بعد معاوية ابنه يزيد سنة ٦٨٠ م. وكان شاعراً اديباً ومحباً للادباء، ولكن شان خلافته مقتل الحسين بن علي ومن معه في معركة كربلاء سنة ٦٨٠ م.

وروى ابن الاثير ان الرجل الذي قتل عبدالله بن عقيل وهو طفل في معركة كربلاء المشؤومة هو عمرو بن صبيح الصيداوي مما يثبت ان بعض الصيداويين كانوا في عداد الجيش الشامي الذي شارك في مقتل الحسين واصحابه .

وتوفي يزيد سنة ٦٨٣م فخلفه ابنه معاوية الثاني الذي رفض الخلافة وخلع نفسه، فبايع الامويون مروان بن الحكم ومنه انتقلت الخلافة الى ابنه عبد الملك سنة ٦٨٥ م وهو مؤسس الفرع الاموي المرواني .

عبد الملك بن مروان ٦٨٥ – ٧٠٥ م

تسلم عبد الملك الخلافة والرياح والثورات تعصف في ارجاء دولته، ولكنه

وهو المشهور بسعة الصدر والدهاء والشجاعة تمكن من احلال السلام في كافة ربوعها وامصارها .

وما أن استتب له الأمر حتى شمر عن ساعد الجد وصمم على إقامة دولة عربية؛ خالصة فأكرم العلماء والأدباء، وأمر بتعريب دواوين الدولة ونقلها الى العربية بعد ان كانت – فارسية في العراق ويونانية في بلادنا – فتم له ما أراد.

ومن الأدلة على دهائه ورغبته في اكتساب صداقة المسيحيين عامة والمردة بنوع خاص انه لم يشأ محاربة المردة الذين كانوا يهاجمون من جبالهم الحاميات العربية المعسكرة في السواحل والضواحي، بل فاوض جوستنيانوس امبراطور الروم مقدماً اليه الاموال الطائلة، ليأمر بكف أذى المردة عن جيوشه، فتم له ما اراد ؛ اذ اوعز الامبراطور الى قائده الروماني أن يقضي على امير المردة المسيحي يوحنا ففعل ، وتم ذلك في قب الياس . ولكن المردة هاجموا القائد الروماني بالقرب من أميون وقتلوه سنة ٦٩٤ م.

وهكذا نرى الفرق بين السياسة العربية السمحاء المتبعة، وسياسة البيزنطيين الخرقاء .

واشتهر عبد الملك بتسامحه الديني مع سائر الطوائف بالرغم من تمسكه بدينه . وكان ديوانه موئلاً للعلماء والأدباء والشعراء يتبارون أمامه ويغدق على المجلين منهم الأعطيات الجزيلة . ومن اشهر الشعراء الذين حفل بهم ديوانه : الأخطل والفرزدق وجرير .

البطريرك يوحنا مارون

في عام ٦٨٥ م، نال يوحنا مارون أسقف البترون وجبيل من قداسة البابا سرجيوس الموافقة على تسميته بطريركاً على الموارنة، في الوقت الذي لم يكن يحق لأحد حمل هذه التسمية إلا للبطريرك الأرثوذكسي، وكان عدد من اتباعه قد دخل الجبل اللبناني وأخذوا بمهاجمة الامويين وقطع طرق مواصلاتهم .

ولكن الانتصارات التي سبق أن ذكرناها آنفاً والتي حققها عليهم عبد الملك بن مروان وخلفاؤه من بعده ، سمحت للغة العربية ان تتغلغل في الجبل اللبناني بعد ان كانت مقتصرة على السواحل والداخل مزيحة اللغة الآرامية – السريانية عن الصدارة في هذه المنطقة ايضاً .

الوليد بن عبد الملك ٧٠٥ - ٧١٥ م

تولى الخلافة بعد عبد الملك، ابنه الوليد وهي موطدة الأمن والنظام تنعم خزائن الدولة بالاموال الطائلة ، فسار فيها سيرة عمرانية بناءة ؛ اذ أمر ببناء المسجد النبوي في المدينة المنورة ، كما امر ببناء جامع كبير في دمشق (هو المسجد الأموي الآن) .

وفي ايامه امتدت سطوة المسلمين الى أواسط فرنسا غرباً وخفقت راياتهم فوق حصون الهند وتركستان شرقاً.

الخلفاء الامويون بعد الوليد وانقراض الدولة الاموية سنة ٧٥٠ م

أخذ مجد بني أمية بعد موت الوليد يخبو بالرغم من بعض صحوة المجد القليلة العابرة أيام هشام – اذ نرى سليمان بن عبد الملك (٧١٥ – ٧١٧ م) يرجع مخذولاً من حصار القسطنطينية، وجيوش العرب تندحر أمام الفرنجة في معركة بواتييه سنة ٧٣٢م ، والحزبية القبلية تذر قرنها بين القيسيين واليمنيين في سورية فتشتعل بينهم الحروب وتزداد العصبيات ويقتتل أبناء العمومة من الاسرة الأموية الحاكمة ؛ وإذا بالوحدة الوطنية تتمزق في بلادنا ويغتنم اهل البيت (العلويون والعباسيون) الفرصة للقيام بالمطالبة بالخلافة بعد أن نزعوا فترة من الزمن الى الدعة والسكينة ، يؤازرهم أهل خراسان وهم الناقمون الموتورون على الدولة الأموية العربية التي أبعدتهم عن الجيش والصدارة بالرغم من دخولهم في الاسلام، بل اعتمدت على العناصر العربية فقط ولم تثق بسواهم.

ولقد وفق العباسيون في بدء دعوتهم الى اكتساب أبي مسلم الخراساني وهو من أكبر قواد المسلمين. فوحد هذا صفوف الخراسانيين ورفع العلم الأسود وأخذ يطارد جيوش الأمويين في خراسان. ثم انتصر على الخليفة الأموي مروان ابن محمد في معركة الزاب سنة ٧٥٠ م ففر هذا الى مصر . ولكن الجيوش العباسية تابعته بقيادة عبدالله بن علي، عم أبي العباس السفاح حتى ألقت القبض عليه في كنيسة بوصير فاحتزت رأسه وأرسلته الى أبي العباس في الكوفة ، وكان قد نودي به خليفة على المسلمين فيها ، وهو الخليفة العباسي الأول .

بعض مشاهير صيداء خلال هذه الحقبة

من الشخصيات العلمية البارزة التي اشتهرت :

١ – العالم هشام بن الغاز بن ربيعة الجرشي الصيداوي

تعمق في الفقه والحديث ودرس في صيداء واعتبر من الصادقين. روى عن مكحول ونافع وإبن المبارك ووكيع ، ومات سنة ١٥٦ ﻫ = ٧٧٢ م . وقد ذكره ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان .

٢ – المطران بولس الانطاكي

تحدث عنه عدد كبير من مؤرخي تاريخ الكنيسة المسيحية منهم المطران يوسف الدبس في كتابه تاريخ سورية، والخوري عيسى أسعد في كتابه الطرفة النقية في تاريخ الكنيسة المسيحية، والخوري قسطنطين الباشا والخوري يوسف الشماس وغيرهم . ونحن نوجز ما أوردوه عنه فيما يلي :

هو من أساقفة صيداء عاش في القرن الثامن المسيحي . وقد ولد في

انطاكية ودخل سلك الرهبنة ثم سيم أسقفاً على صيداء ، وكان عالماً كبيراً وإنسانياً مثالياً . وتوفي ودفن في صيداء سنة ٧٧٠ م .

من مؤلفاته: الكتاب المحسون وهو يشتمل على موجز في اللاهوت وينقسم الى اثنين وعشرين فصلا ، وعلى مقالة في مجيء السيد المسيح فند فيها مزاعم اليهود وتخرصاتهم .

وكتب رسالة الى أحد المسلمين من سكان صيداء بين فيها ما يقوله النصارى في الرسول محمد (ص) وسنته ، وصحة الدين المسيحي .

كما كتب مقالة في البدع المنتشرة في عصره يفند فيها آراء المبتدعين، ومقالة أخرى في التثليث والتجسد انفذها الى رجل صيداوي اسمه أبو سرور . وله خطبة في تفسير بعض آيات الانجيل ولا سيما القول الشريف : من نظر امرأة ليشتهيها .. وخطبة اخرى في الايمان القويم .

وله كتاب في الفضائل المسيحية وممارستها وكتاب لاهوتي في الشرع المسيحي درس فيه احدى وسبعين قضية، مستنداً على نصوص الاسفار المقدسة وقد كتب هذا المؤلف على ورق وباللغة العربية وعدد صفحاته ١٦٤ صفحة .

الحالة الاجتماعية في عصر بني امية

كان الشعب في بلادنا ينقسم الى ثلاث طبقات :

١ – العرب المسلمون ، وهم أقلية صغيرة إنما ممتازة ترفل بكل مميزات الفاتح المبنية على نظرية عمر بن الخطاب : إن العرب أمة مختارة ، لهم أعدت السيادة والقيادة وتوزع عليهم الأعطيات والأتاوة . وعددهم لا يتجاوز الـ ٢٠٠٠٠٠ نسمة .

٢ – الذميون : وهم غير المسلمين . أكثرية ساحقة ، يحترفون التجارة

والصناعات المختلفة والفنون الحرة الجميلة . أما حرياتهم الدينية والقومية فرعية على الإجمال ، غير أنه بتوالي الحروب في عهد بني أمية وثقتهم المطلقة بالسكان واعتمادهم على العنصر العربي فقط في الجيش ، عمدوا الى تشكيل وحدات نظامية من الذميين منحوها من الامتيازات مثل ما للمسلمين العرب.

ثم اليهود وكانوا يتمتعون إجمالاً بكل حرياتهم ما عدا إقامتهم في القدس .

٣ – جمهرة العبيد – وهذه الطبقة كانت تتزايد وتتضخم مع الفتوح والاسر، ولذا كنت ترى المدن تغص بالعديد منهم . عملهم حراثة الارض والخدمة في جميع نواحي الحياة العملية . وفي حالة العتق والتحرير كانوا يدخلون في طبقة الموالي .

الحركة الفكرية

الشعر في هذا العصر هو اكبر مجالي العقل والتفكير، لا سيما وهو في نظر الدولة الاموية من جملة الاعوان على تملك خواطر العامة ، لكثرة خصومها ، ومقت المسلمين لها لانها بعيدة القرابة عن بيت النبي . ومن نوابغ الشعراء في العصر الاموي : الاخطل النصراني شاعر بني امية الخاص ، وجرير والفرزدق وعمر بن ابي ربيعة والشاعرة حميدة بنت النعمان بن بشير الانصاري حاكم حمص .

اما الفلسفة فأكبر مدارسها مدرسة دمشق – وقد انتقلت اليها من صيداء – وازدهرت في الجيلين السابع والثامن فانجبت صفرونيوس بطريرك اورشليم، ويوحنا الدمشقي اغزر كتبة الشرق وقد برز في جميع مناحي العلوم في الفلسفة واللاهوت والخطابة والجدل الديني والتاريخ والشعر . وقد كان لهذا المجرى الفلسفي تأثير على بعض رجال الاسلام ، إذ نرى القدريين مثلا في عهد الوليد يستلذون البحوث الفلسفية ويعملون في حقولها ...

الحالة الفنية

كانت الفنون الجميلة في عصر بني امية محصورة بين ايدي السوريين ولذلك ظلت الهندسة البنائية محتفظة بطابعها السوري واليوناني . ومن اجمل نتاج الهندسة في هذا العصر — الجامع الاموي في دمشق وقد ازدان بالفسيفساء والقيشاني والزجاج الملون ، وقد بناه الوليد .

ومسجد الصخرة في القدس وقد بناه عبد الملك بن مروان .

الحالة الاقتصادية

ظلت البلاد في هذا العصر محتفظة بنشاطها الاقتصادي اذ كان الاهلون يصدرون الى اوروبا وبقية انحاء العالم صادرات بلادهم الزراعية والصناعية ويشهد بهذا بعض حجاج الفرنجة الذين هبطوا البلاد خلال هذه الفترة ومروا في صيداء فاشتروا منها الاواني الزجاجية الملونة الجميلة مع بعض الادوات النحاسية التي نقش عليها عبارات باللغة العربية من الانجيل الشريف والقرآن الكريم ...

الحالة الدينية

بالاضافة الى المسلمين واليهود ، كان في البلاد ثلاث طوائف مسيحية يلقب رأسها الاعلى بطريرك انطاكية وهم : اليعاقبة (السريان) اخصام المجمع الخلكيدوني (٤٥١م) والارثوذكس القائلون بتعاليم المجمع المذكور ، والموارنة وهو المنتمون الى القديس مارون وقد نزحوا عن وادي العاصي الى جبل لبنان عند الفتح العربي .

الفصل الخامس

الدولة العباسية

مميزات الدولة العباسية

قامت خلافة بني العباس على سواعد العنصر الفارسي . فالفرس هم مادتها وذخرها وحماتها ، ومن بعدهم جاء الديلم والترك . عاصمتها مدينة بغداد لتوسطها من العراق الذي سيمثل في هذه الخلافة الدور الذي لعبته الشام في خلافة بني أمية .

اعتلى عرش هذه الدولة ٥٨ خليفة تولى الحكم منهم في بغداد ٣٧ والبقية في القاهرة اثر استيلاء المغول على بغداد في ايام هولاكو سنة ٦٥٦ هـ — ١٢٥٦م. وظلوا هناك حتى فتح سليم الاول العثماني مصر مستخلصاً الخلافة منهم لنفسه ولذريته من بعده .

وأشهر الخلفاء العباسيين هم :

١ — ابو العباس السفاح ٧٥٠ — ٧٥٤ م. مؤسس الخلافة العباسية ، ولقب

بالسفاح لكثرة ما سفح من دماء الامويين في خلافته. مركزه الانبـار ، على الفرات ، غربي بغداد .

٢ – ابو جعفر المنصور ٧٥٤ – ٧٧٥ م . هو باني مدينـة بغداد عاصمة الخلافة . قتل غيلة أبا مسلم الخرساني خوفـاً على الخلافة من طغيان العنصر الفارسي، شجع العلم والأدب والفنون ، وأغدق على أربابها الاموال بالرغم من اشتهاره بالشح .

٣ – هرون الرشيد ٧٨٦ – ٨٠٩ م . اشهر الخلفـاء العباسيين وأبعدهم ذكراً ، اشتهر بعلاقاته السياسية مع شارلمان امبراطور فرنسا والمانيا. ويعود مرد هـذا التقارب بين العاهلين الى سياسة شارلمان العدائية ضد العرب في اسبانيا ، وحروبه معهم بعد تأسيس الخلافة الاموية فيها. اذ كانت هذه الدولة تشكل خطراً كبيراً على اوروبا عامـة وفرنسا خاصة ، والاخيرة لا تزال تذكر غزوات العرب المسلمين لها (بواتييه) ومن جهة اخرى، رغبة العباسيين وخاصة هارون الرشيد في سحق الدولة الاموية الفتية في الاندلس التي تشكل منازعاً قوياً لشرعية الخلافة العباسية، وخطراً على سيادتها في الاقطار الغربية.

في ايامـه حدثت نكبة البرامكة – الاسرة الفارسية المتحكمة في الدولة العباسية – اذ قضى الرشيد عليها وصادر ممتلكاتها وأموالها سنة ١٨٧ هـ = سنة ٨٠٢ م . كان محباً للعلوم ، حفـل بلاطه برجال العلم والادب والشعر والنثر الذين كان يقوم بنفسه على خدمتهم .

٤ – المأمون ٨١٣ – ٨٣٣ م. خلافته أبهى عصور العباسيين وأزهاها في الاسلام، ولاسيما آداب اللغة العربية فقد بلغت أوجها في ايامه، وذلك لتبحره في العلوم وشغفه بها وبعلمائها الذين أجزل لهم الأعطيات وكفـل لهم اسباب الراحة والهنـاء ؛ فكان ذلك الخصب الادبي والفكري الذي لم يعرف تاريخ العربية مثله ابداً .

٥ – المتوكل ٨٤٧ – ٨٦١ م . نقـل قاعدة ملكه الى دمشق فراراً من نفوذ الحرس التركي ولكنه اضطر للعودة الى « سر من رأى » في العراق القاعدة التي انشأها والده المعتصم ، وهناك قتل بيد القادة الاتراك .

ابان اقامته في دمشق ترك بين المسيحيين أفظع الذكرى اذ وضع القوانين الصارمة التي سامهم فيهـا الظلم والتعسف وأمرهم بارتداء لباس خاص بهم (الغنباز والقبعة الصفراء) ومنعهم من ركوب الخيـل ، كما امر بهدم كل الكنائس التي بنيت بعد الفتح العربي – مما اوجد هوة بين المسلمين والمسيحيين – وقد كانوا يعيشون في السابق وخصوصاً في ايام بني امية متآخين متحابين . وقد شمل هذا القانون جميع المسيحيين في بلادنا ومنهم مسيحيي صيداء ..

بعض حكام صيداء خلال هذه الحقبة

١– الامير النعمان الارسلاني

على أثر مقتل الخليفـة العباسي المهتدي بالله العباسي سنة ٨٧٠ م تعين ماجور التركي والياً على بلاد الشام وعندما جاء هذا الى دمشق سنة ٨٧٦ م. استدعى اليه الامير النعمان بن عامر بن هاني الارسلاني وكان شاباً ، وعينـه أميراً على بيروت وصيداء ؛ فأدار هذا دفة الحكم بيـد حديدية ، وحنكة زائدة وتسامح بيّن ، الأمر الذي حببه جـداً الى الأهلين وانطق ألسنتهم بالثناء عليه وظل هـذا حاكماً على المدينتين حتى توفي سنة ٩٣٦ م ، ودفن مأسوفاً عليه في بيروت .

وقد عرف هذا الامير بشجاعته وكرمه وفصاحته بالاضافة الى ذكائـه وحسن فراسته . (اخبـار الاعيـان في جبل لبنان للشيخ طنوس بن يوسف الشدياق) .

٢ – الامير غالب الارسلاني

في سنة ٩٩٦ م. ، تعين الامير سليمان الكتامي والياً على بلاد الشام من قبل الحاكم بامر الله الفاطمي فولى هذا بدوره الامير غالب بن مسعود بن المنذر الارسلاني على مدينة صيداء فقام باعبائها خير قيام.

الدويلات الاقليمية

انحطاط الدولة العباسية

قامت الدولة العباسية وعاشت بنفوذ الاغراب من الفرس والاتراك فتعصبت لهم على العرب . وقد كانوا في ايام بني امية سياج الدين والدنيا ولذا رأينا الخلفاء منذ ايام المتوكل يعتلون دست الحكم ويتولون اريكته ما شاء قادة الجند ان تسلطن هذا وتخلع ذاك. ولذلك اخذ اولئك القادة وجلهم من الاتراك يتولون مقدرات الحكم في الولايات النائية ؛ وقد كلفوا امر الدفاع عنها فأسسوا فيها مع الوقت امارات اقليمية ، وراثية مستقلة ، تصرفت بمصير الدولة وشؤونها تصرف الآمر المستبد . وكانت بلادنا تنتقل من يد الدويلة الاولى الى يد الثانية ...

ومن اشهر هذه الدويلات التي لها علاقة ببلادنا :

الدولة الطولونية ٨٧٨ – ٩٠٥ م

اسسها في مصر احمد بن طولون احد المماليك الاتراك . وكان ابن طولون عالي الهمة شجاعاً قديراً ذا هيبة وسطوة ، القيت اليه مهام مصر فوطد فيها دعائم نفوذه، ثم تولى شؤون سورية والدفاع عنها من غارات البيزنطيين ومن أشهر آثاره بناء عاصمة جديدة له هي مدينة القطائع ، وبناء الجامع الطولوني الكبير في مصر .

٢ – الدولة الاخشيدية ٩٣٥ – ٩٦٩ م

دولة تركية أسسها الأخشيد في مصر وهو أول والٍ عليها من قبل الخليفة العباسي ، وقد أنس منه نجابة في ادارة شؤون سورية من قبل . ولما استفحل أمره فيها ، أضاف سورية الى ملكه . ومن خلفائه كافور الأخشيدي، ممدوح المتنبي الشاعر . وزالت هذه الدولة بفتح الفاطميين لمصر والحمدانيين لسورية .

٣ – الدولة الحمدانية ٩٤٤ – ١٠٠٣ م

هي دولة عربية من قبيلة تغلب ، نشأت في أواسط الدولة العباسية واستقلت في شمالي سورية استقلالاً إدارياً تاماً ، مركزها الموصل وحلب. حكم منها أربعة أمراء في الموصل وخمسة في حلب أشهرهم سيف الدولة (٩٤٤ – ٩٦٧ م) الذي يعتبر من أكبر عاضدي جمهورية الأدب في زمانه ، وكان بلاطه ندوة العلماء والشعراء. ومن المقربين اليه أبو الطيب المتنبي الذي امتدحه بقصائد رنانة خلدت ذكره على مر الايام .

ولقب سيف الدولة بهذا الاسم لكثرة حروبه ضد البيزنطيين الذين كانوا يشنون الهجمات على شمالي سورية في عهد الامبراطور نيكفور فيقف مع جنده وحده في وجوههم .

ومن نتائج الهندسة البنائية في هذا العصر بناء قلعة حلب وجامع حلب الكبير سنة ٩٧٦ م .

الدولة الفاطمية ٩٧٧ – ١٠٩٨ م.

الدولة الفاطمية وتسمى ايضاً العبيدية (نسبة الى عبيد الله المهدي) وهي احدى الدول الاسلامية الكبرى استقلت استقلالاً تاماً في مصر وسورية .

عاصمتها القاهرة . عـدد خلفائها اربعة عشر ينتسبون الى فاطمة الزهراء ابنة النبي ، عن طريق جعفر الصادق .

اول من ظهر بالدعوة منهم عبيد الله المهدي – وكان قـد فر من السلمية بالقرب من حمص الى المغرب خوفاً من ايقاع العباسيين به وبدعوته – . واعانه على نيل الخلافة ابو عبدالله الشيعي ، ولما استتب له الامر قتله كما قتل المنصور ابا مسلم الخرساني .

وفي سنة ٣٦٦ هـ = ٩٧٧ م. كانت شوكة هـذه الدولة قد قويت في ايام المعز، فدخلوا مصر بواسطة قائدهم جوهر الصقلي كما استولوا على جنوبي سورية ولبنان .

من آثارهم بناء مدينة القاهرة والجامع الازهر .

ومكث الفاطميون يحكمون مصر وسورية ولبنان حـتى قضى عليهم صلاح الدين الايوبي مؤسس الدولة الايوبية .

بلادنا خلال هذه الفترة

يذكر الاستاذ شاكر مصطفى في كتابه « في التاريخ العباسي » ان الاقاليم في عهد العباسيين كانت على الشكل التـالي :

١ – جزيرة العرب وتشمل الحجاز (ومركزه المدينة) واليمن (ومركزه صنعاء) وعمان هجر .

٢ – العراق ويشمل الكوفة والبصرة وواسط وبغداد وحلوان وسامراء حتى جنوبي الموصل .

٣ – الجزيرة – العراق الشمالي – وفيـه ديار ربيعة (مركزها الموصل) وديار مضر (مركزها الرقة) وديار بكر (مركزها آمد) .

٤ – الشام وتضم خمس مقاطعات : قنسرين (وعاصمتها حلب) ومعها انطاكية والاسكندرونة. ثم حمص وتشمل ما بين تدمر الى سواحل اللاذقية. ثم دمشق ومعها الساحل من طرابلس الى صيدا . ثم الاردن ومركزه طبرية ومعه صور وعكاء وبيسان . ثم فلسطين ومركزها الرملة وفيها يافـا والقدس وغزة وقيسارية وأريحا وعمان والشراة حتى تبوك .

٥ – مصر .

٦ – افريقيا وقصبتها القيروان .

٧ – ما وراء النهر وفيه فرغانة وفاراب وأشروسنة وبخاري .

٨ – خراسان وقصبتها مرو .

٩ – الديلم وتشمل جرجان وطبرستان .

١٠– ارمينية .

١١– ايران الغربية – الري وهمذان وأصفهان .

١٢– خزستان .

١٣– فارس وفيها شيراز واصطخر.

١٤– كرمان .

١٥– السند وتشمل افغانستان وبلوخستان وحوض السند .

شعر السوريون واللبنانيون بأفول نجمهم منذ أن انتقل مركز الخلافة من دمشق الى بغداد ولمسوا بوادر التفرقة الدينية والعنصرية تعصف في جنبات بلادهم فاستكانوا للقوة على مضض منتظرين الفرصة السانحة للوثوب، وهم الذين كانوا ركن الدولة الأموية العربية المتين . والأباة الذين مـا تعودوا الرضوخ للظلم – لا سيا وأن موقفهم اخـذ يتطور مع مرور الايام من سيء الى أسوأ

حتى تركهم محرومين من مناصب الدولة . وكذلك النصارى فقد ساءت احوالهم بسبب التمادي في ابتزاز اموالهم وزيادة الضرائب عليهم . ومما زاد الطين بلة أن الخليفة المأمون أمر بمسح اراضي سورية ولبنان مسحاً جديداً ، فرض بموجبه على الاهلين جميعاً الضرائب الفادحة ولذا فقد كثرت الثورات في بلادنا وأعظمها تلك التي اعلنها في اواخر عهد الامين المضطرب ، رجل اسمه علي بن عبدالله المعروف بالسفياني اذ رفع العلم الابيض – العلم الاموي – وأزال العلم الاسود ، شعار العباسيين . وكان هذا الثائر من العلماء وله من العمر تسعون عاماً فاستطاع ان يجمع حوله جماعة من المؤيدين بينهم حاكم صيداء سنة ٨١٢ م وسار مع انصاره الى حمص فاحتلها ثم حاصر دمشق ودخلها بعد ان طرد عامل العباسيين منها .

ولكن هذه الثورة لم تدم اكثر من ثلاث سنوات انتهت بقتل السفياني وتشتت انصاره وعودة البلاد الى الحكم العباسي في عهد المأمون سنة ٨١٥ م.

الحافظ الصيداوي

من اشهر من نسب الى صيدا في هذه الحقبة، ابن جميع وهو ابو الحسن محمد ابن يحيى بن عبد الرحمن بن جميع الغساني الحافظ الصيداوي ، رحل في طلب الحديث الى مصر والعراق والجزيرة وفارس وسمع فأكثر ، وجمع لنفسه معجماً لشيوخه .

وممن روى عنه عبد الغني بن سعيد الحافظ وهو من اقرانه وتمام بن محمد وأبو عبدالله الصوري وعبدالله بن ابي عقيل وأبو نصر بن طلاب وغيرهم . وقد كان من الاعيان والأئمة الثقات ولد سنة ٣٠٥ هـ. ٩١٧ م ومات بصيدا في رجب سنة ٤٠٢ هـ. ١٠١١ م. وأكثر ما يقال له الصيداوي .

حالة صيدا السياسية خلال هذه الحقبة

لم تعد لصيدا منذ ان أفل نجم الدولة الاموية المكانة التي كانت تتمتع بها سابقاً ، ولم يعد لبحارتها اساطيل تمخر بهم عباب اليم ، بل عم البؤس ارجاءها ومن كان يعيش في بسطة من العيش اصبح في عوز إذ وقفت الحركة التجارية فيها وغادرها النشيطون من ابنائها يبحثون عن عمل في مناطق وعواصم الولايات فاذا بها تصبح قرية كبيرة ومحطة للمسافرين على الساحل . ومما شل في عضدها تناحر الولاة وحروبهم مع بعضهم . فمن حروب الطولونيين مع البيزنطيين الى غزوات الاخشيديين للحمدانيين – وما اصاب البلاد الواقعة بينهما من خراب وسلب ونهب – الى مهاجمة القرامطة للبلاد ومجيء الفاطميين واحتلالهم صور وصيدا . ومن ثم مهاجمة البيزنطيين البلاد السورية واحتلالهم عدداً من المدن الساحلية كطرابلس وبيروت وصيدا سنة ٩٧٩ م والداخلية حلب ودمشق سنة ٩٧٦ وأنطاكية التي ظلت في ايديهم الى ما بعد سنة ١٠٠٤ م ...

هذا الفقر الذي اصاب البلاد ، ومرده للمبدأ القائل « فرق تسد » الذي اتبعه الفاطميون في الحكم اذ كانوا يبدلون ويغيرون ، وينقلون ولاتهم وعمالهم الذين جعلوا هدفهم ابتزاز اموال الرعية بجميع الطرق ويرتكبون كافة ألوان الفساد والظلم مما زاد الطين بلة وجعل الاهلين يتمنون الخلاص .

بشارة الاخشيدي

ومع ذلك فقد وفق الفاطميون في اواخر القرن العاشر الى رجل شد من ازرهم في منطقتنا الصيداوية فخدم مصلحتهم بكل قواه واتبع مع خصومهم وخصومه طريقة العباسيين في التخلص من الامويين ، ذلك هو بشارة الاخشيدي (٩٩٨ م) الذي تنسب اليه بلاد بشارة (جبل عامل) .

اكتسب بشارة بدهائه ثقة البلاد ورجالاتها فوطد دعائم الامن وقطع دابر زعماء المعارضة للنظام الفاطمي اذ قتل ما ينيف على مائتي شاب دفعة واحدة كما نفى كثيراً من الاهلين الى مصر ...

ومن الثورات التي اشتعلت في هذه الفترة ضد الفاطميين ثورة مدينة صور تحت امرة البحار الصوري علاّقة ٩٩٧ م اذ استأثر بالسلطة في المدينة بعد ان قضى على القوة الفاطمية فيها وضرب النقود باسمه ولكن سرعان ما غلب على امره بالرغم من نجـدة البيزنطيين له فأخذ اسيراً الى مصر حيث سلخ حياً وحشي جلده بالتبن .

والطغيان الديني والسياسي الذي سار عليه الفاطميون زاد في شل حركة الادارة وتقلص ظل الولاة عليها مما حدا بقبائل عرب الشام الى اقتسامها فنال بنو الجراح فلسطين وبنو كليب دمشق وبنو كلاب حلب اذ أسسوا فيها الدولة المرداسية وبنو عمار طرابلس وبنو عقيل صور وصيدا وكانت هذه الحكومات الوطنية في اصطدام دائم مع جيوش الفاطميين .

وظلت هـذه حالة البلاد ، فوضى مستمرة ، وخراب اثر خراب حتى قيض الله للدولة الفاطمية سنة ٤٦٣ هـ — ١٠٧٠ م رجـل ارمني الاصل اسمه بدر الجمالي وكان حاجباً عند صاحب دمشق ، فلما مات مولاه توجه الى مصر فعينه الخليفة الفاطمي المنتصر والياً على عكا فأجرى العدالة بين الشعب مما أطلق ألسنة الرعية بالدعاء له الامر الذي دفع بالخليفة لاستدعائه ثانيـة الى مصر ليشرف على تدبير احوال الخلافة ، وحظي هذا من الخليفة بمكان عال وتمكن ببرهة وجيزة من التغلب على العصاة امثال ابن عمار في طرابلس وابن معرف في عسقلان وبني عقيـل في صور وجوارها فاستتب للدولة الفاطمية الأمر .

في هذه الأثناء ظهرت الدولة السلجوقية في بغداد ، واخذت تستولي على

كثير من المدن الشامية مما دفع بدر الجمالي الى ارسال القائد نصير الدولة الى دمشق بعـد ان استولى عليها السلاجقة سنة ١٠٧٥ م فاستولى عليها ولكنه سرعان ما انسحب منها الى جنوب سورية .

بدر الجمالي في صيدا

ما ان وصلت انباء تراجع القوات الفاطمية من دمشق حتى هيأ بـدر الجمالي جيشاً كبيراً على رأسه كبار قادتـه وارسله الى الديار الشامية عن طريق الساحل فتمكن من استرجاع مدينة صور من ايـدي اولاد القاضي عين الدولة بن ابي عقيل ، ثم توجه الى صيدا ففتحها ومكث فيها بضعة ايام ريثما ضبط الامور وولى على صور وصيدا منير الدولة عـلى ان يقوم بضبط الاحكام فيهما بجيش من بطانته .

منير الدولة

ما ان وصلت الى منير الدولة الأنباء باستيلاء الافرنج على جزيرة صقلية حتى انتقض هذا على سيده الجمالي فأعلن عصيانه واستقلاله عنه سنة ٤٨٦ هـ = ١٠٩٣ م فأرسل اليه امير الجيوش العساكر التي ما ان وصلت الى القرب من صور حتى ثار على الوالي الأهلون فتمكن القائـد الفاطمي من القاء القبض على منير الدولة وأرسله الى مصر حيث قتل . وتوفي امير الجيوش بدر الجمالي سنة ٤٨٧ هـ = ١٠٩٤م في شهر ربيع الأول وعمره / ٨٠ / سنة .

الحالة الفكرية

حفل العصر العباسي ودويلاته بالعديد من الادباء والعلماء والشعراء واغلبهم نبغ في سورية ومن اشهرهم: ابو العلاء المعري الشاعر الفيلسوف ، وابو الطيب المتنبي الشاعر الحكيم الأبي ، وابو فراس الحمداني والفارابي الفيلسوف الكبير

وابو تمام والبحتري وقسطا بن لوقا الفيلسوف البعلبكي وناقل العلوم اليونانيـة الى العربية والفيلسوف الغزالي .

الصناعة والتجارة

الاضطرابات الاجتماعية والسياسية والدينية التي عمت البلاد خلال هـذه الحقبة من الزمن وما نتج عنها من تبلبل البـال والحال لا يتفق مع رواج سوق التجارة والصناعة . ومع ذلك فان بعض المدن كصور وصيدا ودمشق وحلب وحمص ظلت تصنع الأقمشة الثمينة والزجاج بأشكاله الجميلة وكافـة انواع الأسلحة الجميلة وتصدرها الى خارج البـلاد ولكن بصورة محدودة وضئيلة عما سلف من الأزمنة .

الحالة الدينية

المسيحيون – تعتبر هذه الحقبة فترة اضطهاد ديني من قبل السلطة العليا للمسيحيين . فالقوانين الجائرة التي أصدرهـا المتوكل حبست الأنفاس على النصارى ، وجاء اضطهاد الحاكم بأمر الله الفاطمي لهم وهدمه كنيسة القيامة ثالثة الأثافي مما زاد في عمق الهوة بين طبقات الشعب المتباينة العقائد والمذاهب والتي لم تكن تعرف التفرقة المذهبية بشكلها القبيح ايام حكم الأمويين للبلاد . وهذه الاضطهادات هي احدى المسببات التي أدت الى قيام الحروب الصليبية وما نجم عنها من سفك للدماء وإزهاق للأرواح واستباحة للأموال وخراب للبلاد ...

المسلمون

في هذه الحقبة نشأت المذاهب السنية الأربعة :

١ – المذهب الحنفي : نسبة الى ابي حنيفة النعمان ٧٦٧ م .

٢ – المذهب المالـكي : الى مالك بن أنس سنة ٧٩٥ م .

٣ – المذهب الشافعي : الى محمد بن ادريس الشافعي سنة ٨١٩ م.

٤ – المذهب الحنبلي : الى احمد بن حنبل ٨٥٥ م .

وفي هذه الحقبة قوي التشيع للامام علي وذريته فأطلق عليهم اسم الشيعة وتفرع من الشيعة العـديد من الفرق كالاسماعيلية والدروز « الموحدون » والعلويون والقرامطة ..

كما ظهرت في هذه الحقبة فرقة المعتزلة التي قالت بخلق القرآن وفرقة المرجئة التي تقول: « لا تضر مع الايمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة ».

جمال صيدا

وفي القرن الخامس الهجري (الحادي عشر ميلادي) مر الرحالة الفارسي المشهور ناصري خسرو في صيدا فقال عنها في كتابه سفرنامه ص ١٤ – ١٥ ما يلي :

« ثم توجهنا الى مدينـة صيداء وهي على شاطيء البحر يزرع فيها قصب السكر بوفرة وبها قلعة حجرية محكمة يلج اليها بواسطة ثلاث بوابات وفيهـا مسجد جمعة جميل يبعث في النفس هيبة تامة ، وقد فرش بالحصير المنقوش .

وفي صيداء سوق جميل نظيف وقد ظننت حين رأيته انه زين خاصة لمقدم السلطان او لأن بشرى سعيدة أذيعت ، فلما سألت قيل لي هكذا عـادة هذه المدينة دائماً وفيها حدائق وأشجار منسقة حتى لتقول ان سلطاناً هاوياً غرسها ...

الفصل السادس

الحروب الصليبية وأسبابها

(١٠٩٨ – ١٢٩٢ م)

حالة بلادنا قبيل الحروب الصليبية

إن تكاثر الدويلات المستقلة في البلاد وتعدد البدع والنحل من اسماعيليين وزيديين وعلويين وشيعيين وقرامطة جعل بلادنا ممزقة الاوصال متضعضعة . فالشعب متململ وقد توالت عليه المظالم والاحن اجيالاً متطاولة والحاكم تلو الحاكم ، والفاتح اثر الفاتح يجر وراءه جيوشاً نهمة لا تعرف سوى النهب والسلب والسبي والاستباحة ولا هم لهم الا ابتزاز المال وعصر هذا الشعب المستكين لاستنزاف دمه . كل هذا جعل ابواب بلادنا مفتوحة على مصراعيها لاقتبال سيطرة كل فاتح جديد . وبدلاً من ان تتكاتف هذه الاعتبارات السياسية والدينية وتتحد عصبة واحدة في وجه الغازي الغريب ، نراها تتخاذل وتنبذ جانباً كل فكرة اتحاد وتتسابق الى اكتساب رضى الآمر العتيد وإحراز عونه للايقاع بمناظريها .

وكان الحجاج المسيحيون عند رجوعهم الى الغرب يروون المدهشات ويصورون لمواطنيهم حالة المسيحيين الشرقيين في افجع الحالات وأدماها ويهيبون بالنبلاء الى انقاذ قبر المسيح من تسلط المسلمين .

اسباب الحروب الصليبية

إن هذه الحروب الدامية التي ذهبت بملايين الارواح وأغرقت اوروبا وبلادنا بسيول من الدمار والويلات وجرت ذيول الخراب طيلة قرنين من الزمن ، تعود لأسباب عديدة مختلفة الوجوه متنوعة النزعات ، منها ما هو ديني ونفسي ومنها ما هو سياسي واقتصادي ، ومنها ما يجمع الامرين معاً .

ونحن نجتزىء الأسباب الكثيرة فيما يلي :

١ – قيام الدولة السلجوقية وتضخمها السريع في فلسطين ولبنان وسورية وآسيا الصغرى بعد ان سحقت جيوشها جيوش بيزنطية واستولت على امهات مدن الاناضول (ازمير وقونية) وبعض جزر الارخبيل مما شكل خطراً كبيراً على اوروبا المسيحية التي رأت فيها سيفاً مسلطاً على الغرب وسداً في وجه الحجاج الى فلسطين .

٢ – جزع الامبراطورية البيزنطية وخوفها من الانهيار دفعها للاستنجاد بشعوب الغرب الغنية واستدرار عطف بابا رومية الذي رأى في مؤازرة الامبراطورية الشرقية الارثوذكسية فرصة سانحة لربط مسيحيي الشرق بكرسيه بعد الانشقاق التام الذي جرى بين الكنيستين الشرقية والغربية سنة ١٠٥٤م.

٣ – تضخم النظام الاقطاعي في الغرب الى حد غير معقول ، جر معه الى الشعب الاوروبي التضعضع الادبي والمادي والحروب والمنازعات ، وعبثاً حاولت الكنيسة تخفيف هذه الويلات والحروب فلم تتمكن من ازالة الازمة الاقتصادية الآخذة بخناق الشعب لذلك عمدت الى تحويل الحروب الأهلية

الاوروبية تدريجياً الى حرب موجهة ضد عدو الدين – كما قالت – فاتحة باب الجهاد على مصراعيه امام المجاهد ليعمل (في صفقة واحدة) لدينه ودنياه فيأمن غوائل الجوع وينال الثواب في الآخرة (مجمع كليرمونت ١٠٩٥ م) .

٤ – حب المغامرة لدى الفرنجة وهم أبناء وأنسال تلك القبائل البربرية الهوجاء التي انقضت على المملكة الرومانية فدكت مدنيتها وقد اصبحت تلك القبائل في هذه الحقبة تشكل ممالك وامارات مختلفة واقطاعات وهمية لا تسمن ولا تغني من جوع فوجدوا في الشرق سحره وكنوزه مما حبب اليهم الغنى السريع عن طريق ظنوها سهلة المنال .

٥ – كرازة بطرس الناسك اثر عودته من فلسطين ووصفه حالة المسيحيين هناك بشكل مؤثر وقد طاف بأمر من البابا في اصقاع اوروبا يصور ببلاغة وحرارة ما يرسف به المسيحيون من سلاسل الرق والهوان والعبودية غير ان تأثير بشارته لم يكن لها الاثر الفعال الذي اعاره اياه بعض المؤرخين السطحيين .

الحملة الاولى ١٠٩٥ – ١٠٩٩ م

تمتاز هذه الحملة بأنها دينية بحتة وان كان فيها اقوام من الرعاع وحثالة الشعوب الذين يسعون وراء المكاسب المادية والمطامع الشخصية . وكان قادتها غودفروا دي بويون الفرنسي وشقيقه بودوان من امراء الفلاندر وبوهيموند النورمندي وإبن اخيه تنكريد الايطالي وريموند دي تولوز .

اتبعت هذه الحملة بمعظمها طريق البر فاحتلت الرها في سنة ١٠٩٨ م وأنشأت فيها اول امارة صليبية . تولى امارتها بودوين شقيق غودفروا ثم فتحت مدينة انطاكية سنة ١٠٩٨ م وأنشأت فيها امارة انطاكية التي أنيط حكمها بالأمير بوهيموند ومن ثم توجهت الى القدس .

الصليبيون عند صيدا

وصل غودفروا دي بويون وجيشه الى الحدود اللبنانية الساحلية فاستقبله الموارنة وآزروه وأمدوه بالمؤن والأغذية ونظراً لما اصيب به من خسائر في اشتباكاته السابقة مع قوات المسلمين فقد وضع خطته القاضية بالسير على الشواطىء اللبنانية دون ان يفكر بالاستيلاء على المدن الساحلية جاعلاً نصب عينيه الوصول بقواته سالمة الى فلسطين ولما وصل الى صيدا في ١٩ أيار سنة ١٠٩٩ م وتوقف عند أبوابها تعرضت له القوات المدافعة عنها فحدثت الاشتباكات التي انتهت بأن قبل اهل صيدا ان يدفعوا جزية سنوية للصليبيين مقدارها ٢٠٠٠ دينار على ان لا تمس مدينتهم . وعلى ذلك بارح الصليبيون ضواحي المدينة في طريقهم الى يافا فالرملة ومنها الى القدس التي حاصروها ٣٩ يوماً تمكنوا بعدئذ من احتلالها في ١٥ تموز سنة ١٠٩٩ م وأجروا فيها من الفظائع ما تأباه الانسانية ، اذ ذكر بعض المؤرخين ومنهم أجانب ان عدد القتلى بلغ في القدس وحدها ٧٠ ألف نسمة .

وفي القدس تشكلت مملكة الصليبيين الأولى وارتقى عرشها غودفروا دي بويون فلم يمكث أكثر من سنة ثم توفي وخلفه اخوه باسم بودوين الاول (١١٠٠ – ١١١٨ م) .

في الطريق الى صيدا

سار ريمون دي تولوز من طرابلس الى بيت المقدس بقصد الحج سنة ١١٠١م فوصلت أخباره الى الأمير عضد الدولة الارسلاني حاكم الساحل فجمع هذا رجالاً من بيروت وصيدا وصور وعكا وتوجه بهم الى نهر الكلب ليقطع الطريق عليه فاستنجد ريمون بالملك بودوين ففر عضد الدولة برجاله الى بيروت. وبلغ ذلك شمس الملوك دقاق ملك الشام فكتب الى الامير كتاباً يوليه به على

صيدا ويأمره بتحصين كل من صيدا وبيروت وللحال ارسل عضد الدولة من قبله الامير مجد الدولة محمد بن عبدي من بني عبد الله الى صيدا نائباً وبدأ هذا في تحصين بلدته واعداد العدة للدفاع عنها .

بودوين أمام صيدا

ورأى بودوين الاول انه اصبح من المتوجب عليه ان يتوسع بحدود مملكته نحو الشمال ، فأرسل جيشاً الى صيدا سنة ١١٠٧م لاحتلالها . ولكن حامية المدينة بقيادة الامير مجد الدولة قاومت الغزاة بضراوة الأمر الذي أكره المهاجمين على عقد صلح مع المدينة نالوا بموجبه جزية اكبر من السابقة ، ومع هذا فان بودوين لم يقتنع بها بل جاء بنفسه على رأس جيش قوي في اواخر تلك السنة وضرب الحصار على صيدا ولكنه ارتد عنها مكرهاً المرة الثانية امام المقاومة العنيفة التي أبداها الامير مجد الدولة ورجاله الابطال .

فتح صيدا

وفي عام ١١١٠ هيأ بودوين حملة كبيرة تولى قيادتها بنفسه وأوكل الحكم في القدس الى برتران دي سانت جيل وتوجه الى بيروت رأساً حيث وضع عليها الحصار في اواخر شباط وتمكن في ١٣ ايار سنة ١١١٠م من احتلالها بالرغم من مقاومة الفاطميين الضارية آنئذ ...

وبعد ان استتب الامر لبودوين في بيروت ونظم شؤون الحكم فيها ، عاد بقواته نحو الجنوب وبغيته تنصب على احتلال صيدا مهما كلفه الثمن ..

وصلت جيوشه الى مقابل صيدا في اواسط شهر تشرين الاول سنة ١١١٠م فوضعت عليها الحصار وشددت الخناق طيلة اربعين يوماً دونما نتيجة ولكن وصول القوات البحرية الكثيرة من جنوى والبندقية بالاضافة الى الستين مركباً

بحرياً نرويجياً التي كان يقودها الامير النرويجي سيمون مع عشرة آلاف محارب ومجيء الكونت برتران المعين حاكماً على طرابلس مع قوات جديدة ، ضيق الخناق على صيدا فاضطرت الى الاستسلام للصليبيين ودخلها بودوين فاتحاً في ٤ كانون الاول سنة ١١١٠م بعد ان قضى على الحامية فيها .

اما ابن الاثير فيفصل احتلال صيدا كما يلي :

« في ربيع الآخر سنة ٥٠٤ هـ. — ١١١٠ م. ملك الفرنجة صيداء من ساحل الشام وسبب ذلك انه وصل الى الشام ستون مركباً للفرنجة مشحونة بالرجال والذخائر مع بعض ملوكهم ليحجوا الى بيت المقدس وليغزوا المسلمين فاجتمع بهم بلدوين ملك القدس وتقررت القاعدة بينهم ان يقصدوا بلاد الاسلام فرحلوا من القدس ونزلوا مدينة صيداء ثالث ربيع الآخر من هذه السنة وضايقوها براً وبحراً وكان الاسطول المصري الفاطمي مقيماً على صور فلم يقدر على انجاد صيداء فصنع الفرنجة برجاً من الخشب وأحكموه وجعلوا عليه ما يمنع النار والحجارة عنه وزحفوا به . فلما عاين اهل صيداء ذلك ضعفت نفوسهم وأشفقوا ان يصيبهم ما اصاب اهل بيروت فأرسلوا قاضيها ومعه جماعة من شيوخها الى الفرنجة وطلبوا من ملكهم الامان ، فأمنهم على انفسهم وأموالهم والعسكر الذي عندهم ومن اراد المقام به عندهم امنوه ، ومن اراد المسير عنهم لم يمنعوه وحلف لهم على ذلك . فخرج الوالي وجماعة كثيرة من اعيان اهل البلاد في العشرين من جمادي الاول الى دمشق وأقام بالبلد خلق كثير تحت الامان .

وكانت مدة الحصار سبعة وأربعين يوماً ورحل بودوين عنها الى القدس ثم عاد الى صيداء بعد مدة يسيرة فقرر على المسلمين الذين اقاموا بها عشرين ألف دينار فأفقرهم واستغرق اموالهم .. (ابن الاثيرج ١٠ ص ٣٣٦ — ٣٣٧) .

ويروي احد المؤرخين الثقاة ان بودوين كاد يقع فريسة سهلة في يد خادمه الذي كان مسلماً فتنصر سعياً وراء اغتيال الملك . ولكنه فشل في مسعاه اذ اكتشف امره قبل تنفيذ امنيته وقتل ...

بارونية صيدا

عين بودوين على صيدا حاكماً جديداً هو الشفاليه اوستاش جزينيه وأقطعه إياها بعد ان أتبعها بمملكة القدس وجعلها بارونية كما أقطع مدينة بيروت الى اسرة ديبلين ...

ونتيجة لانتصار بودوين العسكري في صيدا واحتلال خلفائه لمدينة صور في ٧ تموز سنة ١١٢٤م. فقد ألحقت أسقفيات صيدا وصور وبيروت ببطريركية القدس بعد ان كانت تخضع لبطريركية انطاكية تبعاً للتقسيمات السياسية . لأن مملكة اورشليم الصليبية كانت تمتد من نهر الكلب شمالاً الى صحراء سيناء وخليج العقبة جنوباً وتشمل بارونيات القدس، نابلس ، عكاء، صور، صيدا ، يافا ، والكرك . وكان من أمنع حصون هذه المملكة قلعة الشقيف الواقعة الى الجنوب الشرقي من صيدا وقلعة بانياس وحصن الكرك في شرق الاردن.

وكانت حدود بارونية صيدا تمتد شمالاً حتى الدامور وجبل الكنيسة والى الشرق والجنوب تمتد حتى مسيل الليطاني وألحق بهذه البارونية نيابات عدلون وساربيتا والشوف وجزين ومنطقتي مرجعيون وحاصبيا .

ويذكر جاك نانتي في « تاريخ لبنان » ان صيدا لعبت دوراً هاماً وبارزاً خلال هذه الفترة من حكم الصليبيين ، اذ نمت مواردها وكثر سكانها وأصبح لها شأن كبير في تموين وتعزيز القوات الصليبية الموجودة في بقية مناطق المملكة .

قبيلة ربيعة

في اوائل القرن الثاني عشر دخل لبنان قبيلة عربية متحدرة من قبيلة ربيعة برأسها الامير معن الايوبي ونصبت خيامها لاول وهلة بالقرب من دير القمر على عين المزاريب.وفي عام ١١١٨م اصبح المعنيون سادة هذه الفيافي التي كان يقطنها الدروز فاتصلوا بالتنوخيين ومنهم أخذوا المذهب الدرزي . وبعد وفاة الامير معن ورثه في الحكم ابنه الامير يونس الذي كان يقف مع قبيلته سداً منيعاً في وجه الصليبيين يمنعهم من التغلغل في الجبل اللبناني .

وخلال هذه الفترة نزح الى صيدا وجوارها عدد من الدروز فاستوطنوا فيها وعاشوا بسلام وأمن مع اخوانهم سكان المنطقة .

المجتمع الصيداوي

الصليبيون الأجانب هم السادة ويليهم في المرتبة السكان المسيحيون اذ اعتبرهم الصليبيون حلفاءهم الامناء ما عدا الارثوذكس منهم الذين رفضوا الخضوع لسدة البابا فعوملوا معاملة قاسية واضطهد رجال دينهم وأهينوا وفرضت عليهم الضرائب المجحفة التي اثقلت كواهلهم مما دفع بغالبيتهم الى النزوح من البلاد الساحلية واللواذ بالمناطق الداخلية التي لم يحتلها الصليبيون مفضلين الخضوع للمسلمين على تغيير مذهبهم اما من بقي منهم فبعضهم تحمّل الاساءة ولم يغير عقيدته والبعض الآخر أعلن الخضوع للكرسي البابوي فشكلوا نواة الملكيين الكاثوليك . وهكذا تضاءل عدد المسيحيين في صيدا الى اقل من نصف السكان بينما كان عددهم قبل ذلك يناهز الثلثين (جاك نانتي – تاريخ لبنان) .

ويأتي في الدرجة الثانية بعد المسيحيين المسلمون المستوطنون الذين فرض

عليهم الصليبيون الضرائب المرهقة وتفننوا في جبايتهـــا تسديداً لنفقات جيش المحتلين .

أما الجـــالية اليهودية فتأتي في المرتبة الثالثة وكان عددهـا في صيدا ستون عائلة تعمل جميعها في التجـارة والصيرفة والسمسرة والصياغة وبيع المجوهرات وكانوا يؤدون الضرائب المفروضة عليهم للفاتحين ولكنهم برعوا في التهرب من تأديتها كاملة بأساليب لا يجاريهم بها احد فتارة يتظاهرون بالفقر المدقع والعوز وأخرى بالتمرغ على الأعتاب والتزلف الى الحكام وثالثة بتأدية الخدمات الخاصة ...

أين هذه الصفحة

الفصل السابع

صلاح الدين الأيوبي

هو يوسف صلاح الدين بن أيوب حاكم قلعة تكريت في الجزيرة قرب الموصل. ولد في تكريت وفيها نشأ وتربى.

سار مع عمه أسد الدين شيركوه على رأس جيش أرسله نور الدين السلجوقي نجدة للخليفة الفاطمي في مصر ضد اموري ملك القدس فتمكن شيركوه من ايقاف الصليبيين موصداً في وجههم ابواب مصر ولذلك عينه الخليفة الفاطمي وزيراً له.

ولما مات شيركوه وليه في الوزارة ابن أخيه صلاح الدين وكان شاباً في العقد الثالث من العمر ذكياً شجاعاً حكيماً فتمكن بمقدرته العقلية والسياسية من تذليل كل العقبات التي كانت تحول دون وصوله الى السيادة العليا.

وما لبث الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله أن توفي سنة ١١٧١ م فاستتب الامر لصلاح الدين في مصر وحكمها باسم سيده نور الدين ونفسه تطمح الى الاستقلال التام بها. ولحسن طالعه قبض نور الدين ملك الشام وكذلك اموري الملك الصليبي سنة ١١٧٤ م وبين وفاة الاثنين فترة شهرين فقط، فخلا الجو



صلاح الدين الايوبي

لصلاح الدين في القطرين المصري والسوري وأصبحت سلطته ترمي بظلالها من ضفاف النيل الى ما وراء الفرات معيداً الخطبة باسم العباسيين بعد ان توفي آخر خليفة فاطمي في مصر .

وكان صلاح الدين – مؤسس الدولة الأيوبية – لعزة نفسه، يرى المملكة اللاتينية قذى في عين العالم الاسلامي فأخذ يعمل على إزالتها وتسنى له ذلك

اذ كسر الصليبيين وأمراءهم شر كسرة في حطين – وهو سهل واقع بين طبرية والناصرة – سنة ١١٨٧م ووقع في اسره الملك «غي دي لوسيفيان» وعدد كبير من الاشراف بينهم «رينو دي شاتيللون» Renaud de Chatillon امير الكرك.
ثم فتح بيت المقدس صلحاً بعد حصار قصير، على فدية جرت على الرجال والنساء فقط. وأظهر صلاح الدين عند فتح القدس من الشهامة وعزة النفس والاريحية العربية ومكارم الاخلاق، ما يفضح عند المقابلة والمقارنة، مظالم الصليبيين واستباحتهم القدس وسكانها اثر فتحهم لها، اذ كانوا يكرهون العرب على إلقاء انفسهم من أعالي البروج والبيوت او يجعلونهم طعماً للنار او يخرجونهم من الأقبية ويجرونهم في الساحات ثم يقتلونهم فوق جثث الآدميين. وكانوا في كل بلد يدخلونه يقتلون من اهله ويخربون عمرانه ويحرقون كتبه ومتاعه وآثاره (المؤرخ الفرنسي ميشو، وأمين الريحاني في كتابه النكبات).

صلاح الدين يستعيد صيدا

بعد ان استولى صلاح الدين على مدينة القدس تابع زحفه على المدن الساحلية فاستولى على يافا وعكا وصيدا وبيروت وقد فتحها صلحاً في نفس عام ١١٨٧م وقد اصدر فور استلام صيدا امراً بهدم حصونها خوفاً من عودة الصليبيين اليها.. ولم يبقَ بين أيديهم سوى صور وطرابلس وانطاكية وما اليها من معاقل وحصون. وكانت فلول الصليبيين قد تجمعت في مدينة صور فعمد صلاح الدين الى تضييق الحصار عليها فلم يتمكن من فتحها نظراً لمناعتها الحربية، ولوصول الأنباء اليه بمجيء الحملة الصليبية الثالثة التي يقودها اعظم ملوك اوروبا في ذلك العصر...

اما ابن الاثير فيروي احتلال صلاح الدين مدينة صيداء على الوجه التالي:

«واما صيدا فان صلاح الدين لما فرغ من تبنين رحل عنها الى صيداء فاجتاز بطريقه الصرفند فأخذها صفواً بغير قتال وسار عنها الى صيداء وهي من مدن

الساحل المعروفة ، فلما سمع صاحبها بمسيره نحوه ، سار عنها وتركها فارغة من مانع ومدافع . فلما وصلها صلاح الدين تسلمها ساعة وصوله دون إراقة نقطة من الدماء. وكان ملكها لتسع بقين من جمادى الاول سنة ٥٨٣ هـ = (١١٨٧م)».

الحملة الصليبية الثالثة

انزعجت اوروبا وهاجت لما ألمّ بالصليبيين من ذل في حطين وسقوط بيت المقدس في أيدي المسلمين ، وقام رئيس أساقفة صور وليم الصوري – وهو من المؤرخين الثقاة للحروب الصليبية – يدعو اوروبا ويستفز همم شعوبها للأخذ بالثأر واستعادة ممتلكات الصليبيين في الشرق ، فتألفت الحملة الصليبية الثالثة بزعامة ملوك اوروبا :

١ – فريدريك بارباروس امبراطور المانيا

٢ – فيليب اوغست ملك فرنسا وثعلب الحملة

٣ – ريكاردوس قلب الاسد ملك انكلترا وبطل الحملة

٤ – ليوبولد ارشيدوق النمسا .

والمؤرخ المدقق يجد في هذه الحملة كل ضمانات النجاح . فمن دهاة السياسة الى قوة البأس والبطش وكثرة العدد والعُدد ما يكفل لها الفوز ، غير ان تعدد الرؤوس وفقدان وحدة القيادة وتأصل العداء بينهم جعل الحملة في مكان بعيد بالنسبة الى المسلمين وفيهم في شخص صلاح الدين ما في الفرنجة مجتمعين من دهاء وحنكة وبأس وقوة . وفضلاً على ذلك وحدة القيادة والزعامة والسياسة ، وهذه افضلية فيها كل عوامل النجاح .

وبنتيجة الحرب الصليبية الثالثة ، تمكن الصليبيون من احتلال عكا وقيصرية وعسقلان وصور بفضل البسالة التي ابداها ريكاردوس قلب الاسد غير ان هذا

قعد عن فتح القدس لاختلافه مع زعماء الصليبيين فاضطر للمهادنة وعقد صلحاً مع صلاح الدين مدته ثلاث سنوات تتوقف خلالها الحرب بين الفريقين ويعترف المسلمون بحق الصليبيين في تملك الشطوط البحرية من يافا الى صور وعاد ريكاردوس الى بلاده ...

أما صلاح الدين فقد ارهق صحته ما قام به من حروب وجهاد وما عاناه من نوائب وملمات فعاد الى دمشق حيث توفي فيها سنة ١١٩٣ م ودفن في جوار المسجد الاموي ...

صيدا في ايدي الصليبيين ثانية

ما ان توفي صلاح الدين الايوبي وتقاسم ابناؤه المملكة الكبيرة حتى دب الخلاف بينهم واشتعلت الحروب ، الامر الذي سمح للصليبيين المجتمعين في صور من تهيئة حملة عسكرية تسلم زمام قيادتها الجو الثالث الملقب بالاعوج وانقضوا على مدينة صيدا التي كانت مخربة الحصون فتمكنوا من دخولها وأعلنوا ضمها اليهم . وقد تم ذلك عام ١١٩٨م.

وظلت صيدا تحت حكم الصليبيين فترة من الزمن كما اعترف الملك العادل شقيق صلاح الدين الايوبي للصليبيين بحق الاحتفاظ بها سنة ١٢٠٤م .

وتمكن المسلمون في عام ١٢٢٠م من الوصول الى صيدا وعقدوا مع الصليبيين معاهدة تنص على اقتسام المدينة بينهما .

ويؤكد هذا ما ذكره ابن الاثير في تاريخه عن حوادث سنة ٦٢٠هـ اذ يقول : « في هذه السنة – اي في سنة ٦٢٠ هـ – ١٢٢٣ م – خرج كثير من الافرنج من بلادهم التي هي في الغرب من صقلية وما وراءها من البلاد الى بلادهم التي بالشام عكا وصور وغيرهما من ساحل الشام فكثر جمعهم وكان قد خرج قبل هؤلاء جمع

آخر ايضاً إلا انهم لم يتمكنوا من الحركة والشروع في امر الحرب لأن ملكهم الالماني ولقبه انبروز (امبراطور) ومعناه ملك الامراء ولأن المعظم كان حياً وكان شهماً شجاعاً مقداماً . فلما توفي المعظم وولي بعده ابنه ملك دمشق طمع الفرنجة وظهروا من عكا وصور وبيروت الى مدينة صيدا وكانت مناصفة بينهم وبين المسلمين وسورها خراب فعمروها واستولوا عليها وازالوا عنها حكم المسلمين. وانما تم لهم ذلك بسبب تخريب الحصون القريبة منها كتبنين وهونين وغيرهما» .

وفي سنة ١٢٢٧م عمد الصليبيون الى تحصين صيدا تحصيناً قوياً فبنوا قلعة البحر وسكنوها في عام ١٢٢٨م واقاموا على اسوارها الحامية والحافر..

وفي عام ١٢٢٩م تمت المفاوضات بين فريدريك الثاني امبراطور المانيا وقائد الحملة الصليبية السادسة ، والملك الكامل ناصر الدين وعقدت بينهما معاهدة يافا في ١١ شباط سنة ١٢٢٩ م اعترف بموجبها لفريدريك بالاستيلاء على بيت لحم والناصرة وبحقه في حاكمية صيدا وتوابعها .

وعلى اثر عودة فريدريك الى بلاده اشتعلت نيران الثورة بين الصليبيين انفسهم فدارت رحى المعارك الطاحنة . ولم تأت سنة ١٢٤٣ م على الاوروبيين الا وكانت قواتهم ضعيفة متخاذلة .

ولم ينل الفرنسيون من جراء الحروب المشتعلة بينهم وبين المسلمين ، وبينهم وبين بقية الاطراف الصليبية الاخرى الا الخسائر الكبرى في الارواح والاموال في وقت جنى فيه الجنويون (المقيمون في جبيل وطرابلس والبنادقة المقيمون في صيدا وصور) الارباح المادية الجزيلة لما اخذوه من نفائس البلاد وكنوزها وما قاموا به من اعمال تجارية رابحة جداً ...

صيدا تعود الى ايدي المسلمين

وكنتيجة للنزاع الواقع في صفوف الصليبيين واقتتالهم فيما بينهم تهيأ المسلمون

للانقضاض على صيدا في الوقت المناسب ، فتسنى لهم ذلك سنة ١٢٤٩م. فدخلوها ودكوا اسوارها الى الحضيض وفرت حامية المدينة ملتجئة الى صور .

عودة الصليبيين

... حاول الصليبيون اكثر من مرة استعادة مدينة صيدا ، ولكنهم باؤوا بالفشل ، وفي شهر تموز سنة ١٢٥٣ جاء الملك لويس التاسع ملك فرنسا وجمع شتات الفرنجة وحامياتهم وتمكن من استعادة صيدا سلماً ، فعمد الى تحصينها وأحاط المدينة بسور ضخم كما عمد الى ترميم قلعة صيدا البرية وأحاطها هي ايضاً بسور متين .

وظلت صيدا في ايدي الصليبيين تنعم بالهدوء والاستقرار حتى ايام سلطان المماليك البحرية الظاهر بيبرس البندقداري (١٢٦٠ – ١٢٧٤ م) الذي اشترك في معركة عين جالوت ضد التتر وانتصر عليهم ثم غدر بالسلطان قطز وتولى حكم مصر مكانه .

ومن أشهر اعماله محاربة الصليبيين ، إذ جهز عليهم عدة حملات قضت على اقطاعاتهم المتلاشية وهاجم صيدا وفتك بأكثرية حاميتها ولكنه لم يتمكن من فتحها . لأن الدفاع المستميت الذي قام به فرسان الهيكل الذين سبق لهم ان اشتروا صيدا من حاكمها جوليان سنة ١٢٦٠م صده عنها .

وظلت صيدا في أيدي الصليبيين حتى ايام الملك الأشرف(١٢٩٠-١٢٩٣م) الذي آلت إليه مقاليد الحكم بعد وفاة ابيه السلطان قلاوون . فصمم هذا على اقتلاع شوكة الصليبيين من جسم الدولة الاسلامية ، فسار بجيشه القوي وحاصر عكا وضيق عليها الخناق مستخدماً ٩٢ منجنيقاً ، وفي ١٨ ايار سنة ١٢٩١ م تمكن من احتلالها ففتك بالهيكليين أشد الفتك وأعمل في أهلها النهب والسلب ثم امر بهدمها فدكت أسوارها ومنازلها ، وهكذا أصبحت عكا قاعاً بلقعاً .

وبسقوط مدينة عكا الحصينة تقرر مصير المدن الساحلية القليلة الباقيــة اذ اخليت صور في اليوم نفسه واستسلمت صيدا في ١٤ تموز سنة ١٢٩١م اثر فرار الفرسان الهيكليين منها الى طرطوس فدكت اسوارها حتى الحضيض واستسلمت بيروت سنة ١٢٩١ م في ٢١ تموز . وصمدت أرواد بعدئذ ١١ سنة ولكنهـــا سقطت وبسقوطهـــا أسدل الستار على اروع فصل في تاريخ النضال بين الشرق والغرب .

وأقام المماليك لأجل حراسة السواحل البحرية بعضاً من عشائر التركمان والاتراك ليحولوا دون اتصال نصـــارى الجبل بالفرنجة الذين ظلوا يشنون الغارات خلال القرن الرابع عشر على السواحل ..

وفقدت صيدا أهميتها العسكرية منذ ذلك التاريخ ولم تقم من عثرتهـــا حتى مجيء فخر الدين المعني الكبير في اواخر القرن السادس عشر ومطلـــع القرن السابع عشر ..

الفصل الثامن

نتـــائج الحروب الصليبية وأثرها
في الشرق والغرب

التفاعل الحضاري

الحروب الصليبية وما رافقها من شرور وويلات ذهبت بالالوف من الارواح البريئة أزهقت كلهـــا باسم الدين الذي وكأنمـــا أنزل للتفرقة والانشقاق وليس لتوحيد القلوب وتأليفها – ولو شاء ربك لجعلها أمة واحدة – .

ويقول الدكتور فيليب حتي في كتابه تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، الجزء الثاني ، صفحة ٢٥٠ – ٢٦٣ ما خلاصته :

« لقد ابدع الصليبيون في روائع الاحداث وغرائب الوقائع ، الا انهم كانوا مدعاة لخيبة الأمل في مآتي الفكر ومآثر الحضارة ، فكانوا من حيث فاعليتهم الحضارية ابعد تأثيراً في الغرب منهم في الشرق. ذلك انهم فتحوا امـــام بصائر الاوروبيين آفاقاً جديدة – صناعيــة وتجارية واستعمارية ، وكانت الدول التي

أقاموها من قبل الممالك الاستعمارية الحديثة ، وكان التـاجر او الحاج آنئذ في مقام الجندي المسرح اليوم – أداة فعـالة في نقل الحضارة ، على انهم تركوا في الشرق من النفور بين المسلمين والنصارى ما هو باقي الأثر حتى اليوم » .

واننـا لنوجز تأثير هذه الحملات فيما يلي :

١ – تأثيرها على بلادنا

أ ـ الهندسة البنائية : سجل بنـاء القلاع والحصون طرازاً هندسياً جديداً هو وليـد الحكم الاقطاعي ، الذي أضر كثيراً بكنوز بلادنا الأثرية ، اذ ان الصليبيين اضطروا في تشييد معـاقلهم الى دك كثير من آثارنا القديمة وتقويض أركانها مما جعل بعض اسرارها يغمض فهمه حتى الآن ...

وأبرز ما خلفه الصليبيون من الآثار في بلادنا هو تلك الحصون العديدة التي لا تزال تتوج روابيها ، ومن ابرزها في صيدا حصن القديس لويس الذي ما برح قائماً في قلعة صيدا البرية . ويجيء بعد الحصون الكنائس . اعتمد الفرنجة في بناء الكنائس الطراز الروماني والطراز القوطي ، لكنهم اتخذوا لتزيينها الزخارف البيزنطية والسورية . فقلدوا كنيسة القيـامة وقبة الصخرة في كثير من مبانيهم الكنسية ... ثم تحول كثير من كنائس الصليبيين بعـد انقضاء ذلك العهد الى مساجد ، ومنها كنيسة صيدا التي بناها الفرسان الاسبتاريون في سنة ١١٣٥م ، وتحولت اثر خروج الصليبيين سنة ١٢٩١م من صيدا الى المسجد المعروف حالياً باسم الجامع الكبير « جامع البحر » وبناؤه من الداخل يشهد بذلك .

ب ـ في المجتمع : ان النظام الاقطاعي الذي درج عليـه الصليبيون في بلادنا لم يذهب بذهابهم منها ، بل بقي معمولاً به دهوراً وحتى يومنا هذا . وقد شاع استعماله كثيراً في العصر العثماني ، اذ اقطع السلاطين العائلات الكثيرة في لبنـان

المنـاطق المختلفة ومنهم : آل ارسلان ، شهاب ، جنبلاط ، تلحوق ، تنوخ ، معن ، الخازن ، ابي اللمع ، آل عساف ، حرفوش ، حماده ، الاسعد ، وسواهم.

ج ـ في اللغة : امـا التأثير اللغوي فينحصر في اقتباس بعض الكلمـات والمفردات الجديدة ، فدرجت في لغة ابنـاء الضاد مثل : كلسات ، كرنتينا ، دكان ، صمفران .

٢ – الحالة الاجتماعية

كان الصليبيون يشكلون ثلاث طبقات :

أ – طبقـة الاكليروس ، وكانت تتمتع بامتيازات واسعة النطاق وكان بطريرك القدس اللاتيني يقوم بحفلة تتويج الملك وإليه ترجع الوصاية على العرش في حالة وفاة الملك .

ب – طبقة النبلاء والاشراف ، وكانوا يشغلون الوظائف الكبرى في الدولة ويملكون الثروات الطائلة والقصور الفخمة ويسيطرون على ألوف العبيد .

ج – طبقة الاحرار ، وهم الصليبيون الافرنج والجاليات الاوروبية وبعض ابنـاء البلاد الذين رضوا ان يعيشوا ضمن حدود المملكة الصليبية . وكان الاحرار تجاراً وصناعاً يعيشون في المدن ولا يخضعون لرجال الاقطاع ولهم الحق في اقتناء الاملاك والعقارات .

أما طبقة العبيد والفقراء وعامة الشعب ، فكانوا يحيون حياة معذبة شقية ويعملون في الزراعة عند اسيادهم ولطالما باعهم اصحاب الاملاك مع ممتلكاتهم . وكانت نظرة النبلاء والاقطاعيين اليهم كنظرتهم الى سقط المتاع .

٣ – القضاء في عهد الصليبيين

وكان لكل طبقة اجتماعية مجلس قضاء خاص بهـا . والمجالس القضائية على

نوعين : (١) مجلس لمحاكمة الصليبيين والافرنج ومجالس لمحاكمة الاوروبيين من غير الصليبيين و (٢) محاكم خاصة بأبناء البلاد الاصليين .

وكان في القدس مجلس قضائي أعلى يرأسه الملك ، وأعضاؤه من النبلاء وهو ينظر فقط في الدعاوى التي قد تنشأ بين الملك والاشراف او بين نبيل وآخر وكان الى جانب هذا المجلس محكمة كنسية للنظر في دعاوى الطلاق والزواج .

وكان للطبقة المتوسطة من الفرنجة محكمة خاصة بها تتألف من رئيس يعينه الملك ومن اثني عشر عضواً . وهو ينظر في الدعاوى الجزائية كالسرقة والقتل وفي الدعاوى المدنية كالدين والبيع والشراء .

وسمح الصليبيون فيما بعد للجاليات الاجنبية بإنشاء محاكم خاصة بها كما سمحوا ايضاً لسكان البلاد الاصليين بهذا الحق ايضاً . ولم تكن الحكومة الصليبية لتتدخل في شؤونهم الا اذ بدر منهم ما يعكر صفو الامن في البلاد .

التجارة والصناعة والزراعة

عرفت البلاد في عهد الصليبيين ولا سيما الاسكلة البحرية فيها نشاطاً تجارياً عظيماً ورواجاً قلما بلغته من قبل وذلك لأسباب شتى منها : تخفيض الضرائب والمكوس التي كانت من اكبر العراقيل في سبيل انعاش التجارة والصناعة اذ وفدت على بلادنا جاليات عديدة من اكثر جمهوريات ايطاليا : البندقية وبيزه وفلورنسا وجنوى ، ومن مدن فرنسا الجنوبية : مرسيليا — ومونبيليه . وأخذت الأساطيل البحرية تنقل الى اوروبا حاصلات آسيا على اختلاف انواعها : الخزف الدقيق الصنعة والزجاج الصيداوي الملون وأنواع التوابل والطيوب ، وسكر القصب والانسجة الشرقية من حريرية وقطنية وصوفية وألوان الصباغة والعقاقير والمساحيق الكيماوية والادوية . وكانت عكا وصور وصيدا في طليعة المدن التجارية فراجت اسواقها أيما رواج وازدحمت مرافئها ازدحاماً لم تعرفه

حتى في ازهى سني تاريخها الفينيقي ... وكانت سهول صيدا وصور مركزاً رئيسياً لزراعة قصب السكر ولم يكن الصليبيون يعرفون السكر قبل قدومهم الى بلادنا بل كانوا يعمدون الى تحلية اطعمتهم بالعسل ...

٥ – الازياء والملابس والرياش

أما الازياء والملابس والرياش المنزلية الشرقية فقد اقتنع الفرنجة بأن الملابس الاهلية هي خير من ملابسهم . فأخذ الرجال منهم في ارخاء لحاهم وارتداء الجبب الفضفاضة وستر رؤوسهم بالكوفية . وعمدت النساء الى لبس الشفوف المطرزة بالسكة (سقع) . والجلوس على الدواوين مصغيات الى الحان العود وأنغام الرباب ، حتى انهن عمدن الى اتخاذ الحجاب في المجتمعات العامة [١] . وكان المحاربون والحجاج والتجار ، يعودون الى اوطانهم حاملين السجاد والبسط والمزركشات ، وهي من ضروب الزخارف البيتية التي كانت المنازل في الشرق الادنى تحف بها منذ عهد عريق في القدم وازداد الطلب على المجوهرات التي تصنع في دمشق والقاهرة وصيدا وصور وكذلك المرايا الزجاجية التي حلت محل المعدنية واشتهرت صناعتها في صيدا منذ القدم. يضاف الى هذا ما رافق الاقمشة والمصنوعات المعدنية مما اتصل بها من الاصباغ لا سيما الالوان الجديدة نظير الليلكي والأحمر القرمزي والأرجواني، وقلدوا كذلك صناعات الخزف والذهب والفضة والميناء والزجاج الملون ، وجميعها اشتهرت به مدينة صيدا .

٦ – الحالة الفكرية

لم تكن الخواطر إبان الحروب الصليبية في سكينة وطمأنينة للتفرغ الى الأدب ؛ والأمور العقلية هي أحوج ما تكون الى الراحة والطمأنينة نظراً لما تحتاجه من روية وأعمال فكر . ومع ذلك فقد نبغ في الطب والفلسفة والعلوم الرياضية والاجتماعية عدد من أشهرهم :

(١) ابن جبير ص ٣٣٣ .

١ – ابن العبري (١٢٢٦ – ١٢٨٦ م) مؤرخ ضليع واسع الاطـــلاع في العربية والسريانية واليونانية له مؤلفات كثيرة جمة النفع في اللاهوت والفلسفة واللغة والأدب تشهد له ببعد الغور في هذه البحوث .

٢ – ياقوت الحموي (توفي سنة ١٢٢٩ م) من أكبر جغرافيي العرب ، له معجم البلدان وهو موسوعة في الجغرافية العالمية ومعجم الشعراء ومعجم الأدباء.

أما اللغات المتعارف بها في هذا العصر فهي العربية وهي لغة سكان البـلاد وتليها السريانية .

أما اللاتينية فهي لغة الكنيسة والمملكة اللاتينية في طقوسها ، وكانت الفرنسية لغة الأعيان والأشراف ، والايطالية لغة الجاليات الايطالية العديدة من التجار الذين هبطوا صيدا وصور وعكا وأنشأوا فيهـا أحياء خاصة بهم تمتعت زمناً بامتيازات واسعة .

الحقبة الثالثة

١٢٩١ – ١٦٩٧م.

من عهد المماليك حتى نهاية المعنيين

الفصل الأول

المماليك

من هم المماليك ؟

هم عبيد من الأتراك والشركس ، استأثروا بالسلطة والملك في مصر إثر انحطاط الدولة الأيوبية ، فأسسوا مملكة جمعت بين مصر وسورية . ويقسمون الى بحرية وبرجية ، وقد اشتهر بالاكثار منهم نجم الدين أيوب آخر ملوك الدولة الايوبية الذي خلفته امرأته شجرة الدر بعد وفاته على عرش المملكة كوصية على ابنه القاصر طوران شاه ، وعملت هذه بمساعدة أحد مماليك زوجها عز الدين ايبك ، على اغتيال ابنها . ثم عمدت بعدئذ الى قتل ايبك ، فشق ذلك على المماليك وثأروا لسيدهم بقتلها ، وأقاموا خلفاً له المملوك قطز الذي لقب باسم الملك المظفر قطز اول سلاطين المماليك البحرية التي دام حكمها من سنة ١٢٥٠ — ١٣٨١ م. وتولى السلطنة منهم ٢٥ سلطاناً .

أما دولة المماليك البرجية فقد حكمت من سنة ١٣٨١ — ١٥١٦ م. وبلغ عدد سلاطينها ٢٢ سلطاناً . وقد تميزت هذه الدولة بأن الحكم فيها لم يكن وراثياً بل انتخابياً يتولاه اشد المماليك سؤدداً وأقواهم ساعداً وأكثرهم بطشاً خلافاً للدولة البحرية التي كان الحكم فيها وراثياً..

ميزة هذا العصر

تميز عهد المماليك بفساد الأحكام وبتوالي ضروب العسف وأصناف المظالم لطغيان سلاطين هذه الدولة ولتكاثر ثوراتهم الدامية التي طالما أودت بملوكها الى أشنع الميتات . ولعل هذا العصر اسوأ عصور تاريخنا لضياع العدل والحكمة فيه ولفقدان النصفة في القضاء. ولعله ايضاً أخصب العصور التي مرت بها بلادنا في الاقتتال والاستباحة والظلامات الصارخة وذلك لتأصل العداء والحزبية بين المماليك ، وحروبهم المتتالية ضد الخوارزميين والتتر ، وفلول الصليبيين التي كانت تهاجم المدن الساحلية من قبرص بين آونة وأخرى .

التشكيلات الادارية

قسم المماليك البلاد السورية واللبنانية الى ست نيابات اقاموا على كل منها نائباً يتولى الشؤون الادارية والسياسية ..

واشهر نياباتهم كانت نيابة دمشق التي كان يتبعها مقاطعات :

١ – البقاع ومركزها بعلبك .

٢ – البقاع العزيزي .

٣ – مقاطعة بيروت .

٤ – مقاطعة صيدا التي كانت اكبر المقاطعات واكثرها امتداداً اذ كانت تشمل القسم الاكبر من لبنان الحالي .

ونيابة طرابلس وتشمل مقاطعات عكار وجبة المنيطرة والضنية وشمال بشري .

ونيابة صفد وتتبعها مقاطعة صور ..

صيدا واهم الحوادث التي مرت بها خلال هذه الفترة

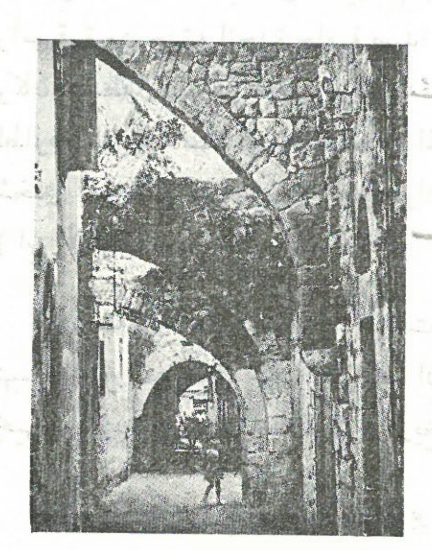
اجمع المؤرخون على ان صيدا بلغت خلال عصر المماليك درجة كبيرة من

الانحطاط . فلقد هجرها التجار وتهدمت بيوتاتها من جراء الحروب المستمرة . وعمل المماليك بدورهم على افقار الشعب فساموه الذل والعذاب وارهقوا كاهله بالضرائب الباهظة وتمادوا في اظهار التعصب المذهبي اذ قتلوا اعداداً كبيرة من بقية الطوائف بحجة انهم يتواطأون على الدولة مع الاجانب ؛ ولذا فقد التجأ الكثيرون من المسيحيين والشيعة الى الجبال حيث وجدوا بعض الراحة والأمن.

وصلت صيدا في هذه المرحلة الى مرتبة وضيعة جداً ، ان في عدد سكانها أم في اقتصادياتها وعلومها وآدابها .

وذكر المؤرخ الايوبي ابو الفداء صاحب حماه في باب حوادث سنة ٧٢١ هـ – ١٣٢١م ان صيدا مدينة صغيرة فقيرة على ساحل بحر الشام، وفيها قلعة متهدمة بعض الشيء وانها تحت ايالة الشام .

آل تنوخ حكام صيدا



احد اسواق صيدا القديمة العربية

ومنذ ان تولى المماليك حكم البلاد اللبنانية اناطوا حكم صيدا بآل تنوخ بعد ان ثبت لهم حسن بلائهم في الحروب ضد الصليبيين وكان ذلك في اوائل القرن الرابع عشر .

وفي سنة ١٣٤٢م وزع المماليك الاوامر على النيابات بتجهيز الجيوش لاستخلاص الكرك وطلبوا من حاكم مقاطعتي بيروت وصيدا – وكان وقتئذ الامير ناصر الدين الحسين التنوخي – ان يهيء من لدنه خمسمئة رجل للاشتراك في الحملة . فبادر الامير

المذكور لتجهيز رجاله وأناط قيادتهم بشقيقه الامير عز الدين الحسن الذي سار على رأسهم واشترك مع قوات النيابات في الحرب المشتعلة عند اسوار الكرك وأظهر اثناءها من الشجاعة والمهارة ما تحدث عنه الركبان وسقط شهيداً خلال المعركة . حدث ذلك في نيابة الامير يلبغا الاتابكي نائب دمشق (اخبار الاعيان في جبل لبنان للشيخ طنوس الشدياق ج – ٢ –) .

وفي سنة ١٣٥٥ م = ٧٥٥ هـ ، مر بالقرب من بيروت اسطول للفرنجة فلم يتعرضوا لها بل توجهوا الى صيدا فنزلوا فيها بعد ان قتلوا عدداً كبيراً من اهلها ومن المدافعين عنها كما أسروا جماعة كبيرة منهم ، وبالمقابل فقد تمكن المدافعون من قتل عدد لا يستهان بـه من الفرنجة وبعثوا برؤوسهم الى دمشق حيث أمر النائب بتعليقها في القلعة وكانت بضعاً وثلاثين رأساً .

ووصلت هذه الانباء الى الامير شهاب الدين بن صبح نائب صفد فاسرع على رأس قوة من جيشه لنجدة حامية صيدا وسبق وصوله وصول العسكر الشامي وكان الاسطول الفرنجي على جزيرة صيدا ولما لم يكن لدى الامير قطع بحرية لمطاردة الفرنجة عمد الى شراء اسرى المسلمين منهم بمعدل خمسمئة درهم عن كل شخص اسير ، واخذ مال الفدية من ديوان الاسرى وبلغ ذلك ثلاثين الف درهم (ابن الاثير) .

وفي سنة ١٣٨٢م = ٧٨٤هـ ، هاجمت صيدا عمارة جنوية فاحتلتها وبعد ان نهبت الكثير من بيوتها جلت عنها بعد ان دمرتها وعاثت في ارجائها (صالح بن يحيى – تاريخ بيروت وجاك نانتي : تاريخ لبنان) .

وفي سنة ١٤٠٤ م جـاء الاميرال بوكيوكولت وركز اقدامه على شواطىء بيروت فاستسلمت له ثم انطلق الى طرابلس فأخذ منها الجزية الباهظة ، وعـاد الى صيدا فأصاب منها غنائم كثيرة ثم غادرها عائداً الى بلاده . ومكثت صيدا

مع بقية الشطوط اللبنانية تتعرض بين حين وآخر الى مهاجمة قراصنة الصليبيين المتحصنين بجزيرة قبرص حتى عام ١٤٢١ م .

وكانت سياسة المماليك المتبعة في بلادنا تقضي بتدمير وهدم كافة التحصينات القائمة على السواحل اللبنانية وخصوصاً في المناطق التي تسكنها غالبية شيعية او مسيحية او درزية ؛ ولهـذا كان من الطبيعي ان نراهم يعمدون الى تقويض كل التحصينات الموجودة في مدينة صيدا وازالتها من الوجود . وكذلك فعـلوا بتحصينات مدينة بيروت وانهوا اعمالهم التدميرية بان خربوا المرافىء فيها ايضاً وفعلوا الشيء ذاتـه في مدينة صور ، ثم احضروا جماعات من الاكراد والتركمان السني المذهب واسكنوهم على السواحل بـين طرابلس وبيروت على اعتبار انهم موالون لحكم المماليك اولاً ونظراً للرابطة الدينية التي تربطهم بالحكام ثانياً ..

في هذه الفترة تزايد عدد الشيعة في ضواحي صيدا وفي صور ايضاً . كما ظهر في لبنان شكل الحكم الاقطاعي بأجلى بيان .

واشهر احداث بلادنا في هذه الفترة غزوة المغول تحت امرة الطاغية الجبار تيمورلنك، الذي بعد ان اكتسح بلاد فارس والاناضول سنة ١٤٠٢ م وردت اليه دعوة من امراء سوريا المتنابذين ، فانحدر جنوباً وفتح حلب واستباحها نهبـاً وسبياً. ثم دخل دمشق عنوة واجرى على اهلها اصناف العذاب وهتك الاعراض واتى جيشه من المظالم مـا تقشعر له الابدان . وزاد تيمورلنك في تعنته فأمر بنقل اصحاب المهن والصنائع من فنانين ومهندسين وصاغة من المـدن السورية واللبنانية الى بلاده فكان عمله هذا ضربة قاضية على الصناعة الفنية في بلادنا .

الامير عز الدين صدقة التنوخي

وفي عـام ١٤٤٤م توفي الامير عز الدين صدقة بن عيسى بن احمد بن صالح بن الحسن البحتري التنوخي في مدينة بيروت وكان جليلا متقدماً على جميع الامراء

مسموع الكلمة عند الملوك والنواب وكانت حدود مقاطعته تمتد من طرابلس حتى صفد وبيده مقاليد الحكم في بيروت وصيدا التي كلف بادارتها بعض انسبائه من التنوخيين حتى انتهى حكمها الى الامير عثمان المعني سنة ١٤٧٦ م (اخبار الاعيان لطنوس الشدياق) .

وفي عام ١٥٠٧ توفي الامير عثمان المعني ودفن في صيدا وهو والد الامير فخر الدين المعني الاول حاكم لبنان .

الفصل الثاني

القبائل العربية المستوطنة قبل الفتح العثماني

كان لبعض القبائل العربية التي أقامت في بلادنا من الشأن والنفوذ ابان عصر المماليك وفي ايام العثمانيين وعلاقتهم الوطيدة بمدينة صيدا ما يحملنا على ان نأتي بنبذة موجزة عن تاريخها :

١ – بنو بحتر ـ أمراء الغرب

لا نعرف تماماً تاريخ هبوط هؤلاء الأمراء الربوع اللبنانية ، ولعل وصولهم كما يرجح ذلك عدد من كبار المؤرخين (صالح بن يحيى والشيخ طنوس الشدياق وعيسى اسكندر المعلوف وغيرهم) ، كان في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، وأقاموا في الجبال المتاخمة لمدينتي بيروت وصيدا (الشوف) . وكان الامير بحتر صاحب النفوذ في مدينة بيروت عند مرور الصليبيين في طريقهم نحو القدس . وقد ناجزوا في بداية الامر الفرنجة العداء وحاربوهم ارضاء منهم لأسيادهم الفاطميين وانتصروا على الصليبيين في معركة نهر التينة بالقرب من نهر الغدير – كفرشيما – .

وبنى البحتريون بعض القلاع والحصون المنيعة (سرحمول ، عرامون ، عبيه) . ولما قويت شوكة الفرنجة في الساحل وامتلكوا بعض الحصون ، عمد البحتريون الى سياسة المظاعنة ، فكانوا يميلون مع كفة الميزان الراجحة رامين من جراء ذلك الى اكتساب ثقة الفريقين . ولكنهم ما ان شعروا بضعف الصليبيين حتى بالغوا في التحزب ضدهم ، فأناط بهم السلطان الاشرف أمر حماية بيروت وصيدا بعد ان طرد الفرنجة من بلادنا فأقاموا عليهما فرقاً للحراسة تتناوب امرهما شهراً فشهراً بالتعاقب .

٢ – بنو معن :

هم من أصل عربي صميم ، من قبيلة ربيعة ، نزح جدهم في بدء القرن الثاني عشر عن ضواحي الشهباء اثر هزيمته امام بودوين الاول الذي كان يطمع في فتح حلب . فقصد لبنان بعد مكث قصير في البقاع وهبط صحراء بعقلين في الشوف متودداً الى الأمراء التنوخيين من آل بحتر ، منتصراً لهم على الفرنجة . وأخذ نجمهم في التسامق وشوكتهم تكبر ، لا سيا بعد سقوط نفوذ البحتريين لموالاتهم المماليك البرجية ضد آل عثمان . وما زال امرهم يزداد ويعظم حتى قام منهم الامير فخر الدين المعني الثاني الكبير ، حامل مشعل الوطنية والاستقلال ، ومنفذ فكرة الوحدة الوطنية في بلادنا ...

٣ – آل شهاب:

يمت آل شهاب الى بطن مخزوم من قبيلة قريش العربية . نزحوا عن حوران الى وادي التيم في أواخر القرن الثاني عشر . فكان بينهم وبين الصليبيين هناك مناوشات ومناجزات عدة قيض لهم فيها النصر ، فأقطعهم السلطان صلاح الدين الايوبي تلك الاراضي مكافأة لهم على خدماتهم . وتبسط نفوذهم فوق سهل البقاع وتقربوا من المعنيين فكان بين البيتين وداد تام زادت أواصره متانة

بالمصاهرة والمجاورة . وكان بعضهم يعتنق المذهب الدرزي والآخر المذهب السني ، غير ان قسماً كبيراً من الشهابيين اعتنق الديانة المسيحية في عهد الامير بشير الثاني الكبير .

بلادنا حتى نهاية القرن الخامس عشر :

على اثر انطفاء جذوة الجهاد في الغرب واضطرار الفرنجة الى مغادرة بلادنا ومثابرة بعض قراصنتهم على القيام بهجمات على صيدا وغيرها من المدن الساحلية – من جزيرة قبرص بين حين وآخر ؛ فقد ادى هذا الى شل حركة الاشغال والمعاملات التجارية بين الشرق والغرب . وزاد الحال تعقداً وجموداً وركوداً اثر توالي غارات المغول العنيفة وارتطام موجاتهم بقوى المماليك .

غير ان الغرب وشعوبه لم يكونوا في غنى عن محاصيل الشرق ونتاجه من طيوب وعطورات ومساحيق وأقمشة حريرية وصوفية وأسلحة شرقية الى غير ذلك من نتاج الصناعة الوطنية وقد اعتادوها اجيالاً ، فلم يستنكفوا من استئناف علاقاتهم التجارية تدريجياً بالموانىء السورية والمصرية بعد ان لمسوا في اواخر المماليك بعض التساهل واللين لافتقارهم الى المواد الصناعية الاولية من خشب وحديد ورقيق – يأتونهم به من جبال القوقاس وروسيا الجنوبية – .



وهكذا أخذت الحركة التجارية تنتعش تدريجياً خلال القرن الخامس عشر في مدينة بيروت بنوع خاص لقدوم بعض الفرنجة وغيرهم من الموجودين في جزيرة قبرص ، واستيطانهم فيها بعد خراب بقية الاساكل البحرية وتدميرها مثل صور وصيدا وعكا وطرابلس .

شجع المماليك حركة بيروت التجارية دون غيرها نظراً لما كانت تدره عليهم من الدخل والرسوم وعاملوا الفرنجة بالحسنى والملاطفة استدناء لهم ، فتوارد تجار الغرب على اختلاف جنسياتهم وتباينها ، من بنادقة وجنويين وكتالانيين

وفلورنسيين وسمحوا لهم بعدئذ بالإقامــة في بعض المدن الساحلية كصيدا وطرابلس ، وإنشاء احياء خاصة بهم ...

ولقد كان لتلك الوحدات السياسية ممثلون سياسيون وقناصل رسميون يدافعون عن مصالح ابناء جلدتهم ، وكثيراً مــا كان لوساطاتهم عند المماليك ومداخلاتهم مـع الحكام التأثير الحسن على حالة المسيحيين في الشرق . ونالت تلك المؤسسات الدولية نواة الامتيازات الاجنبية فيما بعد .

الحضارة في بلادنا خلال عصر المماليك

قلما ذاقت بلادنا أثناء تاريخها السحيق عصراً مريراً تعساً كالعصر الذي حكم فيه المماليك . ففيــه توالت الضربات والإحن واستحكمت الفوضى في جميع دواليب الادارة وتعاقبت الحروب والثورات في البلادوانتهكت أقدس الحرمات واستبيحت المقدسات فعم البؤس والشقاء جميع طبقات الشعب . ومع ان صيدا أصيبت بأشد الضربات وأقساها ممــا سبب هجرة العديد من ابنائها الى مناطق اخرى ، فقد قامت في بعض أرجاء بلادنا حركة فكرية معتبرة كان لها تأثير بيّن على الطبقة العلمية اذ أنجبت جمهرة من العلماء الأعلام والأدباء وكبار المؤلفين في عدة مناح فكرية .

ولعل أسباب هذه الحركة الفكرية تعود الى الحدث السياسي العظيم ألا وهو سقوط بغداد المزدوج ، اذ انها بعد ان كانت قاعدة الدين والدنيا ، فقد فقدت هذه المكانة وصغرت ثم زالت وقت سقوطها بين ايدي المغول. فغادرها الخليفة العباسي الى مصر وهكذا تحول مركز الجاذبية السياسية والعلمية والأدبية الى سورية ووادي النيل فنبغ جلة من الادباء والأعلام في طليعتهم :

١ – أبو الفداء الأيوبي صاحب حماه (١٢٣٧ – ١٣٣١ م) من اكبر مؤلفي العرب، له كتب نفيسة في التاريخ والجغرافية ، منها المختصر في أخبار البشر ، وتقويم البلدان .

٢ – شهاب الدين بن عرب شاه الدمشقي (١٣٨٨ – ١٤٥٠ م) تفقــه في العلوم ووضع تاريخ تيمورلنك .

٣ – شمس الدين الدمشقي، مؤلف كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر .

٤ – صلاح الدين الكتبي الحلــبي ، المتوفي سنة ١٣٦٢ م ، صاحب فوات الوفيات وهو تتمة لكتاب وفيات الأعيان لابن خلكان .

٥ – صلاح الدين الصفدي، المتوفي في دمشق سنة ١٣٦٣ م ، واضع كتاب الوافي بالوفيات جمع فيــه تراجم الاعيان من الصحابة والتابعين والملـوك والأمراء والعلماء .

٦ – هبة الله الحموي، المتوفي سنة ١٣٣٧ م ، واضع مؤلفات عدة في التفسير والحديث والفتاوى وغيرها من تعليق وشروح وتلخيص .

٧ – ابن تيمية (٦٦١ هـ. = ١٢٦٢ م – ٧٢٨ هـ = ١٣٢٧م)، إمام حنبلي مشهور وأعظم علماء عصره في العلوم الاسلامية ، له مؤلفـات عدة في الردود والفتاوى والأجوبة والقواعد الدينية . تعاليمه يتبعها الآن الوهابيون في المملكة العربية السعودية .

أما فنون الهندسة والبناء فقد ظلت خلال هذه الفترة مزيجاً من الهندسة العربية والصليبية ...

الفصل الثالث

الفتح العثماني

نشأة الدولة العثمانية

العثمانيون قبيلة طورانية اقامت في آسيا الصغرى الى جوار السلطنة السلجوقية ، وقيض الله لهذه القبيلة في القرن الرابع عشر رجالاً اشداء ذوي حزم ودربة ، كالسلطان عثمان والسلطان اورخان والسلطان مراد الاول، قاموا برفع منارها ، فبسطت نفوذها تباعاً فوق جميع ربوع شبه الجزيرة الآسيوية الصغرى وتقدمت من ولايات دولة الروم الشرقية فاحتل سلاطينها بعض معاقلها الاوروبية (غاليبولي) ومنها اخذت الجيوش العثمانية تجوب المقاطعات البلقانية وتحتلها الواحدة تلو الاخرى ؛ وكادوا يلقون الحصار على القسطنطينية لولا ان انقض تيمورلنك المغولي (١٣٣٦ – ١٤٠٥ م) على الممالك الآسيوية الغربية فمزقها شر ممزق وكسر العثمانيين في معركة انقره سنة ١٤٠٢ م وأسر سلطانهم بيازيد ، الامر الذي رفع كابوس العثمانيين عن الامبراطورية الشرقية بعدما سدت المنافذ في وجهها ، وأمد في اجلها نصف قرن من الزمن .

ولم يمض إلا القليل حتى ضمد العثمانيون جراحهم واستأنفوا سياسة الفتح والتوسع فاحتلوا القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م يقودهم السلطان محمد الثاني الفاتح ، وقويت شوكتهم في اوروبا فاحتلوا قسماً كبيراً من البلقان وأصبحوا يشكلون خطراً مداهماً يهدد دول اوروبا المسيحية .

هكذا كانت حالة الدولة العثمانية لما تولى حكمها السلطان سليم الاول (١٥١٢– ١٥٢٠ م) الذي قهر الفرس وأخذ يتأهب لمنازلة المماليك في سورية ومصر.

اسباب سرعة فتوحاتهم

ولو اردنا ان نعلل المسببات التي ادت سراعاً الى تضخم ولايات هذه الدولة لرأينا ذلك يعود الى :

١ – كفاءة ودربة رجال صدر هذه الدولة وخبرتهم في تعبئة الجيش وتنظيمه على أصول وفنون حربية حديثة ، والى تشكيل الجيش الانكشاري من اسرى الحرب الصغار الذين كانوا يترعرعون في الثكنات ويتدربون على اساليب الحرب فكانوا اكبر اداة للفتح العثماني .

٢ – اقتباس معدات حربية جديدة كان لها تأثير هام وحاسم في الحروب وهي المدافع والمدمرات .

٣ – معاصرتهم ومجاورتهم دولاً هرمة استحكمت فيها الفوضى ونخرها سوس الفساد والانحلال مثل الدولة البيزنطية والدولة الصفوية ودولة المماليك .

حالة دولة المماليك في القرن السادس عشر

ذكرنا فيما مضى ما كان عليه نظام دولتي المماليك البحرية والبرجية من مساوىء وفساد ، وما أتاه سلاطينها بحق الشعب من صنوف الظلم وضروب العسف والجور . فعم المقت لهذه الدولة وأخذ الجميع يتمنون زوالها .

وازدادت الفوضى المستحكمة في بلادنا ايام قانصوه الغوري الذي ارهقهـــا بالضرائب والمظالم، ولعل تاريخ ملكه يفوق بشروره مساوىء من تقدمه من سلاطين المماليك .

الاسباب التي سوغت الفتح للعثمانيين

قام السلطان سليم ونفسه تطمح الى التوسع وإعادة الوحدة الى الخـــلافة الاسلامية مهما كلفه الامر، لا سيما وان الحكومات المتاخمة له على ما هي عليه من الفوضى والتضعضع فأخذ يتحين الفرص للانقضاض . ولكي يبرر سياسته هـذه وحروبه مع المماليك فتقت له الحاجـة اعذاراً ذر بها رماداً في أعين العـامة لا الخاصة، منها :

١ – تململه من سياسة التقرب بين المماليك السنيين وشاهات الفرس الشيعيين والمعاهـدات المعقودة بين الطرفين الامر الذي كان يعرقل سبل التجارة امـام العثمانيين وتعبئة فرقة الانكشارية التي كانت وليدة الاتجار بالرقيق .

٢ – ادعاؤه بعدم مقدرة المماليك على حماية طرق الحج، إذ كثيراً مـا كان الحجاج عرضة لاطماع البدو وقراصنة البر .

٣ – عدم اعتراف المماليك بتلقيب آل عثمان بالسلاطين .

وليست هذه الاسباب بمجموعها لتشكل وزناً للحرب بين الدولتين لولا ان السبب الجوهري لهـذه الفتوحات هو رغبة العثمانيين في التبسط، وتوحيد البلاد الاسلامية تحت رايتهم .

معركة مرج دابق

التقى الجيش العثماني بجيش المماليك في مكان يعرف باسم مرج دابق ويقـع الى الشمال من مدينة حلب ؛ يقود الاول السلطان سليم الاول كما يقود الثـــاني

السلطان قانصوه الغوري . وكان في عداد قادة الغوري، جـان بردي الغزالي وخاير بك وبعض الامراء اللبنانيين . وكان السلطان سليم قد اتصل سراً بأكثر قادة الغوري وأغدق عليهم الوعود طالبـــاً منهم الانسحاب من المعركة حين احتدامها . ولما حدث الاصطدام بين الجيشين في ٢٤ آب سنة ١٥١٦ م تراجع المتآمرون وتمكن الجيش العثماني من الانتصار بعد انقتل السلطان الغوري وتمزق جيشه . وهكذا دخل السلطان سليم مدينة حلب ثم تابع سيره والمدن السورية تفتح له ابوابها سلماً معلنة خضوعها وابتهاجها بالفاتح الجديد الذي ظنت فيــه صلاح امورها . ولما وصل السلطان سليم دمشق في ٩ تشرين الاول سنة ١٥١٦ م فتح له حاكمها أبوابها لا سيما وانه سبق له ان تواطأ مع السلطان سليم ضد أسياده المماليك .

وفي ١٢ تشرين الاول ١٥١٦ م وصل الى دمشق وفد يضم عدداً من الامراء اللبنانيين لمقابـلة السلطان سليم واعلان خضوعهم له وعند المقابلة تكلم باسمهم الامير فخر الدين المعني الاول الذي لقي خطابـــه قبولاً من السلطان فثبته على رأس امراء الجبل اللبناني .

يذكر جاك نانتي : ان المدن الساحلية اللبنانية دخلها العثمانيون دون اية مقاومة، فاحتلوا طرابلس ثم بيروت فصيدا وصور . وهكذا خضعت كل البلاد اللبنانية لهم مـا عدا منطقة البقاع التي وقف فيها الامير حرفوش الشيعي يقاوم الغزو العثماني، فكلف السلطان سليم بمحاربته الغزالي حاكم دمشق، فانتصر هذا عليه واحتز رأسه وأرسله الى الاستانة .

وتابع السلطان سليم زحفه فاحتل فلسطين ثم سار نحـو القاهرة فاحتلها في ٢٢ كانون الثاني ١٥١٧ م، مجهزاً على طومان باي آخر سلاطين المماليك، وقابضاً على الخليفة العباسي الذي اجبره على التنازل عن الخـلافة له . وهكذا انتقلت الخلافة الدينية الاسلامية للعثمانيين وظلت في ايديهم حتى الغيت في عهـد كمال اتاتورك سنة ١٩٢٤ م، اثر خلعه السلطان عبد المجيد الثاني آخر خليفة عثماني .

اول حاكم لصيدا في عهد العثمانيين

لما تم الفتح العثماني ولى السلطان سليم على حلب قره جه باشا وعلى حماه قاسم باشا وعلى حمص احتمان اوغــلو وعلى دمشق جان بردي الغزالي وعلى بيروت وصيدا ونواحيهما محمد بك « قورقماز اوغلو » .

وكانت صيدا تابعة لولاية الشام وتؤلف إحدى سناجقهـا ، وظلت كذلك حتى أواسط القرن السابع عشر حين أرادت الدولة ان تجعل من مدينـة صيدا مركزاً لوزير عثماني يكون قريباً من الجبل ، وليراقب حركات الدروز وسكناتهم بعد ان كانت سنجقية صيدا يعود حكمها الى آل معن او لأحــد اتباعهم ومؤيديهم .

ثورة الغزالي

بعد استيلاء السلطان سليم العثماني على مصر توجه الى الحجاز لقضاء فريضة الحج والتبرك بزيارة الأماكن المقدسة ، وهناك اعلن ضم الجزيرة العربيــة الى سلطانه . وما ان عاد الى سورية حتى نظم شؤونها وأبقى الادارة السابقة عـلى ما كانت عليه وعين الغزالي واليــاً على دمشق مستبدلاً اسم النيابة بالولاية . وثبت في لبنان الامراء على اقطاعياتهم ملحقاً اياهم بولاية دمشق .

ولما قضى السلطان سليم سنة ١٥٢٠ م ثار الغزالي في دمشق يؤازره بعض الامراء اللبنانيين وأعلن نفسه سلطانا على البلاد تحت اسم الملك الأشرف فسير إليه السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ - ١٥٦٠ م) جيشاً كبيراً بقيادة فرهـاد باشا لتأديب العصاة .

وفي المعركة التي دارت بين الجيشين في القابون بالقرب من دمشق قتل الغزالي في ٢٧ كانون الثاني ١٥٢١ م. وقام الجيش الانكشاري بمجازر رهيبة في المناطق التي اجتاحها ممـا جعل الناس يترحمون على عهد المماليك البائد .

اما البلاد السورية فقد قسمت الى ثلاث ولايات انيط حكمها بولاة عثمانيين وهي :

١ – ولاية دمشق ويتبعها سناجق دمشق وبيروت وصفد وصيدا وغزة ونابلس والقدس الشريف وتدمر . وعين عليها أياس باشا .

٢ – ولاية حلب وتشمل مدينة حلب وكل سورية الشمالية .

٣ – ولاية طرابلس وتضم مدينة طرابلس وسناجق حمص وحماه وجبله .

نظرة الى هذا العهد :

ان الفترة التاريخية بين الفتح العـــثماني والقرن السابع عشر تعتبر من اشقى عصور تاريخنا وادماهـــا اذ وصلت مقدرات البلاد من ثروة وعلم وصناعة واقتصاد واخلاق الى ادنى دركات الذل والشقاء . فما كانت حيــاة السكان اذا ذاك سوى سلسلة لاحد لها من مظالم واستباحــات ومجازر واعتساف . ليس هنالك ذرة من رحمة او شفقة في قلوب الولاة .

وكان باشاوات الاتراك يتسابقون في المجيء الى هذه البلاد ، يرون فيهـــا فرصة مناسبة لاشباع اطماعهم الاشعبية ، واصبحت المناصب والرتب سلعاً تشرى وتباع بالمزاد في دار السلطنة فيعمد الوالي بعدئذ الى الاغتصاب والاختلاس وارهاق ابناء ولايته بالضرائب تعويضاً لما دفعه وحتى لا يكون من الخاسرين (النكبات لامين الريحاني) .

وفي تقرير رفعه احد قناصل البندقية الى دوقه يقول : ان منصب الوالي كان يكلف من ٨٠ – ١٠٠ الف دوكا ومنصب الدفتردار يشرى من ٤٠ – ٥٠ الف دوكا (الدوكا نصف ليرة ذهبية) : وهذا المبلغ يتوجب تـأديته سنوياً الى السلطان .

ولقد تعاقب على ولاية دمشق خلال مئة سنة حوالي ٣٣ واليـــاً لم يمكث في ولايته منهم اكثر من سنتين سوى عدد ضئيل .

وكانت الضريبة في الولاية تستوفى من الاهلين على شكلين : اولهـا ضريبة

الأعشار ، وتستوفى عن الانتاج الزراعي للارض وثانيها الضريبة الشخصية على الفرد .

اما في لبنان فكان هنالك بعض الاختلاف في استيفاء الضريبة ، اذ ان الامراء اللبنانيين كانوا يقومون بجباية الاموال ووضعها في صناديقهم كما كانوا يفعلون في السابق ثم يعمدون الى تقديم مبلغ من المال الى الوالي يتفق عليه اضافة الى الضريبة الجمركية المتوجب دفعها . ولقاء ذلك سمح للامراء ان يحتفظوا بجيش خاص بهم يتولى تنفيذ رغباتهم ...

اذاً لا عجب والحالة هذه ان انتهكت الحرية الشخصية وساد الوشاة والجواسيس وعمت الرشوة ؛ ولا عجب ايضاً ان خيم الفقر بسرادقه الاسود يغرق ارجاء البلاد ويتضاءل معه عدد السكان والكل ينتحب ويتظلم وليس من يسمع او يجيب .

الفصل الرابع

الامتيازات الاجنبية وتعريفها

الامتيازات الاجنبية عبارة عن معاهدات تجارية – ثقافية – سياسية عقدتها تباعاً دول اوروبا : فرنسا وانجلترا وروسيا مع الدولة العثمانية تسهيلاً لعلاقاتها التجارية مع اعتراف الفريق الثاني للفريق الاول ببعض الحقوق الدينية والحريات السياسية التي اصبحت فيما بعد اساساً لسياسة المطالبة بحماية الاقليات المسيحية في الشرق وبمركز ممتاز ، فكانت هذه الأمتيازات بمثابة ثغرات يطل منها الغرب على بواطن السياسة العثمانية ويشرف على دخيلة أمرها .

واول عهدة ارتبط بها الباب العالي هي محالفته في عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ – ١٥٦٦ م) مع فرنسوا الاول ملك فرنسا (١٥١٥ – ١٥٤٧ م) وذلك سنة ١٥٣٦ تحت تأثير عوامل سياسية حدت العاهلين الشرقي والغربي الى التقارب وتوحيد خططهما في وجه عدوهما المشترك شارلكان.

نصت هذه الاتفاقية على اعتراف الباب العالي بحق الفرنسيين في الاتجار مع الممالك العثمانية وحرية مباشرة واجباتهم الدينية فيها بكل راحة وامان ، وتتمتع بثمار هذه الاتفاقية كل الدول المرتبطة مع فرنسا بعرى الصداقة . وتحقيقاً لهذه الاتفاقية رأينا جان رينيه اول قنصل فرنسي يصل الى طرابلس سنة ١٥٤٨ م فيتقلص بمجيئه النفوذ التجاري لجنوى والبندقية ، ويأخذ النفوذ الفرنسي في الامتداد فيشمل بيروت سنة ١٥٥٠ م وصيدا بعد فترة وجيزة .

وفي عام ١٥٧٨ م اعلنت فرنسا حمايتها بموافقة الباب العالي لجميع المسيحيين في لبنان بما فيهم الارثوذكس والسماح لهم بممارسة طقوسهم الدينية .

وبدأت الارساليات الدينية الاجنبية تصل بلادنا تباعاً . ونال الامتياز الاول عند الفرنسيين ، الموارنة الذين عمد البابا غريغوار الثاني عشر حرصاً منه على تمتين صلات الفاتيكان بهم الى تأسيس الكلية الشرقية في روما سنة ١٥٨٤ م واستقدم من لبنان للدراسة فيها /٢٠/ تلميذاً اكليركياً مارونياً (تاريخ لبنان ـ جاك نانتي) .

عصيان حاكم صيدا

وسنة ١٥١٧ م خرج الامير ناصر الدين محمد بن الحنش صاحب صيدا والبقاعين عن طاعة السلطان ، فزحف عليه جان بردي الغزالي والي دمشق . وفي طريقه التقاه الأمير جمال الدين الارسلاني وتوجه معه لفتح صيدا ، وما أن شعر ابن الحنش بقدومهما حتى غادر المدينة ناجياً بنفسه . وبعد ان دخل الظافران صيدا واستراحا فيها مدة من الزمن واستوليا على منازل ابن الحنش ونهبا موجوداتها ، توجها الى الشوف لان امراء آل معن اظهروا الميل لابن الحنش وتلكأوا عن مساعدة جيش السلطان في القضاء على العاصي ...

ولما وصلت جيوش والي دمشق الى الشوف القت القبض على الامراء المعنيين زين الدين وقرقماز وعلم الدين سليمان كما قبضت على الامير شرف الدين يحي التنوخي ولم يتمكن العثمانيون من القاء القبض على الامير فخر الدين الاول الذي توارى عن الانظار ، فاكتفى الغزالي باسر من ذكرنا وبعزل الامير فخر الدين من ولايته وفوض امرها الى الامير جمال الدين ارسلان لقاء خدمته له وطاعته واخلاصه . الامر الذي اشعل نار العداء بين الاميرين المعني والارسلاني وكان السبب الرئيسي لخروج فخر الدين بآله من الحزب اليمني وصيرورتهم من القيسيين .

وبعد ان قبض الغزالي على الامراء نقلهم معه الى صيدا ومن هناك ارسلهم في البحر الى صور ومنها الى قلعة صفد فقلعة دمشق ، وكان السلطان سليم لا يزال

في دمشق فجاءه اليها الامير فخر الدين يبرر نفسه وبنيه من وصمة العقوق والعصيان التي الصقها به اعداؤه فقبل السلطان اعتذاره واقره على ولايته ، ولكنه ظل محتفظاً بالامراء المعتقلين كرهائن ، ثم نقلهم معه الى حلب حيث اودعهم في قلعتها حتى وصلته الانباء تشعر بقتل ابن الحنش حاكم صيدا فاطلق سراحهم .

فخر الدين الاول وقرقماز

ادعى مصطفى باشا والي دمشق ان الامير فخر الدين المعني الاول قد خرج عن طاعة الدولة العلية لانه تمنع اكثر من مرة عن دفع الضريبه المترتبة عليه فقتله سنة ١٥٤٤ م ووافق على تعيين ابنه الامير قرقماز الاول اميراً على الجبل مكان ابيه . ولكن سطو آل فريخ على خراج مصر المنقول الى السلطان في اراضي آل سيفا بالقرب من جون عكار ، جعل العثمانيين يتهمون الامير قرقماز بالحادثة . وهكذا ساق ابراهيم باشا والي مصر حملة عليه تولى قيادتها بنفسه .

ولما وصل الى بلادنا وقف قرقماز مدافعاً في عدة معارك كان فيها الامير اللبناني ، ذلك البطل المدافع عن كرامته وعرينه وتمكن عدة مرات من الافلات من الطوق معتصماً ببعض المغاور والكهوف في جهات جزين .

ولكن الحملة الاخيرة التي قام بها ابراهيم باشا منطلقاً من مدينة صيدا نحو الجبال ، وضعت حداً لحياة هذا الامير المعني الجريء فمات خنقاً في مغارة جزين سنة ١٥٨٥ م . واثناء مرور ابراهيم باشا في دير القمر القى القبض على ثلاثة الاف اسير بينهم مقدم البلدة فامر بخوزقته حياً .

واضطر ابراهيم باشا الى العودة الى مصر ماراً في صيدا اثر معرفته باشتعال ثورة فيها ضده ، تاركاً للعثمانيين امر التفتيش على سلالة قرقماز والقضاء عليها ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك ، اذ ان الست نسب الاميرة التنوخية ، التي يطلق عليها بحق اسم الاميرة المنقذة ارسلت ولديها الاميرين يونس وفخر الدين الى الشيخ ابي نادر الخازن في كسروان فرباهما وسهر على سلامتهما وحفظهما من الاعداء .



الامير فخر الدين المعني الكبير

الفصل الخامس

الامير فخر الدين الكبير

لما كان تاريخ مدينة صيدا يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ الأمير فخر الدين لأنه أعاد الحياة إليها وجعلها عاصمة أمارته ومركز ثقله العمراني والاقتصادي ، رأينا من حق التاريخ علينا أن نتبسط في الحديث عن هذه الفترة بالذات معتمدين على أوثق المصادر وأدق الوثائق المحفوظة ومؤلفات أصدق المؤرخين .

ولد الأمير فخر الدين سنة ٨٩٠ هـ = ١٥٧٢ م ووالده الأمير قرقماز المعني وأمه الأميرة نسب شقيقة الأميرين التنوخيين منذر وسيف الدين .

ولما قتل الامير قرقماز سنة ١٥٨٥ م وطوردت العـائلة المعنية ، خافت الاميرة على ولديها الصغيرين فخر الدين ويونس فعهدت الى الحاج كيوان أحد اتباع الامير قرقماز باخفائهما في كسروان عند آل الخازن فسار هـذا بهما الى بلونه وعهد بهما الى سركيس الخازن المعروف بالأمانة والوفاء .

ولبث الغلامان عند آل الخازن ست سنوات يتلقيان مبادىء التربية الفاضلة . ولما هدأت القلاقل أوعز الامير سيف الدين التنوخي الى حفظة الأميرين ان يظهراهما ، فجيء بهما اليه فولى اكبرهما فخر الدين أمارة الشوف وكان ذلك سنة ١٥٩٠ م .

وفي عام ١٥٩٢ مرّ والي الشام مراد باشا القبوجي بصيدا فاستقبله الأمير فخر الدين وخاله الامير سيف الدين استقبالاً حافلاً وقدما اليه الهدايا الثمينة فنالا رضاءه ومنح فخرالدين حكم سنجقية صيدا فتسلمها في الثامن من كانون الثاني ١٥٩٣ (كما يقول المحبي) واتخذها قاعدة لأمارته ولسياسته التجارية ومنفذاً لمحصولاتها ، وما زال يجاهد في سبيل ترقيتها حتى أصبحت اكبر ميناء تجاري شرقي البحر الابيض المتوسط (الخوري بولس قرألي – فخر الدين المعني الثاني ودولة تونسكانا) .

الاحداث السياسية في عهد فخر الدين

كان من عادة الامراء اتخاذ مدبرين لهم من أهل الحصافة والامانة ، فاختار فخر الدين ابراهيم الخازن مدبراً ، واتخذ اخاه رباحاً دهقاناً ، مكافأة لعنايتهما به حين كان مستتراً عندهما ، فكان ذلك ابتداء وجاهة آل الخازن الذين نالوا عند الامراء المكانة العليا بصداقتهم وامانتهم ، كما كان هذا العمل دليلاً على حسن سياسة الامير في اجتذاب النصارى اليه باستخدام اعاظمهم .

وكأن الامير قصد في سياسته عند توليه الاحكام ان يثأر لأبيه وجده من قتلتهما فوضع نصب عينيه مناوأة العثمانيين ومناصبتهم العداء . ولكن بظاهر مموه بالطاعة فلم يتعد ذلك قلبه ولم يجرِ على لسانه قط .

ورأى ان لبنان متعدد الطوائف كثير الأمارات ، فتقرب من المسيحيين ، وأظهر صداقته للأمراء من مجاوريه ، وتحالف مع الامير علي بن منصور الشهابي وانتقم لوالده من الامير منصور المعروف بابن فريخ صاحب البقاع اذ قتله مراد باشا والي الشام باغراء منه .

وما ان رسخت اقدام فخرالدين في الشوف وصيدا حتى حدثته نفسه بالمزيد من العزة والسؤدد . وجاءت الظروف موافقة لأمانيه اذ كلفه مراد باشا بالقاء

القبض على ابناء فريخ العشرة الذين فروا من بوارج ملتجئين الى يوسف باشا سيفا في كسروان ، فاستأذن فخرالدين مراد باشا بمداهمة كسروان فاجاز له الزحف ، وأوشك الامير ان يدهمها ولكنه لما علم ان يوسف باشا أبى قبول ابناء الفريخ ، عاد الى صيدا ومنها الى الشوف .

وارتداد فخرالدين عن كسروان لم يكن الا مؤقتاً لأن نفسه مابرحت تحدثه بالاستيلاء عليها وعلى بيروت وضمهما الى امارته ، ولم ير من سبيل الى ذلك الا بمحاربة يوسف باشا فزحف الفريقان سنة ١٥٩٨ م وتواقعا عند نهر الكلب فانكسر يوسف باشا بعد ان قتل ابن اخيه الامير علي وتشتت جيشه . وهكذا تولى الامير فخر الدين حكم بيروت وكسروان .

ولبثت بيروت وكسروان تحت حكم فخر الدين سنة واحدة اعادهما بعدئذ الى يوسف باشا استجلاباً لصداقته .

وحاول يوسف باشا سيفا مرات متعددة الانتقام من الامير المعني فلم يستطع الى ذلك سبيلا مما اضطر معه الامير فخرالدين الى تحين الفرص للانقضاض عليه والانتقام من اسياده العثمانيين وتقويض سلطانهم عن دياره ...

وظهر ذلك جلياً في حادثة علي جنبلاط الذي ثار على الدولة في حلب ، وكان متحالفاً مع الامير فخرالدين ، اذ ارسل يوسف باشا سيفا والي طرابلس يعرض على الدولة العلية خدماته في القضاء على علي جنبلاط اذا عينته الدولة سرداراً على الجيش السلطاني ، فصدرت له الاوامر بذلك ولكنه عندما حدثت المعركة بالقرب من حماه لم يقوَ يوسف باشا على الثبات طويلا بل انكسر عسكره واستولى الامير وعلي باشا على مخيم يوسف باشا وجيشه وغنما غنائم وافرة .

هجرة الامير فخر الدين الى اوروبا

وجن جنون العثمانيين فعينوا على دمشق احد قادتهم الأشداء وهو حافظ

باشا الذي استعان بالاسطول العثماني للقضاء على المتمردين وفي طليعتهم الامير فخر الدين .

وعلم الامير المعني ان الاسطول العثماني قادم عليه بقيادة الاميرال محمد باشا ، وان هذا انفذ الى صيدا عشرة سفن بإمرة يحيى باشا ليرصد طريق البحر فلا يفر الامير بواسطته . وللحال نهض فخرالدين الى صيدا ومنها الى النهر حيث اجتمع بيحيى باشا وشكا اليه تحامل حافظ باشا عليه مع انه عرض عليه واحداً وخمسين الف قرش ذهبي سلفاً عن السنة التالية ، ثم قدم الامير للباشا هدية ثمينة ، وعريضة كتبها اهل صيدا يثنون فيها على الامير ويمتدحون اخلاصه للدولة . ورفع يحيى باشا الامر لمحمد باشا امير البحر مع وفد صيداوي ، فسر الباشا بذلك وأمّن الامير والوفد ، وبعد ايام اقلعت السفن العثمانية من بحر صيدا لتنضم الى بقية الاسطول في البحر الابيض المتوسط .

المخابرات بين فخر الدين وتوسكانا

وكان الامير فخرالدين قد اجرى سابقاً مخابرات سرية مع دوق توسكانا في عام ١٦٠٥ م ، فاستغرقت زمناً طويلا ، أوفد على اثرها الغراندوق فرديناند الاول ، سفيراً لمفاوضة فخرالدين هو الامير ليونسيني . وتذكر الوثائق المحفوظة في ايطاليا وقائع الجلسات السرية التي جرت في صيـدا في ربيع سنة ١٦٠٨ م بما ملخصه :

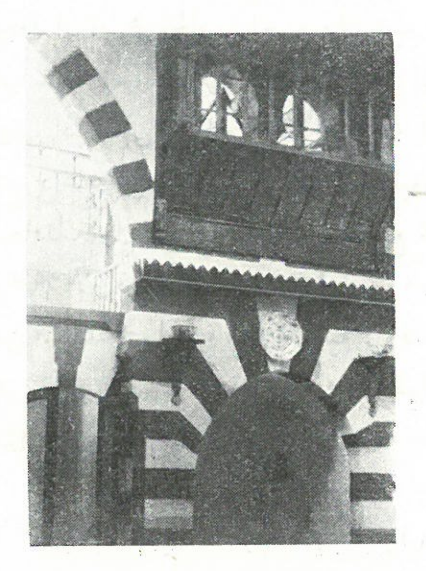
الجلسة الاولى :

لما وصل الوفـد الى قبرص وتحقق من هزيمة جانبولاد باشا وفراره ، قرر الاتفاق مع فخرالدين فقصد بالعمارة صور ، ثم ارسل قائدها يطلب من الامير فخرالدين رهائن ليبعث اليه بالسفير . وفي اليوم التالي حضر الى العمارة قنصل صيدا الفرنسي وبصحبته تاجر انكليزي يدعى بروكس ، حملهما الامير مذكرة

امان بالعربية ليسلماها الى السفير ، وابلغاه ان فخرالدين قد تصالح حديثاً مع الباب العالي ، وارسل ولده الى الوزير في حلب بهدية قدرها ثلاثمائة الف قرش بين حرير ونقود وثلاثة اسرى فلورنسيين ، وانه لم يبعث اليه برهائن خوفاً من اثارة الشبهات لأن الجواسيس حوله كثر ، والوزير ما زال مقيماً في حلب . .

فلم يكتف القائد بالتذكرة المذكورة بل استكتب ليونسيني كتـاباً الى الامير يشير فيه الى خطورة المهمة المنتدب اليها ويلح في ارسال الرهائن . فتلقى القائد جواباً من الامير يدعوه الى الرسو في ميناء صيدا بمركبين او ثلاثة فقط ، ويعده بإرسال الرهائن الى هناك ، ويؤكد له انه شديد الرغبة في التحدث اليه .

ليونسيني في صيدا



قصر آل دبانه ويعتقد انه كان لاحد الامراء المعنيين ووهب الى القنصل التوسكاني

قصدت العمارة التوسكانية صيـدا ورمت مراسيها على مسافـة ميلين من مينائها واذا بقارب يستقبلها وفيه التـاجر الانكليزي بروكس مع قيم قصر الامير وخادمين كرهائن .

ونزل السفير ليونسيني مع ترجمانه الى صيدا وباتا في بيت القنصل الفرنسي ، وصباح اليوم التالي قصدا بصحبته وصحبـة القنصل الانكليزي وبروكس المذكور قصر الامير في المدينة . ولما دخلوا عليه استقبلهم دون ان ينهض من مكانه ، وأمر السفير بالجلوس وباطلاعه على مهمته . ولما تسلم الامير رسالة الغراندوق ناولها بدوره الى القنصل الفرنسي ليقرأها . وكان قد اتفق سراً مع

السفير على ان يقتصر الحديث في تلك الجلسة العلنية على استخلاص اسرى وقعوا حديثاً في قبضة المراكب التوسكانية ليبقى سر السفارة مكتوماً فقرأ القنصل الكتاب ، خلافاً لفحواه ، ونقدهم الامير ثلاثة آلاف ريال ثمناً للاسرى فرجاه السفير ان يتوسط لدى الوزير باعادة الاسرى الفلورنسيين ، فوعده بان يكتب اليه بهذا الشأن وامره ان يعود اليه في اليوم التالي لتسلم كتـــاب التوصية . ثم صرفهم فعادوا الى دار القنصلية الفرنسية .

الجلسة الثانية :

وفي اليوم الثاني ارسل الامير احد حجابه يستدعيهم اليه فجاءوا الى القصر بصحبة القنصل الفرنسي . ولما دخلوا القاعة وجدوا الامير ينتظرهم وحده . وبعد ان امرهم بالجلوس اخرج من جيبه كتاب الغراندوق ، ودفعه الى قنصل فرنسا فقرأه وكان ترجمان السفير ينقل الى الامير بالتركية العبارة تلو العبارة . حتى اذا انتهى من تلاوته بدا على وجه الامير دلائل الارتيـــاح وامر السفير ان يسرد عليه كل ما امره الغراندوق بتبليغه . فقال السفير : « ان سيدي رأى ان سعادتك اول امير في الشرق يستطيـــع تحقيق الاستقلال لهذه البقعة من الأراضي وحماية الأراضي المقدسة من العثمانيين ، ولذلك فهو يرجو ان تصرح بما يلزمك من المساعدات لبلوغ هذه الامنية . وقد ارسل اليك الآن الف قصبة للبنادق عربوناً لصداقته المخلصة المتينة ، واسطولاً من المراكب البحرية لتستخدمه عند الحاجة ضد الدولة العثمانية » .

فأجاب الإمير شاكراً لسموه الشرف الذي خوله اياه وابلغه ان جانبولاد باشا كتب اليه مرة عن هذا المشروع ولم يعرف بعدئذ ما تم به . وهو يشك في استسلام المذكور للسلطان ؛ واردف يقول : ان جيشي اقوى من جيشه وان قل عنه عدداً وبلادي امنع كثيراً من بلاده لأنها ذات مركز حربي ممتـــاز ، ولدي قلعتان لو سلحت كلا منهما بعشر قطع من المدفعية لما قويت كل جيوش آل عثمان عليهما .

الواحدة تبعد عن البحر مسافة يوم ونصف ، والثانية يومين ، بيد انها قريبة من اورشليم . وفي وسعي الاستيلاء بسهولة على الاراضي المقدسة عير اني احتـــاج للمساعدة للاحتفاظ بها . فاجاب السفير : ان مولاي والبابا وملك اسبانيـــا مستعدون لتقديم ما تطلبه من المساعدات مهما كان نوعها .

فنهض قنصل فرنسا وجاهر بقوله : « ومولاي ايضاً مستعد لشد ازر سعادتك عند الحاجة » .

وعندئذ ابرز السفير امام الامير براءة البابا الى شاه العجم ، وسأله ان يسهل امـــامه طريق الوصول الى تلك الاصقاع لان الغراندوق راغب في اشراك هذا الملك معهما وتوحيد قواهما ضد الدولة العثمانية .

فتلقى الامير هذا القول بشيء من الفتور وكأنه لم يرق له ، ثم اعان انـه قادر وحده على القيام به على شرط ، ان يقدم له الغرانـــدوق والبابا وملك اسبانيا المساعدات اللازمة .

ولما الح عليه السفير بان يصرح عن المساعدات اللازمة له في الوقت الحاضر استحضر الامير قلماً ودواة واملى عليه ما يلي :

المساعدات التي طلبها فخر الدين

اولاً : ان يوضع تحت تصرفه خبير في صب المدافع مع المواد الضرورية ليصب له عشر قطع من المدفعية أو اكثر وكمية تناسبها من القنابل .

ثانياً : ان تبذل الجهود لانقاذ الاسرى الفلورنسيين الثلاثة لانهم عارفون تمـــام المعرفة بقلعتيه المذكورتين .

ثالثاً : لما كان العمل الذي ينوي القيام به من الخطورة بمكان ، كأحتلال القدس ودمشق وغيرها من مدن سورية فهو يطلب الى البابا ان يبعث له ببراءة يأمر

فيها المسيحيين الخاضعين لرئاسته تحت قصاص الحرم ، بان يتسلحوا ويهبوا لمساعدته عند صدور اول اشارة منه بحيث لا تقتصر المساندة التي يلقاها على الرعايا اللبنانيين بل تشمل كل مسيحي الشرق ليصبح نجاح المشروع مضموناً .

رابعاً : ان يصدر الغراندوق امره الى المراكب التوسكانية المتوجهة الى الشرق ان ترسو في ميناء صيدا دائماً حتى اذا كان بحاجة الى تحميلها رسائل او خزينته او غير ذلك استخدمها .

خامساً : ان يزوده الغرندوق بتذكرة مرور يسافر بها اذا اضطره الامر الى ايطاليا سواء أكان لمشافهته ام لغرض آخر قد يطرأ عليه ، فيتسنى له السفر ذهاباً واياباً بدون مانع لشخصه اولا حماله او للسفن التي يركبها .

سادساً : ان يهدي اليه ثلاثة او اربعة هواوين ودرعاً من اجمل الدروع (الخوري بولس قرأ لي في كتابه الامير فخر الدين ودوق توسكانا) .

ولما انتهى الامير من بسط هذه المطالب اوعز الى السفير ان يكتب لهجواباً للغراندوق ليمهره بامضائه وختمه ، لان ليس حوله من يعرف الفرنسيه او يثق به لهذا الغرض ، واخبره ان نائب ملك اسبانيا في نابولي اهدى اليه قطعتين من المدفعية وكمية من البنادق واشياء اخرى . ورغب الى الترجمان ان يكتب باسمه كتاباً يشكر فيه النائب المذكور . فلبى الترجمان طلبه ومهر الامير الكتاب بامضائه وختمه وكلف السفير ايصاله بطريق مأمونة ؛ ثم صرفهم بعد ان امرهم ان يرجعوا اليه بالرسالة التي اوصاهم بكتابتها .

وكتب ليونسيني الرسالة بيد انه اطلع عليها القنصل الانكليزي والتاجر بروكس وسمح لكل منهما باستنساخها مما حمل الترجمان على لومه لفضح اسرار هذه المحالفة الخطيرة بين اميرين كبيرين ؛ لان الانكليزيين لم يطلبا استنساخها الا لغرض في النفس .

الجلسة الاخيرة :

وعادوا الى الامير للمرة الثالثة وسلمه السفير الرسالة التي كتبها باسمه الى الغراندوق فوقعها ثم مهرها بخاتمه . ورغب اليه ان يعيد على مسامعه ما قاله امس عن مهمته لأن الاعادة تسره ، فأعاده السفير ، وعندئذ عاهده الامير على ان يكون صديقاً مخلصاً لمولاه ، رسأله عما اذا كان هنالك قرابة بين الغراندوق وملك اسبانيا ولما اجابه على سؤاله ، أخبره ان ملك اسبانيا عرض عليه ان يبني حصناً في ميناء صور فلم يلب طلبه حتى الآن وهو يرغب في معرفة رأيهم في هذا الأمر ، فأوعز السفير الى الترجمان ان يخبره ان هذا الملك اذا وضع قدمه في بلاد لا يسع صاحبها اخراجه منها بل بالأحرى يطرد الاصيل . فلم ير الترجمان هذا الكلام لائقاً بل قال : « ان فطنتك السامية ياسعادة الامير تغنيك عن استشارتنا في هذا الموضوع » .

وسأل الامير زواره عن الحرب المستعرة بين البابا ودولة البندقية فأخبروه انها انتهت بصلح مبتور ، ثم سألهم عما اذا كان في نية البنادقة استعادة جزيرة قبرص فأجابوه بالنفي ، فأبلغهم انه مصمم النية على مناوأة العثمانيين ما دام فيه عرق ينبض . فقال له السفير : « يشتهي الغراندوق ان يراك ملكاً على سورية محطماً شوكة الامبراطورية العثمانية ، فأظهر الامير امتنانه ، واردف بقوله : اذا انقلب الدهر علي فقهرني العثمانيون ، لجأت الى بلاد الغراندوق لأقضي فيها بقية حياتي . أما الآن فحالما اعلم بخروج الوزير من حلب اركب على الامير يوسف ، باشا طرابلس وأحاربه .

ثم صرفهم ، وما بلغوا دار القنصلية في صيدا حتى لحقهم خادم الامير بثلاث خلع ، الواحدة لقائد الإسطول ، والثانية للسفير ، والثالثة للترجمان ، ولما وصلوا الى المركب أعاد القائد رهائن الامير وحملهم اليه بعض التحف وكلفهم ان يقبلوا يديه ويخبروه انه قبل الاقلاع من صيدا ، سيطلق مدفعاً علامة الاستئذان بالسفر ، ثم ينتظر قليلاً لعل الامير يأمره بخدمة ما .

وهكذا اقلع المركب التوسكاني من مرفأ صيدا في ربيع ١٦٠٨ م عائداً الى بلاده ، وبعد بضعة اشهر عرف الغراندوق ان الامير نشط حالاً للعمل فجمع ثلاثين الف مقـــاتل مستخدماً اسطوله التوسكاني في نقلهم وتموينهم ، مما أثار شبهات الباب العالي في سلوكه وجعله يتحفز لمعاقبته .

فخر الدين والبابا

ومما زاد الامير اقداماً على متابعة العمل للاستقلال ببلاده رسالة كتبها إليه البابا بولس الخامس يقول فيها ما تعريبه :

« الى فخر الدين امير الدروز ونيقوميدية وفلسطين وفينيقية ، سلام ايهـا الرجل الشريف وليحل عليك نور النعمة الالهية .

عرفنا الاخ المحترم سركيس ، رئيس اساقفة دمشق الماروني الذي أم رومية لزيارة ضريحي الرسولين القديسين ، عطفك العظيم على اولادنا المسيحيين وخاصة الموارنة ، فبتنا مدينين لك كثيراً ، لأن ما تفعله نحو أولادنا تفعله نحونا . ولما كان رئيس الاساقفة المذكور عائداً الى اخوته رأينا ان نكتب اليك هذه الرسالة دليلاً على محبتنا لك . وأوعزنا اليه ان يبلغك انتظارنا بكل الجوارح الفرصة التي تتيح لنا ان نثبت لك عظم هذه المحبة وشدة ارتياحنا الى حسناتك نحو أولادنا المسيحيين ، وقد أمرنا رئيس الاساقفة المذكور ان يسلمك بعض التحف آملا ان تحوز لديك قبولاً لأنها دليل على ميلنا الخاص اليـــك . ونحثك ثانياً وثالثاً ان تواصل رعايتك لأولادنا وخاصة الموارنة منهم ، وان تشمل بحمايتك حامل هذه الرسالة وهو يفصح لك عن رغبتنا الشديدة في مناصرتك على العثمانيين الظلام اعداء الطرفين (أعطي في رومه بقرب مار بطرس في ١٦ كانون الثاني ١٦٠٩ م ، وهي السنة الرابعة لحبريتنا) ».

فخر الدين ووالي دمشق

عندما توفي الصدر الأعظم مراد باشا صديق فخر الدين في تموز سنة ١٦١١ م

وخلفه في شهر آب من تلك السنة نصوح باشا عدو الأمير ، اخذ هـــذا يحتاط لنفسه من شره فاتفق مع البطريرك الماروني يوحنا مخلوف على تكليف قاصده المطران جرجس بن مارون اسقف قبرص بمفاوضة الامراء المسيحيين لمساعدته ضد الدولة العثمانية ، وان يبعث اليه البابا باسطول مؤلف من خمسة عشر غليوناً وعشرين غراباً لترسو في صيدا ، وبواسطتها يتمكن الامير من الاستيـــلاء على فلسطين وخاصة القدس .

وأبلغ المطران جرجس الكيفية الى البابا والى غراندوق توسكانا ، وقال : لقد تم الاتفاق مع اميرنا يوسف خطار الماروني الذي تحت يده ثمانية آلاف من الموارنة وهم ينتظرون بفارغ الصبر الفرصة للتخلص من عبودية العثمانيين ، ولا ينقصنـــا سوى الاسلحة قبل الشروع في العمل ليتسنى توزيعها على المحتاجين اليها ، ولدى امير صيدا فخر الدين جيش يبلغ سبعين الفاً وهو متفق مع بقيـــة الامراء ان يسمحوا للجيش المسيحي بالنزول في صور وصيدا وطرابلس .

ومكث المطران جرجس في ايطاليا اكثر من سنة ونيف دون ان ينـــال المساعدة المطلوبة .

وكان حافظ باشا والي الشام قد أثار على الامير حفيظة نصوح باشا الصدر الاعظم وهيج جشعه في بلاده العامرة التي تتحصل منها الأموال الوافرة . فعزل الوزير نكاية بالامير حليفه عمرو شيخ المفارجة عن حوران والشيخ حمدان قانصوه عن عجلون ؛ فأعادهما الامير فخر الدين الى منصبيهما بالقوة . ولما بلغ نصوح باشا خبر هذه الجسارة جهز عليه حملة قوية براً وبحراً. ورسا الاسطول العثماني في عكا ومنها أوفد قائدها عشرة أغربة لمحاصرة صيدا ومنع الامير فخر الدين من الهرب . بيد ان هذه المراكب لم تلبث ان اقلعت عنها وانضمت الى الاسطول لاستخلاص الأغربة العثمانية السبعة التي اسرتها مراكب مسينا الاسبانية الحربية.

فاغتنم الامير الفرصة ، وعمد الى تحصين ثلاثة من قلاعه وجهزها بالاعتدة

والمؤن ما يكفيها ثلاث سنين ووضع فيها جنوداً أمناء عاصين على الدولة اليائسين من العفو ، ودفع الامير رواتبهم لسنتين سلفا . وسلم ولده الامير علي قيادة خمسة آلاف مقاتل من جيشه وسلم شقيقه الامير يونس قيادة بقية الجيش ليناوشوا العثمانيين دون ان ينازلوهم في معركة حاسمة .

ولما اقلعت الاغربة العثمانية عن صيدا انتهز الامير فخر الدين الفرصة فنزل من دير القمر الى صيدا واستقل مع حاشيته ثلاثة مراكب وركب هو في الأول وأركب في الثاني زوجته وفي الثالث مستشاره الحاج كيوان صاحب الرأي الاكبر في الرحلة الى توسكانا فانطلقت بهم المراكب من مرفأ صيدا في ١٦ ايلول سنة ١٦١٣ م .

وصول الامير فخرالدين الى ايطاليا :

وبلغ الامير فخر الدين ليفورنو في ايطاليا في السادس من تشرين الثاني ١٦١٣ م فاستقبله حاكمها الذي سأله عن سبب مجيئه ؟ فأجابه ان غايته من القدوم الى توسكانا هو مقابلة الدوق ليطلب منه قوة تساعده على استعادة صور وصيدا وبيروت وان لدى الامير جيشاً في داخل البلاد يضم ٢٠ الف مقاتل .

وفي الثامن من تشرين الثاني سنة ١٦١٣ م وصل المركب الذي يقل زوجة الامير فخر الدين وحاشيتها فانزلن في جناح خاص من قصر الحاكم .

وسأل الامير عند وصوله الى ليفورنو عن القائد جوادايني الذي عرفه في صيدا فأوفده اليه ، ثم سبقه الى فلورنسا ليعلم الغراندوق بطريقة استقبال الامير .

وفي ١١ تشرين الثاني ترك الامير فخر الدين ليفورنو يرافقه الحاج كيوان وترجمانه اسحق عزيز وقنصل فرنسا في صيدا السيد كردانا وأربعة من خدمه

كما رافقه الوزير اوزمباردي والاميرال انجرامي ، وأعدوا له في طريقه القصور للمبيت فيها أثناء رحلته .

ووصل الامير الى فلورنسا في مساء ١٢ تشرين الثاني ١٦١٣ م ، وكان في انتظاره خارج المدينة الامير انطوان مديشي مع بعض الأعيان ، فأركبوه عربة مقفلة دخلت به قصر الغراندوق من باب الحديقة . واستقبله الغراندوق ووالدته وزوجته وكبار رجال الدولة بأبهة ولطف بالغين وعينوا لنزوله القصر العتيق — وهو من آيات الفن واقع على الضفة الأخرى من النهر وبينه وبين القصر الجديد بالازافيشيو دهليز قائم على جسر يعد من عجائب ذلك العصر —.

وشرح الامير للغراندوق ما جرى له مع والي دمشق بالتفصيل وطلب منه الكتابة الى البابا بالكيفية ، وبانه يأمل ان يزود بالسلاح وبالقوات الحربية البحرية حتى يتمكن من تحقيق أهدافه وأهداف الامراء المسيحيين في حماية الاراضي المقدسة ، كما طلب منه تجهيز مركب الى صيدا وصور لاعلام ذويه بوصوله سالماً وحثهم على الثبات .

بعثة الامير والغراندوق الى صيدا :

ونزولاً عند رغبة الامير فقد جهز الغراندوق مركباً مسلحاً اوفد فيه بعض الخبراء في فنون الحرب والتحصين ليقفوا على مراكز الدفاع في بلاد الامير والموانيء والسواحل ويأخذوا عنها الرسوم ويطلعوا على احوال البلاد واستعداد الرعايا ونيات العدو .

وفي مذكرات الامير التي يوضح فيها بعض الارشادات والنصائح المعطاة الى قائد المركب في ١٩ تشرين الثاني ١٦١٣م (الخوري بولس قرأ لي — الامير فخر الدين المعني الثاني ودولة توسكانا) ما معناه :

« واذا بلغوا حيفا فليتظاهروا انهم تجار يرغبون في شراء القمح او خلافه ،

ولينشروا الراية الفرنسية ويستعلموا عن بلاد الامير اهي براحة وباقية له ام آلت الى غيره ، والى من ؟ واذا كان هنالك حرية للتجول فيها والسفر الى صيدا وغيرها من الاماكن لمعاطاة التجارة ، فان لم يفوزوا بهذه المعلومات قصدوا صور او القاسمية حيث ينزل الى البر رجل او اكثر من الذين يعينهم سيدي علي (عديل الامير) وليتفقوا معه سلفاً على الاشارات التي يجب ان يعطيها لهم ليتدبروا امرهم . وان لم يتلقوا منه اشارة تابعوا السفر حتى نهر الدامور حيث برج كبير والنزول سهل . والافلينزلوا رجالاً في خلده حيث يجدون برجاً متهدماً وليزودوهم بكتابين الواحد الى الامير يونس الذي يجدونه في احد القصور القريبة من بيروت ، والثاني الى والد سيدي علي في حصن صيدا (وهو محمد ظافر الذي بقي حاكماً لصيدا) . واذا علموا بخروج البلاد من يد الامير ، بقي سيدي علي في المركب مختفياً. ولهم ان يجلبوا الى المركب رجلاً يوافيهم بالاخبار والمعلومات اللازمة . واذا شاء الامير يونس ان يوفد رسولاً الى اخيه فخر الدين فليقبلوه . واذا شاء بعض رعايا الامير ان يحملوا اليه شيئاً من البضائع او غيرها فلا مانع من قبولها في المركب شرط ان لا تعيق سيره . واذا تيسر للخبراء النزول ، فلينزلوا ويستعلموا عن ثغري صيدا وصور ويأخذوا رسمهما وليزوروا القلاع ويتحققوا اذا كانت المواد اللازمة لبنائها وترميمها متوفرة كالماء والكلس والخشب والحجارة (الخوري بولس قرأ لي – الامير فخر الدين المعني ودولة توسكانا) .

وعين الغراندوق في عداد رجال البعثة الفارس كارلو ماشنجي ويوحنا سانتي وقيصر انطونياتشي مهندس البلاط الذين زودهم الامير بالكتابات الى وزرائه وحكام البلاد ونظار الموانىء وقواد القلاع والحصون على الساحل وفي الداخل والمدن والاماكن المحصنة .

واقلعت السفينة ترتانا بالبعثة المذكورة في اواخر كانون الاول ١٦١٣ م . متوجهة الى لبنان .

الفصل السادس

ما جرى في بلادنا خلال هذه المدة :

وقبل ان تقلع السفينة وردت الى الغراندوق معلومات تنبىء بثبات قلاع الامير في وجه الحملة العثمانية وعن تعلق الرعية بسيدها الامير ودفاعها عن بلاده ، فطابت نفس الامير وازداد الغراندوق عزماً على مناصرته. ومن هذه البشائر رسالة صدرت عن طرابلس مؤرخة في ١٢ تشرين الثاني ١٦١٣ م ، جاء فيها ما يلي :

« ترك الامير في قلاعه اكثر من ثلاثة الاف مقاتل وهي منيعة لا تطال، وقد هاجم الباشا اصغرها واضعفها بزهاء /٦٠/ الف محارب فلم يفز منها بطائل . والحصار ما زال قائما على قدم وساق ؛ بيد ان المطر والبرد القارس يخففان من شدته كثيراً . وفي الجبال احد عشر الى اثني عشر الف درزي رفضوا الطاعة للباشا وللمتسلمين الذين عينهم في صيدا وفي غيرها من المدن وهم يستميتون في القتال ، وقد جاهروا انهم يفضلون الموت على الخضوع لغير اميرهم . وهذا ما توصلت الى معرفته من اشخاص جديرين بالثقة » .

وتلقى الغراندوق بعدئذ كتاباً آخر من حلب تاريخه ١١ كانون الاول ١٦١٣م يؤيد ما جاء في الكتاب السابق ويقول :

«ادلي بالمعلومات التي بلغتني عن معارك صيدا ، فقائد الجيش العثماني العام

وهو حاكم دمشق لما رأى رداءة الطقس وهجوم البرد القارس اصدر امره الى الجيش برفع الحصار عن القلعة وقد عجز عنها مع انها اصغر القلاع ، التي حصنها الامير (دامت مدة الحصار ستين يوماً بلياليها لا يبطل فيها الضرب بالبنادق والمدافع من الجانبين) .

ولما شاهد المدافعون العدو يهم بالرحيل امطروه بشتى الشتائم مصحوبة بامارات الهزء والسخرية . فحنق الباشا وامر ان ينشطر الجيش شطرين يزحفان على البلاد لنهبها وتخريبها ، وخاصة جبل الدروز الذين رفضوا طاعة السناجق والباشاوات المعينين حديثاً . وقصد مصطفى باشا – والي ديار بكر – مع اثنين من الباشاوات بقسم كبير من الجيش الى بلاد صفد ، وتوجه حسين باشا بن سيفا الى بيروت .

وكان الدروز يتراجعون امام القوات العثمانية ويستدرجونها الى حيث يطبقون عليها فجأة ؛ حتى وهنت عزائمها فنازلوها ساعة ثم تظاهروا بالهرب ، ومازالوا كذلك حتى اوقعوها في كمين هائل حيث كان بانتظارها احد انسباء الامير يونس فقتلوا منها مقتلة عظيمة حتى ان البعض يقدرون خسارة الجيش العثماني بعشرة الاف رجل فضلاً عن عدد كبير من الاسرى بينهم اربعة باشاوات. ومما استفز الدروز الى هذه الاعمال المجيدة الدفاع عن حريمهم ، وقد اعلنوا انهم يفضلون ذبح نسائهم واطفالهم والموت سوية في ساحة الوغى على الخضوع لغير اميرهم » .

وبعد بضعة ايام تلقى الغراندوق والامير كتباً تشعر بفشل حملة حافظ باشا وجلائه عن بلاد الامير .

عودة البعثة

وعادت البعثة على ظهر السفينة ترتانا الى ليفورنو في ١٠ نيسان سنة ١٦١٤ م وعليها الشيخ يزبك بن عبد العفيف من أعيان الشوف وثمانية وعشرون من رجال

الامير وخدمه بينهم الشيخ خاطر بن ابي نادر الخازن الذي بقي معه حتى رجوعه الى لبنان في ايلول سنة ١٦١٨ م ، وقدموا الى الامير تقارير في غاية الاهمية عن الحوادث التي جرت في لبنان مدة غياب الامير ، والى القارىء اهم ما جاء فيها :

بعد سفر الامير من صيدا بشهرين وصل باشا دمشق وصحبته اربعة عشر من الباشاوات بينهم حسين – باشا طرابلس – ابن الامير يوسف سيفا وصهر فخر الدين فضلاً عن خمسة وسبعين سنجقاً وخمسة وثمانين الف مقاتل . فتوجهوا لمحاصرة قلعة الشقيف القريبة من صيدا ولبثوا أمامها أربعة وثمانين يوماً دون ان ينالوا منها منالاً لبسالة قائدها حسين الطويل ، ومهارة ثمانية عشر جندياً فرنسوياً من خدم الامير في ادارة المدفعية ؛ فقد حطموا مدافع العدو واضطروه الى رفع الحصار بعد ان خسر الفين وخمسمئة من رجاله . وكان الامير علي والدروز قد كبدوه في مواقع شتى ومعارك مجيدة خسارة نحو ثلاثة آلاف غيرهم ولم يفقد اللبنانيون سوى خمسين من رجالهم .

وحاول الباشا ايضاً محاصرة قلعة بانياس ، ولما تحقق عجزه عن اخذها أرسل من يقول الى حسين اليازجي قائدها : « ان سلمتني مفاتيحها جعلتك أومباشي صفد » فأجابه حسين : « لا اسلمها إلا لصاحبها الامير فخر الدين وان مات فلولده الامير علي » . ولما دخلها الامير علي بألف من رجاله وثلاثة آلاف من العرب بقيادة عمرو شيخ المفارجه ، أرسل الباشا للامير يقول : « ان خضعت للسلطان عفا عنك وجعلك مكان ابيك » . فأجابه الامير علي : « افضل الموت على خيانة ابي . فافعل ما تشاء » .

فحنق الباشا وعمد الى تخريب البلاد . واخذ يقطع الاشجار ويحرق القرى. ولما شاهد السكان منه هذه الأفعال فكروا في مراضاته ، وتم الاتفاق على ان تقصد الست نسب والدة الامير فخر الدين البالغة من العمر زهاء السبعين سنة الى معسكره وتقدم له ثلاثمئة الف قرش ، شرط ان يترك البلاد وشأنها . ورضي

الباشا فسلمته مئة وخمسين ألفاً ودفع اهالي البلاد البقية . وبقي من المبلغ عشرون ألفاً ، فأخذ الباشا الوالدة معه رهينة الى دمشق حتى يستوفي الباقي ...

ولم يذهب باشا دمشق الى صيدا ولا الى صور بل اكتفى بأن وضع في صيدا صوباشياً مع عشرين نفراً حتى يستوفي بقية المال الموعود به ، وأبقى حاكمها الحاج محمد ظافر نسيب الامير في مكانه (الخوري بولس قرأ لي في كتابه – الامير فخر الدين المعني ودولة توسكانا –) .

العفو عن فخر الدين

ازداد حافظ باشا والي دمشق قسوة في معاملة الاهلين . وفجأة وصلته انباء تفيد ان الصدر الاعظم نصوح باشا قد قتل فارتد الى دمشق ، وما كاد يصلها حتى تلقى أمراً بعزله عن ولايته فغادر دمشق تصحبه صيحات الاهلين المبتهجة بخروجه من ديارهم .

ولما وصلت هذه الانباء الى الامير فخرالدين في توسكانا ، كتب الى أصدقائه في العاصمة العثمانية يسألهم السعي لدى الصدر الاعظم الجديد للعفو عنه ، فنزل محبوه عند ارادته وأوضحوا للسلطان ان ابن معن قد ذهب ضحية الحسد والدس وانه رجل مستقيم ومخلص لدولته وسلطانه . وما زالوا يستدرون رحمته حتى أصدر عفواً عنه وأعاده الى منصبه في بلاده .

وأرسلت براءة العفو الى والدة الامير السيدة نسب ، فبعثت بها الى ولدها في توسكانا فلم تصله لسوء حظه ، لأنه كان قد غادرها في زيارة الى صقلية التابعة للمملكة الاسبانية .

الامير في صقلية

كانت صقلية خاضعة لاسبانيا وفيها ممثل للملك يدعى دوق «دسونا». وكانت اسبانيا راغبة في السيطرة على الشرق ، ولطالما ساومت الامير فخر الدين لعقد

معاهدة بينهما لاحتلال الاراضي المقدسة . ولكن الامير كان يرفض تلك العروض خوفاً من ان يصبح تحت رحمة دولة قوية .

ونظراً للعداء المستحكم بين الدولة العثمانية واسبانيا قرر دوق دسونا توجيه دعوة رسمية للامير ليحل ضيفاً على الحكومة الاسبانية في صقلية . وكان قصده من ذلك ان يوهم العثمانيين انه يعد حملة لاحتلال لبنان . قبل الامير الدعوة لأنه اعتقد ان مساعي أصحابه في الاستانة قد فشلت ، لذلك ترك توسكانا ووصل الى مسينا في ٦ آب سنة ١٦١٥ م فوجد ان الدوق قد هيأ له استقبالاً رائعاً . وبعد ان رحب به بحرارة أنزله في اجمل قصور المدينة وعرض عليه ان يسافر الى اسبانيا لمواجهة ملكها والاتفاق معه على مايرضي الطرفين ، فرفض الامير طلبه شاكراً ومعتذراً لأنه كان ينتظر مساعي أصدقائه في الاستانة .

الامير يزور صيدا

وجاء يوم علم فيه الامير فخر الدين ان ثلاثة مراكب تتهيأ للاقلاع الى لبنان ، فطلب آنئذ من دوق دسونا ان يسمح له بالسفر الى وطنه الحبيب ، فنزل الدوق عند ارادته ووضع تحت تصرفه مركباً أقله الى صيدا واشترط عليه ان لا ينزل الى البر لأنه مسؤول عن حياته تجاه مليكه .

وصل مركب الأمير الى صيدا فوجد جمهوراً كبيراً من الناس هرعوا لاستقباله ، وصعد الى المركب ابنه الامير علي واخوه الامير يونس وعدد كبير من أعيان البلد المخلصين فشاهدوا الامير وتحدثوا اليه واخبروه بالتفصيل عن كل ما جرى في البلاد أبان غيابه . ولم يذكروا له امر العفو عنه لأنهم كانوا يجهلونه .

وخاف الامير ان يطول وقوفه في صيدا فتعلم به الحكومة العثمانية وترسل سفنها لإلقاء القبض عليه فقفل راجعاً الى صقلية . وأثناء عودته ، مر في جزيرة مالطة فاستقبله فرسانها اجمل استقبال واحتفوا به واكرموه وزودوه بأنواع الأطعمة والخضار . واستغرقت رحلة الامير هذه سبعة اشهر .

الشيخ حسين الطويل حاكم صيدا

وقام الامير علي بجولة في انحاء امارته تفقد فيها شؤون الرعية والحصون ثم عاد الى صيدا منيطاً حكم بلاد الشوف وبلاد بشارة بعمه الامير يونس وأسلم حكم مدينة صيدا وتوابعها الى الشيخ حسين الطويل قائد الدفاع عن قلعة الشقيف وأحد اركان الامير الأوفياء ، وتم هذا في مطلع عام ١٦١٧ م .

وفي آخر شهر محرم من السنة ١٠٢٦ هـ – ١٦١٧ م وصل الى صيدا احمد آغا التوتونجي مندوباً من قبل الصدر الأعظم محمد باشا لتحصيل المال الأميري من امير صيدا وقدره خمسة وعشرون الف قرش ، وكذلك المال الذي تعهد بتقديمه الامير علي هبة ومقداره مائة الف قرش ، ولكنه مكث في صيدا أربعة شهور دون ان يحصل شيئاً .

عودة الامير فخر الدين

بالرغم من الاكرام الفائق الذي أحيط به الامير فخر الدين طيلة خمس سنوات أقامها في ايطاليا وصقلية وغيرها من قبل الامراء الاوروبيين والبابا فقد لمس ان محبتهم ليست وليدة مناصرة المظلوم على الظالم ، وانما هي وليدة المصلحة الشخصية وما يؤمل الأجانب تحقيقه من أهداف سياسية واقتصادية في المنطقة ؛ ولذا فقد امضى الامير فترة نفيه الاخيرة ، وفي قلبه غصة وفي عينه دمعة ، منتظراً فرج السماء في تعبيد طريق عودته الى بلاده .

ولما تحقق له رجاؤه ونال العفو الذي بذلت امه الست نسب المستحيلات في سبيله ، استقل المراكب مع مرافقيه وتوجه الى صيدا فبلغها في ايلول سنة ١٦١٨م حيث استقبله نجله الامير علي (الذي كان يحكم صيدا وملحقاتها منذ عام ١٦١٥ م مع الامراء وأعيان البلاد أروع استقبال .

عاد الامير فخر الدين الى وطنه فعمت الفرحة جميع انحائه ، واستبشر الناس بالخير ، وتقاطر اللبنانيون من اقصى الابعاد وادناها لرؤية سيد البلاد

والاحتفاء بقدمه الميمون . وبقدر ما فرح به اصدقاؤه بقدر ما هلعت قلوب اعدائه فأخذوا يرسلون اليه الهدايا فقبلها جميعها وخلع على حامليها ، ما عدا هدية يوسف سيفا فانه رفض قبولها وقال لمن اتى بها : « نحن لا نريد هداياه ، ولكننا بحاجة الى الاخشاب نعمر بها دارنا التي احرقها الامير حسين سيفا في دير القمر » .

وكان يوسف سيفا قد نكل باتباع الامير أشد التنكيل أثناء غيابه ، وشمت بمحنته ووشى به للولاة ، ولذلك قرر الامير البطش به بعد ان رأى الفرصة أصبحت مواتية له لتوسيع أمارته على حساب الذين اضطهدوا أنصاره أثناء غيابه .

فخر الدين وابن سيفا

وحشد الامير جنوده ،ثم مشى أمامهم الى عكار . وما كادت أنباء هذا الزحف تصل الى ابن سيفا حتى فر واختبأ في احد حصونه ؛ فهاجم عندئذ الامير رجاله وفتك بهم ثم انطلق الى طرابلس وفعل بها فعلته في عكار ، إذ هدم قصور آل سيفا ونقل حجارتها الى دير القمر ورمم بها بيوته ، ثم انتزع منه مقاطعتي جبيل والبترون وضمهما نهائياً الى امارته محققاً اول توسع لها .

الامير ال علي باشا

ووصلت هذه الأنباء الى الباب العالي وما فعله الأمير بعد عودته من ايطاليا في طرابلس وعكار فأوفد امير البحر علي باشا بالعمارة العثمانية الى لبنان وعددها خمسون مركباً ، وذلك رغبة في احلال السلام بين المتنازعين ورفع الظلم عن كاهل المظلوم (هذا ما يقوله الباب العالي) .

ولما بلغ هذا صيدا في تموز سنة ١٦١٩ م ارسل اليه الامير فخر الدين خمسين الف غرش تقدمة وكمية وافرة من المؤن لأسطوله ، غير ان الباشا نزل الى المدينة

واستدعى الامير للمثول بين يديه بعد ان أعطاه الأمان . فأمر فخرالدين وكيله مصطفى آغا ان يكتب للاميرال باسمه رسالة يقول فيها : « ان حضرت اليك ، وأمسكتني وحنثت بعهدك وان لم تمسكني جلبتُ عليك لوم الدولة العلية » .

فاستحسن علي باشا جواب الامير وأحله في قلبه محل الاعتبار ، ثم أمرسفنه بالإقلاع من مرفأ صيدا بعد ان استولى على مركب« فلمنكي » كان راسياً فيمياهها بحجة انه من القرصان وكان في المركب اربعون الف قرش .

بيروت عاصمة فخر الدين

وكان الامير فخرالدين قد اتخذ مدينة بيروت اثر عودته من ايطاليا عاصمة له ، اذ سكنها في آخر شباط سنة ١٦١٩ م وعكف على اعمارها تاركاً مدينة صيدا لابنه الامير علي ، وصور لأخيه الامير يونس . واقطع في سنة ١٦٢٠ م وادي التيم الى حلفائه الشهابيين وسمى الامير احمد الشهابي رئيساً عليهم .

خليل باشا في صيدا

وفي ربيع سنة ١٦٢١ م وصل الى ميناء صيدا عدد من المراكب السلطانية بقيادة خليل باشا الوزير السابق . وبعد انرست السفن نزل الباشا الى البر وأخذ يتجول في المدينة متفقداً شؤونها ، وما ان عرف الامير علي المعني بنزوله ،حتى هرع لاستقباله مقبلاً يده ثم دعاه الى قصره وقدم إليه الاكرام اللائق مع خمسة آلاف قرش وحصان مطهم فقبل الوزير التقدمة ، ثم أولم على شرفه وليمة كبرى حضرها مع قادة المراكب ثم عاد ومن معه الى مراكبهم بعد ان شكر الامير على حسن ضيافته وكرمه . وأقلع بأسطوله من مياه صيدا .

القرصان التونسيون في صيدا

وفي ربيع سنة ١٦٢٣ م وصل الى ميناء صيدا ثمانية مراكب تقل قراصنة تونسيين ، وكان في الميناء وقتئذ عدد من المراكب التجارية الفرنسية والفلمنكية

فطلب القراصنة من الفرنسيين تأدية عشرة آلاف قرش فامتنع الأخيرون عن إعطائهم ما طلبوا وأدخلوا مراكبهم الى قرب قلعة صيدا ؛ وعندئذعمدالقراصنة الى ضربهم بالمدفعية ، فردت عليهم حامية القلعة بالمثل ، واستمر تبادل اطلاق نيران المدفعية طيلة النهار ، وعند الغروب تراجع القراصنة بمراكبهم الى الوراء بانتظار اليوم التالي .

وكان الامير فخر الدين وقتئذ نازلاً في رأس العين بصور ، ولما بلغته هذه الأنباء سار على رأس فرسانه ليلاً متوجهاً الى صيدا فوصلها عند السحر ، وأرسل الى القراصنة قارباً يستوضح منهم مرادهم ، فلما علم هؤلاء بوصول الامير وجيشه أقلعوا بسفنهم وابتعدوا في البحر . ومكث الامير في صيدا ثلاثة ايام خوفاً من عودتهم ، ولكنهم لم يفعلوا ، وعندئذ ترك صيدا في حماية ولده علي وتوجه الى بيروت (تاريخ الامير حيدر الشهابي) .

الامير يوسع امارته

أثناء غياب الامير فخر الدين في أوروبا شكل الامراء الحرفوشيون جبهة لتناويء الامير علي وتستولي على بعض بلاده ، فتمكنوا من ذلك بمساعدة والي الشام مصطفى باشا الذي اقطعهم حكم صفد وعجلون ونابلس .

ولما استتب الامر في الشوف والساحل للامير فخر الدين فكر في انتزاعها منهم بقوة السلاح . وسنحت الفرصة أمام فخرالدين إذ قتل السلطانعثمانالثاني في الاستانة واضطربت شؤون المملكة فتحركت جيوشه للعمل .

واستنجد الاميران يونس حرفوش وعمر سيفا بمصطفى باشا فجاءهما هذا والتقاهما في سهل الجديدة بالقرب من مواقع الشهابيين اصدقاء فخر الدين الذين انتقلوا الى رابية تشرف على نبع عنجر عند مدخل وادي القرن ، وكان ذلك في صيف ١٦٢٣ م .

ووصل الامير فخر الدين وكانت قوته تتألف من خمسة آلاف مقاتل بما في ذلك جنود حلفائه الشهابيين واهل الشوف والشيعة وغيرهم ، وقيادتهم منوطة به وبابنه الامير علي وبأخيه الامير يونس . أما الجيش العثماني فقد بلغ عدده اثني عشر الف جندي .

وفي المعركة مزق جيشُ الأمير الجيش العثماني شر ممزق ، وظـل يلاحقهم حتى ابواب دمشق . أما يونس حرفوش وعمر سيفا و كرد حمزه فقد نجوا بأنفسهم تاركين جندهم لرحمة القدر ووقع الوالي مصطفى باشا نفسه في الاسر ، بعـد ان طوقه الامير وحطم مقاومته ، وعندئذ أسرع إليه فخر الدين وطيب خاطره وأكرمه وأرسله الى قب الياس والحرس أمامه وخلفه « وأعاد اليـه ما نهب من متاعه .

وقدر الباشا نبل الامير وكرم اخلاقه فأباح له ارزاق الحرفوشيين وولاه البقاع واقسم له الايمان المغلظة بأنه سيق الى الحرب بضغط من كرد حمزه ، وطلب من الامير اعدام الاسرى ، ولكن فخر الدين اعتذر عن القيام بمثل هذا العمل الشائن .

وبعد ان فرغ الامير من معركة عنجر انصرف الى مهاجمة بعلبك واللبوة فاحتلهما قسراً وثبتهما تحت سلطته ، ومن ثم ارسل مصطفى باشا الى دمشق مكرماً بموكب رسمي بعد ان منحه هذا سنجقيات عجلون ونابلس واللجون وحوران وصفد فاقطعها الامير ولده حسين .

وبناء على اقتراح مصطفى باشا منح البـاب العالي سنة ١٦٢٤ م الامير فخر الدين لقب سلطان البر وامير عربستان .

وفي سنة ١٦٢٦م دخل الامير فخر الدين سلمية في سورية ثم استولى على حمص وحماه . وفي سنة ١٦٣١ م استولى على قلعة مصياف واخذ بلدة تدمر عنوة وبنى فيها

قلعة آل معن وامتد نفوذه الى حلب وانطاكية وبنى القلاع بالقرب منهما .

نهاية فخر الدين

جزع العثمانيون كثيراً من توسع امارة فخرالدين وهالهم ما رأوه من محبة الاهلين له وتفانيهم في خدمته ، الامر الذي يشكل خطراً كبيراً على الـدولة العثمانية وكيانها، فأصدر السلطان امراً الى احمد كوجك باشا بالتوجه الى لبنان على رأس جيش كبير للقبض على الامير المعني والاقتصاص منه وتقويض امارته .

وكان احمد كوجك صغير السن عندما اتصل بالامـير فخر الدين وتربى في كنفه . وما كاد يدرك طور الشباب حتى ولاه الامير جباية الاموال الاميرية في وادي التيم ، والظاهر انه طلب من الامير منصباً رفيعاً فلم يلب طلبه فحنق عليه وترك خدمته وسافر الى الاستانة حيث أصبح وزيراً . وعندما جزع الباب العالي من توسع امارة فخر الدين وكثرت الوشايات في البلاط ضده أيدها احمد كوجك بكل قواه .

ورأى فيه السلطان خير من ينفذ ارادته ، فولاه قيادة الحملة العسكرية البرية التي ارسلها لتتعقب الامير وتلقي القبض عليه ، وأردفها بحملة بحرية تتألف من اربعين بارجة كبيرة يقودهـا الاميرال جعفر باشا لسد منافذ الهرب امام فخر الدين .

وجمع احمد كوجك في دمشق جيشاً كبيراً بلغ عـدده اكثر من ثمانين الف مقاتل زحف بهم الى الجبل . وكان المطران جرجس الماروني صديق فخر الدين قد أرسل الى دولتي البابا وتوسكانا يطلب معونتهما فأعرضتا عنه ، وكانت الست نسب والدة الامير قد توفيت فحزن عليها كثيراً ، وأيقن ان الحظ قد خانه وان عليه ان يضرب بسهمه الاخير لعل القدر يكون الى جانبه ، فأرسل يستنهض همم رجاله فلبى نداءه المخلصون من آل شهاب وحبيش وخازن فوزعهم على قلاعه .

ووصل الاسطول العثماني الى صيدا فحاول الامير فخر الدين رشوة جعفر باشا فدفع له مبلغاً كبيراً من المال؛ وتظاهر هذا بالقبول ولكنه بعد ان تسلم قلعتي صيدا وبيروت واحتل صور نقض عهده وتابع الحرب ضد الامير .

وجاء الشتاء فتنفس فخر الدين الصعداء لأن الجيش العثماني تفرق وانسحب الى دمشق وعاد الاسطول الى قواعده . ولكن ما أن حل ربيع عام ١٦٣٤ م حتى عاد الجيش العثماني ليضغط على اللبنانيين ، والاسطول على المدن الساحلية ، فاستسلمت طرابلس والمرقب ووقع الامير حسين في قبضة قائد الاسطول ، وأسر الشيخ ابو نوفل الخازن وأقام احمد كوجك في قب الياس واعلن انه رضي بالامير منصور بدلاً من ابيه ، ولكنه ما كاد يستسلم حتى اسره وتابع نضاله ضد امير لبنان بمساعدة اليمنيين .

وجرت معركة كبرى قرب حاصبيا قتل فيها الامير علي بن الامير فخر الدين فأيقن هذا ان ساعته قد دنت فهرب الى قلعة نيحا الحصينة ، وكان قد وضع فيها نساءه وأولاده الصغار وزوجات حلفائه الشهابيين . وخان الامير أحد أعوانه فدل احمد باشا على مصدر مياه القلعة ، فلوثها بدماء الذبائح والاقذار ، ففر منها الامير ليلاً . وأوشك اليأس ان يدب الى قلب كوجك باشا لأن الشتاء قد حل ولم يقبض على الأمير ، ولكن احد المماليك أرشده الى مقر فخر الدين الجديد ، فذهب الى مغارة جزين وحاصره فيها وهدده بنسفها ان لم يستسلم ، فاضطر فخر الدين لتسليم نفسه فألقى القبض عليه وعلى أولاده وأعوانه في ١٠ كانون الاول سنة ١٦٣٤ م ، وقادهم احمد كوجك الى دمشق حيث اودعهم سجن القلعة ومنها ارسلوا الى الاستانة .

اما الامير يونس وولداه احمد وملحم فقد وقعوا اسرى بيد كوجك ايضاً ؛ ولكن الامير ملحم تمكن من الفرار فكان جزاء والده وأخيه القتل .

مقتل فخر الدين :

لما وصل فخر الدين الى الاستانة وقابل السلطان مراد الرابع وعرض أمامه حالة بلاده وبين له انه ما بنى القلاع وجمع الجنود الا لمناصرة السلطان وخدمة الدولة العلية ، وبين له بالأرقام انه كان يؤدي للدولة الأموال الأميرية في حينها ، حتى طابت له نفس السلطان واستقبله بمنتهى الحفاوة ووعده بإعادته الى أمارته بعد قضائه على العصاة الثائرين على السلطنة في الاناضول .

ولكن الثورة التي اشعلها الامير ملحم ابن الامير يونس في لبنان لاسترداد امارة عمه ، ورغبته في الثأر من اليمنيين الذين ساهموا في محاربة القيسيين وصلت اخبارها الى السلطان ، وكان خارج العاصمة ، فاستشاط غضباً وامر بقطع رؤوس زوجات الامير في دمشق وبإعدامه شنقاً هو وأولاده ، ونفذ فيهم الحكم في ١٣ نيسان ١٦٣٥ م وعرضت جثثهم ثلاثة ايام امام الجامع الجديد في الاستانة ، ولم يسلم من الموت الا ابنه الامير حسين نظراً لصغر سنه ، ولأن قائد الاسطول جعفر باشا الذي اسره عطف عليه وتبناه .

وهكذا انتهت حياة هذا البطل اللبناني الكبير الذي لعب دوراً عظيماً في تاريخ لبنان ، وزرع في قلوب اللبنانيين البذرة المثمرة في السعي دائماً وراء الاستقلال ، وكان السبب المباشر في النهضة العمرانية والاقتصادية ليس للبنان فحسب بل للشرق العربي بأجمعه ، وهذا ما سنبينه بعد لأي في الفصل الثامن .

الفصل السابع

المعنيون ونهاية حكمهم

١٦٣٥ — ١٦٩٧ م

الامير محلم :

لو عدنا الى الوراء بضعة أشهر لرأينا ان الأمير ملحم التجأ الى الدروز في حوران حيث وجد الحماية الكافية والعطف الأكيد ، في الوقت الذي عين فيه العثمانيون ، علي علم الدين اليمني المعروف بظلمه وعتوه اميراً على الجبل ، فعاث هذا في البلاد فساداً ونكل بأعوان المعنيين ونهب اموالهم وحرق ارزاقهم وقضى دفعة واحدة على التنوخيين في عبيه ، وكان يتناول طعامهم في وليمة أعدوها له في السراي .

ووصلت هذه الانباء الى الامير ملحم وهو مختبىء فيعرينه فخرج من عزلته والتف حوله القيسيون وحلفاء عمه ، فشخص بهم الى الشوف حيث نشبت بينه وبين علي علم الدين معركة طاحنة قرب مجدل المعوش ، دارت الدائرة في نهايتها على اليمنيين وفر علي علم الدين الى دمشق يستجير بواليها احمد كوجك ويوغر صدره فأخذ هذا يرسل التقرير تلو التقرير الى الاستانة مما سبب قتل الامير فخر الدين الثاني كما مر معنا .

أخلد الامير ملحم الى السكينة بعد مقتل عمه ، وأعاد احمد كوجك علي علم الدين الى الشوف ولكنه لم يستطع اشاعة الأمن في البلاد ، فعادت الحرب الى الاشتعال ثانية بينه وبين الامير ملحم . ورأى السلطان عندئذ ان عودة المعنيين الى الحكم هي خير ضمانة لاستتباب الأمن واداء الضرائب في حينها فرضي عن الامير ملحم وولاه حكم الشوف .

واستعان الامير ملحم بأعوان عمه في الحكم ، فاستدعى نادراً الخازن من توسكانا ، وكان قد لجأ اليها بعد نكبة الاميرفخرالدين وعينه حاكما على كسروان ومدبراً لشؤونه ، وأعاد الى حلفائه املاكهم التي اغتصبها منهم اليمنيون ووثق علاقاته بالشهابيين وتابع سياسة عمه فتحالف مع توسكانا .

معركة وادي القرن :

ولما اصبح بشير باشا والياً على الشام سنة ١٦٥٠ م اسرع الامير علي علم الدين لمقابلته وجدد شكواه على الامير ملحم وأعوانه الشهابيين مدعياً انهم ازاحوه بالقوة عن أمارته وانهم اغتصبوا أملاكه وأمواله ، فصدقه الباشا (لأنه قبض منه مالاً كثيراً) وتوجه معه على رأس جيش كبير الى البقاع .

ولما وصلت هذه الانباء الى الامير ملحم زحف بجنوده الى وادي القرن ، يرافقه الاميران قاسم وحسين الشهابيان . ولما التقى الفريقان اسفرت المعركة عن انحدار بشير باشا فتقهقر عائداً الى دمشق ، ونسب ذلك الى خيانة وجبن الامير علي علم الدين فزجه في سجن القلعة حيث بقي فيه حتى عزل الباشا سنة ١٦٥٤ م .

وجاء الوالي الجديد فارسل اليه الامير ملحم الهدايا النفيسة والأموالالغزيرة فرضي عنه وثبته في أمارته وأقطعه ولاية صفد ايضاً .

هجرة الجالية الفرنسية الى عكا وعودتها .

يروي السيد دارفيو، قنصل فرنسا في صيدا، ان المعاملة السيئة التي كان يلقاها الفرنسيون من قبل اسماعيل آغا حاكم صيدا سنة ١٦٥٨ م أجبرت القنصل على الهجرة مع الجالية الفرنسية من صيدا ليستقر في عكا الأمر الذي جعل اسماعيل آغا يحسب حساباً لما تجره عليه هذه الهجرة من خسارة مادية ، ولذلك طلب من الامير ملحم ان يتوجه على رأس قوة من جيشه لإعادة القنصل والجاليـــة بالقوة إذا أبوا ذلك . وكان الفرنسيون قد انزعجوا من مناخ عكا فبادروا الى العودة والتمركز في خانهم التجـــاري في صيدا (دارفيو ـ الجزء الأول ص ٢٨١) .

سياسة الامير ملحم ورفاقه :

سار الامير ملحم على المنهج نفسه الذي خططه الامير فخر الدين ، فتقرب من أبناء رعيته لايفرق بين مذهب ومذهب او منطقة ومنطقة ، فأحبه الأهلون وعاد الاستقرار والأمن يخيمان في أرجاء لبنان .

وفي صيف ١٦٥٨ م توجه الامير ملحم الى صفد لجباية الأموال المترتبة عليها فأصيب بمرض عضال في عكا . ونقل الى صيدا حيث وافته المنية في ١٦ ايلول سنه ١٦٥٨ م وحزن الشعب عليه كثيراً لعدله وحلمه وأخلاقه وأقام له ابناؤه مناحة كبيرة استمرت ثلاثة أشهر . وخلفه في الحـكم ولداه الاميران احمد وقرقماز اللذان أقاما الشيخ ابا نوفل الخازن كاخية لهما ...

الاميران احمد وقرقماز

تولى الاميران احمد وقرقماز الحـكم ، والنقمة على المستعمرين العثمانيين تستعر في صدريهما ، وهدفهما إعادة الامارة الى ما كانت عليه من قوة أيام فخر الدين ، الأمر الذي يكافحه العثمانيون بشتى الأساليب . ولذلك عمد العثمانيون الى تسليم

حكم بعض المناطق الى أشخاص يثقون بهم . فأناطوا حكم الشوف بالشيخ سرحال العماد، والمتن والغرب بمحمد ومنصور علم الدين وحكم صيدا بعلي باشا الدفتردار ، ولكن اللبنانيين رفضوا الانصياع لحكامهم الجدد فاضطر العثمانيون الى الانصياع لرغبة الجمهور فاعترفوا بأمارة الاميرين المطلقة على البلاد .

قسوة الوالي الدفتردار

يتحدث دارفيو عن والي صيدا الجـــديد علي باشا الدفتردار الذي فشل في اخراج القيسيين من معاقلهم في الجبال ، انه عمد الى الانتقام من الدروز المقيمين بجواره في الشوف بعمليات لئيمة ومجازر رهيبة ارتكبها بحقهم إذ يقول : « لقد حمل الدفتردار الحرب الى الدروز الذين ارسلوا له وفدين الأول مؤلف من ٦٠ رجلاً والثاني من ٤١ مع اعلامهم معلنين ولاءهم وطاعتهم للدولة . ولكن هذا انتقاماً منهم ومن أمرائهم القيسيين، أمر بذبحهم كالنعاج أمام باب السراي وترك جثثهم طيلة يومين في أماكنها وبعد ذلك أمر برميها في البحر بعد ان جز رؤوسها وملّحها ثم أمر بإرسالها الى الاستانة . وقلما كان يمر يوم دون ان يرى سكان صيدا بعض الرجال معلقين على أعواد المشانق أو مقطوعي الرؤوس أو موضوعين على الخوازيق ، ان في الشوارع أو على ابواب المدينة .

الوالي محمد باشا الالباني وحادثة مزبود

واثر استلام احمـد كوبرولي الصدارة العظمى سنة ١٦٦٢ م أمر بعزل علي باشا الدفتردار وعين بدلاً منه محمد باشا الارناؤوط الذي وعده بأن يرسل إليه برؤوس الامراء المعنيين .

ودخل الوالي الجديد صيدا دخول الفاتحين فاستقبل بالترحاب والاكرام وقد ظن به الاهلون خيراً . وأخذ يعمل بسرية تامة لتحقيق وعده للصدر الأعظم بالقضاء على المعنيين الذين كانوا بدورهم حذرين جداً يعتصمون بالجبال لا يتركونها خوفاً من الغدر بهم .

وتظاهر الوالي الألباني بالعطف على المعنيين ، فأرسل اليهم كتب الأمان مع التطمينات اللازمة وتجاوباً معه قام الامراء من جهتهم بالدخول في مفاوضته بواسطة رسل يثقون بهم دون ان يعمدوا الى مقابلته وجهاً لوجه .

مرّ على المفاوضات ستة اشهر مما دفع الاميرين الى مقابلة الوالي مقابلة كاخية الوالي في قرية مزبود على بعد فراسخ قليلة الى الشمال الشرقي من صيدا .

ويروي دارفيو في مذكراته : « ان الاميرين احمد وقرقماز وصلا الى مزبود في المساء على رأس ٥٠٠ رجل من اتباعهما . وكان الباشا قد انتقى حسن آغا الألباني لتحقيق مخططه في الغدر بهما وزوده بحاشية قوامها ٢٠ ضابطاً وأوعز إليهم ان يجهزوا على الاميرين بمجرد ان يمد الآغا يده الى سيفه .

وجرت المقابلة باستقبال حار ،وبعد انتناول القهوة الزعماء تفرق رجال المعنيين في الاماكن المجاورة للاستراحة .

وبعد ان عقدت الجلسة ودار الحديث حول موقف الاميرين من الدولة العليا وقف حسن آغا متظاهراً بفض الجلسة ثم امتشق حسامه وأهوى به على الامير قرقماز فقتله وهاجم احد ضباطه الامير احمد ، ولكنه في اللحظة ذاتها كان الشيخ حسن الخازن بن ابي قانصوه وحفيد ابي نوفل قد امتشق حسامه وأهوى به على رأس المهاجم فقتله ، وكان الامير احمد قد أصيب بجرح في عنقه ، فأمسك الشيخ الخازني الامير بيده اليسرى وشق بسيفه طريقاً له ولأميره بين المعتدين حتى وصلا الى خيلهما ، فانطلق به نحو الجبل . وهكذا نجح الخازني في انقاذ الأمير احمد الذي كثيراً ما كان يتحدث عن تلك المعركة ، منوهاًومعترفاً بجميل الخازني عليه .

أما حسن آغا فقد عاد مزهواً بخمرة نصره الغادر الى صيدا ، محدثاً بما قام به من عمل شائن ، فاستقبله الباشا معانقاً اياه بحرارة وقدم اليه الهدايا الثمينة

وأحيا مع ضباطه في تلك الليلة سهرة صاخبة شاركه فيها ابناء الجالية الفرنسية ، الذين جاءت وفودهم الى السراي تهنىء الوالي بالنصر على أعدائه ، لأن كراهية المعنيين كانت تأكل قلوبهم ، ويعود ذلك الى حقد القنصل الفرنسي على الأميرين المعنيين لأنهما كانا يقفان في وجه منافعه المادية .

وبعد يومين اجتاح الباشا بقواته قرى الجبل فأحرق الكثير منها وألقى القبض على عدد من الأسرى ثم عاد الى صيدا وقد علق على رأس رمح سار أمامه رأس الامير قرقماز مع خمسين رأس أخرى وسلم حكم الجبل الى آل علم الدين .

وتوارى الامير احمد عن الانظار حتى سنة ١٦٦٤ م ، فظهر لأول مرة بعد النكبة التي حلت به ، وفرح به قومه القيسيون وتألبوا حوله لمساعدته ، ونهض اليمنيون لشد أزر زعيمهم **محمد** علم الدين والتحم الفريقان في عدة معارك اشهرها معركة الغلغول قرب بيروت التي انهزم فيها اليمنيون وولوا الأدبار الى دمشق .

وعاد الامير احمد الى حكم الشوف وقد علمته التجارب ان يظل على صلة حسنة بالعثمانيين فكان يقدم لهم الضرائب في موعدها المقرر ويهدي ولاتهم الهدايا الفاخرة بين حين وآخر في الوقت الذي كان يقوم بإعادة الصلات التجارية والسياسية مع الأجانب الى سالف عصرها . وأرسل يستدعي الاميرين منصور وعلي الشهابيين من سورية فعين الأول أميراً على حاصبيا والثاني على راشيا .

السفير الفرنسي في صيدا :

بسط الفرنسيون حمايتهم على الموارنة في اواسط القرن السادس عشر وظل ملوكهم ، بموجب المعاهدة المعقودة بينهم وبين سلاطين آل عثمان، حتى ايام الملك لويس الرابع عشر ينشطون في إظهار حمايتهم لهم .

وفي سنة ١٦٧٤ م امر لويس الرابع عشر سفيره في الاستانة ان يتوجه الى الأراضي المقدسة للتبرك بها ، وان يعرج في طريقه على لبنان لاظهار محبته

ورعايته لشؤون الطائفة المارونية وان يقابل البطريرك الدويهي . وصل السفير المركيز دي نواتيل الى صيدا في ١ آذار سنة ١٦٧٤ م وحل في دار القنصلية ، وهناك كتب رسالة الى ابي نوفل الخازن منوهاً بفضله ومانحاً اياه السلطة لحماية المسيحيين في الجبل ، ومثبتاً اياه كقنصل لفرنسا في بيروت نيـــابة عن الملك الشمس لأنه جدير بتحمل المسؤولية .

ثم غادر السفير صيدا عن طريق البحر متوجهاً الى طرابلس ومنها صعد الى غابة الارز حيث استقبله البطريرك الدويهي مرحباً بقدومه ومقدماً اليه هدية متواضعة هي قطعة من خشب الارز نقشت عليها عبارة تدل على تعلق الموارنة بمثل الملك المسيحي الحقيقي ...

وسنة ١٦٨٠ م تزوج الامير موسى الشهابي ابنة الأمير احمد المعني فرزقا الامير حيدر الشهابي .

وفي عام ١٦٩٣ م عزل السلطان ،بتأثير من الباشاوات والرشوات،الامير احمد من حاكمية الشوف وعين مكانه الامير موسى علم الدين اليمـني الذي ظن ان الجو قد صفا له ، فأخذ يقسو على القيسيين ففروا الى وادي التيم حيث نظموا حملة قوية قادها الامير احمد المعني والاميران بشير ونجم الشهابيان وزحفوا على دير القمر ، ولما شعر الامير موسى علم الدين بقدومهم فر الى صيـــدا ولجأ الى واليها ارسلان باشا . ولكن هدايا الامير احمد النفيسة كانت قد سبقت الامير اليمني الى الوالي الذي طرده ، وثبت ابن معن في امارته .

نهاية المعنيين .

بعد هذه الحادثة استتب الامر للامير احمد ، ولكن حكمه لم يدم طويلا لأنه توفي في ١٥ ايلول سنة ١٦٩٧ م دون ان يترك وريثاً ذكراً ، فسعى الأمير حسين بن فخر الدين، الذي أصبح في الاستانة من أعظم رجالها نفوذاً وثقافة ،

لتعيين الامير حيدر بن الامير موسى شهاب اميراً على الجبل ، لأن والدته هي ابنة الامير احمـــد المعني وهو بحق وريث المعنيين الشرعي . وهكذا انتقلت الأمارة الى الشهابيين ، وانتهى عهد المعنيين في لبنان بعد ان حكموه مئة وثمانين سنة ونيف لعبوا خلالها دوراً كبيراً في تاريخه ، وأدّوا لوطنهم ولوحدة ابنائه أعظم الخدمات وأشرفها .

الفصل الثامن

الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية

خلال عهد الأمراء المعنيين

١٥٠٥ – ١٦٩٧ م

الامراء المعنيون وصيدا :

يروي البطريرك الدويهي في تاريخه الأزمنة : « ان في سنة ١٠٠٩هـ –١٦٠٠ ميلادية ، جاء باشا الشام في البحر وطلع الى مدينة صيدا فقابله الامير فخر الدين الثاني مقدماً له الهدايا والذخائر فطيب الباشا خاطره وكتب عليه ايالة صيدا مع أقاليمها وسكن الامير في صيدا » .

وكانت صيدا تشمل أقاليم جبل عامل وبشارة ومنطقتي صور وعكا وكلها كانت تحت حكم جده فخر الدين المعني الاول منذ سنة ١٥٠٥ م لم تنزع من المعنيين إلا مؤقتاً سنة ١٥٨٤ م اثر مقتل الامير قرقماز حين جعلت سنجقية فاستردها ابنه فخر الدين الثاني بعد تسع سنوات .

وكان المماليك قد دمروا ميناء صيدا بعد نزوح الصليبيين عنها وضموها الى بيروت وعهدوا بها الى امراء الغرب اللبنانيين ثم الى آل عساف .

ويقول الأب روجيه : « ان صيدا مدينة يعود الفضل في نهضتها الحالية الى

المعنيين . إذ كانت خراباً فرمموا قلعتها وأقاموا اسوارها » .

ومن المؤكد ان الامير فخر الدين المعني الكبير كان يقضي الصيف في دير القمر ويقضى بقية السنة في صيدا · وظل على هذا المنوال حتى سافر الى أوروبا ، ولما عاد منها اتخذ بيروت مقراً له وترك صيدا لابنه الاميرعلي، ولذلك لقبه كاتشياري سنة ١٦٠٥ م بصاحب صيدا ، وقال عن البلدة : « انها مدينة حصينة ولها ميناء صالحة للملاحة ولرسو السفن » .

اعمال فخر الدين العمرانية في صيدا :

ولأجل تحقيق المشاريع العمرانية في البلاد استدعى الامير فخر الدين عدداً من ذوي الاختصاص الأجانب من فلورنسيين وفرنسيين وأسكنهم صيدا وبيروت ، وقدم لهم كل المساعدات الممكنة التي تقدم حالياً للخبراء الأجانب . ومن أشهر اولئك الاختصاصيين : الطبيب الفلورنسي ماتيونالدي دي سييني ، والمهندسين كيولي وفايني والرسام الفرنسي سيليني .

ونال صيدا – التي اصبحت مقر الامير الشتوي – قسط كبير من الازدهار والعمران ، اذ يقول كوتوفيكس الذي زارها سنة ١٥٩٨ م ما يلي:

بعد ان كانت هذه المدينة – يعني مدينة صيدا – أشبه بالأطلال لا يسكنها الا شرذمة من المسلمين والدروز ، جمّلها فخر الدين كثيراً وجعلها عاصمة له وبنى فيها قصراً ليكون داراً للحكومة ، ويرتفع بناؤه اكثر من سائر ابنية المدينة بما فيها خان الافرنج إذ يطل على البحر ويشرف على اكثر أرجاء البلدة ويكشف أمامه برية صيدا . ولقد بنى هذا القصر على احسن طراز وامتنه ،وزينه بالرسوم والتصاوير العربية وأحاطه بحديقة أزهار جميلة وعلى ابواب حجراته وأعلاها نقش كتابات من الآيات القرآنية بحروف مذهبة قام بنقشها أحد الرسامين الفرنسيين ، وقد استخدمه فخر الدين مدة سنتين زرع خلالها خمسماية نوع من النباتات فأعطى الألوان المتنوعة الى الجذور والأوراق والأزهار والأثمار .

ولقد تهدم هذا القصر بإهمال الباشاوات العثمانيين له بعدئذ . وبنى الامير فخر الدين ايضاً في صيدا الخان الفخم الكبير المسمى بخان الإفرنج .

ويصف الشيفالييه دارفيو هذا الخان بقوله : « هو مبني بالحجارة ، طابقه الأرضي مقسم الى ردهات كبيرة واسعة مضيئة . وقسّم التجار هـذه الردهات الى عدة أقسام منها ما هو معد للبيع والشراء . ومنها ما هو مهيء للسكن ، وآخر للتخزين.

وفي الخان سلمان حجريان يقودان الى السطوح حيث كان التجار يصعدون للتنزه واستنشاق الهواء ورؤية البحر دون ان يخرجوا من الخـان ، والى الشمال يقع بيت القنصل الفرنسي وهو يشتمل على ست غرف واسعـة مربعة الشكل تغطي سقوفها الأخشاب الضخمة ، وكان الامير فخر الدين قد بناه ليكون مسكناً لنسائه ولكنه قدمه بعدئذ للفرنسيين ليكون مركزاً تجارياً لهم » .

وقام المهندس البناء فرنسيس فانيي ببناء جسر على نهر الأولي (لا يزال قائماً حتى الآن وتسير عليه السيارات الى بيروت بعد ان وسعته وزارة الاشغال سنة ١٩٦٣) بناء على رغبة الامير وقد وصفه دارفيو بقوله : « وقد بني هـذا الجسر على قنطرة واحدة بعرض ١٢ قدماً ، ويستند على حائطين متينين جداً أقيما على ضفتي النهر . وجرى الاحتفال بتدشينه بحضور الامير فخر الدين وقنصل توسكانا والمهندس فانيي . ولقد وضع الامير في أساسات الجسر قطعة من النقود المنقوش عليها رسم قوزما الثاني ، وقال الامير موجهاً خطابه الى القنصل : انني لا أجد اثمن من هذه القطعة التي تحمل صورة قوزما لوضعها في الأساس » .

الطرق التجارية :

وخلال الحكمين المملوكي والعثماني كان السكان يعمدون بشتى الوسائل الى إبعاد الطرق الرسمية عن قراهم تخوفاً مما يسببه مرور القوافل التجارية الخاضعة

لحماية الجنود ومراقبتهم في قراهم من مضايقات ومظالم وضرائب يرتكبها الجنود أثناء ذلك . ولكن فخر الدين وقد حقق الأمن والرخاء لشعبه والعدالة لهم وما أظهره من اهمية لمرور الطرقات التجارية في مناطقهم وما يجنونه من فوائد ومنافع مادية ومعنوية ، استطاع ادخال الطمأنينة الى قلوب ابناء رعيته فساهموا خلال حكم فخر الدين بايصال الطرق الى مناطقهم .

ولـكي يؤمن فخر الدين حماية الطرق التجارية ، فقد رمم الحصون وبنى مراكز للمراقبة والقلاع ، وكذلك الخانات لراحة التجار خلال قيامهم برحلاتهم التجارية داخل البلاد . وكان الخط الرئيسي هو الممتد من صيدا الى دمشق ماراً بعلمان فالجميلية فمجدلونا فالمغيرية فمزبود فشحيم فعانوت فعينبال فبيت الدين فدير القمر فالباروك فعين زحلتا فالمديرج ومنها الى دمشق .

وبالاضافة الى الطرقات الكثيرة التي أقامها في الداخل عمد الى تعبيد الطرق



صيدا ومرفأها في عهد فخر الدين الكبير

الساحلية التي امتدت من صيدا الى عكا ، وأقام الحصون في الممرات الضيقة منها كرأس الناقورة ، ومغارة الحمام في صفد ، وعبّد الطريق الساحلي الممتد شمالاً من صيدا ماراً ببيروت فطرابلس ، وكانت سهلة الممرات ما عدا نهر الدامور إذ لم يبن عليه جسراً ، حتى تدخل المراكب التوسكانية بصورة سرية الى تلك المنطقة ولتتصل به سريعاً .

ووسع فخرالدين مرفأ صيدا وجعله المرسى الرئيسي لأسطوله الحربي والتجاري وأخذت المراكب ترتاده حاملة اليه مختلف البضائع وناقلة منـــه كل المواد التي يصدرها الشرق بواسطة ميناء صيدا الذي استعاد ماضيه المجيد وعادت اليه حياة النشاط القديمة . حتى ان احد الرحالة الأجانب ذكر انه شاهد في ميناء صيدا وفي آن واحد من عام ١٦٣٣ م ثمانية مراكب ، تعود جميعها لتجار فرنسيين من مرسيليا ..

والتفت فخرالدين الى اصلاح قلعة صيدا البحرية فرممها وبنى فيها مسجـداً لا يزال قائماً حتى الآن كما بنى في صيدا المسجد الجامع الذي يطلق عليـه اسم جامع السراي ، ولا يزال المصلون يؤمونه الى يومنا هذا .

أما أشهر القلاع التي بناها فخر الدين في منطقة صيدا فيذكرهـا ماشنجي بقوله : « قلعة نيحا تبعد عن صيدا خمسة عشر ميلا . وهي في قلب البلاد واقعة على صخر علوه ثلاثمئة ذراع . حفرت في داخله مآوي العساكر والمخازن وغيرها من المنافع ، شاهدت فيها زهاء مئة جندي لديهم من المؤن ما يكفيهم اكثر من ثلاث سنين ، وفيها كثير من أثاث الأمير ، وهي منيعة وافرة الماء ليس فيها من البناء سوى السور . أما المدخل فثابت .

وقلعة الشقيف منتصبة على صخر شاهق مبنية بالحجر الأصم على شكل زاوية ارتفاعها اربعمئة ذراع ودائرتها اربعمئة وخمسون . لها ابراج مربعة تسع خمسمئة جندي وفيها من الزاد ما يفيض عن ثلاث سنين ، ناهيك عن صهاريج الماء وآبار

الزيت . وجدنا فيها من اثاث الامير الشيء الكثير والشائع انه اخفى فيها كمية كبيرة من المال . وهي من الخارج في غاية المناعة . وقد حفرت لها خنادق عميقة أمام المواقع السهلة المنال . وفي عرفي انه لا ينقصها سوى المدفعية ». (الخوري بولس قرألي — الامير فخر الدين ودولة توسكانا) .

الزراعة والصناعة

على أثر عودة الامير فخرالدين من منفاه استحضر المهندسين الاوربيين للتنقيب عن المياه ، كما استحضر ايضاً عدداً من المهندسين الزراعيين المختصين بالحدائق والبساتين وأعمال الري ، كما استعان ببعض الفلاحين التوسكانيين لتعليم اللبنانيين الفنون الزراعية المتبعة في ايطاليا ، وأتى هؤلاء ومعهم ابقارهم وأدوات حراثتهم وباشروا العمل فور وصولهم .

ووجه الامير اهتمامه الى تربية دودة الحرير ، فشجع الناس على غرس أشجار التوت حتى عمت زراعته معظم السواحل اللبنانية وفي طليعتها سهول صيدا . وأخذت صناعة الحرير تترقى حتى غدا الحرير اللبناني يشكل اعظم مورد للأمير (تقرير سانتي) اذ استهوى اصحاب المعامل في اوروبا فاشتروه بأغلى الأثمان وغدا في كل بيت لبناني نول لحياكة الحرير وتوشيته .

كما راجت صناعة الصابون في طرابلس ونابلس وصيـدا . واشتهرت صيدا ايضاً بنوع خاص مع بلدة برجا بالمنسوجات القطنية والحريرية . كما عادت صناعة الرماد (وهو بقايا اعشاب خاصة كان يجمعها الاهلون ويحرقونها ثم يبيعونها الى تجار أوروبا لصناعة الزجاج والصابون) الى سابق عهدها في صيدا وغيرها .

ويذكر التقرير الذي رفعه سانتي الى دوق توسكانا سنة ١٦٢٤ م عن واردات الامير فخر الدين السنوية التي يستوفي غالبيتها من صيدا ما يلي :

٨٠ الف قرش من الحرير والتوت

٣٠ الف قرش من القطن
٥٠ الف قرش من الخمر والزيت
٣٠ الف قرش من القمح والقطاني
١٥ الف قرش من المواشي
٢٠ الف قرش من الرسوم
٧٠ الف قرش من الضرائب
٢٩٥ الف قرش .

المجموع مئتان وخمسة وتسعون الف قرش . ولا يدخل في هذا الباب الرسوم الاضافية التي يفرضها الامير في بعض الأحيان ، وما يرد لبيته او لحاشيته من الهدايا . بل ان هذا ما يستوفيه بنفسه أو يبيعه من رعاياه .

التجارة

اختط الامير فخرالدين خطة جديدة لانعاش التجارة في بلاده ، إذ حمى التجار من القرصان بحراً واللصوص براً ، وسهل لهم النزول في موانىء لبنان وبنى لهم الخانات وعاملهم معاملة حسنة جداً فأتوا بأجمعهم الى الموانىء اللبنانية الخاضعة للامير وخصوصاً الى صيـــدا وسكنوا فيها ، وبعضهم استدعى افراد أسرته للاقامة الدائمة في ربوعها . وأخذت مراكب البندقية وجنوى وفلورنسا ومرسيليا وهولندا وانكلترا والدول الفلمنكية تؤم صيدا وبيروت ، فتشتري المحاصيل الزراعية والصناعية كالحرير والكتان والزيت والصابون والقطن والرماد والحبوب ، وتدفع الثمن نقوداً ذهبية ومعادن مفيدة واقمشة مختلفة وزجاجاً وفولاذاً .

وهذا التساهل التجاري من قبل الامير والمعاملة الطيبة ، دفعت الـــدول الغربية الى تعيين قناصل لها لدى الامير في صيدا ..

وتفصيلاً لبعض العلاقات التجارية مع اوروبا وخاصة دولة توسكانا وعلاقتها الماسة

بمدينة صيدا رأينا ونحن ندون تاريخها ان لا بد من ذكرها في هذا الباب فنقول :

تجارة صيدا مع توسكانا

في ربيع سنة ١٦٢٩ م وصل الى ميناء صيدا تاجر توسكاني يدعى باشيكالوپو وقد زودته الغراندوقة بكتاب توصية الى الامير ليسهل عليه شراء القمح في بلاده ، فاستقبله الامير بعطف وساعده في مهمته ، ثم سلمه رسالة لينقلهـا الى الغراندوقة وقد تضمنت اهم فقراتها ما يلي :

« تلقيت كتابك العزيز المؤرخ في ٢٥ كانون الثاني سنة ١٦٢٩ م فكان سروري عظيماً لأنه وارد من يدك الكريمة وطمأنني عن صحتك ... ولو جاء محصولي هذه السنة كالسنين السابقة لملأت المركبين دون ان اتقاضى غرشاً واحداً . بيد اني سمحت لصاحبها بشراء القمح من كل البلدان الخاضعة لي وحسمت له غرشاً عن كل غرارة (الغرارة اثنا عشر كيلاً ، والكيل ٣٦ رطلاً) وأعفيته من رسوم القنصلية . ولسموك ملء التصرف في مالي وأولادي وهم على اتم الاستعـــداد لخدمتك وتنفيذ كل أوامرك .

لقد سلمت رسولك قنطارين من الحرير الجيد في ثمان بالات (البـــالة وقتئذ تساوي مئة ليبرة فرنسية) ليقدمه لسموك . رجائي ان تقبليه وتتمتعي به حباً بي . لم أبعث بأكثر من هذه الهدية قيمة لإن الوقت غير ملائم . املي ان لا أبرح أبداً من ذهنك ، وأرجو أن تعيني هنا قنصلاً يشرف على تصـــدير محصولات بلادي الى توسكانا واستيراد البضائع من بلادك فيتاح لي ان اقف على أخبـــارك كلما وردت مراكب من عندك . »

خادم سموك المخلص
الامير فخر الدين
امير صيدا وكامل جبل لبنان

(الخوري بولس قرألي – الامير فخر الدين ودولة توسكانا) .

توالي وصول البعثات التجارية

وفي ١٣ تشرين الاول سنة ١٦٢٩ م التمس التاجر باشيكا لوپو من الغراندوقة ان توصي الامير فخر الدين بإبنه العائد الى لبنان للتجارة فلبت طلبه كما سلمت ايضاً توصية أخرى لتاجر انكليزي متوجـه الى لبنان بثلاثة مراكب تعود الى قنصل هولنـدا وقد جهزها في ليفرنو ليشحنها من بلاد الامير قمحاً وفولاً . وأرسلت اليه هدايا وطرائف من مصنوعات توسكانا له ولزوجته خاصكية .

وعهدت الى البارون دلاجر بتسليمه ايضاً علبة عقاقير جميلة مع كتاب تشكر فيه الامير لحمايته رعايا فرناندو الثاني ابنها ؛ فرد عليهـا الامير في ١٠ آذار سنة ١٦٣٠م مؤكداً لها :«ان ذكرى قزما الثاني زوجها تحيا في قلبه وحياته كلها مقرونة بالرغبة الصادقة في خدمتها وخدمة ولدها » . وكلف الامير البارون السعي ، لتعيين شخص في صيدا يشرف على التجارة بين البلدين ويسهل عليـه مبادلتها الرسائل وتلبية رغباتها ، وأوصاها ان توعز الى ربابنة المراكب التوسكانية المتوجهة الى بلاده ان ترفع الراية الفرنسية على قلوعها لأسباب أوضحها للبارون .

وهذه المعاملة الممتازة شجعت البلاط التوسكاني على شحن خمسة مراكب من مصنوعات بلاده الى لبنان ، وتعيين قنصل دائم يقيم في صيدا ويشرف على مصالح الدولة التوسكانية — التجارية والسياسية —

واستعمل البلاط التوسكاني عملة جديدة — ربع دوقة — رسم عليهـا رسم العراندوقة بناء على نصيحة تلقاها من احد التجار في صيدا لنقائها ؛ وكانت كل ٣ قطع منها تعادل ثمانية ريالات اسبانية ، وشحن منها الى صيدا ٣٠٣٣٠ قطعة في اربعة صناديق، ومن الريالات الاسبانية من فئة ثمانية واربعة فرنكات ، ثلاثة عشر صندوقاً تحتوي على ٣٢٤٣٢ قطعة ، وبلغت قيمة النقود المشحونة الى لبنان عن طريق صيدا ٣٤٩٤٥ سكوتاً وأضيف الى هذه الإرسالية كميات من الأجواخ

اللامعة المصقولة والمزهـرة وأخرى من تقليد مصنوعات البندقية وبعض أثواب من المخمل الملون والشيت التوسكاني وارفق المركب بغليونين مسلحين للدفاع عنه .

وانتدب البلاط تاجراً يدعى يوحنا ميتشيري ، ليتولى تصريف هذه البضائع والنقود وشحن المراكب في عودتها بالمحاصيل اللبنانيـــة . وعين في صيدا قنصلاً توسكانياً يدعى القائد فرنسيس دي فرانسانو ، وكان قديماً في أسر الأمير ومن حاشيتـــه ويعرف لغة البلاد وعاداتها . وقدم البارون دلاجر بعض الهدايا الى الأمير وولده وحاشيته وعين معاوناً له السيد فرنسيس ليونشيني .

وزودت العراندونة القنصل بكتاب توصية الى الامير فخر الدين مؤرخ في ٢٤ ايلول سنة ١٦٣٠ م، وبآخر الى ولده الامير علي حاكم صيدا .

الفصل التاسع

نشاط صيدا الاقتصادي

- تتمة -

البعثة في صيدا

وصلت البعثة التوسكانية الى صيدا في ١٦ كانون الاول سنة ١٦٣٠ م. وفي ٢٥ منه كتب القنصل في صيدا رسالة الى الغراندوقة تعريبها كما يلي :

« بلغنا صيدا في السادس عشر من هذا الشهر متمتعين بصحة تامة ، ولما أخبر البارون الامير علياً بوصولي وبمهمتي انفذ ابراهيم نحمياس امينه ووكيل والده ليقرئني السلام ويهنئني بسلامة الوصول . وفي صباح اليوم التالي عاد المذكور فأخرجني من المركب ورافقني حتى قصر الامير حيث أعد لسكني جناح خاص. وبعد الغداء دعاني ابراهيم لتقديم واجباتي للامير ، وهو إذ شاهدني نهض من مكانه وأقبل علي يعانقني بظاهر الوداد . وسألني عن سموك وعن الغراندوق . ولما طمأنته عنكما أظهر الارتياح كله الى هذه البشرى وأمرني بالجلوس وتحدث إليّ بامور شتى . ثم أفهمني انه سيرسل إلي بعد حين بخلعة كان يود لو وضعها هو بنفسه على منكبي لولا خوفه من شكوك الحاضرين .

ولما شكرت له هذه المنحة التي لا استحقها اجابني : « انها لا تذكر بجانب ما لسموك من الأفضال على والده . وان بلاده بأسرها مستعدة لخدمتك » .

ولما عدت الى غرفتي ، أدركني ابراهيم نحمياس حاملاً الخلعة وهم ان يلبسنيها فمانعته. ولكنه أصر بقوله : « هذه أوامر سيدي ». فارتديتها بحضور البارون وميتشيري وفي نفس الوقت أوفد الأمير فخر الدين احد كبار المسيحيين وهو أبو نادر الخازن – حاكم بيروت وكاتم اسرار الامير الأكبر – فاعتذر بلسانه : « انه لم يأت بنفسه لاستقبالي مع ما يكنه من الاعتبار إذ ان مهاماً حربية تضطره الى ملازمة عسكره في بعلبك » .

الهدايا المتبادلة مع توسكانا :

وفي ٢٤ آذار ١٦٣١ م بوشر بشحن مراكب الغراندوق : ثلاثة منها وسقت قمحاً ؛ والرابع أرزاً ؛ والخامس نصفه قمحاً ونصفه أرزاً وقد ملئت جميعها في مرفأ صيدا .

وارسل الامير علي رسالة في ٢٧ آذار الى الغراندوقة وأخرى الى الغراندوق شاكراً لهما هديتهما كما انه يهدي الغراندوق جواداً مطهماً بعدة شرقية راجياً قبوله والتمتع به حباً به (وكانت عدة الحصان فخمة ثمينة مرصعة بالفيروز وغيره من الاحجار الكريمة . اما الحدائد من ركابات ولجام وغيرها فمصوغة بالفضة المطلية ذهباً . وكانت يد الدبوس من العاج المطعم بالذهب ومقبضه من البللور الثمين) .

وقد وقع الامير الرسالة كما يلي :

الامير علي بن الامير فخر الدين

امير صيدا والجليل

وارسل القنصل التوسكاني رسالة مطولة بتاريخ ٢٦ آذار الى امين سر الغراندوق يبشره فيها ان المراكب اصبحت جاهزة للسفر بعد ان مكثت في صيدا ثلاثة اشهر ونصف الشهر . واخبره انه بعد وصوله تلقى ثلاث مرات دعوات من الامير علي لمقابلته. ويذكر القنصل سوء سلوك ميتشيري وبورشكوتي وسعة صدر الامير نحوهما ارضاء للغراندوق .

ونوه القنصل في رسالته ايضاً ان قنصل فرنسا في صيدا ادعى بحقه في رسوم المراكب التوسكانية ولكن ابراهيم نحمياس بناء على امر من الامير علي اجابه : « ما دام الغراندوق قد عين له في هذه المدينة قنصلا خاصاً فله وحده الحق في هذه الرسوم ». الامر الذي حمل القنصل الفرنسي لرفع شكواه الى وزير مملكته.

ودهش البلاط التوسكاني لهدايا الامير الفاخرة فبادله بنفائس البلاد ، إذ أرسلت الغراندوقة للأمير ثلاثة قوارب من فضة بشكل القدور مع أغطيتها ومصفاة ومغرفة وعطارة من ذات المعدن وحنجوري ترياق وذهب سائل وارفقتها بثوبين قرمزيين صنعا من الحرير اللبناني الذي اهداه الامير فخر الدين لها.

وارسلت الى ولده الامير علي مدفئتين من فضة والى ابراهيم نحمياس شمعدانين واثني عشرة ملعقة من المعدن ذاته . وارسلت ايضاً صندوقاً من الاواني الكنسية لمعبد القنصلية في صيدا ، وكان يخدم فيه الآباء الفرنسيسكان . وأهدى الغراندوق الى فخر الدين قارباً كبيراً للطعام وكأسين وقدحاً وابريقاً لغسل اليدين كلها من الفضة المطلية ذهباً . وارفقها بعلبة تحتوي حربات صغيرة للفصد وبثلاث علب من النظارات فضلا عن منظار كبير لرؤية الابعاد .

وأهدى الى ولده الامير علي قفة للخبز من الفضة ومملحة واربع كاسات وثلاثة زوارق للطعام وقدحاً وابريقين للشرب فضلا عن ابريق للخل والزيت ومملحة وملعقتين وشوكة وسكين ومسواك لتنظيف الاسنان . وكلها مصنوعة من الفضة المطلية ذهباً . وأضاف اليها قارباً كبيراً للثلج واناء للتبريد وخيمة من الحرير وشطرنجاً من الآبنوس وطاولة لعب ازهارها وحجارتها من الكهرمان ونظارة على طريقة جليليو وكمية من الالعاب البيتية .

كما اهدت الارشيدووقة الى الامير فخر الدين كرة كبيرة من الرخام المطعم مركزة على قاعدة من الآبنوس ومائدة عليها رسوم مدن وقصور وحصون وما شابه ذلك وصندوقاً صغيراً من الرخام يحتوي على عقاقير ثمينة مختلفة الأصناف

خارجة من مصنع الغراندوق ، ومكتباً من الرخام بادراج ظاهرة ومخفية ملأى بطرائف توسكانية من زهور حريرية بالوانها الطبيعية وكفوف وعطور تحرق في الغرفة واكياس نقود من ذهب وحرير وعلب لحفظ المجوهرات .

وكتبت الغراندوقة الى فخر الدين تشكر له هـديته الكبيرة من الحرير وتعترف بعجزها عن مجاراته في ميدان الكرم نظراً للوباء الذي يفتك منذ سنة بالبلاد التوسكانية .

وكانت ثقة الامير فخر الدين بالغراندوقة جدة فرناندو الثاني عظيمة جداً وله عليها دالة الولد على والدته ولذلك رجاها ان تهتم باشغاله . وامر مندوبيه ان يتقيدوا باذنها وباوامرها . وخوفاً من ان يأتي هذا التخصيص ماساً بشعور الغراندوق حفيدها والارشيدوقة كنتها فقد وجه في ٨ تشرين الثاني ١٦٣١ م كتاباً الى الثلاثة معاً يخبرهم فيه انه سلم قنصلهم في صيدا اثنين وعشرين قنطاراً من الحرير الابيض البيروتي ليتولى شحنها الى ليفورنو .

وكتب حافظ الاراضي المقدسة الفرنسيسكاني للغراندوقة كتاب شكر على تبرعها بالأواني الكنسية لمعبد القنصلية في صيدا ، ويخبرها ان العثمانيين طردوه من القدس وادعى ان المرسلين اليسوعيين ما دخلوها إلا لينزعوا الولاية على هذه الاماكن من رهبانيته ويختصوا بها .

وفي ٣٠ تشرين الثاني ١٦٣١ م كتب القنصل دي فراتسانو الى الغراندوقة رسالة ذكر فيها : « ان حافظ الاراضي المقدسة في القدس النازل علي ضيفاً في صيدا ، كان اول من ارتدى الثياب الكنسية التي تبرعت بها لمعبد القنصلية في صيدا وقد اصدر اوامره الى اديار القدس وبيت لحم والناصرة واماكن غيرها ان يقدموا الصلوات على نية سموك .

شكوى القنصل الفرنسي :

لم يسر القنصل الفرنسي في صيدا — تاركيز — من تعيين قنصل يرجع اليه



اميرات درزيات من ضواحي صيدا ايام الفخرين

الرعايا التوسكانيون بعد ان كان هو مرجعهم الرسمي . فكتب في ٢٧ كانون الاول ١٦٣١ م الى الكردينال ريشيليو وزير الملك لويس الثالث عشر الفرنسي ما تعريبه :

« ومع اني حينما اقلعت من مرسيليا قاصداً الشرق لم اتلق من جلالته امراً بتعاطي السياسة في هذه الانحاء رأيت من واجبي اطلاع سيـــادتك على بعض حوادث وقفت عليها اعتقاداً مني انك ترتاح لمعرفتهـا ، وخوفاً من التقصير في واجبي اذا كتمت عن سيادتك ما يجري بين الامير فخر الدين وبعض الامراء المسيحيين من الامور التي تخالف افـكار جلالته ، فأبدي لسيـادتك : اني لما وجدت هذا الامير يميل الى الغراندوق ويبادله بارتياح هدايا ثمينة ويتقبل منه الذخائر الحربية خطر لي ان استفيد مما لي عليه من الدالة ، فأخذت ابين له اهمية صداقة جلالته وما يملكه من القوات الحربية وتدرجت الى القول : اذا كان بحاجة الى مساعدة ، فجلالة مليكنا يرتاح كثيراً الى فرصة يثبت له فيها رغبته في خدمته ، بيد ان الامير كان يجيبني : « انه على استعداد لخدمة جلالته » . ولا يزيد على ذلك ، الامر الذي ادهشني لأنه كان قد كلفني مراراً وفي اوقات حرجة مرت به السعي لنيل مساعدة جلالته . واكد لي بعضهم ان الغراندوق لايتعاطى هذه الامور وحده بل ان ملك اسبانيا والامبراطور النمساوي وقداسة البابا يؤيدونه في هذه السياسة . ولعل الامير بعد ان سمع بالاضطرابات التي تتخبط بها فرنسا ورأى اتحاد هؤلاء ، مال الى العمل معهم متخذاً اقرب السبل للوصول الى هدفه .

وقد عين الغراندوق في هذه المدينة (صيدا) بالأتفاق مع الامير قنصلا للفلورنسيين فأخذ يتقاضى رسوم المراكب القادمة من ليفورنو للمتاجرة في هذه الانحاء الامر الذي جاء مخالفاً لبنود المعاهدة بين جلالة مليكنا والسلطان ، ويعود بالخسارة على موارد القنصلية ويحرمها حقوقها . واني اترك لفطنة سيادتك ملافاة هذا الضرر وعمل ماتراه موافقاً » .

تقارير قنصل توسكانا عن النشاط الاقتصادي والعمراني .

والتقرير الذي رفعه القنصل التوسكاني في صيدا الى الغراندوق والمؤرخ في١٣ شباط سنة ١٦٣٢ م يتحدث عن سلوك المندوبين التجاريين التوسكانيين السيء في صيدا ، بالرغم من عطف الامير على مصالح الغراندوق ومصالح رعاياه كما يتحدث عن أسعار القمح فيقول : « اسعار القمح واقفة على ٢٥ غرشاً الغرارة في عكا ، وبين ثمانية عشر وعشرين قرشاً في صيدا ، بيد انك لاتجد مشترياً بهذه الأسعار لأن المساحة المزروعة قمحاً هذه السنة هي ضعف ما كانت عليه في السنة المنصرمة والزرع بحالة جيدة والجو ملائم له مما يبشر بإذن الله بمحصول وافر » .

وفي ٣ نيسان ١٦٣٢ م كتب القنصل التوسكاني الى ديموورجو يخبره عن زراعة القمح واسعاره ويزيد : « الامير فخر الدين يقيم الآن في صيدا لوفاة كنته جهان بنت الأمير علي شهاب صاحب وادي التيم التي زفت الى الامير علي معن سنة ١٦١٦ م . وقد بكتها المدينة كلها نظراً لما تحلت به من المزايا ويندبها الامير علناً لشدة حزنه عليها كما خلد ذكراها باقامة سبيل عن روحها بناه في مدينة بيروت .

ويقول ايضاً : « لقد فرغت الاسواق هنا من الجوخ والمخمل وجميع الاقمشة الحريرية والطلبات من دمشق عليها ، ترد الينا يومياً ولا سبيل الى تلبيتها . وقد يباع الذراع من الاقمشه القرمزية بخمسة عشر قرشاً . ويشير القنصل في هذه الرسالة ان تضرب الغراندوقة كمية من نقود ثلث القرش كالتي ارسلتها اخيراً مع مندوبها ميتشيري ، وان تعهد اليه بتصريفها في اسكلة صيدا . وهو يعاهدها على تصريف مئة الف قطعة منها سنوياً لدى التجار الفرنسيين القاصدين الى هذه الاسكلة لأنهم يفضلون شراءها في صيدا على استجلابها من لورينا الى ليفورنو ، فتصيب منها ارباحاً لا تقل عن ٢٥ ٪ تخصصه بحصة منها . وكتب لها ايضاً لائحة بالمنتوجات اللبنانية والتوسكانية التي تروج في البلدين وسألها ان تشحن الى

صيدا كمية من البضائع وهو يعاهدها ان يشحن المراكب التي تحملها اليه بما يعادلها من المنتوجات اللبنانية والسورية .

ويذكر القنصل بين البضائع التي يحسن تصديرها من صيدا الى ايطاليا: الكتان والقطن المغزول وغير المغزول والزبيب والعفص (للحبر والالوان) والحرير الابيض والاصفر والخشن (أي مسلوبة الحرير) والصوف القبرصي والزاج الدمشقي واللفق الحريري ونصف الحريري ، والارز والقمح والكتان الازرق والابيض والخشن والصابون والرماد والصمغ العربي .

وبين البضائع التي يحسن تصديرها الى صيدا خيوط القصب الذهبية والفضية والاجواخ والمخمل على اختلاف انواعها الخارجة من مصانع البندقية ، وبراتو ، وامبولي والحرائر وورق الكتابة على انواعه وقياساته بين خشن وناعم والأقداح البللورية والزجاجية من ذوات القواعد وعيون النوافذ الزجاجية والبللورية على مختلف انواعها وألوانها من صفراء وحمراء وزرقاء ، والمرايا والاباريق والشماعدين والصحون القيشاني والفخار والكاسات والقوالب والبرادات والمقالي والقدور وحب المرجان المصقول للمسابح ، وانواع العطارات من قرنفل وجنزبيل وجوز الطيب وفلفل وأزرار النحاس المذهبة وشرائط الحرير المذهبة والفضية وقضبان الفولاذ والمسامير على مختلف قياساتها وحلقات الشي والمقصات وامواس الحلاقة والسكاكين ومطافىء الشمع والاجراس الصغيرة والقبعات الحمراء والاسبيذاج .

الحركة الفكرية

لم يكن الامير فخر الدين المعني الثاني مثقفاً كجده الامير فخر الدين الاول ولكنه كان يحسن القراءة والكتابة أضف الى ذلك ذكاء وقاداً وميلاً فطرياً في اعماقه نحو العلم والعلماء ، ولذا شجع بتسامحه الديني جمع الطوائف على الانكباب على تلقي العلوم ،كما حمل الارساليات الاجنبية على المجيء الى لبنان لفتح المدارس في ربوعه وتعليم ابنائه ، وكانت طليعة الارساليات الدينية الآباء الكبوشيون

ثم الفرنسيسكان فاليسوعيون . وقد تمركزت جميعها لأول وهلة في صيدا ثم انطلقت منها الى بقية المدن المجاورة .

وعندما انشأ البابا غريغوريوس الثالث عشر مدرسته في روما لتثقيف رجال الدين الموارنة اغتنم الامير هذه الفرصة وأوفد اليها عشرات الطلاب لتلقي العلم فيها . ونبغ منهم عدد كبير خدموا العلم والادب والدين خدمات جلى بما جمعوه من مخطوطات شرقية وبما ألفوه من كتب او نقلوه الى اللغة العربية ، ومن اشهرهم :

١ – الأب جبرائيل الصهيوني الذي كان يتقن عشر لغات فانتدبه لويس الثالث عشر ملك فرنسا ليكون استاذاً للغات الشرقية في جامعة السوربون .

٢ – ابراهيم الحاقلاني وقد اشترك مع الصهيوني بتصحيح ترجمة الكتاب المقدس .

٣ – البطريرك الماروني المؤرخ اسطفان الدويهي .

٤ – يوسف السمعاني العالم الكبير الذي ترك عند وفاته مئة مجلد في مختلف العلوم الشرقية .

ومما يجدر ذكره ان في عهد الأمير فخر الدين ، أي في سنة ١٦١٠ م دخلت أول مطبعة الى الشرق واستقرت في دير قزحيا .فكانت نقطة انطلاق حضاري من العصر المظلم السابق .

الجيش الوطني

كان الجيش مؤلفاً من اللبنانيين وخاصة من الموارنة والدروز . وذكر الدويهي والخالدي ان في صفوف هذا الجيش فرقتين من شيعيي الجنوب والبقاع ، وفي سنة ١٦٢٧ م أضيفت الى الجيش فرقة أخرى من الروم ، وكانت هذه الفرق تحارب تحت ألوية امرائها ومقدميها ومشايخها ويخضع قوادها لأوامر القيادة

العامة التي كان يتولاها الامير أو ابنه الأمير علي وأحياناً اخوه الامير يونس . وفي آخر عهده عيّن الامير فخر الدين ابا نادر الخازن قائداً عاماً لجيشه .

وكان الامير ضناً بحياة مواطنيه وعملهم في الزراعة والصناعة ، يستأجر جنوداً من السكمان العاصين على الدولة فيبقيهم تحت السلاح درءاً للطوارىء وحفظاً للامن والحدود والقلاع . وكان الامير فضلاً عن هؤلاء يستخدم من يقصده من المرتزقة .

وفي حملاته الكبيرة كان الامير يستنجد بحلفائه ،كآل شهاب وآل حرفوش وقبائل البدو في عجلون وحوران ، كما كان يعتمد على شيعيي بلاد بشاره وجبيل الذين حاربوا الى جانبه في معركة نهر الكلب سنة ١٥٩٨ م وقاتلوا معه ايضاً سنة ١٦٢٣ م على عين عنجر بني مذهبهم من آل حرفوش ، مما يدلنا على ان الروح الوطنية التي خلفها الامير في صدور اللبنانيين تغلبت على روح التعصب المذهبي . وكان جميع حلفاء الامير مدينين له بمراكزهم ، وبعضهم بحياته ،وكثيراً ما ضحى في سبيلهم براحته وماله وجازف أحياناً بملكه وحياته ...

أما عدد جيش الامير فكان يختلف حسب ازدياد ولاياته . إذ انه حين اقلع الى ايطاليا كان جيشه يعد ٢٠ الفاً وبلغ في أواخر ايامه مئة الف جندي .

ووصف سانتي جيش الامير في تقريره سنة ١٦١٤ بقوله : « ان قوة جيش الامير تعود ليس الى وفرة الجنود ودربتهم بل الى بسالة الامير وما اكتسبه في حروبه العديدة من الخبرة فضلاً عن بأس شعبه وجبن مجاوريه . فالمشاة يلبسون خفيفاً ويحملون البنادق والسيوف العريضة النصال يمشون خلف العلم بلا ترتيب ويحاربون بلا نظام ، أما الفارس فيلبس ثقيلا ويلتحف بجبة واسعة ويحمل البندقية ذات القداحة لأن ليس لديه غيرها أو بارودة هندية طول قصبتها ستة اقدام خفيفة ومتينة وفي رأسها سن من حديد ، يعلق السيف في جنبه والدبوس في السرج ويمسك ترساً يقيه الضربات ، والفرسان يمتطون الخيول العربية الغالية

الثمن ، الصبورة على التعب ، السريعة الجري ، ومع ان طعامها الحشيش وحفنة من الشعير فهي تعمل النهار كله بلا كلل ولا ملل . يسيرون جماعات بلا بوق ، ويحاربون افراداً بين كر وفر وكل الامرمتوقف على سرعة الجواد وخفة حركاته .

واذا عسكروا لا يحفرون الخنادق ولا ينشرون خيمة أو شيئاً آخر يقيهم لفحات الشمس المحرقة او لسعات البرد وتهطال الامطار . حتى انهم لايستخدمون القش اتقاء للرطوبة . عندهم من الحيوانات لحمل الاثقال وجر المدافع عدد وافر. يحمل كل جندي على كتفه زاد ثلاثة أو أربعة ايام ، وعليه ان يقتني من ماله ما يلزمه من السلاح .



مظهر من مظاهر الوحدة الوطنية في عهد فخر الدين الكبير
منارة كنيسة اليسوعيين ومئذنة مسجد باب السراي تلتقيان

الحقبة الرابعة

صيدا من سنة ١٦٦٠ م. الى سنة ١٩١٤

من عهد الشهابيين الى بداية الحرب العالمية الاولى

الفصل الأول

صيدا والشهابيون

صيدا مركز ولاية جديدة :

صدرت الأوامر السلطانية بإحداث ولاية جديدة في السلطنة العثمانية سنة ١٠٧٢ هـ — ١٦٦٠ م اطلق عليها اسم ولاية صيـــدا ، وكان أول من تعين والياً عليها هو محمد باشا الأرناؤوط .

وهدف الدولة العثمانية من خلق هذه الولاية الجديدة هو مراقبة أعمـــال الأمراء اللبنانيين عن كثب وسحق كل فكرة أو مسعى تحرري يقوم به الشعب اللبناني وزعماؤه ...

ولم يمضِ العام الأول على تسلم الأرناؤوط أمور الولاية حتى عزل وتعين مكانه علي باشا الدفتردار الذي ظل على ادارتها حتى عام ١٠٧٣ هـ — ١٦٦٤ م فتولاها ثانية محمد باشا الأرناؤوط الجد الأعلى لأسرة ارناؤوط المنتشرة في مدن صيدا ودمشق وحمص .

وفي عام ١٠٨٦ هـ—١٦٧٥ م تولى ايالة صيدا اسماعيل باشا ثم خليل بن كيوان في عام ١٠٩٠ هـ ١٦٧٩ م الذي ارتكب في صيدا من المظالم والموبقات... الشيء الكثير ولذا عزل عنها سنة ١٠٩٢ — ١٦٨١ م فتولاها احمد باشا التفتجي الذي عزل عنها سنة ١٠٩٥ هـ — ١٦٨٣ م فتولاها بعد ذلك مصطفى باشا الذي في ايامه

كذلك مفتي صيدا الشيخ قاسم بن الشيخ زين الدين بن الشيخ محمد الحاوي ومعه قاضي صيدا ونقيب اشرافها لتحرير وجرد مخلفات الأمير ؛ ولما احصوها بلغت ٥٥ الفاً .

الامراء الشهابيون

وكان اعيان لبنان قد اجتمعوا ليختاروا اميراً عليهم فأجمعوا على انتخاب الامير بشير بن الامير حسن امير راشيا لأنه ابن شقيقة الامير احمـد المعني ، ثم توجهوا الى راشيا ودعوا الامير بشير ليتولى الأمارة فسار معهم ، وعين مكانه على راشيا ابن اخته الامير منصور . وعرضوا بعـدئذ الامر على مصطفى باشا والي صيدا وتعهدوا له بتسديد الاموال المستحقة على الامير احمد المعني راجـين رفع اقتراحهم إلى الباب العالي لنيل موافقته .

وقدم الامير بشير الى فضلي آغا وإلى اعيان صيدا المكافآت ، كما ارسل بواسطتهم الى والي صيدا افخر الهدايا وانفسها فقبلها ، واطلق يد الامير بشير في كل ما كان تحت يد آل معن من الولايات ثم رفع الامر الى الاستانة . ولكن الباب العالي كان قد اصدر امره بتعيين ارسلان باشا المطرجي والياً على صيدا سنة ١١١٠هـ=١٦٩٨م ، ونقل مصطفى باشا الى مصر كما ارسل كتاباً يعين فيه الامير حيدر بن موسى الشهابي حاكماً على الجبل لأنه ابن بنت الأمير احمد المعني وهو وريثه الحقيقي ، ونظراً لصغر سنه فقد تعين الامير بشير الشهابي المذكور وصياً عليه ريثما يبلغ سن الرشد فيتسلم الولايات والاقطاع والعقارات . تم هذا الاجراء بتأثير الامير حسين بن الامير فخر الدين المقيم في الاستانة .

وكانت صـــلات الامير بشير حسنة مع ارسلان باشا ولذلك اطلق يده في الامارة ، لا سيما وان الامير حيدر كان عمره وقتئذ ١٢ سنة فقط .

موقعة المزيرعة .

وفي السنة نفسها اعلن ابن علي الصغير صاحب ديار بشارة العصيان على

ارسلان باشا والي صيدا ، فاستنجد هذا بالامير بشير ومنحه حكم ولاية صفد ومقاطعات جبل عامل الثلاث ، وهي ديار بشارة ، واقليمي الشومر والتفاح ، والشقيف . فأسرع الامير بشير الى قتال العصاة فالتقى بهم في قرية المزيرعة وهزمهم شرهزيمة والقى القبض على مشرف بن علي الصغير واخيه الحاج محمد ومدبرهما الشيخ حسن المرجى وارسل الجميع الى ارسلان باشا في صيدا الذي امر بقتل حسين المرجى ووضع مشرف ومحمد في السجن .

وفي سنة ١١١٢ هـ — ١٧٠٠ م ، تعين على صيدا قبلان باشا المطرجي شقيق ارسلان باشا بعد ان كان والياً على طرابلس .

وفاة الامير بشير الاول

وتوجه الامير بشير في اواخر صيف سنة ١١١٧ هـ — ١٧٠٥ م الى بلاد بشارة وصفد لجمع الأموال السلطانية فجعل طريقه على حاصبيا فأضافه الامير نجم . وقيل ان الامير حيدر دس له السم في بعض الحلوى حتى يتسلم امارته لأنه ادرك سن الرشد . وقام الأمير بشير من حاصبيا مسموماً فأدرك صفد وتوفي فيها فحمله اتباعه الى صيدا حيث دفن بمجالي الاكرام في مقبرة آل معن.

صيدا والامير حيدر الشهابي

وعلى أثر وفاة الامير بشير اجتمع وجوه الشوف وتوجهوا الى حاصبيا فزفوا الامارة الى الامير حيدر بن الاميرموسى الشهابي وكان عمره وقتئذ ٢١ سنة فسار معهم الى دير القمر حيث استلم مقاليد الحكم .

وصدر امر الباب العالي بعزل ارسلان باشا والي صيدا (الذي عين عليها مجدداً) سنة ١٧٠٣ وتعيين بشير باشا عليها ، وما ان وصل هذا الى صفد حتى اصدر امراً بنزع مقاطعات صفد وجبل عامل من امارة الشوف والحاقها بايالته .

وكان مشرف بن علي الصغير قد اطلق سراحه على يد ارسلان باشا فلما تعين الوالي الجديد جاء هذا الى صيدا وارتمى على اقدام بشير باشا راجياً اعادته الى حكم بلاد بشارة فقبل الباشا طلبه بعد ان قبض منه مالاً كثيراً .

وما أن تولى مشرف حكم بلاده حتى اظهر العداء للأمير حيدر واخذ يهاجم أطراف بلاد الامير فكتب الامير حيدر رسالة الى بشير باشا والي صيدا يلتمس منه ولاية بلاد بشارة مقدما إليه الهدايا الكثيرة الفخمة ، فأجابه الباشا الى طلبه ، وخلع عليه تلك المقاطعة ، وللحال نهض الامير حيدر من دير القمر على رأس قواته للاستيلاء عليها ، فالتقى بجموع ابن الصغير خارج بلدة النبطية فهزمهم . والتجأ بعضهم الى البلدة وتحصنوا فيها ، ولكن الامير تابعهم بفرسانه حتى دخل البلدة وأجلى بني الصغير عن بلاد بشارة ، وضمها الى امارته ، وعين عليها من قبله الشيخ محمود ابو هرموش وامره بجباية الأموال المترتبة عليها وكان ذلك سنة ١١٢٠ هـ — ١٧٠٨ م .

الامير حيدر وهرموش باشا

وبلغ الامير حيدر سنة ١١٢١ هـ — ١٧٠٩ م ان ابا هرموش اجرى المظالم في بلاد بشارة وتقاضى من الشعب اموالاً تزيد عن المقرر عليهم محتفظاً بها لنفسه، فطلبه الامير لمحاسبته ، ولكن هذا فر الى صيدا ودخل على واليها بشير باشا راجياً حمايته من الامير حيدر . وكان الباشا يحب الشيخ محمود لأنه كان يتعهده دائماً بالهدايا الثمينة المتواصلة فرحب به ووعده بحمايته .

وبعد ان مكث ابو هرموش مدة في صيدا التمس من الباشا منحه ولاية جبل الشوف مرغباً اياه بالمال الكثير ، فأجابه الى طلبه وارسل الى الباب العالي يلتمس له الباشوية فقبل الطلب ؛ وجاء الامر السلطاني بمنح الشيخ محمود لقب الباشا . وعلى الاثر عينه بشير باشا اميراً على مقاطعات الشوف وزوده بالجيش لتسلم امارته .

خرج ابو هرموش من صيدا متوجهاً الى دير القمر ؛ وكان بعض وجهاء الشوف قد تخلوا عن الامير حيدر فترك هذا الدير مع بعض اصحابه الى غزير بعد ان ارسل اسرته الى احدى قرى الفتوح حيث اخفاهم فيها ...

القضاء على اليمنيين في عين دارة

دخل محمود ابو هرموش دير القمر فعين لمساعدته آل علم الدين من الحزب اليمني . وطغى هؤلاء في احكامهم مما جعل القيسيين يفاوضون الامير حيدر ، (وكان وقتئذ مع انصاره في جهات الهرمل) ويضعون انفسهم تحت امرته لرفع الظلم عنهم . فلبى دعوتهم وبادر الى تنظيم قواته واعدادها للزحف، وبعد ان اتم استعداده توجه على رأسها الى جهات المتن ...

وصل الامير حيدر سنة ١١٢٢ هـ — ١٧١٠ م الى المتن وحل عند انصاره من آل ابي اللمع، فتوافد اليه المقدمون والمشايخ من سائر الانحاء يعلنون ولاءهم. وبلغت هذه الانباء مسامع محمود هرموش فجزع منها وطلب نجدة اليمنيين فحضر اليه منهم ٧ امراء ومعهم ٩٠٠ رجل كانوا في جهات الشام ، وانضمت اليهم جموع اليمنيين من الغرب والجرد والمتن فأصبح عددهم وفيراً . وكان هرموش باشا قد كتب الى بشير باشا والي صيدا يستنجد به وبنصوح باشا والي دمشق الذي حضر بجيشه وخيم في صحراء قب الياس ، كما زحف بشير باشا بقواته من صيدا نحو بيت مري .

اما محمود ابو هرموش فقد زحف بمن معه الى قرية عين دارة وخيم في سفوحها، وكانت خطته ترمي الى تطويق القيسيين من الغرب والشرق والجنوب والعمل سوية مع حلفائه وفي آن واحد على افنائهم .

عرف الامير حيدر بذكائه بخطة عدوه وما يبيته للقيسيين من شر وغدر فأرسل من اخبر القيسيين الملتفين حول هرموش بذلك فانفضوا عنه والتحقوا

بقوات الامير حيدر الذي بعد ان تجمعت بين يديه وسائل النصر قرر مهاجمة ابي هرموش تحت جنح الظلام قبل ان يتسنى له تجميع قواته الضاربة ...

المعركة الحاسمة

وفي ليلة الجمعة ١٨ محرم سنة ١١٢٢ هـ . والموافقة ٢٠ آذار ١٧١٠ م قسم الامير حيدر جيشه الى ثلاثة اقسام :

القسم الأول بقيادته ومعه الشيخ محمد تلحوق ورجاله ؛ اتجهوا بطريق وادي الجوز ، والقسم الثاني بقيادة آل ابي اللمع ، ساروا في طريق قليج لينفذوا الى رأس عين دارة ، والقسم الثالث وفيه اهل الشوف ساروا في طريق ينفذ الى غربي القرية المذكورة .

دهمت جيوش الامير حيدر قرية عين دارة واعداءه فيها في غلس الليل ، وكان اول الواصلين اليها المقدمان عبد الله وحسين من بني ابي اللمع ، ثم قدم باقي الجيش فدخلوا البلدة عند الصباح . وظل القتال يعمل حتى منتصف النهار واستبسل القيسيون فدارت الدائرة على اليمنيين ولم ينج منهم الا القليل . وقتل في المعركة ثلاثة من امراء آل علم الدين وأسر الأربعة الباقون ومحمود ابوهرموش معهم ، وتشتت شمل الباقين .

وبعد هذا النصر الرائع توجه الامير حيدر من عين دارة الى قرية الباروك ومعه امراء اليمنيين ومحمود باشا مشدودي الوثاق ، وهناك ضرب اعناق الامراء يوسف وعلي ومنصور واحمد آل علم الدين فانقطعت سلالتهم .

ثم احضر بعدئذ محمود باشا ابا هرموش فقطع لسانه وباهميه ، وحفظ له حياته اكراماً للقب الباشوية الذي يحمله .

وما ان بلغت انباء المعركة مسامع والي صيدا والشام وما حل باليمنية وبمحمود باشا حتى نهضا عائدين بجيشيهما كل الى ولايته ، مقتنعين رغماً عنهما

بالأمر الواقع . (لبنان في عهد الأمراء الشهابيين للامير حيدر الشهابي ، تحقيق اسد رستم وفؤاد افرام البستاني) .

وفي سنة ١١٢٤ هـ = ١٧١٢ م ، تعين على صيدا عثمان باشا ابو طوق ؛ وكان قد تأخر على الامير حيدر مبلغ ٢٠ الف قرش فجمع هذا ارباب امارته وطلب منهم المال لتسديده الى الوالي ، فرجوه ان يلتمس من الباشا امهالهم لقاء رهن بعض الامراء لديه ، فقبل الوالي طلبهم ، وعندئذ ارسل الرهائن وهم الامير احمد بن الامير حيدر والامير حسن ابن الامير حسين اللمعي . كما رهن الشيخ علي جنبلاط المقدم شرف الدين وبقي الرهائن لدى الوالي ما يقارب السنتين . ولما عزل من صيدا منقولاً الى البصرة اخذهم معه فبقوا هناك حتى عاد الى الشام فأرسل اليه الامير حيدر المال واستخلصهم .

وفي سنة ١١٢٥ هـ = ١٧١٣ م تعين على صيدا قبلان باشا ثم عزل ، فتعين بشير باشا ولكنه نقل الى ولاية طرابلس سنة ١٧١٦ ، فتعين عليها عثمان باشا ابو طوق ثانية سنة ١١٣٠ هـ = ١٧١٧ م .

الفصل الثاني

ولاة صيدا من آل العظم

الامير ملحم :

وفي عام ١٧٢٩ م قرر الامير حيدر التنازل عن الحكم لولده الامير ملحم فتسلمها في حياته ورعاها بحسن تصرف ومقدرة الامر الذي ارتاحت له نفس الامير حيدر .

وفي سنة ١٧٣٠ م تعين اسعد باشا العظم والياً على صيدا ، وكان يكره الامير ملحم كثيراً ، حتى قيل انه كان حينما يستلم رسالة منه يضع يده على التوقيع لئلا يقع نظره عليه ، وبالرغم من هذه الكراهية فان هذا الوالي لم يستطع ان يلحق بالامير أية مضرة .

وفي اواخر عام ١٧٣٠توفي الامير حيدر والد الامير ملحم ودفن في دير القمر وحزنت البلاد عليه حزناً شديداً ولبست النساء السواد حداداً ، لأنه رفع من شأن القيسية وقضى على اليمنية ، وكان جواداً عادلاً حكيماً . واتصل الامير ملحم بوالي صيدا اسعد باشا العظم مقدماً اليه الهدايا فثبته اميراً منفرداً على لبنان .

بلغ الامير ملحم سنة ١٧٣١ ، ان بني علي الصغير اصحاب بلاد بشارة ،

أظهروا الشماتة والسرور بموت والده فكتب الى أسعد باشا العظم والي صيدا يلتمس منه ولاية بلاد بشارة فأجاب طلبه ، فضم الامير تلك المقاطعة الى امارته بعد معركة هزمهم فيها وعين عليها حليفه سليمان الصعبي .

آل العظم ـ ولاة صيدا

وانتقل اسعد باشا العظم من ولاية صيدا الى ولاية الشام سنة ١٧٣٤ م ، وتولى مكانه على صيدا شقيقه سعد الدين باشا الذي كان والياً على طرابلس .

وفي سنة ١٧٣٩ م قام والي صيدا سعد الدين باشا العظم بمهاجمة بلاد الشقيف ، فقتل الشيخ احمد فارس واولاده ، وهرب اخوه الشيخ حيدر ملتجئاً الى الامير ملحم ، فقدم هذا له الحماية والرعاية ...

وفي عام ١٧٤٣ م خرج اصحاب جبل عامل عن طاعة سعد الدين باشا العظم والي صيدا وامتنعوا عن دفع الاموال المترتبة على بلادهم ، فكتب هذا رسالة الى الامير يستنهضه لقتالهم وتحصيل المال منهم . فلبى الامير نداءه وتوجه على رأس قواته من دير القمر حتى وصل الى جسر نهر صيدا الأولي . ولما وصل هذا الخبر الى زعماء الشيعة بادروا الى التماس العفو من والي صيدا مقدمين اليه الهدايا ومتعهدين بدفع الأموال المفروضة عليهم فقبل هذا رجاءهم وارسل يطلب من الامير ملحم العودة الى بلاده والكف عن قتالهم ، ولكن الامير تجاهل الامر ومضى في سبيله اليهم ، فخرجوا اليه بجموع غفيرة ، ولكنه تمكن منهم وألحق بهم الهزيمة ونهب ما في قراهم من اموال ومتاع وقفل عائداً الى دير القمر حيث كتب رسالة بالواقع الى والي صيدا فأقره على ما اجراه ...

وفي هذه السنة نقل سعد الدين باشا العظم الى ولاية دمشق وتعين على صيدا سليمان باشا العظم . وكان على الامير حيدر بعض الأموال المتأخرة فكتب الوالي الجديد الى الباب العالي بذلك ، فأتاه الرد بان يحصل المال بالطريقة التي يراها

مناسبة ، كما ارسل الباب العالي امراً الى والي دمشق وطرابلس بمساعدة سليمان باشا .

وخرج والي صيدا بقواته الى جسر الأولي حيث التقى بالواليين العثمانيين . واتجهوا جميعاً الى اقليم التفاح ومرج بسرى ، كما توجه الامير ملحم بقواته الى قرية مزبود . وعندئذ تدخل بالصلح احد الباشاوات فدفع الامير ملحم ما عليه من اموال للوالي وعاد الباشاوات الى ولاياتهم .

وفي سنة ١٧٤٤ م توفي سليمان باشا العظم في طبريا ، وتعين على صيدا ثانية سعد الدين باشا العظم ، وفي هذه الفترة أراد الشيعة مهاجمة جبل الدروز فمنعهم والي صيدا من ذلك .

وفي سنة ١٧٤٧ م نزل الامير ملحم الى صيدا لزيارة واليها سعد الدين باشا فتلقاه هذا بالبشاشة والاكرام وتحالف معه ضد اخيه اسعد باشا والي دمشق ، وقد غضب الاخير من الامير ملحم وأضمر له الشر . وفي سنة ١٧٤٨ م تسلم عثمان باشا المحصل ولاية صيدا فمنح الامير ملحم حكم مدينة بيروت سنة ١٧٤٩م بعد ان عزل منها ياسين بك ، وجعلها عاصمة ثانية له بعد دير القمر ، وظلت بيروت تحت امارته وامارة من بعده حتى عهد الجزار ...

مصطفى باشا العظم

وفي السنة نفسها تعين على صيدا مصطفى باشا العظم الملقب بالقواص ، لأنه كان ماهراً جداً في اطلاق الرصاص حتى قيل انه كان يرمي القذيفة من دار الامير ملحم في دير القمر الى قاطع بعقلين فيصيب الهدف المعين — وهو الجد الأعلى لأسرة القواص المنتشرة حالياً في صيدا ودمشق وحمص — وكان صديقاً للامير ملحم الذي دعاه لزيارة دير القمر والباروك فلبى دعوته ، وقوبل هناك بمجالي الحفاوة والاكرام .

الشيخ شاهين تلحوق

وبعد فترة حدثت اشتباكات بين كاخية والي الشام وجماعة الشيخ شاهين تلحوق في قرية تعنايل ، فالتجأ الشيخ الى الامير ملحم مستنجداً ، فلبى نداءه وهاجم كاخية الباشا فقتل من جنوده عدداً كبيراً وانهزم الباقون الى الشام ، فعظم الامر على واليها وقرر الزحف على لبنان . ولما وصلت هذه الانباء الى مصطفى باشا القواص والي صيدا وصديق الامير ملحم سار الى البقاع واصلح ما بين الباشا والامير ، على ان يرسل الاخير للباشا ١٥٠ كيساً ولقاء ذلك ارسل الامير ملحم أخاه الامير علي الى صيدا كرهينة ريثما يقدم المال المطلوب منه . وقد وضع الامير علي في خان الافرنج زيادة في الحرص على سلامته ، وبعدئذ جمع الامير ملحم المال وسدده الى الوالي وانقذ اخاه علياً من الرهن ...

وفي شتاء تلك السنة هطلت ثلوج هائلة وصلت الى ساحل البحر حتى أن الثلج الذي انتشر على المراكب الراسية في ميناء صيدا بلغ ارتفاعه ثلاثة اشبار (تاريخ لبنان للامير حيدر الشهابي ، تحقيق اسد رستم وفؤاد افرام البستاني) .

وفي سنة ١٧٥٣ م ، مرض الامير ملحم مرضاً شديداً اقعده عن القيام بواجبات الامارة فسلم الامارة مكرهاً الى اخويه احمد ومنصور لأن اولاده كانوا صغار السن وكان يود لو منحها لابن اخيه الامير قاسم (والد الامير بشير الكبير) الذي اقامه وصياً عليهم وانتقل هو الى بيروت واقام الامير قاسم في الحدث متخذاً منها مقراً لإقطاعيته .

وتوفي الامير ملحم في بيروت سنة ١٧٥٨ م ودفن فيها .

الزلزال في لبنان سنة ١٧٥٩

يدوّن المطران باسيليوس جلفاف مطران الروم الكاثوليك في صيدا في رسالة وجهها الى وكيل الرهبانية المخلصية في روما الخوري اثناسيوس دباس ، حادثة الزلزال الذي ضرب مدينة صيدا وجوارها عام ١٧٥٩ فيقول :

« في صباح ١٩ تشرين الاول سنة ١٧٥٩ م وقبل بزوغ الشمس بحوالي الساعتين ونصف ، حدثت زلزلة عظيمة استمرت دقيقتين فتهدمت بيوت كثيرة وقتل من جرائها خلق كثير ثم اخذت تتبعها زلازل صغيرة فتقطعت قلوب الناس من الخوف وهربوا من المدن والقرى ونصبوا اكواخاً لهم في العراء .

وفي ١٤ تشرين الثاني سنة ١٧٥٩ م بعد غروب الشمس بثلاث ساعات حدثت زلزلة اخرى كبيرة دامت اربع دقائق فأتمت هدم العمارات ، وكنت تسمع الصراخ والعويل . وقد هدمت هذه الزلزلة وصدعت غالبية الكنائس والجوامع والسرايات والبيوت ، ولم يبق منها الا القليل . وقد قتل في هذا الزلزال في بلدة صيدا خمسة اشخاص وجرح كثيرون ، وكانت اشد الضربات تلك التي نزلت بمدينة صفد اذ مات فيها الفا شخص ونيفاً » .

أمارة الشوف :

وفي عام ١٧٥٩م تعين على صيدا نعمان باشا ، فورد اليه الامر السلطاني بتسليم امارة الشوف وتوابعها الى الامير قاسم بن الامير عمر الشهابي بناء على نصيحة مصطفى باشا القواص ، الذي اصبح وقتئذ دفترداراً في الاستانة ، وبادر الوالي الجديد الى تنفيذ الامر الشاهاني فعزل الاميرين احمد ومنصور ولكن الاميرين عرضا على الوالي مبلغ ٥٠ الف قرش فقبل هذا منهما المال وابلغ الامير قاسم قراراً بخلعه . وفي ذات الوقت ارسل خلعة الامارة الى الاميرين المذكورين . وعندئذ لم يكن أمام الامير قاسم الا الجلاء عن مدينة بيروت بعد ان سبق له احتلالها ...

وتجاه هذا الفشل الذي مني به الامير قاسم عمد الى التقرب من الاميرين عن طريق مصاهرة الامير منصور فتزوج من ابنته مستوطناً بلدة بشامون . ثم انتقل بعدئذ الى بلدة غزير حيث اعتنق المذهب الماروني وقد انجب ولدين هما بشير وحسن .

توفي الامير قاسم في غزير في ١٨ نيسان سنة ١٧٦٧ م ودفن فيها .

في سنة ١٧٦٣ تعين على صيدا محمد باشا العظم ولكنه عزل منهـا في سنة ١٧٦٤ م حيث تعين بدلاً منه محمد باشا بن عثمان باشا ابو طوق .

وفي سنة ١٧٧٠ م توفي الامير احمد الشهابي في دير القمر وكان قد تنازل لأخيه منصور عن الأمارة سنة ١٧٦٣ م فاستقل بها ، هذا ولكنه في هذا العام – اي في سنة ١٧٧٠ م تنازل عنها بدوره الى الامير يوسف الابن البكر للامير ملحم الشهابي وانسحب الى بيروت حيث توفي فيها سنة ١٧٧٤ م .

الامير يوسف

في هذه السنة تولى على صيدا درويش باشا بن عثمان باشا الكرجي وبعد وصوله الى المدينة بفترة وجيزة عصي عليه مشايخ المتاولة وارسلوا يتهددونه حتى يخرج من صيدا فأرسل الى الامير يوسف يعلمه ويستنجد به فأرسل اليه هـذا جيشاً للمحافظة على المدينة . ولقاء ذلك اعفى الوالي الامير من المـال المفروض على بيروت والجبل لتلك السنة . ولكن الوالي وقد شاهـد ان الشيخ ضاهر العمر ومشايخ المتاولة ما برحوا يتشددون في العصيان ، خاف على نفسه فأخلى صيدا واتجه الى دمشق عن طريق الشوف فقابله الامير يوسف وطلب منه العودة الى صيدا عارضاً عليه ان يكون في خدمته . ولكن الوالي رفض العرض نظراً لجبنه ، وتابع سيره الى دمشق حيث قابل والده موضحاً له الامور ، فكتب هذا رسالة الى الامير يوسف يرجوه فيها التوجه لمقاتلة المتاولة .

وبادر الامير يوسف مع خاله الامير اسماعيل حاكم وادي التيم الى جمـع الجيوش فتجمع لديهم حوالي الـ ٢٠ الف رجل ، قادهم الامير نحو صيدا يرافقه الشيخ علي جنبلاط .

الفصل الثالث

ضاهر العمر واحمـد الجزار

المعارك حول صيدا

ما ان وصل الامير يوسف الى جسر صيدا حتى ارسل الدروز بقيادة الشيخ علي جنبلاط للمحافظة على المدينة ، وتوجه هو ببقية الجيش الى قرية جباع فأحرقها وقطع اشجارها ثم انحدر الى قرية كفر رمان فأحرقها ايضاً وتابع زحفه الى النبطية . وكان المتاولة قد تجمعوا هناك بقيادة الامير ضاهر العمر فقابلوه هم وجرت بين الفريقين معركة شديدة انتهت بهزيمة الامير يوسف بعد ان قتل من جيشه عدد كبير . وما وصلت انباء الهزيمة الى الشيخ علي جنبلاط في صيدا حتى أخلى المدينة وغادرها مع قواته الى الشوف . وعندئذ ارسل الشيخ ضاهر العمر من قبله رجلاً مغربياً اسمه احمد آغا الدنكزلي الى مدينة صيدا ليتسلمها ويحكمها باسمه .

لما بلغت مسامع الباب العالي هذه الانباء كتب الى عثمان باشا المصري الذي تولى ولاية الشام اثر وفاة عثمان باشا الكرجي يطلب منه المبادرة الى قتال ضاهر العمر والمتاولة بصحبة الامير يوسف واعفاء الاخير من مال ميرة بيروت والجبل لتلك السنة .

وكتب الباشا الى الامير يوسف يعلمه بقدومه على رأس جيش يضم الوالي

خليل باشا واحمد بك الجزار ومعهم الف فارس فالتقاهم الامير يوسف في عين السوق بالاكرام ، وبعد ان جمع جيشه توجهوا جميعاً لحصار مدينة صيدا ، وكان عددهم يناهز العشرين الفاً . فأقاموا على حصار مدينة صيدا سبعة ايام وأوشك احمد آغا الدنكزلي متسلم المدينة ان يطلب الأمان ويسلم لهم المدينة لولا أنه وصل الى ميناء عكاء وقتئذ خمسة غلايين روسية كبيرة مع عدة قطع حربية صغيرة لنجدة الشيخ ضاهر ، فوجهها هذا فوراً لنجدة المدافعين عن صيدا . وكانت القوات العثمانية واللبنانية ما برحت قائمة على حصار المدينة . فلما وصلت المراكب الى ميناء صيدا قصفت المحاصرين بقنابل المدافع الأمر الذي اجبرهم على التراجع الى محلة الحارة شرقي صيدا .

سيدتان شيعيتان صيداويتان في مطلع القرن التاسع عشر

معركة الغازية

وأرسل الشيخ ضاهر العمر رسالة الى الامير يوسف يطلب فيها منه ان

يتراجع الى جسر صيدا مع جيشه حتى يصير اتفاق بينهما ولكن الامير رفض هذا العرض .

وعندئذ زحف الشيخ ضاهر بجيشه وبقوات المتاولة وعدد من فرسان الغز الذين يقودهم علي بك الطنطاوي المصري ، وهو من اشهر ابطال مصر ، وكان مجموع جيشه يناهز العشرة آلاف مقاتل .

ولما وصلوا الى براك التل في اول سهل قرية الغازية الواقعة الى الجنوب من مدينة صيدا التقوا باعدائهم ، وبدأت المعركة بين الطرفين صباح يوم الاربعاء في ٢٤ ايار ١٧٧١ م وانتهت بفرار الجيش العثماني والامير يوسف ، بعد ان تركوا في ساحة المعركة ١٥٠٠ قتيل .

ضاهر العمر والي صيدا

وتوجه الشيخ ضاهر العمر الى صيدا فاستقبله متسلمها من قبله الدنكزلي بالاكرام والترحاب ، وهناك ارسل كتاباً الى والي الشام عثمان باشا يرجوه فيه منحه ولاية صيدا ويعرض عليه خضوعه لاوامر الدولة العلية ، فكتب عثمان باشا رسالة الى الامير يوسف جاء فيها ما يلي : « اما وقد انتهت الامور الى استكشاف ما في الصدور والهم الله كلاً من ذوي العقول رشده وطلب نجاحه وسعده ، فمن اجل من طلب النجاح وغرد طائر سعده قدوة المشايخ الكرام صاحب المقام المعتبر اخونا الشيخ ضاهر العمر الذي حرر الى نادينا وسأل الدعاء وتمسك بحبل العهود والوفاء واعلن الطاعة لمولانا السلطان ظل الله في ارضه على شروط وعهود معلومة ، واستعطف ان ينعم عليه بايالة صيدا على وجه الملكية ويرسل البقايا الباقية عليه في ايالة صيدا خمسمائة الف قرش من المال السلطاني ، ويؤدي خدمة وحراسة ولوازم المحمل الشريف كجاري المعتاد فقد وافقناه على ذلك ... الخ (تاريخ صيدا للشيخ احمد عارف الزين) .

وتسلم الامير يوسف هذا الكتاب خلال سنة ١١٨٧ هـ = ١٧٧٣م فأجاب

بجواب حسن بالرغم من كراهيته لذلك لانه كان يعز عليه جـداً ان يكون الشيخ ضاهر العمر والياً على صيدا ويكون هو حاكماً تحت امرته .

محمد بك ابو الذهب وصيدا

في سنة ١١٨٨ هـ = ١٧٧٤ م ، وكانت صيدا لا تزال تحت حكم ضاهر العمر ، جاء محمد بك ابو الذهب المصري على رأس جيش لمحاربة الشيخ ضاهر بموافقة الدولة العلية التي كانت تكن الضغينة له ، ولما وصل الجيش المصري الى عكاء فر منها الشيخ ضاهر فاحتلها ابو الذهب ولم ينم داخلها . ثم ارسل قسماً من جيشه الى صور وصيدا فاحتلها واقام هو قرب قرية السميرية ، ولكنه بعد مضي تسعة ايام اصيب بداء وبيل قضى عليه . وعندئذ تراجعت الجيوش المصرية الى ديارها وظهر الشيخ ضاهر العمر فجأة من مخبأه فعاد لاستلام عكاء وبقية بلاده .

وكان الامير يوسف قـد جزع حين وصول ابي الذهب الى عكاء فارسل له رسالة مع احد اتباعه يعلن الطاعة له ويرفق الرسالة باربعة جيـاد من اصائل الخيل فلما وصل الرسول الى مدينة صيدا بلغه خبر وفاة ابي الذهب فعـاد الى الامير يبشره بالامر ويعيد اليه الهدية ، مما كان له اجمل الوقع في نفسه ...

وفي عـام ١١٨٩ هـ = ١٧٧٥ م توجه حسن باشا القبوذان اميرال البحر الابيض العثماني لمحاربة ضاهر العمر فتمكن من احتلال عكاء بعد اغتيال الشيخ ضاهر العمر بدسيسة من تابعه احمد آغا الدنكزلي فعينه الاميرال نائباً عليها ، ثم استولى على صور وصيدا وعين على الاخيرة والياً جديداً من اصحابه هو محمد باشا ملك .

ورغب الامير يوسف في صداقة حسن باشا فطلب هذا منه دفع المـال المتوجب عليه تأديته للدولة عن ثلاث سنوات سابقة . وتفصيل ذلك ان عثمان باشا المصري لما عين الشيخ ضاهر والياً على صيدا طلب من الامير يوسف ان يدفع

الضريبة للشيخ ضاهر ولكن الامير لم يدفـع للشيخ شيئاً ، ولهذا طالبه حسن باشا بالتسديد . اما الامير يوسف فكتب الى حسن باشا يعلمه بما قدم للدولة العلية من خدمات ويتعهد له بدفع مبلغ ١٠٠ الف قرش في اقرب وقت فقبل حسن باشا رجاءه ثم توطدت بينهما اواصر الصداقة ... وفي هـذه الاثناء جاء الامر السلطاني بتعيين احمد باشا الجزار والياً على صيدا وعزل محمود باشا ملك منها ...

احمد باشا الجزار

سبق للأمير يوسف الشهابي ان عين احمد الجزار متسلماً من قبله على مدينة بيروت سنة ١٧٧٤ م ، ولكن هذا عمد الى تحصين المدينة للاستقلال بها واظهر عداءه للامير فقام هذا بمساعدة الشيخ ضاهر العمر فأخرجه منها سنة ١٧٧٤ م . وبعدئذ عرض الجزار خدماته على الشيخ ضاهر فقبلها ، ولكن الجزار سرعان ما خان معلمه الجديد فاستولى على قافلة من المؤن تعود الى الشيخ ضاهر وفر الى دمشق عارضاً خدماته على العثمانيين ، فعينوه والياً على صيدا ، بمعنى انه اصبح مراقباً عاماً على الجبل وعلى اميره يوسف معلمه السابق .

في اواخر عام ١٧٧٦ م تسلم ولاية صيدا بأمر من السلطان عبد الحميد الأول. وجزع الامير يوسف من تعيينه فأخذ يسترضيه بالهدايا واظهر الجزار له المودة بادىء الأمر ، ولكن الامير يوسف بقي على حذره منه وكتب الى حسن باشا يرجوه العمل على ازالة الجزار من حكم صيدا فوعده الباشا خيراً لا سيما وقد سبق له ان قبض من الامير الاموال الطائلة واطلق يده في جبـل الشوف وبيروت وجبيل والبقاع . وكتب للامير عهداً ان ليس لوالي صيدا أية علاقة به سوى قبض الاموال السلطانية ، ووعده انه حين عودته الى الاستانة سيرتب الأمور .

وما ان سافر الاميرال حسن باشا الى قبرص حتى اظهر الجزار ما في قلبه من كراهية للامير يوسف إذ نهض بجيشه من صيدا الى بيروت فاستولى عليها ، ورفع عنها يد الامير وضبط اموال الامراء الشهابيين وعقـاراتهم وأملاكهم

وأرسل يطالب الامير يوسف بأموال الدولة عن الثلاث سنوات الماضية .فكتب هذا الى حسن باشا يطلعه على الامر ويستنجد به فلبى الباشا نداءه واتى الى بيروت فأخرج الجزار منها بعد ان وبخه على عمله .

عاد الجزار الى صيدا بحراً وبقية جيشه براً . في الوقت الذي كتب الاميرال حسن باشا رسالة الى الامير يوسف يطمئنه فيها ، ومعيداً إليه مدينة بيروت وواعداً بأنه فور وصوله الى الاستانة سيعزل الجزار عن ولاية صيدا .

وازداد النفور بين الامير والجزار سنة ١٧٧٧ م فاستولى هـــذا على مدينة بيروت نهائياً . وارسل الامير يتعهد له بتسديد الأموال المطلوبة منه . وأخذ الجزار الشيخ واكد وابن عمه الشيخ محمود نكد رهينتين ووضعهما عنده في سجن قلعة صيدا مدة حتى احتال في فرارهما رجل مسيحي شجاع هو حنا بيدر من الجبل اللبناني ، وكان يتردد عليهما في سجنهما في صيدا . هـذا الرجل لما رأى ذات ليلة غفلة من الحراس كسر قيودهما وانزلهما بحبل من نافذة للسجن تطل على البحر ونجا بهما الى دير القمر سنة ١٧٧٨ م حيث عمت الافراح منطقة الشوف بأسرهـــا ووهب الشيخان النكديان منقذهما قرية الورديانية مكافأة له على انقاذه لهما .

وكان الجزار قد نقل مركز الولاية الى عكا لشدة تحصينها مبقياً على ايالته اسم ولاية صيدا .

وفي سنة ١٧٧٨ م ثار البعض من آل نكد على الامير يوسف لامتناعه عن انقاذ أقاربهم وثار لثورتهم آل علوان فنهض الاميريوسف من ديرالقمر لتأديبهم، فالتجأ آل علوان الى الجزار وهو يومئذ في عكا وتعهدوا له بان يملكوه الشوف اذا امدهم بقطعة من جيشه فساروا منعكاء الى صيدا ومنها توجهوا الى نهر الحمام، فالتقاهم هناك الشيخ كليب نكد صديق الامير يوسف وقاتلهم قتالا شديداً حتى ألحق الهزيمة بهمفتراجعوا الى صيدا حيث مكثوا فيها ثلاثة ايام لإتمام استعدادهم،

وبعدئذ توجهوا الى البرجية وهى قرية في اقليم الخروب فالتقاهم الشيخ بشير نكد بن الشيخ كليب ولكنه انهزم بعدما قتل عدد من اتباعه وعاد مشايخ آل علوان مع جيش الجزار الى صيدا مبتهجين بانتصارهم .

وشعر الامير يوسف بخطورة مركزه لا سيما وان الشيخ علي جنبلاط ساعده الايمن قد توفي . فجمع الاعيان في الباروك واعلن امامهم انه قرر التنازل عن الامارة لأخويه الاميرين سيد احمد وافندي وكتب بذلك الى الجزار فوافقه على ذلك ملمحاً في رسالته الى سوء تدبير الامير اثناء حكمه ...

ولميمضِ على ولاية الاميرين بضعة اشهر حتى ثارعليهما الاميريوسفمستنجداً بالمراعبة اصحاب عكار وبآل رعد اصحاب الضنية ، فأنجدوه . وكتب الاميران الى الجزار فأمدهما بالعساكر وارسل رسولا الى الامير يوسف وكان في بعقلين يفاوضه في ان يدفع له الاموال وهو سيعيده الى امارته ، فتعهد هذا بدفع مبلغ ١٠٠ الف قرش فقبل الجزار التعهد ، وارسل يستدعي جيشه للعودة الى صيدا كما كتب للامير يوسف بالولاية ووجه اليه الخلعة الى بعقلين ، فلبسها هـــذا ثم توجه الى دير القمر في الوقت الذي فر فيه أخواه الى المتن واستلم دفة الحـــكم ، وبعد مدة عفا عن أخويه فاستحضرهما واكرمهما وجعلهما مدبري أمره .

الامير اسماعيل الشهابي

وكان يتردد على حاصبيا بقصد التجارة رجل يهودي اسمه اصلان وكان يحكم حاصبيا وقتئذ الامير اسماعيل الشهابي خال الامير يوسف فعمد بعض غلمان الامير اسماعيل الى قتل اليهودي طمعاً في ماله سنة ١٧٨٣ م وكان لهذا أقارب يترددون على الجزار فأخبروه بالحادثة وتوسلوا لديه ان يستخلص مال قريبهم ويعاقب الجناة فأرسل الجزار الى الامير اسماعيل يطلب منه تسليمالقاتلوالمال. فتغاضى الامير عن تلبية الطلب فأصدر الجزار امراً الى الامير يوسف بالاستيلاء على مرجعيون واستخلاصها من اسماعيل ؛ فلبى الامير الطلب وارسل الشيخ

بشير نكد مع بعض رجاله فاستولى عليها وعلى أموال اسماعيل فيها فبلغ وارده ٥٠ الف قرش ، وعندئذ توجه اسماعيل الى دير القمر حيث اجتمع الى الامير يوسف متوسلاً ان يعيد له امواله وبلدة مرجعيون ، ولكن الامير رفض استعطافه .

وتكدر اسماعيل وعاد الى حاصبيا ومن هناك كتب الى الجزار يلتمس منه تعيينه على بلاد الشوف متعهداً بدفع مبلغ ٣٠٠ الف قرش ، فأجابه الجزار بالقبول — وهو المشهور بحب المال — ووعده ان يوليه حكم تلك الديار بمشاركة بعض الامراء الشهابيين بعد قدومه الى صيدا .

وسار الامير اسماعيل لمقابلة الجزار ، وكان وقتئذ في صيدا ، بعد ما كتب الى الامير سيد احمد شقيق الامير يوسف (وكان في الشويفات) يستنهض همته لموافاته اليها ، فركب هذا البحر من بيروت متوجهاً الى صيدا .

لما وصلت هذه الأنباء مسامع الامير يوسف ارسل قوة الى قرية جباع لضرب الحامية المعينة عليها من قبل الجزار فقتل منها اكثر من ٢٠٠ رجل وهب لنجدته الشيعة الذين كانوا يكرهون الجزار لتعصبه ومضايقته لهم .

فما كان من الجزار إلا ان خلع الولاية على اسماعيل وسيد احمد وامدهما بالجيش فخرج الاميران من صيدا مع جنود الجزار الى قرية علمان حيث وافاهما الشيخ قاسم جنبلاط ومعه الامير بشير بن قاسم الشهابي فقوي بهما حزبهما ، ولما عرف الامير يوسف بما حدث فر من دير القمر الى بسكنتا ، بعد ان ارسل اسرته الى المتن ، وتابع الاميران سيرهما الى دير القمر فدخلاها وتقلدا زمام الحكم فيها .

أما الامير يوسف فالتجأ الى بلدة صافيتا ومكث لدى صاحبها صقر بن محفوض وهناك تلقى رسالة تشعر ان الجزار سيمنحه العفو اذا عاد الى بلاده

فتوجه الامير يوسف الى لبنان ولما وصل الى ضواحي بيروت غادرها الامير سيد احمد متوجهاً الى بسكنتا .

ووصل الامير يوسف الى عكا فاستقبله الجزار استقبالاً حسناً فتعهدله الامير بدفع مبلغ ألف الف قرش سنوياً ، على ان يجمعها له بمدة ثلاثة أشهر ، فقبل الجزار تعهده واستبقى لديه الشيخ سعد الخوري مدبر الامير رهينة على المبلغ ، وأعاده مكرماً الى دير القمر .

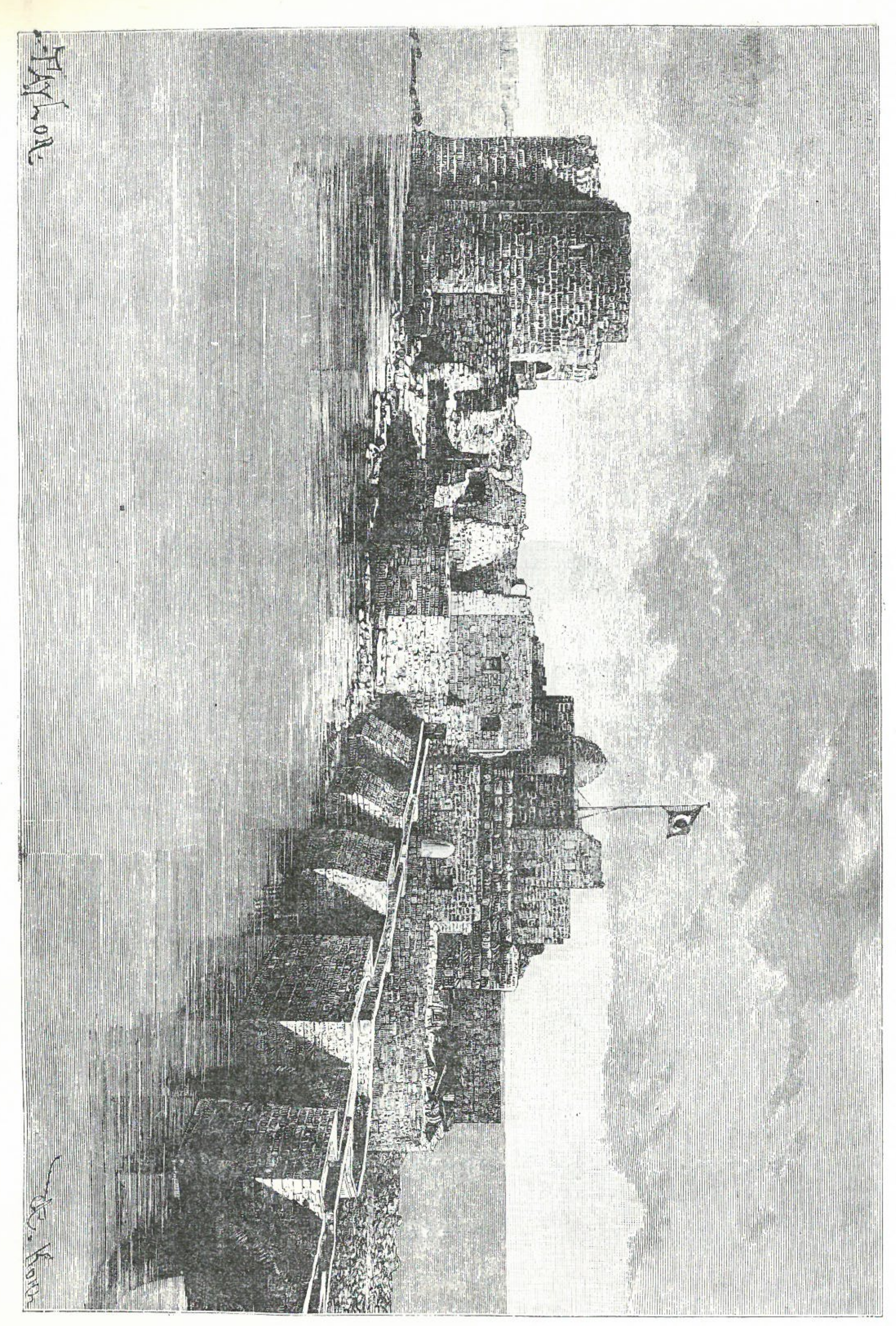
ولما تمكن الامير يوسف من الاستيلاء على حاصبيا وراشيا عين عليهما امراء من اتباعه وألقى القبض على خاله الامير اسماعيل فوضعه في السجن (وقد بقي فيه حتى وفاته) .

الجزار والامير يوسف

وفي سنة ١٧٨٨ م تبقى للجزار بذمة الامير يوسف مبلغ ١٥٠ الف قرش فطالبه بها ، ولكن الامير اخذ يماطل في دفعها فوجه اليه الجزار عسكراً يقوده مملوكه سليم باشا . وكان هذا قد ارتاب في مودة سيده نحوه وعزم على الثورة عليه فاستمال الجيش ثم نهض به من حاصبيا الى صيدا وفيها سليمان باشا مملوك الجزار فاستماله اليه ايضاً واستنهضه لقتال الجزار ففعل . ومال اليهما اهالي البلاد وعلى رأسهم الامير يوسف الذي استبشر خيراً ، مؤملاً بزوال عهد الجزار . وتوجه سليم باشا وسليمان باشا بعسكرهما من صيدا الى صور ومنها الى عكاء حيث خيما في صحرائها وهدفهما القضاء على الجزار .

وانتظر الجزار حتى جن الليل فداهمهما بمن معه بغتة ففر المحاصرون وهم لا يلوون على شيء .

وغضب الجزار غضباً شديداً من الامير يوسف لمؤازرته اعداءه فكتب الى



القلعة البحرية والجسر الذي يصلها بصيدا

الامير علي امير حاصبيا يأمره بالاستيلاء على البقاع ، وهناك التحمت قوته بقوى الامير يوسف فانهزم جيش الجزار والامير علي ، ولكن الجزار أمدهم بقوة ثانية اصطدمت بالامير يوسف قرب قب الياس واسفرت تلك المعركة عن فرار الامير الى دير القمر بعد ان قتل من جماعته عدد كبير .

الفصل الرابع

الأمير بشير الشهابي الكبير

سئم الامير يوسف الحكم وما يجره عليه من مصائب ومحن فجمع أعيان الجبل في تموز سنة ١٧٨٩ م وطلب منهم ان يختاروا خلفاً له شرط ان يكون من الامراء الشهابيين فوقع اختيارهم على الامير بشير ابن قاسم الشهابي .



الامير الشهابي بشير الثاني الكبير

ولد الامير بشير في مطلع عام ١٧٦٧ م ومات والده وله من العمر اربعة أشهر ، ثم تزوجت امه من الامير سيد احمد الشهابي فعاش في كنف مربيته « مرحبا » في صليما ، ثم انتقل الى برج البراجنة وكان عمره ١٣ سنة فأقام فيها ردحاً من الزمن ، ثم رحل الى دير القمر حيث عمل في خدمة الامير يوسف كمدير لأملاكه .

وفي سنة ١٧٨٧ م ارسله الامير يوسف بمهمة الى حاصبيا ، وهناك تزوج من الست شمس ، وهي ارملة غنية ساعدته بأموالها على شراء بيت الدين ورزق منها بأبنائه قاسم وامين وخليل ، وبعد وفاتها تزوج من ابنة احمد الشركسي فولدت له سعدى وسعود .

وما أن تسلم الأمير بشير الحكم حتى بادر لمقابلة الجزار في عكاء فاستقبله هذا استقبالاً حسناً ووعده بالمؤازرة والمساعدة مشترطاً عليه القضاء نهائياً على الامير يوسف فوعده بتنفيذ امنيته . وهكذا اصبح الامير بشير سيد البلاد وله من العمر ٢٢ سنة .

مقتل الامير يوسف

ولكن الامير يوسف وقد حن الى الإمارة مجدداً استطاع ان يستعيد إمارته من الجزار بما دفعه له من الأموال في اوائل كانون الثاني سنة ١٧٩٠ م .

اما الامير بشير فأسرع الى عكا مع صديقه الشيخ قاسم جنبلاط حيث قابل الجزار ، ودفع له عن كل شهر ٢٥٠ كيساً فقبل الباشا طلبه وانعم عليه بخلعة الإمارة وأعاده الى دير القمر ، وأرسل يستدعي الامير يوسف ومدبره غندور ابن سعد الخوري ولما وصلا وضعهما في السجن ثم امر بقتلهما وكان متسلم صيدا من قبل الجزار وقتئذ عثمان آغا الشاويش . . .

الامير بشير في صيدا

ما ان وصلت انباء مقتل الامير يوسف ومدبره الى الجبل حتى ثار الاهلون وهاجموا جنود المغاربة الذين كانوا يعملون تحت امرة الامير بشير ، فلم ير هـذا بدأ من النزول مع جنده الى صيدا ومن هناك ارسل يستنجد بالجيش الالباني الموجود في حرج بيروت ثم انطلق من صيدا نحو الشويفات حيث اشتبك مع اهل الغرب والثوار وانتصر عليهم بمؤازرة آل جنبلاط .

وعاد الامير بشير الى صيــدا عن طريق البحر حيث وافاه اخوه الامير حسن . وفي ١٥ آب سنة ١٧٩١ م حدثت معركة بين اهل بعبدا والالبانيين انتصر فيها الأولون ففر من نجا من قوات الجزار الى صيدا عن طريق البحر لأن الطرق البرية كان يحتلها المنتصرون الذين نادوا بالأميرين حيدر وكعدان اميرين على الجبل وساروا معهما الى دير القمر حيث تسلما زمام الحكم فيها .

أما الامير بشير فقد توجه في ٢٥ تشرين الاول ١٧٩١ م مع جيشه من صيدا الى قرية علمان ثم إلى حاصبيا منقذاً فرقة من الألبانيين كانت مشتبكة مع فئة من العصاة ثم عاد الى جسر صيدا بناء على دعوة تلقاها من الجزار .

في اول كانون الاول ١٧٩١ م انطلق الامير بشير من جسر صيدا الى اقليم الخروب فاخضعه ، ثم عاد مع جيش الدولة الى صيدا وبرفقتــه الشيخ قاسم جنبلاط ومنها توجه الى مقابلة الجزار في عكاء .

وحاول الجزار اكثر من مرة دخول الجبل بقواته ولكن اللبنانيين ألحقوا به الهزيمة في شحيم وفي الجاهلية . وعمد الجزار بعدئذ الى تغطية فشله بمفاوضة الاميرين حيدر وكعدان لمنحهما حكم الجبل لقاء ٥٠ الف قرش شهرياً يؤديانها له، بالرغم من شدة كراهيته لهما لما ألحقا به وبجيشه من الهزائم فتعهد الاميران بذلك .

وامر الجزار الامير بشير بالإقامة في صيدا فقبل مكرهاً وارسل يستدعي عائلته ، وكذلك فعل اخوه الامير حسن الذي استوطن مدينة بيروت مع عائلته التي احضرها من غزير .

في ايلول سنة ١٧٩٢ م توجه الامير بشير من صيدا لاستقبال الجزار حين عودته من الحج ، فأنعم عليه بالأمارة وارسل معه جيشاً الى صيدا وهناك وافاه اخوه الامير حسن والشيخ حسن جنبلاط والملا اسماعيــل وساروا جميعاً الى

المختارة حيث حققوا اول انتصاراتهم ، ومنها توجهوا الى دير القمر التي كان الوصي قد اخلاها ملتجئاً الى بلدة جبيل .

وفي سنة ١٧٩٥ م عزل الجزار الامير بشير وارسل يستدعيه لمقابلته في عكا فوضعه في السجن مدة من الزمن ثم اطلق سراحه في ٢ حزيران فتوجه مع اخيه الامير حسن والشيخ بشير جنبلاط الى دير القمر .

وفي ٢٢ ايلول سنــة ١٧٩٥ م غادرت اسرة الامير بشير صيدا عائدة الى بيت الدين ملتحقة بسيدها .

بونابرت والجزار والامير بشير

في ٤ آذار سنة ١٧٩٨ م وصل الجيش الفرنسي بقيادة الجنرال نابليون بونابرت الى عكاء وضرب عليها الحصار . فأرسل الجزار يطلب مساعدة الامير بشير ، فاعتذر هذا عن تلبية الطلب متظاهراً بانهماكه في اخماد الفتن التي يثيرها عليه اقاربه في الجبل .

ولما وصلت جيوش العثمانيين القادمة من دمشق لمؤازرة الجزار الى الجبل في طريقها الى صيدا قدم لها الامير بشير الذخائر والمؤن .

وكان الامير قد تلقى رسالة من بونابرت يطلب مؤازرته ، فلم يجبه عليها ، وأرسل الجنرال الفرنسي الى الامير رسالة ثانية يعاتبه فيها على اهمــاله الرد ، فوقعت هذه الرسالة بيد متسلم صيدا (ويقال ان الامير بشير تعمد ايقاعها في يد الجزار تحسباً من المستقبل) الذي بعثها الى الجزار ، فسر هــذا من اهمال الامير لطلب الفرنسيين ؛ ولكنه قرر الانتقام منه لعدم اسعافه بالرجال حينما يتيسر له ذلك .

وما ان جلت القوات الفرنسية عن عكاء اثر اصابتها بداء الطاعون حتى أمر الجزار بخلع الامير بشير ، وارسل الجيش لمطاردته ففر الامير ملتجئاً الى مصر



الاميرات الدرزيات

ليقابل فيها الصدر الاعظم ، بواسطة الاميرال الانكليزي سميث فأكرمه المذكور وأعاده الى أمارته عن طريق طرابلس فوصلها في ١٦ ايارسنة ١٨٠٠م ومنها صعد الى الجبل فتسلم ادارة بلاده .

ولكن الجزار الذي قبل امر الصدر الاعظم مكرهاً عاد فأنعم على الامير عباس بالامارة وارسل معه في ٢١ آب سنة ١٨٠١ م جيشاً الى صيدا يقوده سليمان باشا جراقه ، ومنها انطلقوا الى البقاع ثم الى المعنية حيث كان الامير بشير والشيخ بشير جنبلاط وجرجس باز مع قواتهم بانتظارهم ، ولما دارت رحى المعركة انهزم جيش الدولة عائداً الى صيدا ومنها الى عكا ، بينما عاد الامير بشير وصحبه منتصرين الى حمانا ومنها الى دير القمر .

وفي نيسان سنة ١٨٠٤ م توفي في عكاء احمد باشا الجزار والي أيالةصيدا فابتهج الامير بشير والاهلون كثيراً من ارتفاع هذا الكابوس الجاثم على قلوبهم ...

والي صيدا ابراهيم باشا

وعينت الدولة على صيدا والياً جديداً هو الحاج ابراهيم باشا والي حلب سابقاً . فأرسل الامير بشير لاستقباله في دمشق مدبره جرجس باز فاستقبله هذا بالاكرام .

وكان الجيش الانكشاري في عكا قد عصي على الدولة العثمانية فصدرت الاوامر الى ابراهيم باشا بالتوجه لسحقهم ، وكذلك الى الامير بشير بمساعدة ابراهيم باشا ، ولكن العصاة بادروا الى الامير بشير يستعطفونه في العفو عنهم ، فأرسل هذا يتوسط لهم لدى ابراهيم باشا فوعده هذا بتلبية طلبه حين اجتماعه اليه في صيدا .

وتلقى الامير رسالة من السلطان سليم الثالث يعلمه فيها برضائه عن اعماله ويطلب منه ان يسير وفق رغبات والي صيدا الجديد ابراهيم باشا ، كما تلقى من

الصدر الاعظم رسالة يطلب فيها منه مؤازرة الوالي في القضاء على اسماعيل باشا المعتصم في عكاء .

وتوجه ابراهيم باشا بجيشه من صيدا في ٢٠ آب سنة ١٨٠٤ م وبرفقته الشيخ جرجس باز مندوب الامير بشير الذي كان وقتئذ في قرية جون ، وظل معه حتى قرية البصة بالقرب من عكا ثم ودعه وعاد الى دير القمر . أما ابراهيم باشا فاستولى على عكا بعدما القى القبض على اسماعيل باشا وعلى عمر آغا الطويل وداود باشا متسلم صيدا سابقاً .

وتعين على صيدا سليمان باشا تابع ابراهيم باشا (الذي تعين على دمشق) وفي سنة ١٨٠٧ م تقابل جرجس باز مدبر الامير بشير مع حاييم اليهودي مدبر سليمان باشا على جسر صيدا وتوجها معاً الى عكا حيث رحب سليمان باشا بجرجس باز واكرمه غاية الاكرام وأرفقه بخلعة عظيمة الى الامير بشير .

وسنة ١٨١٠ م اصدر سليمان باشا والي صيدا أمراً بأن يكون الامير بشير حاكماً على الجبل طيلة حياته وارسل له الخلعة بذلك .

وبعد مدة ورد الامر من الباب العالي بتعيين سليمان باشا والياً على دمشق بالاضافة الى ولاية صيدا ولكنه خوفاً من ان يفشل بالاستيلاء عليها لرفض يوسف باشا والي دمشق الاذعان لأوامر الدولة استشار الامير بشير فوعده بمؤازرته بجيشه لاحتلال دمشق وتوجها سوية اليها . وبعد معركة مع جيش يوسف باشا انتصر سليمان باشا والامير فدخلا دمشق وتسلم سليمان باشا زمام الأحكام فأنعم على الامير قاسم بن الامير بشير ببلاد جبيل ، كما انعم على الامير خليل ببلاد البقاع وعاد الامير بشير الى بلاده مسربلاً بالعز والفخار .

وعين سليمان باشا من قبله متسلماً على دمشق درويش آغا بن جعفر آغا . ولكن لما وصلته في عام ١٨١٢ م أنباء تقول ان درويش آغا يأخذ الأموال من

الاهلين ويحتفظ بها لنفسه ارسل من ألقى القبض عليه وصادر املاكه وأمواله حتى استوفى منه مبلغ ٦٠٠ الف قرش وعندئذ اطلق سراحه وأمره بالسكن في صيدا مع عائلته اثر وساطة الامير بشير .

وفي هذا العام وصل الجراد الطيار وغرز في اراضي صيدا فصدرت الأوامر بابادته عن طريق حفر الأقنية واحراقه فيها فتمكن الاهلون من انقاذ مواسمهم من هذه الآفة الفتاكة بهذا التدبير الذي اقترحه الأمير بشير .

الليدي استير ستانهوب

وفي هذه السنة ١٨١٢ م وصلت الى صيدا عن طريق مصر الليدي استير ستانهوب الانكليزية وحلت في احد قصورها ، ثم اخذت تتجول في ضواحي المدينة وتجتمع الى كبار شخصياتها وتقيم على شرفهم الحفلات والمآدب وهدفها من ذلك ادخال النفوذ الانكليزي الى هذه المنطقة .



قصر الليدي ستانهوب في جون (القريبة من صيدا)

ولما ظهر الطاعون في شهر أيار سنة ١٨١٣ م في صيدا واخذ يفتك بالاهلين جزعت الليدي استانهوب وانطلقت الى اراضي قرية عبرا الواقعة على مسافة ثلاثة كيلو مترات شرقي صيدا فبنت فيها منزلاً سكنته مع حاشيتها (وقد زالت آثار هذا المنزل منذ بضع سنوات فقط) . ثم انتقلت الى جون في منطقة الشوف سعياً وراء تحقيق اهدافها .

الامير بشير في صيدا

وفي سنة ١٨١٤ م توفي علي باشا الخزندار كتخدا سليمان باشا والي صيدا . فأرسل الامير بشير يستأذن الوالي بالحضور لتعزيته فأذن له وأصدر اوامره باستقبال الامير استقبالاً يليق بمقامه .

وفي ٣ جمادي الاولى وصل الامير الى جسر صيدا ، وكان الاهلون وأعيان المدينة وعلى رأسهم القاضي والمفتي قد خرجوا لاستقباله هناك فرحبوا به ترحيباً جميلاً وألقيت امامه القصائد والخطب ثم دخلوا امامه المدينة بالعراضات والاهازيج ، واقيمت على شرفه المآدب والحفلات ، ومكث الامير تلك الليلة في ضيافة متسلم المدينة . وعند الصباح خرج الجميع معه الى عين القنطرة حيث تناولوا طعام الفطور ثم ودعوه بمجالي الاكرام وعادوا الى مدينتهم ، كما توجه الامير الى عكاء فاستقبله سليمان باشا معانقاً ومصافحاً .

وفي سنة ١٨١٩ م توفي سليمان باشا والي صيدا وتعين مكانه عبد الله باشا بن علي باشا الخزندار .

وفي عام ١٨٢٠م ارسل عبد الله باشا يطلب من الامير بشير دفع المال المتوجب عليه فوراً ، فارسل الامير يستمهله بعض الوقت ، ولكن هذا رفض ، وأمر متسلمي بيروت وصيدا بإلقاء القبض على كل الدروز الموجودين في بلديهما ففعلا. وكان ذلك في ٢٥ كانون الاول ١٨٢٠ م .

واحتجاجاً على هذا التدبير قرر الامير بشير التنازل عن امارته فغادر بيت الدين الى حمانا وبصحبته الشيخ بشير جنبلاط ومن هناك انتقل الى حوران.

وكان الامير حسن بن الامير علي الشهابي والامير سلمان سيد احمد الشهابي بمؤازرة المشايخ اليزبكية قد توجها الى صيدا فوصلوها في اوائل آذار ١٨٢١ ، فمنحهما عبد الله باشا خلعة الامارة وارفقهما بقوة من الجيش الى دير القمر لتسلم امارتهما .

ولكن الامر لم يطل معهما اذ سرعان ما اعلنا خضوعهما للامير بشير الذي وصل مع عدد من اتباعه الى جهات جزين فلم ير عبد الله باشا بداً من اعادة خلعة الامارة اليه .

وفي عام ١٨٢٢م تنازل الامير بشير عن الامارة لنسيبه الامير عباس الشهابي ، وتوجه الى مصر في ١٦ آب يصحبه ولداه خليل وامين و ٩٤ نفراً من اتباعه تلبية لدعوة من محمد علي باشا ولتثبيت عبد الله باشا على ايالة صيدا ، فقبل رجاءه وصدر العفو عن عبد الله باشا وأعيد الى ولايته .

ولما عاد الامير الى بلاده عن طريق عكاء استقبله الباشا شاكراً ومعترفاً بجميله بعد ان خلع عليه خلعة الامارة .

الامير بشير وآل جنبلاط

في اواسط كانون الاول سنة ١٨٢٤ م لما ثار الشيخ بشير جنبلاط في المختارة على الامير بشير ، كان متسلم صيدا وقتئذ من قبل عبدالله باشا ، الحاج علي آغا ، فتسلم هذا امراً من الوالي بمساعدة الامير على خصمه ، وللحال سار على رأس قوة من الجيش الى السمقانية حيث التقى بقوات الامير التي يقودها الامير خليل واشتركا سوية في المعركة التي انتهت بانتصارهم ، وقتل عدد من العصاة ، وفر الشيخ بشير مع عدد من اتباعه الى حوران . اما القتلى الذين تجاوز عددهم

١٥٠ قتيلاً ، فقد قطعت رؤوس ٥٧ منهم أرسلت الى الوالي عبد الله باشا المقيم آنئذ في صيدا، الذي ما ان بلغته انباء هذا الانتصار حتى امر باطلاق المدافع واقامة الزينات في المدينة ، وكان ذلك في ٢٩ كانون الثاني ١٨٢٤ م (تاريخ لبنان — عصر الامراء — لشبلي . وتاريخ الامير حيدر) .

ولما وصل المنهزمون الى حوران ارسل مصطفى باشا والي دمشق من ألقى القبض عليهم ثم ارسلهم الى عكا صحبة سلحداره عبد الله باشا .

وكان عبد الله باشا قد غادر صيدا متوجهاً الى عكا ، فلما وصلها امر بنقل الشيخ بشير جنبلاط واطلق سراح الشيخ نجم جنبلاط بناء على وساطة الامير بشير .

ثورة نابلس

لما اشتعلت الثورة في نابلس ضد عبد الله باشا وفشل هذا بالقضاء عليها ارسل يستنجد بالامير بشير فجاءه على رأس قوة من جيشه الى جسر صيدا يوم الجمعة في ١٥ كانون الثاني سنة ١٨٣١ م وكان يوماً ممطراً عاصفاً ؛ فأقام في ضواحي صيدا ثلاثة ايام ، ثم انطلق منها يوم الاثنين الى عكا حيث قابله الوالي عبد الله باشا بالترحاب والاكرام ومنها توجه مع جيشه يرافقه ولده الامير خليل الى قلعة صانور (نابلس) ، حيث حقق الاميران الانتصار ، فاستسلم المحاصرون وهدمت القلعة .

القاضي يونس البزري

وفي اوائل عام ١٨٣١ م حدثت فتنة دينية في صيدا بين الامير بشير ملحم والشيخ يونس البزري قاضي المدينة ، لأن الامير المذكور كان يتدخل في الشؤون الفقهية على غير معرفة منه بامورها . واثار القاضي بعض الأهالي واتى معهم بالسلاح الى السراي ليطردوا الامير منها ؛ وهناك تناقشا ثم تشاتما ، وخرج

القاضي مع جماعته الى ابواب المدينة لطرد جماعة الامير منها فاصطدموا بهم وارتد كل الى موضعه .

وأرسل الامير بشير ملحم يعلم الامير بشير بالحادثة ، فكتب هذا الى نقيب الاشراف يطلب منه الحكم على اصحاب الفتنة . وبعد ان استشار هذا الوالي امره ان يفوض الامير بإلقاء القبض على القاضي والمفتي ومن ساعدهما على الفتنة ، ففعل الامير وارسل الجميع الى عكا حيث عقد ديوان للشورى وحكم بالسجن على خمسة عشر رجلاً منهم ، كما امر بأن تقطع رؤوس كل من رفع السلاح على الامير وتعلق على باب مدينة صيدا فتم ذلك ؛ وكان المنادي يقول : هذا جزاء من يرفع يده على الحاكم (تاريخ الامير حيدر وتاريخ صيدا للشيخ احمد عارف الزين) .

ابراهيم باشا المصري

في حزيران سنة ١٨٣١ م وصلت القوات المصرية بقيادة ابراهيم باشا نجل محمد علي باشا والي مصر الى عكا فضربت عليها الحصار ، ثم توجهت قطعات منها الى صيدا فاحتلتها . وعين ابراهيم باشا متسلماً عليها من قبله رضوان بك طوقان — من نابلس — ثم تابعت القوات المصرية زحفها فاحتلت بيروت ولكنها لم تتمكن من فتح طرابلس الا بعد ان توجه الامير خليل الشهابي على رأس قواته لمؤازرته فتسنى لهم ذلك في آذار سنة ١٨٣٢ م .

وأثناء هذا وردت رسالة من محمد علي باشا الى ولده ابراهيم يطلب فيها منه ان يسلم زمام الحكم في كافة ارجاء أيالة صيدا الى حليفه الامير بشير الشهابي وان يخضع له كل المتسلمين واصحاب المقاطعات ؛ وبالمقابل فقد وضع الامير الشهابي قواته الضاربة كلها تحت امرة ابراهيم باشا خلال معاركه مع السلطنة العثمانية ...



شاطىء صيدا الشمالي والقلعة البحرية في عام ١٨٣٤

الامير عبد الله الشهابي حاكم صيدا

بعد الانتصار الذي حققه ابراهيم باشا على الدولة العثمانية وتوقيع معاهدة كوتاهية التي ضمنت لمحمد علي باشا واسرته حكم سورية ولبنان وكليكية ومصر في ٥ آيار سنة ١٨٣٣م، عمد العثمانيون بواسطة اتباعهم الى اثارة النعرات الدينية والفتن في البلاد ، وقام المتاولة بثورة الى الجنوب من صيدا فأسرع الامير خليل الشهابي الى اخمادها في اواخر عام ١٨٣٤ م .

ولتحاشي الثورات ومراقبة البلاد مراقبة دقيقة وفعالة ، عين الامير بشير – وقد اصبح حاكماً عاماً على كل البلاد اللبنانية – نجله الامير خليل حاكماً على طرابلس . وعين ابن اخيه الامير عبد الله الشهابي حاكماً على صيدا ، والامير جهجاه وابنه الامير امين على بيروت .

وجعل الامير بشير مدينة صيدا نقطة الاعاشة للجيوش المصرية ومركزاً لتموينها ، فعاد اليها آنئذ شيء من نشاطها الاقتصادي .

نكبة صيدا بالزلزال

وفي عام ١٨٣٧ م نكبت صيدا نكبة قاسية بالزلزال الذي ضربها فهدم قسماً كبيراً من احيائها وقتل عدداً من الاهلين. فبادر سليمان باشا والقائد الفرنسي ومساعد ابراهيم باشا الى مد يد المعونة للمدينة، إذ امر بتجديد الأبنية المتهدمة ومنح المصابين والمنكوبين الهبات ، كما امر بإحاطة المدينة بسور من جهة اليابسة ، وهكذا تمكن من اقالة المدينة من عثارها واعادة الحياة اليها .

صيدا ونهاية الحكم الشهابي

اشتعلت الثورات في لبنان في ربيع سنة ١٨٤٠م ضد المصريين بتحريض من العثمانيين اثر صدور القرارات القاضية بجمع الاسلحة وقانون السخرة وزيادة

الضرائب . وقام الثائرون بقطع طرق المواصلات بين بيروت وصيدا المركز الرئيسي البحري لتموين القوات المصرية ، وتمكنوا من اغلاق ميناء صيدا في وجه المراكب المصرية ثم تمركزوا على الشواطىء رافعين علم الثورة الاحمر .

وبالرغم من اذاعة الامير بشير منشوراً على الاهلين بتاريخ ٦ حزيران سنة ١٨٤٠ م يعلن فيه الغاء قانون الضرائب فإن الثائرين من مسيحيين ودروز ظلوا يقطعون طريق المواصلات الساحلي عن صيـــدا ؛ عندئذ أوعز الامير بشير الى ابناء اخيه : مسعود حاكم صيدا ومجيد حاكم بيروت ومحمود حاكم زحلة بمحاربة الثائرين والقضاء عليهم فتمكن مسعود من خضد شوكتهم عند جسر نهر الأولي وأعاد المواصلات مع الداخل وفر العصاة ملتجئين الى شواطىء بيروت .

وفي ٢٣ تموز سنة ١٨٤٠ م دخلت ميناء صيدا قطعـة حربية من الاسطول البريطاني وهددت بضرب المدينة إذا لم تخلها القوات المصرية وكان عددها وقتئذ ٣ آلاف جندي فخرج المصريون الى الضواحي ولم تجسر القوات البريطانية على النزول الى اليابسة .

وفي ١٠ ايلول سنة ١٨٤٠ م جاءت قوات تركية وانجليزية الى قرية الجيـــة شمالي صيدا فاحتلتها، وهناك وافاها الثائرون اللبنانيون فتلقوا منها الأسلحةالتي بلغ عددها ٣٠ الف بندقية . ثم زحفت القوات الحليفة شمالاً وجنوباً فاحتلت بيروت والبترون . وباحتلالها مدينة صيدا ومرفأهـــا ، قطعت خطوط تموين الجيوش المصرية التي جلت عنها الى داخل البلاد . وهنا أحس الأمير بشير بالخطر يحدق به من كل جانب فقرر الاستسلام للانكليز .

وفي ١١ تشرين الاول ١٨٤٠ م خرج الامير بشير من بيت الدين متوجهاً الى صيدا ليضع نفسه تحت حماية القائد البريطاني وبرفقته خلصاء اسرته وحاشيتـــه وهو يحمل في جعابه عشرة آلاف كيس من الذهب، كما غادر المشايخ من انصاره في نفس الوقت القصر الاميري متوجهين الى دير القمر وعلى رأسهم الشيخ بشارة

الخوري والشيخ منصور الدحداح مستشار الامير وحبيب المعوشي .

ولما علم القنصل الفرنسي بقرار الامير اوفد اليه معاونه جوانان ليقنعه بالعودة الى قصره وانتظار نتيجة المفاوضات الدائرة بين الدول الكبرى عسى ان يكون حظه في النهاية كحظ محمد علي ، فالتقى به بين الدامور ودير القمر ، وحاول معاون القنصل جاهداً إثناء الامير عن قراره بالاستسلام ، ولكن الامير الشهابي الكبير أصر على الابتعاد عن المعركة قائلاً :

« ان الدول الاجنبية لم تهتم به يوم كان في عزه فلا امل بأن تهتم به الآن وقد اصبح وحيداً تتألب عليه القوى ، ولحقت الهزيمة برجاله وتخلى عنه اصدقاؤه كما تنكر له قواده » .

ولما وصل موكب الامير الى صيدا في ١٣ تشرين الاول ١٨٤٠ م خرجت القوات الانكليزية والعثمانية لاستقباله وحيته قطعاتها كما عزفت امامه الموسيقى ، ثم واكبه اعيان المدينة حتى المرفأ حيث صعد الى ظهر البارجة الانجليزية التي نقلته الى بيروت . وهناك استقبله الاميرال الانكليزي ستويفورد بمائة طلقة مدفع من البوارج الراسية في الميناء ، وبعد ان حيا الامير طلب منه ان يعلن انضمامه الى صفوفهم ضد المصريين ، ولكن الامير رفض بإباء هذا العرض فابلغه الاميرال انه اصبح إذن اسير صاحب الجلالة وعليه ان ينتقي منفاه ؛ فطلب الامير ان ينقل الى قبرص ، ولكن الامـــيرال قال انه لا يضمن له السلامة في اراضي الامبراطورية العثمانية ، فاجابه الامير انه يختار الاقامة في فرنسا او في ايطاليا، فرفض الاميرال ايضاً هذا الطلب وخيره ان ينتقي منفـــاه في انكلترا او في جزيرة مالطة آنئذ باستطاعته ان يختار بملء حريته مكانه في احد بلدان التحالف الرباعي ففضل الامير السكن في جزيرة مالطة ...

وفي ١٤ تشرين الاول سنة ١٨٤٠ م القى الامير بشير الشهابي الكبير آخر نظرة على الجبل اللبناني من البارجة التي مضت به تشق عباب اليم متوجهة الى

مالطة يرافقه عليها ٦ اميرات بينهن زوجته وابنته وحفيداته ، وحوالي مائة شخص من حاشيته وفي طليعتهم مستشاره بطرس كرامه الذين اخلصوا له حتى النهاية وربطوا مصائرهم بمصيره .

(الشدياق وشبلي ، واميل خوري وعادل اسماعيل في كتاب السياسة الدولية في الشرق العربي ، الجزء الاول) .

التدخل الاجنبي واثره في لبنان

كان العثمانيون يهدفون الى القضاء على استقلال الجبل اللبناني عن طريق اثارة النعرات المذهبية بين مختلف طوائفه ، يؤازرهم في ذلك الدول الاوروبية التي كانت تدعي كل واحدة منها فرض حمايتها على طائفة معينة . ومن الطرق المؤدية الى تحقيق ذلك كبح جماح الامراء وذلك بتقويض قوتهم العسكرية والغاء الجيش اللبناني حتى يتسنى لهم آنئذ التدخل بشؤونه عسكرياً وليس في الجبل من يقاومهم ؛ وجمع السلاح من فئات معينة ، وزودت الفئات الاخرى به مما سبب توتراً دائماً استدعى وجود القوات العثمانية بحجة المحافظة على النظام والامن في الجبل اللبناني .

وتأكيداً لهذه الامور نذكر ان القائد البريطاني ريتشارد وود الذي حمل لواء محاربة المصريين في لبنان ، لما رأى اعمال العثمانيين كتب رسالة الى سليم باشا والي صيدا مؤرخة في ٢٨ تشرين الثاني ١٨٤١ م يقول فيها : « ان اعمال العثمانيين الجائرة ضد المسيحيين هي غير لائقة ، إذ امرتموهم بتسليم اسلحتهم ففعلوا ، في وقت وزعتم فيه الاسلحة على اعدائهم ، ولذلك ارجو ان تمنح المسيحيين بعض الاسلحة للدفاع عن انفسهم وممتلكاتهم (اميل خوري وعادل اسماعيل – السياسة الدولية في الشرق العربي) .

ومن مطالعة هذه الاسطر يتضح للقارىء مدى ما كان يعتمل في نفوس الأجانب من رغبات دنيئة تعتمد على اذكاء نار التفرقة المذهبية بين ابناء الوطن الواحد فتسلح الجميع لتظل ابواب حمامات الدم مفتوحة امام المتزمتين بدلاً من السعي لاخماد الفتنة والقضاء على دعاتها ومسببيها .

الفصل الخامس

ولاة صيدا وحكامها

ولاة صيدا

تذكر السالنامة التركية التي طبعت في بيروت سنة ١٣١٩ هـ = ١٩٠١ م اسماء ولاة ايالة صيدا الذين تعاقبوا عليها قبل الغائها وضمها الى ايالة بيروت وهم :

١٨٤٠ م = ١٢٥٦ هـ	الصدر الاسبق عزت باشا
١٨٤١ م = ١٢٥٦ هـ	سليم باشا
١٨٤٢ م = ١٢٥٧ هـ	الفريق عزت باشا (موقتاً)
١٨٤٢ م = ١٢٥٧ هـ	مصطفى باشا
١٨٤٣ م = ١٢٥٩ هـ	شيخ الوزراء اسعد مخلص باشا
١٨٤٥ م = ١٢٦٢ هـ	كامل باشا
١٨٤٦ م = ١٢٦٣ هـ	مصطفى باشا اسقودره لي
١٨٤٧ م = ١٢٦٤ هـ	صالح وامق باشا
١٨٥٠ م = ١٢٦٧ هـ	مشير الضبطية الاسبق محمد باشا
١٨٥٥ م = ١٢٧٢ هـ	الصدر الاسبق محمود نديم باشا
١٨٥٦ م = ١٢٧٣ هـ	صالح وامق باشا (ثانية)
١٨٥٧ م = ١٢٧٤ هـ	محمد باشا من فرقاء البحرية

١٨٦١ م = ١٢٧٧ هـ	خورشيد باشا
١٨٦٢ م = ١٢٧٨ هـ	احمد باشا القيصر لي
١٨٦٢ م = ١٢٧٩ هـ	قبولي باشا
١٨٦٤ م = ١٢٨١ هـ	محمد خورشيدباشا (ثانية)

حوادث مؤلمة

حوادث عام ١٨٦٠ — التي سنذكرها فيما بعد - سهلت التدخل الاجنبي الذي كان ينتظر حدوثها بفارغ الصبر ، وسرعان ما تظاهر وزير الداخلية العثماني فؤاد باشا ، المطلق الصلاحية من قبل السلطان ، بالرغبة في الاقتصاص من المعتدين اذ سمح للدولةالفرنسيةبإنزال قواتها للمحافظة على المسيحيين ظاهرياً ، وفي شهر ايلول دخلت هذه القوات صيدا وصور وبعبدا وزحلة ودير القمر .

وتمكن فؤاد باشا اثر الخلاف الذي ذر قرنه بين ممثلي الدول الاجنبية من فرض القرارات التي وضعت حدوداً للبنان الصغير ، فسلخت منه مناطق عكار والبقاع والتيم ومنطقة صيدا حتى شمال المدينة ، وجعلها متصرفية كانت مساحتها ٥٧٤٠ كيلو متراً مربعاً وعدد سكانها ٣٠٠,٠٠٠ نسمة غالبيتهم من المسيحيين ، ولم يكن لهذه المتصرفية من موانىء الا البترون وجونية وجبيل ، وألحقت هذه المتصرفية بولاية الشام .

صيدا قائمقامية

في سنة ١٨٨٨ م ، وعلى أثر جعل مدينة بيروت ولاية عثمانية ، ألحق بها أقضية صيدا وصور ومرجعيون .

وتذكر السالنامة العثمانية سنة ١٨٩٦ م ان قضاء صيدا كان يضم وقتئذ ٢٣,٦٠٠ نسمة مقسمين على الطوائف التالية :

٩٤٠٠ نسمة من السنيين و ٢٦٠٠ من الشيعة و ٥٣٠٠ من الموارنة و ٣٥٠٠

نسمة من الروم الكاثوليك و ٢٨٠٠ من الروم الأرثوذكس .

وكانت مدينة صيدا بالذات تضم القسم الاكبر من السنيين .

وتولى ادارة صيدا منذ ١٨٦٧ م

١٨٦٧ م	جعفر طيار افندي
١٨٦٨ م	محمد بك
١٨٦٨ م	علي بك
١٨٦٩ م	صالح بك
١٨٧٠ م	شاكر بك
١٨٧٤ م	رفقي بك
١٨٧٤ م	رفعت بك
١٨٧٤ م	شاكر بك

والأخير هو الذي فتح بوابة الشاكرية في صيدا ، واليه تنسب ، وكان يصطاف في بلدة جباع فبنى فيها مقصورة لطيفة . ولا يزال ذلك المكان يحمل اسمه حتى وقتنا الحاضر ... ثم تعاقب على صيدا القوام مقام التالية اسماؤهم :

١٨٧٦ م عبد الله ادلبي افندي الذي كان غريب الأطوار ، شديد الانتصار للفقير على الغني ، سواء كان محقاً ام مبطلا ، ومن اللطائف التي تروى عنه ان فلاحاً ادعى على ملاك من تجار صيدا بانه اغتصبه قطعة ارض ؛ فابرز المـــلاك سندات التمليك فلم يعبأ بها القائمقام فأراه بعض المحامين المادة التي تقضي بتسليم صاحب السند الارض ، فما كان منه الا ان شطب المادة من نسخة القانون وأمر بتسليم الارض للفلاح .

١٨٧٨ م احسان بك الذي عرف عنه محبته العلم وتنشيطه للمدارس والمعارف .

١٨٧٩ م احمد شكري افندي

١٨٨٣ م محمود بك

١٨٨٤ م صادق بك

١٨٨٥ م حسن فهمي بك

١٨٨٦ م عبد الغني افندي

١٨٨٦ م مصطفى حكمت بك القنواتي

١٨٨٨ م احسان بك (ثانية)

١٨٩٢ م محمود بك

١٨٩٣ م احمد شكري افندي (ثانية)

١٨٩٦ م رضا بك الصلح

١٨٩٨ م عبد اللطيف افندي

١٩٠١ م محمود ماهر بك

١٩٠٣ م كامل بك

١٩٠٥ م عبد الحليم افندي

١٩٠٦ م محمود جمال بك

١٩٠٨ م سعيد بك

٩١٠ — ١٩١٣ م محمود جمال بك (ثانية)

١٩١٥ م شبلي بك حماده (وكان قائمقاماً خلال الحرب العالمية الاولى) .

١٩١٧ م احمد بك (حتى خروج الاتراك من صيدا) .

الفصل السادس

الحالة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية

في صيدا

يقول السائح الفرنسي كيران الذي زار لبنان في اواسط القرن التاسع عشر : « ان نقل الجزار مركز الولاية من صيدا وجعله في عكا ، ساهم في تأخر حالة صيدا الاقتصادية لأنه طرد الفرنسيين منها سنة ١٧٩١ م وبدأت بواخرهم تتوجه الى بيروت التي اخذت تشق طريقها لتكون سيدة موانىء البلاد السورية » .

ويؤكد هذا ما ذكره السائح الفرنسي السيد فولناي الذي عرج على صيدا اثناء سياحته في سورية في اواخر القرن الثامن عشر اذ قال : « ان الفرنسيين كانوا يوردون الى صيدا من البضائع سنوياً ما يوازي قيمتها مليوني فرنك ، ويستوردون منها القمح والشعير والذرة والقطن والسمسم والتبغ » .

ولو أمعنا النظر في الأمر لاتضح لنا ان الخسارة التي لحقت بصيدا وبتجارها كانت جسيمة من جراء انتقال غالبية الجالية الفرنسية منها وابتعاد مراكبهم عن الرسو في مينائها مما تسبب في فشل الحركة الاقتصادية في المدينة وايقاف اليد العاملة عن العمل .

يستثنى من هذه الفترة ، الوقت الذي امضاه الامير بشير الشهابي الكبير على سدة الحكم بعد وفاة الجزار ، لأن الحركة الاقتصادية في صيدا نشطت قليلاً بعودة التجار الأجانب لارتيادها مع سفنهم ، ولنقل الحرير والزيتون منها اثر مساهمة الامير في التوسط لإعادة انشاء القنصليات في المدينة لتحمي مصالحهم وتسهر على رعاياها .

الحالة الاجتماعية

لم تتغير حالة صيدا الاجتماعية عن مثيلتها ايام المعنيين ، فالشعب ينقسم الى ثلاث فئات : الاشراف وهم الطبقة الملتصقة بالحكام ، تسايرهم وتدفع لهم الأموال لقاء تصرفها باقطاعات كبيرة من الارض يستثمرونها بواسطة الفلاحين الذين كانوا يعيشون على هامش الحياة يأكلون خبز الشعير والذرة ولا يتذوقون اللحم الا مرتين في العام الواحد خلال عيدي الأضحى ورمضان ، ولباسهم القميص والسروال ، وغطاء رؤوسهم اللبادة الخشنة وهم يسيرون حفاة الاقدام .

فلاح من ضواحي صيدا في القرن التاسع عشر

والطبقة الثانية هي الطبقة الوسطى وتضم التجار وارباب الصناعة والعلماء . وكان لباسهم القميص والسروال الطويل والغنباز وبعضهم يلبس الجبة ويضع على رأسه عمة يلفها حول اللبادة أو حول

قطعة من الكتـــان حيكت بشكل مستدير على قدر الرأس ، ويرتدون الحذاء – المشاية –

أما الطبقة الثالثة في المدينة فهي طبقة العمال وكانوا يرتدون القميص والسروال ايام العمل ويغطون رؤوسهم بقطعة من القماش يعقدون اطرافهـــا في مؤخرة الرأس ، ويتدلى طرفها بشكل يغطي الرقبة ويعملون وهم حفاة الاقدام . أما في ايام الجمعة والأعياد فكانوا يرتدون القميص والسروال وبعضهم الغنباز وينتعلون في أقدامهم – بابوجاً – يحتفظون به في منازلهم لهذه المناسبات .

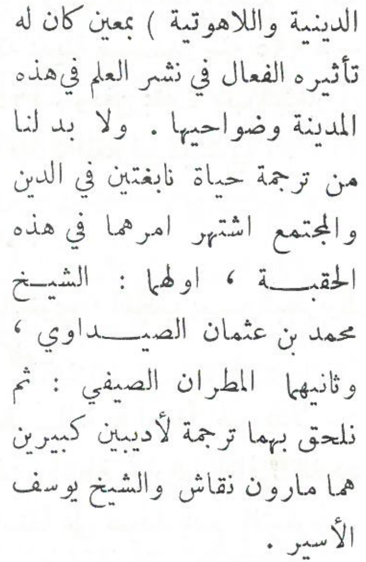
وكان لباس الأشراف عبارة عن قميص فوقها دراعة مزركشة ، وسروال كبير مزركش الجوانب ، حريري في الصيف وجوخي في الشتاء كما يرتدي بعضهم الجبة الحريرية صيفاً والجوخية شتـــاء ، ويضعون على وسطهم زناراً عريضاً من الحرير او من الصوف المنسوج يركزون فيه خنجراً أو « قربينة طبنجة » .

أما لباس المرأة فكان عبارة عن سروال طويل يصل الى قدمها وفوقـــه رداء يغطي الأقدام ، وتضع على رأسها عصابة من الحرير او القطن حسب مكانتها وتتدلى منه مشابك الذهب او الفضة ، ولا تخرج من البيت الا في حالات الضرورة واذا خرجت فانها تغطي رأسها بثوب طويل يلف جسمها بشكل لا يسمح للناظر بالتعرف عليها ، كما تغطي وجهها بمنديل سميك تكاد معه لا ترى طريقها إلا بصعوبة .

اما المرأة الموسورة فلباسهـــا السروال الطويل الحريري والرداء الطويل الحريري او الجوخي والدراعة المزركشة والمنديل المزركش تعصب به رأسها ، وفي الحفلات النسائية تضع على رأسها قاووقاً (طنطوراً) يتدلى من قمته منديلاً حريرياً مزركشاً نسائياً ينساب على كتفها وحتى اقدامها ، وتحيط عنقها بطوق من الحلى الذهبية والمجوهرات ، كما تضع في اذنيها الأقراط الكبيرة التي ترفعها بخيط حريري (نظراً لثقل الأقراط) تعقده في قمة رأسها وتلبس في قدمها خفاً من الجلد زاهي اللون او احمر قانياً .

الحياة الثقافية

وتبعاً للحالة الاقتصادية فان الحالة الثقافية في صيدا ايضاً كانت بين مد وجزر وقد ساهمت صيدا في مد ينبوع الثقافـــة (التي كانت مقتصرة على النواحي الدينية واللاهوتية) بمعين كان له تأثيره الفعال في نشر العلم في هذه المدينة وضواحيها . ولا بد لنا من ترجمة حياة نابغتين في الدين والمجتمع اشتهر امرهما في هذه الحقبة ، اولهما : الشيخ محمد بن عثمان الصيـــداوي ، وثانيهما المطران الصيفي : ثم نلحق بهما ترجمة لأديبين كبيرين هما مارون نقاش والشيخ يوسف الأسير .



السيدة والخمار

الصيداوي

هو محمد بن عثمان الصيداوي الفقيه الشافعي المذهب نزيل دمشق ، يقول عنه المحبي : « وكان من العلمـــاء العاملين كامل الخصال كثير التقوى والصلاح والورع ، وكان علماء دمشق يعظمونه ، وللناس فيه اعتقاد عظيم » .

خرج من صيدا سعياً وراء العلم الى القاهرة فأخذ من علمائها ، واقام مدة في جامع الازهر وبرع في كل الفنون وذاع صيته وعلمه ، وكان مع تغربه ذا وجاهة وإيثار على طلبة الأزهر . ثم قدم الى دمشق سنة ١٠٣٠ هـ واقام بمحلة القنوات واقرأ وأفاد . وكان لايفتر عن المطـــالعة والبحث ، وحضر دروس الشمس الميداني والنجم المغربي وولده الشيخ سعودي تحت قبـــة النصر ، ولزم العمادي

المفتي في دروسه ايضاً . وكان أصحاب المجالس يرجعون الى ما يقوله ، ويطيل البحث ، وكان صوته جهورياً يسمع من بعيد ، كثير التقشف في امر العبادة ، درّس في بقعة بالمسجد الأموي فرغ له عنها ابو العباس المقري ليلة ارتحاله الى القاهرة وأعطي بعض جهات في بعض الأوقاف ، وكان كل ذلك لا يقوم به لما عليه من السخاء وبسطة الكف . وكانت ولادته بمدينة صيدا سنة ٩٩٥ هـ — ١٥٨٦م ووفاته في دمشق سنة ١٠٦٥ هـ = ١٦٥٤ م ودفن بمقبرة باب الصغير في قبر كان اشتراه لنفسه قبل موته بعشر سنين (دائرة المعارف للبستاني) .

المطران افتيموس الصيفي : ١٦٤٣م=١٧٢٣م :

ولد في دمشق وتربى في جو عائلي مشبع بالتقوى ، اعجب به البطريرك مكاريوس الحلبي فرسمه شماساً سنة ١٦٦٢ م ثم كاهناً .

وفي عام ١٦٨٢ م اجمع اعيان صيدا على المطالبة به اسقفاً لهم بدلاً عن اسقفهم المتوفي ، اذ نمي اليهم صيته الطيب وعلمه بواسطة تجارهم الدائمي التردد على دمشق . فسامه البطريرك كيرلس الحلبي اسقفاً على صيدا باسم افتيموس . وفي سنة ١٦٨٣ م جمع عدداً من طلاب الكهنوت في الدار الأسقفية في صيدا واشرف بنفسه على تعليمهم وارشادهم فكونوا النواة الاولى للرهبانية المخلصية .

وفي عام ١٧١١ م انتقل بهم الى مزرعة قرب جون حيث كان قد انجز بناء دير لهم مؤلف من ٢٠ غرفة سكن وكنيسة صغيرة ومطبخ وخلاء ومائدة ، مما اعتبر اكبر دير في بلادنا في ذلك العصر .

اشتهر المطران الصيفي بسعة علمه وتنوع معارفه ، مما جعل الناس يطلقون عليه لقب « قفة العلم » .

وفي سنة ١٧١٠ م اصدر كتابه المشهور : « الدلالة اللامعة » وهو كتاب يتضمن اتفاق الكنيستين الشرقية والغربية واتحادهما برأي واحد وايمان واحد.

وهو اول من نشط حركة الاتحاد مع الكرسي البابوي واصبح عدد الكاثوليك

في ابرشية صيدا ١٥ الفاً ، وسجن في قلعة صيدا لأجل ذلك مدة ٩٨ يوماً في عام ١٧٢٣ م .

وأبان جولة رعائية كان يقوم بها في دمشق ادركته الوفاة يوم الاربعاء في ٢٧ تشرين الثاني سنة ١٧٢٣ م ودفن فيها في مدافن البطاركة .

ويعتبر المطران الصيفي رائداً كبيراً من رواد العلم والمعرفة في عصره ، بالإضافة الى كونه من دعائم الكاثوليكية في الشرق ، المبشرين بالاتحاد مع الكرسي البابوي والعاملين في سبيل الوحدة المسيحية تحت رئاسة الحبر الروماني.

وكان لنجاحه في تأسيس وانشاء دير المخلص الاثر الفعال في بعث النهضة الادبية والفكرية والدينية في هذه المنطقة ، اذ خرّج الدير عدداً من الآباء كانوا مشكاة للعلوم في ذلك العصر المظلم من تاريخ بلادنا .

عبد الغني النابلسي وصيدا :

في غرة محرم سنة ١١٠٥ هـ = ١٦٦٣ م زار صيدا العلامة الشيخ عبد الغني النابلسي المتصوف المشهور فقال فيها :

نزلنا من حما صيدا بماء طيب نبعه
فكانت اعين السبعة علينا الأعين السبعة

وذكر انه نزل في الجامع المعروف بجامع الكتخدا بضيافة الشيخ محمد المعروف بابن قطيش ، كما استضافه ايضاً الشيخ الحاج حسين . ويذكر النابلسي ايضاً ان مفتي الشافعية وقتئذ كان الشيخ رضوان بن الحاج يوسف الصباغ المصري الدمياطي ، والقاضي فيها كان العالم الفقيه محمد الروحي ، كما يذكر انه اجتمع في منزل المفتي الى الوزير احمد باشا حاكم ثغر مدينة صيدا .

وقال الشيخ النابلسي هذه القصيدة في صيدا ومباهجها واهليها :

صاد قلبي هوى الأحبة صيدا ... عندما جئت قاصداً ارض صيدا
بلدة طاب رونق البحر فيها ... فأزالت عنـــا من الهم قيدا
اعجبتني لطافة الماء منهـــا ... والهواء الذي انبرى ترديدا
ساحل مطلق الجوانب غض ... يقذف الدر من حصاه نضيدا
فيه صحب لنا هناك كرام ... كل شهم منهم يـلوح فريدا
يحفظون الوداد بالصدق حتى ... من اتاهم لا يعرف التنكيدا
صانهم ربهم وخص حماهم ... بالمعـــالي فلا يزال مشيدا
امد الدهر ما النسائم هبت ... وسمعنا طير الربى غريدا

صيدا باعثة الفن المسرحي

مارون نقاش

وكما ساهمت صيدا في النواحي الدينية والادبية في هــذا العصر فقد انجبت ايضاً نابغة الفن التمثيلي ورائدها الاول في ديار العرب مارون نقاش ، الذي نستقي لمحة عن حياته من كتاب مصادر الدراسة الأدبية ص ٧٤٨ ج ٢ للدكتور يوسف اسعد داغر :

« مارون نقاش هو ابو المسرح العربي والرائد الاول لفن التمثيل احد الفنون البارزة التي ميزت النهضة الادبية في العصر الحديث .

والتمثيل اصلاً يرمي الى تهذيب النفس بتؤدة عن طريق العبرة والموعظة في جو عبق بالرصانة والمرح ان كانت الملهاة تراجيديا او كوميديا .

دخل الادب المسرحي الآداب العربية على يد مارون النقاش الذي مثل في شهر شباط سنة ١٨٤٨ م او ما قبله بقليل ، اول مسرحية عمومية هي رواية البخيل التي عربها عن موليير : فالنقاش هو الرائد الاول للتمثيل .

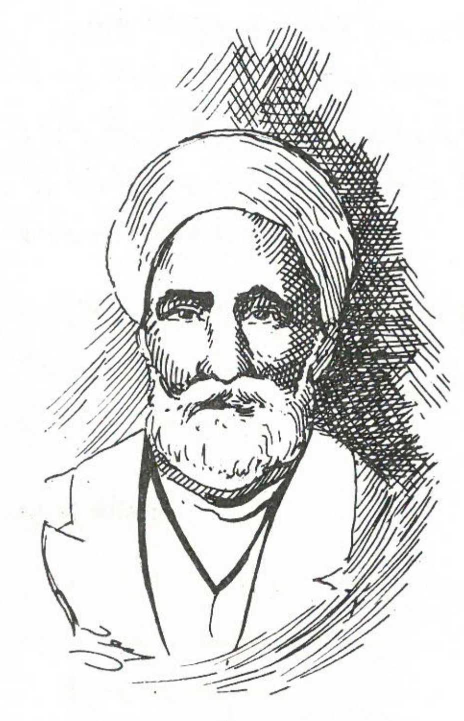
اقتبس مارون نقاش هذا الفن خلال رحلة قام بها الى ايطاليا . فاخذ أصوله وتضلع من فنونه ، ولدى عودته الى بيروت حاول ان يدخل هذا الفن الى البلاد

بعد ان عدل في شرائطه ما يوافق طبائع الشرقيين فمثل تباعاً بين شباط ١٨٤٨ م وأواخر سنة ١٨٥٠ م ثلاث روايات ، اولها البخيل ، وثالثتها الحسود السليط ، مترجمتين عن الفرنسية ، والثانية « ابوالحسن المغفل ، او هارون الرشيد» مقتبسة حوادثها من قصص الف ليلة وليلة .

ولد مارون نقاش في صيدا وتربى فيها ، ثم انتقل الى بيروت حيث اتقن اللغة العربية . وتوفي في طرطوس سنة ١٨٥٥ م بعد ان شق الطريق امام الأدب المسرحي العربي لمن جاء بعده » .

الشيخ يوسف الاسير

١٢٣٠ هـ = ١٨١٥ م — ١٣٠٧ هـ = ١٨٩٠ م



الشيخ يوسف الاسير

ولد في صيدا سنة ١٨١٥ م ونشأ فيها ، وتلقى في كتاتيبها مبادىء العلوم والقرآن ، ثم رحل الى دمشق سنة ١٨٤٧ م والتحق بالمدرسة المرادية سنة واحدة . ثم توجــه الى مصر وجاور في الازهر سبع سنوات سعياً وراء العلوم العقليــة والنقلية . وبعد ان اصيب بمرض في الكبد عاد الى صيدا ومنها قصد طرابلس فاقام فيها ثلاث سنوات تعرف خلالهـــا الى علمائها ، ثم انتقل الى بيروت

فاختارها وطناً لإقامته اذ تولى رئاسة كتابة محكمتها الشرعية ، ثم عهد اليه بالافتاء في عكا . وبعدئذ اسند اليه فؤاد باشا وظيفة المدعي العام في جبل لبنان فقام بها سبع سنوات . ثم انتقل الى الاستانة حيث اصبح رئيساً للمصححين في وزارة المعارف بالاضافة الى وظيفته الجديدة كأستاذ للغة العربية في دار المعلمين الكبرى .

وعاد الى بيروت هرباً من برد الاستانة حيث تفرغ للتأليف في الفرائض والابحاث الفقهية ، وحرر في جريدة لسان الحال ، وتولى رئاسة تحرير ثمرات الفنون ، كما اسهم مع الدكتور كرنيليوس فان ديك في تهذيب ترجمة الكتاب المقدس وادركته المنية في بيروت سنة ١٨٩٠ م .

ويعتبر الشيخ يوسف الاسير احد رواد النهضة الادبية الحديثة ، ومن رجال الرعيل الاول فيها ، وهو كاتب فصيح اللسان واسع الرواية ، اديب مدقق وشاعر ناثر ، وفقيه فرضي ضليع ، ومرب خرج اجيالاً من الادباء في المعاهد التي تولى التدريس فيها : كالمدرسة الاميركية في عبيه والكلية العربية الانجيلية ومدرسة الحكمة في بيروت .

وكان ذكي الفؤاد دقيق الانتقاد ، ثقة في العلوم العربية والفقهية ، وله مراسلات شعرية ونثرية مع أدباء عصره كالشيخ ابراهيم الاحدب واحمد فارس الشدياق والشيخ ناصيف اليازجي .

من مؤلفاته :

١ — ارشاد الورى لنار القرى (نقد لكتاب ناصيف اليازجي نار القرى)
٢ — ديوان الشيخ يوسف الاسير
٣ — رائض الفرائض
٤ — رد الشهم للسهم

٥ — شرح رائض الفرائض
٦ — شرح كتاب أطواق الذهب « للزمخشري »
٧ — المجلة (ضمنها القوانين الشرعية والاحكام العدلية)
٨ — سيف النصر (رواية)

(يوسف اسعد داغر « مصادر الدراسة الأدبية ج ٢) .

الفصل السابع

مطامع الدول الاجنبية

عود على بدء

ظلت بلادنا منذ اواسط القرن الثامن عشر ، وحتى الآن ، لا سيما في عهد ظاهر العمر واحمد الجزار وخلال حملتي بونابرت ومحمد علي ، مطمح انظار ساسة الدول الكبرى نظراً لموقعها الجغرافي والاقتصادي والحربي . كانت هذه الدول تراقب بعين ساهرة الأحداث الهامة التي تمثل على مسارحها ، خاصة ماجرى فيها في أواخر القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر . وكانت انجلترا اكثر الدول العظمى اهتماماً بهذه الشؤون الخطيرة ، إذ لم يكن ليخفى عليها ان قيام دولة قوية في الشرق الادنى تطل بحدودها على ضفاف الفرات والبحر الابيض المتوسط يشكل تهديداً للهند — درة تاج المستعمرات البريطانية — ولذا رأيناها تهب في وجه نابليون ومحمد علي ، وتثير في وجههم العراقيل لاحباط تمركزهم في هذه البقعة من الأرض .

وأبت السياسة بعد ذلك على بلادنا ان ترتاح مما ألم بها من هول المصائب والنكبات ، فأطلت برأسها وحركت أناملها وأذنابها ، وقد رأت ما سيطر على الاهلين من الخلافات واخذت تثير الحفائظ والاحقاد والضغائن وتذكي نيران الحزازات بين الطوائف ، فأخذ بعضها ينافس البعض الآخر وقد أطبق الجهل

على بصيرتهم فغشى عقولهم ، ولم يفهموا ان الدول الاوروبية تسخرمنهم وتسخر طبائعهم الوحشية وميولهم الدنيئة وغرائزهم البربرية تحقيقاً لأطماعها ، وتوسلاً لتحقيق غايتها ، فكانت مذابح سنة ١٨٦٠ م وقد جرت فيها تلك السيول من الدماء البريئة التي اهرقها المتزمتون .

وكان لصيدا نصيب كبير في ايقاف الكارثة عند اسوارها ، كما كان لضواحيها نصيب من تلك المجزرة وفي درئها على حد سواء .

صيدا زمن كارثة ١٨٦٠

على أثر المجازر الطائفية البغيضة التي قامت في الجبل وفي الشوف سنة ١٨٦٠م هرع عدد كبير من الفلاحين المسيحيين الى صيدا وتمكن بعض من دخل المدينة والتجأ الى خان الافرنج من النجاة بينما غالبية من وصل الى الضواحي وتأخر عن دخول المدينة تعرض للقتل . ذكر كيران ، السائح الفرنسي ان عدداً كبيراً من المسيحيين ذبح في بساتين صيدا من قبل الاتراك وبعض الدروز الثائرين . أما من دخل المدينة فقد بسط عليهم حمايته السيد ديركالو القنصل الفرنسي في المدينة وأنقذهم من موت محتم وساعده في ذلك عدد من زعماء المدينة المسلمين الذين تولوا أمر حماية مواطنيهم المسيحيين من سكان المدينة .

أما في ضواحي صيدا ، وبنوع خاص في جبل عامل ، فقد قام زعماؤهم بمد يد المعونة للمسيحيين الملتجئين اليهم فبسطوا عليهم حمايتهم ، وتعرضوا للهجمات من بعض عمال الدولة العثمانية ونهب ممتلكاتهم ، ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر ، الشيخ محمد سليمان الزين والشيخ عبد الله نعمه وغيرهما اللذين كان لهما الفضل في الحفاظ على العديد من المسيحيين الملتجئين اليهما وفي طليعتهم المطران بطرس الماروني الذي كان يقيم في احد الاديرة في جوار جزين » .

وبلغ عدد ضحايا المسيحيين في جوار صيدا وفي جهات جزين ١٨٠٠ نسمة (ميشال شبلي في كتاب من تاريخ لبنان باللغة الفرنسية) .

وفي ايلول ١٨٦٠ م نزلت قوات فرنسية في لبنان فاحتلت صيدا ودير القمر وزحلة وقب الياس وبعبدا وصور ، بينما نزل فؤاد باشا وزير الداخلية العثمانية موفد السلطان العثماني في بلدة المختارة للتحقيق في اسباب المجازر ، متظاهراً برغبة الدولة في معاقبة المذنبين .

وفي اوائل عام ١٨٦١ م نزل فؤاد باشا الى صيدا فاستقبله متسلمها وقتئذ اسماعيل بك الصغير فاجريا القصاص بحق من زعموا انهم ساهموا في اعمال الفتنة بين الاهلين فراح ضحية ذلك عدد من الابرياء .

متصرفية صيدا

وفي عام ١٨٦١ م تولى متسلمية صيدا خورشيد باشا فعمدت الدولة العثمانية بعد تهدئة الخواطر وسن نظام جبل لبنان الأساسي الى انتهاج خطة جديدة في بلادنا ترمي الى ضبط الادارة فيها وربطها مباشرة بالاستانة وازالة كل اثر للاستقلال الاداري في لبنان فاصدر الباب العالي عدة قرارات وشرائع قسمت بموجبه البلاد الى ولايتين كبيرتين حلب والشام وكل منهما الى متصرفيات وقائمقاميات فكانت صيدا متصرفية تتبع ولاية الشام في ادارتها .

وتولى متصرفية صيدا أولاً ادهم باشا ، ثم ابراهيم باشا زيادة الذي عرف عنه انهماكه في الميسر وشرب الخمرة ، ومما يروى عنه انه في حفلة ختان أولاده نصب في دار الحكومة موائد القمار والمسكر مما دعا الدولة الى عزله من منصبه في عام ١٨٦٥ م وتقرر بعدئذ جعل صيدا قائمقامية تتبع ولاية بيروت .

الحاج علي الديماسي

وكان رئيس بلدية صيدا وقتئذ الحاج علي الديماسي الذي اشتهر بنبله وأخلاقه الحميدة ، وعطفه على الفقراء ، اذ كان يزور بنفسه الباعة فيحدد لهم اسعار المواد الغذائية كالسمن واللحم والخضار والفاكهة ، فاذا رفض الباعة الانصياع لأوامره

يرسل فيحضر السمن واللحم من جهات صفد ثم يبيعها من الاهلين بالاسعار المقررة على حساب البلدية فيضطر عندئذ الباعة الى تخفيض اسعارهم خوفاً من الخسارة .

ولم يكن وقتئذ في المدينة من الشرطة للمحافظة على الأمن اكثر من خمسة رجال ، ومع ذلك فقد ساد الأمن والنظام . غير ان الحكام الاتراك وبعض المتنفذين كانوا يقومون باعمال تعسفية لا يجسر احد من الاهلين على مجابهتها (الشيخ احمد عارف الزين تاريخ صيدا) .

قائمقامية صيدا

ودار دولاب الدهر على صيدا فأذلها، وبعد ان كانت لفترة قريبة مركز ولاية كبيرة أصبحت متصرفية ثم قائمقامية في عام ١٨٦٥ م = ١٣٨٣ هـ .

وأول من تولى الحكم فيها هو نجيب افندي الذي كان محاسباً عندما كانت صيدا متصرفية ، فلما حدثت التشكيلات الجديدة عين قائمقاماً ، وتلاه في سنة ١٨٦٧ جعفر طيار افندي ثم القائمقامين الذين ذكرت اسماؤهم في ص ٢٩٩ و ٣٠٠ .

الحركة الادبية

بالرغم مما اجتاح مدينة صيدا من نكبات ومحن فقد ظلت امينة على الرسالة الثقافية التي اقتبستها منذ القدم وظل ابناؤها أوفياء للعلم والأدب فتلقفوا الثقافة عن طريق الكتاتيب التي كان ينشئها بعض علماء الدين ، أو عن طريق الالتحاق بالمساجد والأديرة حيث كانوا يستمعون الى الفقهاء ويقتبسون من المعتكفين على خدمة الله الفقه واللاهوت والقراءة والكتابة والأخلاق .

وما لبث الأمر ببعض الوطنيين المتعلمين بعد ان لمسوا قيام بعض الإرساليات الاجنبية بتأسيس مدارس لهم في المدينة حتى عمدوا بدورهم الى انشاء مدارس خاصة ليتعلم ابناؤهم فيها بعض مواد العلوم الحديثة كالحساب واللغة والجغرافيا والتاريخ وعلم الفلك ، الى جانب العلوم الدينية .

وهكذا شقت النهضه الادبية طريقها في مدينة صيدا بشكل واضح مستبقة غيرها من المدن اللبنانيه والسورية بعشرات السنين ، ومقيلة عثرات العلم مما لحق به من وهن خلال العصر المظلم من تاريخ الامبراطورية العثمانية في بلادنا . وكان من حصاد هذه النهضة نبوغ عدد من اقطاب الفكر والسياسة العرب افادوا الامة العربية بما قدموه لها من خدمات في شتى المجالات العلمية والادبية والسياسية . ودليلنا ان أول من نال شهادة طبية رسمية من الجامعة الاميركية في بيروت — الكلية السورية سابقاً — في عام ١٨٧٨ م وباللغة العربية هو الطالب الصيداوي الدكتور المرحوم يوسف ابيلا . وان أول مجلة ثقافية تاريخية أدبية دينية صدرت في لبنان واستمرت فيه حتى وقتنا الحاضر هي مجلة « العرفان » الصيداوية التي أصدرها سنة ١٩٠٩ العلامة المرحوم الشيخ احمد عارف الزين .

الشيخ ابراهيم الحوراني

في ٢٢ ايار سنة ١٩٠٣ م زار صيدا العلامة الشيخ ابراهيم الحوراني لإلقاء الخطبة النهائية على خريجات مدرسة البنات الأميركية فألقى قصيدة رائعة جاء فيها :

قدم الزمان وصبوتي تتجدد ... فكأنني في كل عصر أولد
شيخاً أرى بين الشيوخ وامرداً ... في المرد مما شاب منه الامرد
وصفوا لنا الدنيا على غير الهدى ... والحق ما دنياك الا مشهد
فيها تباينت الرؤى وتعددت ... وتوحدت حسناً فلا تتعدد
وأحب ما فيها إلي شذا الصبا ... من ارض صيدا والحدائق تشهد
أرض كفردوس النعيم نساؤها ... حور الجنان لها المحاسن تسجد
ورجالها اعلام نور في الدجى ... والنور في غسق الدياجي يحمد
ما أنسى لا أنسى الذي شاهدته ... من انسكم فنظيره لا يوجد
في مهجتي زرعت يمين ودادكم ... شكراً وما زرعت يمين تحصد

الدستور العثماني

في ٢٤ تموز سنة ١٩٠٨ م أذيع نبأ اعلان الدستور العثماني وافتتاح مجلس المبعوثان في الاستانة فقوبل هذا الخبر بحماس وسرور كبيرين من اهالي صيدا ، فنظمت المظاهرات وسارت مواكبها تخترق الشوارع والساحات تهتف بحياة السلطان . وعانق الشيخ المسلم الكاهن المسيحي ، وعمت الفرحة والبهجة المدينة بجميع طبقاتها ، وأقيمت المهرجانات في المدينة طيلة أيام ثلاثة لاعتقاد الناس ان عهد المساواة والحرية قد أشرق نوره وان عهد الاستبداد قد ولّى الى غير رجعة . ولكن سرعان ما خاب أملهم ، لأن جمعية الاتحاد والترقي عمدت فور استلامها الحكم الى السير في مخطط إذلال العرب وتذويبهم في بوتقة الامة التركية ، الأمر الذي رفضه العرب وعارضه زعماؤهم ، ان في فترة استبداد السلاطين وولاتهم ، أو في عهد جماعة الاتحاد والترقي .

غازل صوف صيداوي في مطلع القرن العشرين

الحقبة الخامسة

١٩١٤ - ١٩٦٦م.

صيدا في عصرها الحديث

الفَصْلُ الأول

تركيا تدخل الحرب العالمية الاولى

في ٢٩ تشرين الاول سنة ١٩١٤ م أوقفت تركيا العمل بالقرار الذي منح الجبل اللبناني امتيازات خاصة سنة ١٨٦١ م فضمته الى الامبراطورية العثمانية وألحقته بولاية دمشق ، كما أعلنت الحرب على روسيا وفرنسا وانكلترا الى جانب حلفائها المانيا والنمسا وبلغاريا .

وعينت تركيا احمد جمال باشا وزير البحرية قائداً عاماً للجيش العثماني الثامن فاتخذ مدينة دمشق مقراً له .

وما ان وصل جمال باشا في ٥ تشرين الثاني سنة ١٩١٤ م الى دمشق ، حتى أمر بالتضييق على اللبنانيين وسوقهم الى الجندية ، وأوعز بقطع الأشجار لتكون وقوداً لتدفئة الجند وتسيير القاطرات الحديدية ، واستولى على المحاصيل الزراعية ودقق في المساعدات المالية التي ترد الى الاهلين من ابنائهم واخوانهم المهاجرين ، وحاسب اللبنانيين على انفاسهم وشكل مجلساً عرفياً عسكرياً في عاليه لمحاكمة كل من تسول له نفسه انتقاد السلطة أو التذمر مما لحق به من ضيم . وهكذا عمت المجاعة لبنان ، واكل الناس الكلاب والهررة ، وذكرت المصادر الوثيقة انه في سنة واحدة توفي في الجبل اللبناني ٨٠ الف نسمة ، كما احصى وفد الصليب الاحمر الدولي اثر وصوله الى لبنان في اواخر عام ١٩١٨ م عدد المتوفين في لبنان

جوعاً خلال سنوات الحرب العالمية الاولى فبلغ ٢٠٠ الف نسمة ...

صيدا خلال الحرب العالمية الاولى

عامل الاتراك العرب اثناء الحرب العالمية الاولى معاملةسيئة جداً، فمن سيق منهم الى الجندية دفعوا به الى الصفوف الاولى من المعارك ليقتل فيسبيل تركيا . أما المدنيون فساروا معهم سيرة من يود اماتتهم عن طريق الجوع والعري والمرض .

هذه المصائب التي ألحقها الاتراك بالشعب العربي في كل مكان كانت من أهم الأسباب التي وحدت قلوبهم واهدافهم على اختلاف مذاهبهم ونحلهم ، وجعلتهم يفكرون جدياً بالتخلص من مستعمريهم . ولذلك بدأ المفكرون يؤسسون الجمعيات السرية ويدرسون الوسائل والسبل التي تؤدي بهم للانفصال عن جسم الامبراطورية العثمانية ، وتأسيس دولة عربية مستقلة تجمع شتاتهم ، وتوحد صفوفهم .

وبالمقابل ، عمد الاتراك الى الانتقام من الزعماء العرب ، فألقوا القبض على عدد كبير منهم وساقوا المئات الى المنفى فيهضاب الاناضول ، وعلقوا علىأعواد المشانق افضل رجالات العرب علماً واخلاقاً ووطنية بعد ان اتهموهم بالخيانة والمروق من الوطنية وممالأة الأعداء .

وكان نصيب صيدا من ذلك ان علق احـد ابنائها الابطال على المشنقة مع اخوانه الشهداء في ساحة البرج في بيروت بتاريخ ٦ ايار سنة ١٩١٦ وهو المرحوم توفيق البساط . كما نفي الى الاناضول عدد من رجالاتها في طليعتهم رضا الصلح وولده رياض . وفقدت المواد الغذائية من الاسواق فعم المدينة الجوع وانتشر داء التيفوس ، وكانت اصوات الاستغاثة ترتفع طالبة العون والنجدة وهي تقول: « جوعان ... جوعان ... يا اهل المروءة ... »

وتساقط في طرقات صيدا عشرات من الناس فماتوا جوعاً اثر فقدان السكر والقمح والشعير والذرة من الأسواق ، وتعذر وجود الهررة والكلاب والحمير في المدينة بعد ان عمد بعض السكان الى التغذي بلحومها ، وبقي هذا الكابوس يجثم فوق صدر صيدا حتى اندحر الجيش العثماني امام القوات البريطانية الزاحفة على الساحل من الجنوب .

الحكومة العربية الموقتة في صيدا

ولما وصلت طلائع الجيش الانكليزي الى ضواحي صيدا في ٣٠ ايلول سنة ١٩١٨ قام أحد ابنائها المرحوم رياض الصلح — مع عدد من الشباب الصيداوي — بدخول دار الحكومة فرفعوا على ساريتها العلم العربي ، وأعلنوا نهاية الحكم العثماني في الجنوب وتمسكهم بحكم الشريف حسين امير مكة ، ونودي بالسيد رياض الصلح رئيساً للحكومة العربية الموقتة في الجنوب .

وعمت البهجة المدينة واستبشر الناس خيراً فخرجوا الى الشوارع يهنئون بعضهم بعضاً بالحدث الجديد وجـلاء غيوم العثمانيين عن ديارهم ، وسارت المظاهرات الى دار الحكومة تعلن ولاءها للعهد الجديد وتصميمها على الدفاع عنه بكل ما تملك .

وفي ٢ تشرين الاول سنة ١٩١٨ م دخل القائد الانكليزي المدينة وتوجه فور وصوله الى السراي حيث استقبلهرئيس الحكومة الموقتة ومساعدوه وقدموا له ولمرافقيه من الضباط الشاي والحلويات . وبعد ان مكث برهة يتحدث الى رجالات المدينة ودعهم شاكراً .

الجيش الفرنسي في المدينة



في ٧ تشرين الاول نزلت وحدات من الجيش الفرنسي بقيادة نائب الاميرال فيرناي في بيروت وصيدا واحتلت بعض الأماكن وطلبت من الحكومة العربية

نزع العلم العربي عن دار الحكومة لتضع مكانه العلم الفرنسي تحقيقاً لمعاهدة سايكس بيكو المتضمنة وضع لبنان وسوريا تحت الرعاية الفرنسية . ولمـا رفضت الحكومة العربية الانصياع للأمر تدخل القائد الانكليزي وأكره اركان الحكومة على مغادرة صيدا والتوجه إلى دمشق للالتحاق بالأمير فيصل وهكذا زال الحكم العربي عن صيدا بعد ان دام فيها ثمانية ايام فقط ...

النقد السوري واللبناني

كان الناس خلال الحكم العثماني يتعاملون بالعملة العثمانية كالقرش او الجوروك والبشلك والريال المجيدي ونصف الريال وربع المجيدي والليرة العثمانية الذهبية الحميـــدية والرشادية ، ثم تعاملوا بالجنيه المصري اثر دخول قوات الحلفاء الى الى لبنان وسورية . ولكن بنك سوريا ولبنان الكبير الذي اخد كل صلاحيات البنك العثماني سابقاً ، نال امتياز اصدار النقد الورقي باسم البلدين عام ١٩١٩ م في عهد الفرنسيين .

وفي آذار سنة ١٩٢٠ م بدأ التعامل بالورق النقـدي السوري واللبناني في كل من سورية ولبنان ومنع التداول بالجنيه المصري .

الملك فيصل

في ٧ آذار سنة ١٩٢٠ ، اجتمع المؤتمر الوطني في دمشق وهو يمثـل مختلف المناطق السورية واللبنانية والفلسطينية ومثل صيدا فيـــه رضا بك الصلح — فانتخب الأمير فيصل ملكاً عليها. وفي ذات الوقت قامت بعض القوات العربية بزرع القلق أمـــام القوات الفرنسية المحتلة في مناطق مرجعيون وصور وصيدا وراشيا ، فبادرت السلطة الفرنسية إلى القاء القبض على عدد من الزعماء الوطنيين المخاصين لفيصل وبينهم سبعة من أعضاء مجلس ادارة حكومة لبنان الكبير .

وفي ١٩ تموز سنة ١٩٢٠ م وجه الجنرال غورو القائد الأعلى للقوات الفرنسية

انذاراً إلى الملك فيصل أتبعـه بانذار ثانٍ في ٢٢ تموز بضرورة قبول الانتداب الفرنسي على سورية . ولما رفضت الحكومة العربية في دمشق الانذارين زحفت الجيوش الفرنسية وأثر معركة ميسلون التي استشهد فيها وزير الحربيـة السوري يوسف العظمة دخلت القوات الفرنسية دمشق في ٢٥ تموز سنة ١٩٢٠ بعد أن غادرها الملك فيصل إلى فلسطين وهكذا دخلت سورية بعد لبنان تحت الانتداب الفرنسي .

دولة لبنان الكبير

في ٣ آب سنة ١٩٢٠ م أعلن الجنرال غورو ضم البقاع إلى سنجق جبل لبنان وفي ١ أيلول سنة ١٩٢٠ م أعلن قيام دولة لبنان الكبير بحدوده الحالية أمام جمهرة من الأهلين ورجال الدين .

وتولى حكم دولة لبنان الكبير من الفرنسيين :

١ — القومندان ترابو من ١ ايلول سنة ١٩٢٠ — ٢ ايار سنة ١٩٢٣ م .
٢ — السيد اوبوار من ١٢ ايار سنة ١٩٢٣ — ٢٧ حزيران سنة ١٩٢٤ م .
٣ — الجنرال فندنـــبرغ من ٢٧ حزيران سنة ١٩٢٤ — ١٣ كانون الثاني سنة ١٩٢٥ م .
٤ — السيد كايلا من ١٣ كانون الثاني سنة ١٩٢٥ م — ٢٥ ايار سنة ١٩٢٦م ، الذي اعلن قيـام الجمهورية اللبنانية في ٢٣ ايار سنة ١٩٢٦ وانتخب لرئاستها الاستاذ شارل دباس في ٢٦ آيار سنة ١٩٢٦ وحددت مـــدة رئاسته بثلاث سنوات ...

تقسيمات دولة لبنان الكبير الادارية

في ٨ آذار سنة ١٩٢٢ تشكل اول مجلس نيابي في لبنان وقـــد تألف من (٣٠) نائباً كما أعلن تقسيم لبنان إلى أربع سنجقيات بالاضافة الى سنجقيتين

ممتازتين هما بيروت وطرابلس وهي :

١ — سنجقية لبنان الشمالي ومركزها زغرتا — ٢ — سنجقية جبل لبنان ومركزها بعبدا — ٣ — سنجقية البقاع ومركزها زحلة — ٤ — سنجقية لبنان الجنوبي ومركزها صيدا . وتعين على كل منها حاكم وطني يشرف عليه مستشار فرنسي .

الجنرال ويغـــاند

أثر زيارة قام بها الى صور وصل الى صيدا قبـل ظهر ٢٣ آب سنة ١٩٢٣ الجنرال ويغاند القائـد الأعلى لجيش الشرق والمفوض السامي الفرنسي في سورية ولبنان يرافقه السيد اوبوار حاكم جبل لبنان ، وقد استقبله جمهور من الأهلين وطلبة المدارس . وفور وصوله الى قصر البلدية إستقبل وفود الأهلين والوجهاء ورجال الدين . والقى أمامه الحاج سعيد البزري رئيس البـلدية خطبة ترحيب باسم المدينة اجابه عليها الجنرال شاكراً ومنوهاً بتقديره للمدينة الأثرية العريقة ولرجالها المفكرين ...

وفي المساء اقيمت على شرفه في دار الحكومة حفـلة شاي تكلم اثناءها النائب يوسف الزين مرحباً ومعلناً عن بهجـــة أبناء الجنوب برؤية فخامته ، راجياً منه العمل على فتح المدارس في هذه المنطقة التي تضم (٣٥٠) قـرية ليس فيها سوى (٣٠) مدرسة فقط ، بالرغم من ان السكان لم يتأخروا يوماً عن دفع الضرائب المترتبة عليهم للدولة .

وقد وعد الجنرال بدراسة هذه المطالب والأهـتمام بتحقيق ما أمكن منها فور عودته إلى بيروت .

وفي ساعة متأخرة من الليل غادر الجنرال صيدا عائداً إلى بيروت .

الجنرال فاند نبورغ في صيدا

في ١٢ تموز سنة ١٩٢٤ مر في صيدا خلال زيارة عامة للجنوب الجـنرال فاند نبورغ حاكم لبنان الكبير يرافقه القومندان كوستيلير وعـدد من اركان حربه . وبعد استراحة قصيرة في دار المتصرفية غادرها مع مرافقيه الى حاصبيا فمرجعيون حيث أمضى ليلة هناك . وبعدئذ توجه الى النبطية ومنها عـاد إلى صيدا حيث استقبله على باب السراي الأمير توفيق أرسـلان متصرف الجنوب والقومندان مارتان المستشار الفرنسي ورجال الدين وجمهور من الأعيان والموظفين . وبعد أن حيته ثلة من رجال الدرك والشرطة دخل ردهة المتصرفية حيث قـدم له المتصرف وجهاء البلدة وبعدئذ تكلم مرحباً به سيادة المطران خرياطي باسم جميع أهالي صيدا عارضاً مطالب المدينة وتبعـه على الأثر الشيخ منير عسيران قاضي الشرع متكلماً في نفس الموضوع . وقد أجاب الجنرال على الخطيبين واعداً بتحقيق المطالب في اقرب فرصة ممكنة . وبعــد أن أمضى بعض الوقت في الأستراحة غادر صيدا متوجهاً إلى جزين .

تقسيم لبنان الى (١١) محافظة

في ٩ نيسان ١٩٢٥ اصدر حاكم دولة لبنان الكبير السيد كايلا قراراً رقمه (٣٠٦٦) يقضي بتنظيم دولة لبنان تنظيماً إدارياً جديداً وتقسيم اراضي الدولة إلى إحدى عشرة محافظة بدلاً من الالوية الأربعة والمدينتين المستقلتين إدارياً — بيروت وطرابلس — وقد اقترن القرار بموافقة المفوض السامي الفرنسي الجنرال ساراي .

أما المحافظات اللبنانية فقد أصبحت على الشكل التالي :

١) محافظة طرابلس (٢) محافظة البترون (٣) محافظة كسروان (٤) محافظة المتن (٥) محافظة بيروت (٦) محافظة الشوف (٧) محافظـة بعلبك (٨) محافظة زحلة (٩) محافظة صيدا (١٠) محافظة صور (١١) محافظة مرجعيون .

محافظة صيدا

والحق بمحافظة صيدا المديريات التاليـة : ١ – النبطية – ٢ – عدلون – ٣ – جزين – كما اشتملت هذه المحافظة على المناطق والبلدان التالية : الشارع – الدكرمان – مكسر العبد – الوسطاني – الزيتـــون – السرايا – الكشك – الكنان – السبيل – المسالخية – مجدليـــون – عبرا – بقسطا – الهلالية – بستان الشيخ – الحما – البرامية – عـــين الدلب – الميه وميه – مجيدل – جنسنايا – كفرتعلا – وادي بعنقودين – شواليق – كرخا – كفريا – درب السيم – كفرحتي – زغدرايا – مغدوشة – بيصور – المحاربيـــة – غازية – حيتولي – عدوسية – نجابية – مزرعة عرب الجل – مزرعـة عرب سكر – القرية – المعمرية – المطرية – جباع – كفرشلال – طنبوريت – عنقون – عقتانيت – الحجة – الحارة – كفردجال – خربـة كتايب – خربة بصل – براك التل – عرنايا – مقسم الجوهري – جل عجرم – مقسم الـــبزري – ومقسم الزين ...

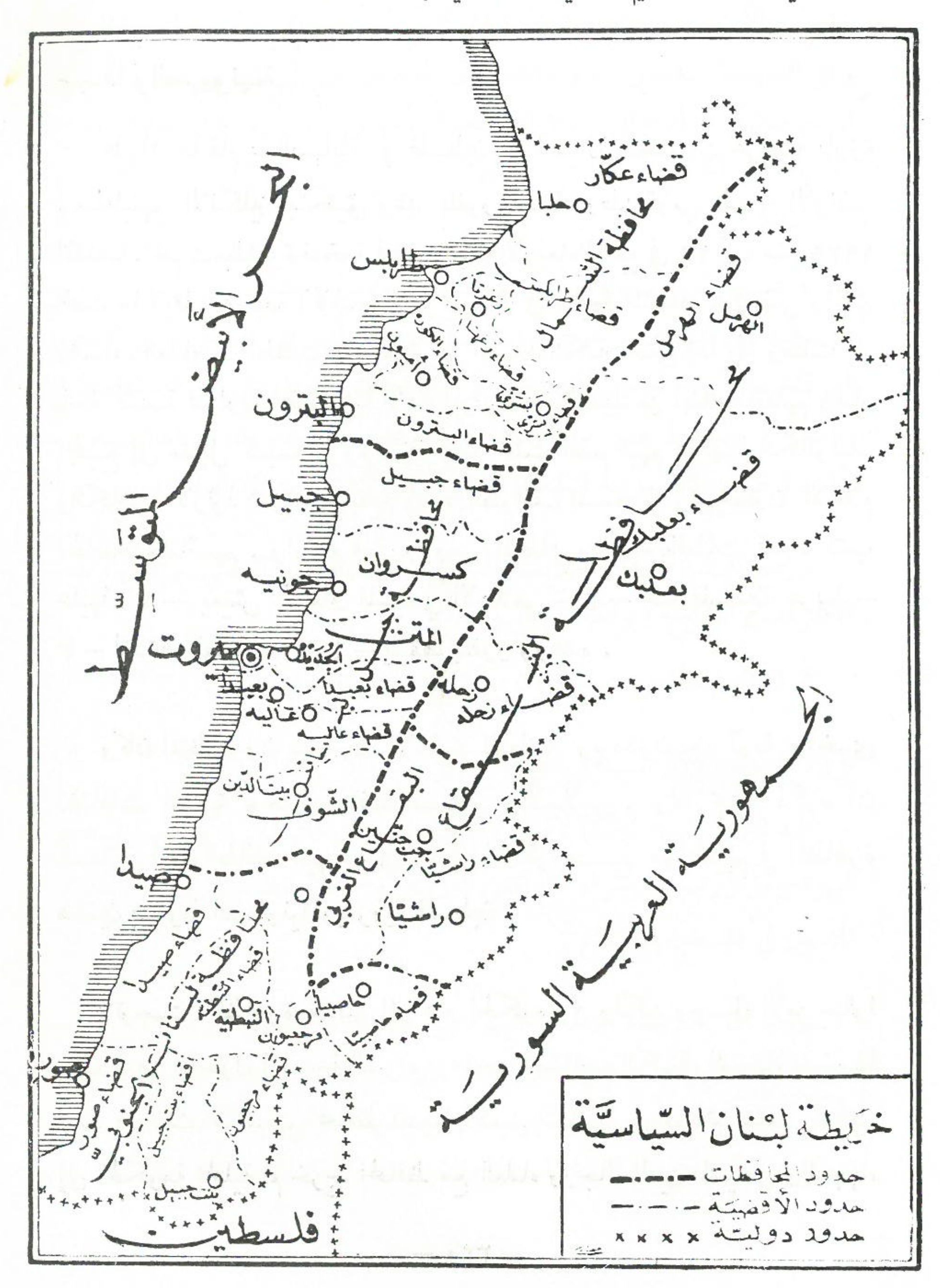
وبقي هذا القرار ساري المفعول حتى ٣ شباط عام ١٩٣٠ فقسمت أراضي الجمهورية اللبنانية إلى خمس محافظات هي :

١) محافظة مدينة بيروت الممتازة (٢) محافظـــة لبنان الشمالي وقاعدتها طرابلس (٣) محافظة لبنان الجنوبي وقاعدتها صيدا (٤) محافظة البقاع وقاعدتها زحلة (٥) محافظة جبل لبنان وقاعدتها بعبدا .

وبموجب التقسيم الجديد أصبحت محافظة صيدا تشمل الأقضية التالية :

١ – قضاء صيدا ومركزه صيـــدا – ٢ – قضاء جزين ومركزه جزين ٣ – قضاء النبطية ومركزه النبطية – ٤ – قضاء مرجعيون ومركزه جديدة مرجعيون – ٥ – قضاء صور ومركزه صور – ٦ – قضاء بنت جبيل ومركزه بنت جبيل – ٧ – قضاء حاصبيا ومركزه حاصبيا .

ولا يزال هذا التقسيم ساري المفعول في لبنان حتى يومنا هذا ...



صيدا والصهيونية

على أثر ما قام به الصهاينة في فلسطين من اغتيال شخصيات عربية بارزة ومطالبتهم الانكليز بتحقيق وعد بلفور بايجاد وطن قومي لهم في الأراضي المقدسة. جرت مظاهرة ضخمة في صيدا يوم الأربعاء الواقع في ٢٦ آب سنة ١٩٢٩ ضمت ما لا يقل عن سبعة آلاف متظاهر، وسار في طليعة المتظاهرين القاضي والمفتي والسادة العلماء. انطلقت المظاهرة من المسجد الكبير حتى إذا ما وصلت إلى باحة كنيسة الموارنة انضم إليها الآباء الموارنة مع العديد من أبناء طائفتهم وسار الجميع إلى مقابل كنيسة الروم الكاثوليك حيث انضم اليهم الكهنة الكاثوليك والكاهن الارثوذكسي مع بقية أبناء الطوائف المسيحية وهم يحملون الاعلام الخاصة بكنائسهم. وارتفع فوق رؤوس المتظاهرين أربع يافطات كبيرة كتب عليها: ١ — يعيش الاتفاق المسيحي الاسلامي — ٢ — تحيا فلسطين عربية — ٣ — لتسقط الصهيونية — ٤ — يسقط بلفور ووعده.

وكان المتظاهرون ينشدون الأناشيد الوطنية ويرددون بين آونة وأخرى الهتافات المدوية بوحدة الصف المسيحي والأسلامي. ومما يجدر ذكره أن عدداً من أبناء الطائفة اليهودية في صيدا اشتركوا مع مواطنيهم في المظاهرة هاتفين بسقوط الصهيونية وبعروبة فلسطين.

وتوجهت المظاهرة بعدئذ إلى دار الحكومة، ولكن رجال الأمن حالوا بينها وبين الدخول إلى باحة السراي وسمحوا للمشايخ والكهنة والوجهاء بدخولها فقط، حيث استقبلهم محافظ المدينة كميل الشدياق ووعدهم بنقل رغباتهم إلى الحكومة المحلية ثم خرج المحافظ مع العلماء ورجال الدين المسيحي والوجهاء

الى الشرفة فاطلوا على المتظاهرين ليستمعوا الى الخطب التي القيت من قبل الأب شتوي والأب يوسف عطية وغيرهما وكلهم ينوه بغضبة صيدا على وعد بفلور وعلى الصهاينة المعتدين.. وبعدئذ ابرق المتظاهرون إلى قناصل الدول الأجنبية الموجودين في لبنان وإلى سكرتير عصبة الأمم وإلى وزارة الخارجية البريطانية بالإضافة إلى الحكومة اللبنانية والمفوض السامي الفرنسي في بيروت البرقية التالية:

«جميع سكان صيدا من يهود ومسيحيين ومسلمين المتألمين من المآسي الدامية المرتكبة في فلسطين يرجون بواسطتكم نقل امنياتهم إلى دولكم وإلى الشعوب التي تمثلونها، واحتجاجهم الصارخ على المجازر التي تحصل على الأرض الفلسطينية المقدسة، وسقوط عدد من الشهداء العرب نتيجة لوعد بلفور الغاشم... نناشدكم ضرب الصهيونية لتنقذوا الشعب العربي هناك من الفناء».

ووقع البرقية كهنة الطوائف المسيحية كافة، والقاضي والمفتي ونقيب الأشراف والمشايخ، والحاخام اليهودي.

ثم تفرق المتظاهرون دون أن يعكر صفو الأمن حادث ما.

ثورة فلسطين وأثرها في صيدا

عمد البريطانيون تحقيقاً لإقامة وطن صهيوني في فلسطين، إلى تسهيل هجرة اليهود ومؤازرتهم في شراء الأراضي العربية وسمحوا لمنظماتهم بتزويد الصهاينة المقيمين في فلسطين بالسلاح.

وبعد أن كان عدد الوافدين اليهود إلى فلسطين لا يجاوز (٢٩٤٤) فرداً سنة ١٩٣٠ إذا به يرتفع تدريجياً حتى يصل الى (٦١٨٥٤) شخصاً سنة ١٩٣٥، الأمر الذي نبه العرب الى ما يحدق بهم من اخطار. وهكذا ظهرت بوادر ثورتهم ضد الانكليز والصهاينة وإذا بالشيخ عز الدين القسام يعلن الثورة ثم

يتبعه بعد فترة وجيزة الشيخ فرحان السعدي ، فتعم الثورة جبال فلسطين ووهادها ويتساقط الشهداء بالمئات على الأرض المقدسة .

وفي ١٩ نيسان تشكلت في فلسطين لجنة قومية ضمت ممثلين عن كل الأحزاب الفلسطينية العربية فدعت إلى اعلان الاضراب العام والتوقف عن دفع الضرائب للحكومة اعتباراً من ١٥ ايار سنة ١٩٣٦ حتى يستجيب البريطانيون إلى مطالبهم التي تتلخص بما يلي :

١ – منع الهجرة اليهودية إطلاقاً .
٢ – منع انتقال أراضي العرب إلى اليهود .
٣ – إنشاء حكومة وطنية مسؤولة أمام مجلس نيابي .

واستمر الأضراب العام ستة أشهر ، حتى جاءت لجنة ملكية تظاهرت بانها ستحقق في المطالب العربية وتسعى لتنفيذها كما تدخل بعض الملوك العرب من اصدقاء البريطانيين فتوقفت أعمال الثورة بعد ان قدمت على مذابح الفداء الوطنية الفي شهيد ونيف (قسطنطين خمار – موجز القضية الفلسطينية) .

وكانت صيدا خلال الثورة الفلسطينية قد اجتاحتها موجة عارمة من الحقد على الصهاينة ، والعطف البالغ على الابطال الفلسطينيين فتنادى الشباب الوطني إلى تشكيل لجنة تمديد المساعدة للمجاهدين ، فتألفت من السادة : الشيخ احمد عارف الزين وتوفيق الجوهري وعارف لطفي ومعروف سعد ومحي الدين البزري وعبدالله خروبي وسليم الزين وعبدالله البزري وبدوي النابلسي وحسني الصباغ وانور البزري .

عمدت هذه اللجنة إلى تشكيل لجان فرعية لجمع التبرعات ، ومراقبة الطرقات لمنع تسرب الخضار والبيض واللحوم والفاكهة إلى الصهاينة ، وتمكنت بهذه الطريقة من الاسهام في المعركة إذ أتلفت حمولة عشرات من السيارت التي باعها بعض التجار – جريحي الوجدان – إلى يهود فلسطين .

وفي أواخر آب سنة ١٩٣٦ قامت مظاهرة كبرى في صيدا تأييداً للمجاهدين في فلسطين ، انطلقت من بوابة الشاكرية – وكانت غايتها ابلاغ السلطة تضامن أهالي صيدا مع اخوانهم الفلسطينيين في مطالبهم العادلة – وما أن وصلت طلائع المتظاهرين الى مقابل الثكنة حتى تصدت لها قوى الأمن والدرك التي يقودها القائد الياس المدور محاولة تفريق المظاهرة بالقوة . ورفض الأهلون التراجع فأطلق عليهم رجال الأمن النار بكثرة مذهلة فاستشهد في المعركة محمد مرعي النعماني وعبد الحليم الحلاق وأصيب بجراح خطرة عدد كبير من الشباب في طليعتهم السادة : معروف سعد ومحمد سليم الصباغ وعفيف بديع واديب جرادي وغيرهم ... وعندئذ تفرق المتظاهرون وقد حملوا معهم الشهداء والجرحى ...

وعمدت السلطة الفرنسية تحت جنح الليل إلى القاء القبض على الزعماء الوطنيين : توفيق الجوهري واحمد عارف الزين ومعروف سعد وعارف لطفي وزجتهم في السجن مع المجرمين .

ولما بلغت أنباء الاعتقالات مسامع الأهلين أضربت صيدا إضراباً عاماً شمل جميع مرافقها الحياتية وانذرت أنها لن تعود عن اضرابها حتى تطلق السلطة سراح ابنائها البررة وتعاقب المسؤولين عن تلك المجزرة الدامية .

واستمر اضراب صيدا ثمانية ايام متواصلة، الامر الذي اكره معه الفرنسيون على إطلاق سراح المتعلقين . وهكذا عادت الحياة إلى المدينة الثكلى .

الفصل الثاني

الحرب العالمية الثانية واستقلال لبنان

اشتعلت نيران الحرب العالمية الثانية في ايلول سنة ١٩٣٩ أثر استيلاء ألمانيا الهتلرية على النمسا وتشيكوسلوفاكيا ومهاجمتها بولونيا بحجة الاستيلاء على ممر دانتزيغ ، فأعلنت انكلترا وفرنسا الحرب على ألمانيا ثم ما لبثت هذه الحرب ان عمت المعمورة فدخلها إلى جانب ألمانيا ايطاليا ثم اليابان وإلى جانب انكلترا الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة والصين وغيرها .

وتعرضت فرنسا لهجوم ألماني ساحق حطم قواتها في اسابيع ثلاثة في مطلع صيف ١٩٤٠ مما اجبرها على الاستسلام فدخلت الجيوش الألمانية العاصمة الفرنسية باريس في حزيران سنة ١٩٤٠ ، ووقع الماريشال بيتان الرئيس الفرنسي هدنة مع ألمانيا ثم مع إيطاليا وانتقل مع حكومته إلى مدينة فيشي (في وسط فرنسا) . ولكن فريقاً من الضباط الاحرار ورجال السياسة الفرنسيين وعلى رأسهم الجنرال ديغول رفضوا مهادنة الألمان وشكلوا حكومة « فرنسا الحرة » في لندن وأهابوا بالفرنسيين إلى متابعة النضال ومحاربة المحتلين ، إلى جانب انكلترا وحلفائها .

مضاعفات الاحداث في لبنان

عمدت حكومة فيشي إلى استبدال المفوض السامي الفرنسي في سوريا ولبنان السيد جبريال بيو المعروف بكراهيته للالمان وعينت عوضاً عنه الجنرال دانتز ١ — الموالي لها في كانون الأول سنة ١٩٤٠ — وأخذ الجنرال دانتز فور تسلمه زمام الامور في تطبيق شروط الهدنة الفرنسية الألمانية الايطالية على هذين البلدين ، وسمح للجنة الألمانية الايطالية بمراقبة القوات الفرنسية المرابطة فيها ؛ كما سمح لها باستخدام المطارات السورية واللبنانية لتحقيق المراقبة .

استقالة الاستاذ اميل اده

وفي ٤ نيسان سنة ١٩٤١ وجه الاستاذ اميل اده رئيس الجمهورية اللبنانية إلى الجنرال دانتز المفوض السامي الفرنسي كتاباً يتضمن استقالته من رئاسة الجمهورية فقبلها وكلف الاستاذ الفريد نقاش بتأليف وزارة لبنانية جديدة فشكلها بتاريخ ٥ نيسان من السادة : احمد الداعوق وجوزيف نجار وفيليب بولس والدكتور فؤاد عسيران (صيدا) .

القتال في لبنان

ما ان وصلت اللجنة الالمانية الايطالية الى لبنان وبدأت أعمالها حتى أهتم البريطانيون وحلفاؤهم بالامر ، خصوصاً وان موقفهم أصبح دقيقاً أثر نشوب الثورة ضد الانكليز في العراق بزعامة الزعيم العراقي رشيد عالي الكيلاني ولذلك قرروا انتزاع سورية ولبنان من حكومة فيشي حفاظاً منهم على خطوطهم ومواقعهم العسكرية في مصر وفلسطين والعراق ...

وصباح الخميس الواقع في ٥ حزيران سنة ١٩٤١ تعرضت مدينة بيروت لغارة جوية شنتها أربع طائرات بريطانية على منشئات شركة شل فأصابت المستودعات وأشعلت فيها النيران ...

وفي ٧ حزيران حلقت في سماء صيدا وبقية المدن اللبنانية طائرات بريطانية القت في اجوائها مناشير تحمل بعضها توقيع الجنرال البريطاني ويلسن قائد القوات المتحالفة والأخرى تحمل توقيع الجنرال كاترو قائد القوات الفرنسية الحرة وهي تتضمن الطلب من القوات اللبنانية والسورية الانضمام الى قوات الحلفاء ، وتتعهد بمنح الاستقلال التام لسورية ولبنان وتعلن بأنها ما جاءت الا لتحقيق هذا الهدف الذي طالما سعى اليه أبناء البلدين ...

وفي تمام الساعة الثالثة والدقيقة الـ ٤٥ من يوم الاحد الواقع في ٨ حزيران هاجمت القوات البريطانية الحدود اللبنانية والسورية من الجنوب والتحمت مع القوات الفيشية المدافعة وعلى الأثر اصدر المفوض السامي الجنرال دانتز امراً باغلاق جميع المدارس اعتباراً من صباح الأثنين في حزيران سنة ١٩٤١ .

وجرى الزحف البريطاني من ثلاثة اماكن وكان ضغط الجناحين أشد من ضغط خط الوسط ...

زحف الجناح الأول من الناقورة في لبنان الجنوبي واضعاً نصب عينيه الاستيلاء على الساحل اللبناني ودخول مدينة بيروت يؤيده في زحفه اسطول بريطاني قوي كان يتجول امام مدينتي صيدا وصور .

اما القلب فقد انطلق من شرق الاردن للاستيلاء على مرجعيون ، كما شق الجناح الثاني طريقه نحو جبل الدروز وحوران مستهدفاً الاستيلاء على دمشق ...

بداية المعارك

تولى القائد القومندان ايزبولي قيادة القوات الفرنسية المدافعة عن الجنوب واتخذ مركز قيادته في بلدة الخيام، اما الضابط الذي كان يساعده في القيادة فهو النقيب اللبناني الأمير جميل شهاب، وانصب هدف القيادة الفيشية على الدفاع عن القاسمية.

وتعين الكابتين بوزوني لقيادة قلعة الخيام . أما القناصة اللبنانية فكان يقودها القومندان دي لا برنيير ويساعده النقيب جوزف سمعان .

ويوم الثلاثاء الواقع فيه ١١ حزيران نزلت قوات بريطانية من البحر على جسر ابي الأسود خلف القاسمية وهدفها قطع الاتصال بين القوات الفرنسية المرابطة عند جسر القاسمية والقوات الموجودة بالقرب من صيدا . الامر الذي اكره القوات الفرنسية على نسف جسر القاسمية والتوجه شمالاً الى النبطية خوفاً من اطباق فكي الكماشة عليها في هذه المنطقة الساحلية .

وبهذا العمل الحربي فتح الباب امام القوات البريطانية للدخول الى مدينة صيدا .

صيدا خلال المعارك

ولم تكن صيدا بالمدينة المحصنة تحصيناً عسكرياً كافياً لانها مدينة ساحلية ولان القوات الفرنسية الفيشية لا تملك اسطولاً قوياً يستطيع الصمود في وجه الاسطول البريطاني القوي في هذه المنطقة . ولذلك عمدت القيادة الفيشية الى ايجاد بعض التحصينات الضرورية التي اقامتها في قلعة صيدا البرية وفي المرتفعات المشرفة على المدينة ووضعت فيها مدفعية خفيفة مع قوات رمزية .

وعمدت البحرية البريطانية الى القاء القنابل من مدرعاتها التي كانت تجوب السواحل امام صيدا على جيوب المدفعية الموزعة على المرتفعات المشرفة على المدينة فاسكتتها .

ولما وثقت من انعدام المقاومة دخلت القوات البريطانية والاسترالية والفرنسية الحرة مدينة صيدا يوم الاحد في ١٦ حزيران سنة ١٩٤١ وكان في طليعتها وعلى مسافة لا تقل عن مئتي متر فدائيان من الجيش الاسترالي يحملان بايديها القنابل اليدوية لاخلاء الطريق امام القوات المحتلة ..

وكان بعض السكان في بدء المعارك قد نزحوا عن المدينة الى القرى الجبلية التي لا توجد فيها قوات حربية معسكرة . كما عمد التجار الى اغلاق متاجرهم والاعتصام ببيوتهم وصعد بعض الاهلين الى سطوح وشرفات المنازل لمشاهدة الجيش المحتل الجديد .

واقامت القوات البريطانية مخيماً لها في جهات عين الحلوة واحدثت هناك مستشفى ومستودعاً كبيراً لتموين القوات الزاحفة .

وعينت القيادة العليا الكولونيل ارنو من الفرنسيين الاحرار قائداً لموقع صيدا ولبنان الجنوبي ، الذي اتخذ مركزاً لقيادته في بلدة البرامية .

واجتمع القائدان الانكليزي والفرنسي الى محافظ المدينة وقتئذ الاستاذ اديب النحاس وطلبا منه ابلاغ الاهلين ضرورة التقيد بالانظمة والقوانين واعلنا انهما يتقيدان بدورهما بتنفيذ مضمون المنشورات التي القتها الطائرات في ٨ حزيران ورغبا اليه بمتابعة ادارته للمحافظة ، على ان يقدما اليه كل التسهيلات اللازمة ...

وتابعت القوات المتحالفة سيرها نحو السعديات حيث اصطدمت بمقاومة ضارية من القوات الفرنسية المدافعة عن جسر الدامور .

وظلت صيدا ومحافظتها منقطعة عن البلاد اللبنانية حتى اعلنت الهدنة بين الجيشين المتحاربين في ١٣ تموز سنة ١٩٤١ وقد تضمنت نصوص الهدنة انسحاب الجيوش الفرنسية الفيشية من سوريا ولبنان وتسليم الثكنات العسكرية الى الجيوش المتحالفة في مدى شهر من الزمن ، فعاد الاتصال بين المدن اللبنانية الى سابق عهده .

وجرى التوقيع على شروط الهدنة بين الفريقين المتحاربين في الساعة العاشرة والدقيقة الاربعين من صباح يوم الاحد الواقع في ١٣ تموز سنة ١٩٤١

في مدينة عكا . وقد وقعها عن الجانب البريطاني الجنرال ويلسن والجنرال كاترو قائد قوات فرنسا الحرة كما وقعها عن الجانب الفيشي الجنرال دي فردياك مع اركان حربه .

الحدث الجديد في لبنان

وصباح يوم الاثنين في ٢٤ تشرين الثاني سنة ١٩٤١ تبادل الجنرال كاترو والرئيس الفرد نقاش رسالتين اعلن الاول فيهما تكليف الرئيس نقاش باعمال رئيس الجمهورية اللبنانية نظراً لاجماع الاراء على هذا التكليف ولما يتمتع به من مزايا مرموقة ؛ كما تضمنت رسالة الرئيس نقاش قبوله لهذا المنصب .

استقلال لبنان

بتاريخ ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٩٤١ م اعلن الجنرال كاترو المندوب العام لفرنسا الحرة في بيان اذاعه على الشعب اللبناني استقلال الجمهورية اللبنانية والغاء الانتداب الفرنسي عنه ولكن الوضع الدستوري لم يتحقق إلا تحت ضغط الشعب اللبناني اذ اختير السيد بيترو طراد رئيساً للدولة اللبنانية في ٢٢ تموز سنة ١٩٤٣ م وانيط به اجراء الانتخابات النيابية التي تمت في ٢٩ آب سنة ١٩٤٣ م وفازت فيها العناصر الوطنية فوزاً باهراً .

وما ان اجتمع المجلس النيابي في ٢١ ايلول سنة ١٩٤٣ حتى انتخب لرئاسة الجمهورية الشيخ بشارة الخوري بأكثرية ساحقة .

حكومة الاستقلال

وكلف الشيخ بشارة السيد رياض الصلح – ابن صيدا – بتشكيل الوزارة اللبنانية ففعل – وعندما القى رئيس الوزارة الجديدة بيان وزارته الذي سماه « وثيقة الاستقلال » تعرض لما تزمع الوزارة تحقيقه في سبيل التمتع بالاستقلال

الحقيقي. وأهم ما ورد في البيان: ١) تعديل الدستور اللبناني. ٢) حصر التشريع بالمجلس النيابي اللبناني وحده. ٣) تنظيم الحكم الوطني في لبنان وجعل اللغة العربية اللغة الرسمية الوحيدة للدولة .

وفي جلسة المجلس النيابي اللبناني المنعقدة في ٨ تشرين الثاني سنة ١٩٤٣ أقر الاعضاء بالاجماع تعديل الدستور بالرغم من معارضة السيد هللو المندوب الفرنسي الذي طلب من السيد رياض الصلح قبل الجلسة التريث في التعديل حتى يسأل حكومته رأيها في الموضوع .

وعلى أثر اقرار التعديل من المجلس النيابي أخذ هللو يتصرف وكأن البلاد ما برحت ترزح تحت النير الفرنسي اذ اعتقل رجاله فجر ١١ تشرين الثاني سنة ١٩٤٣ رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء وعدداً من الوزراء ونائب طرابلس السيد عبد الحميد كرامي وأرسلهم إلى قلعة راشيا ثم اصدر مرسوماً بحل المجلس النيابي وتعليق الدستور وعيَّن اميل اده رئيساً للدولة. وحاول السيد اده تأليف حكومة فلم يجد من يقبل التعاون معه لأن الحكومة الشرعية بنظر اللبنانيين لا تزال قائمة ولأن بعض اعضاء الحكومة الصلحية الذين لم تستطع القوات الفرنسية اعتقالهم قاموا بمتابعة اعمال الحكومة الشرعية في بلدة « بشامون » برآسة الاستاذ حبيب ابي شهلا .

واضربت المدن اللبنانية احتجاجاً على اعتقال رجال الحكومة كما أضرب عدد كبير من الموظفين عن ممارسة اعمالهم الرسمية وتحول الاضراب إلى مظاهرات صاخبة اصطدمت بالجنود الفرنسيين فسقط عدد من القتلى والجرحى . واهتمت الدول العربية للامر وقام رؤساء حكوماتها بمساعٍ رسمية لحل الازمة . وأخيراً وصل الجنرال كاترو إلى بيروت لتلافي الاصطدام مع الاهلين فرأى أن تعود الحكومة الشرعية إلى مركزها بعد ان تبين له تصميم الشعب اللبناني على انتزاع حقوقه ووقوف العرب عامة إلى جانب اشقائهم اللبنانيين. لذلك بادر إلى اطلاق

سراح المعتقلين وعادت الحكومة اللبنانية الشرعية إلى ممارسة صلاحياتها في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٤٣ (ذلك النهار الذي أصبح يوم الاستقلال الرسمي للبنان وفيه تعطل الأمة والدوائر الرسمية اعمالها) وأصبح مجلس النواب مصدر التشريع الوحيد في البلاد ، وفازت قضية لبنان وتراجع الفرنسيون .

صيدا في معركة الاستقلال

امرعوا الارض لهيباً ودخاناً   واصبغوا بالاحمر القاني الزمانا
وابعثوها ثورة عارمـــة   تترك الدنيـــا تلظى بركاناً

(الدكتور علي الشلق)

ما ان اعتقل الفرنسيون رئيس الجمهورية اللبنانية الشيـــخ بشاره الخوري ورئيس مجلس الوزراء الاستاذ رياض الصلح (ابن صيـــدا) والوزراء كميل شمعون وسليم تقلا وعادل عسيران (ابن صيدا) والاستاذ عبد الحميد كرامي في سجن قلعة راشيا في ١١ تشرين الثاني سنة ١٩٤٣ ، حتى اضرب لبنان اضراباً عاماً شاملاً وانطلقت تظاهرات الاهلين تعلن سخطهـا على المستعمرين . وكانت صيدا في طليعة المدن التي تظاهرت بشبابها وشاباتها تطـــالب بالافراج عن المعتقلين ليعودوا الى مناصبهم الشرعية .

وفي اليوم الخامس عشر من تشرين الاول سنة ١٩٤٣ انطلقت اكبر تظاهرة عرفتها صيدا من بوابة الشاكرية ، وقد اشترك فيها الالوف من الاهالي والطلاب والطالبات يقصدون مركز القيادة البريطانية في منزل المرحوم مصطفى النقيب الكائن في محلة القملة . ولما وصلت طلائع المتظاهرين الى مقابل سراي الحكومة مركز المندوب الفرنسي ، التقت بفرق القنـــاصة التي كانت متمركزة حول السراي ببنادقها ورشاشاتها ، وأمامها تقف ثلاث مصفحات حربية . وكان عدد من وجهاء المدينة يخرجون من دار الحكومة اثر مقابلتهم المندوب الفرنسي الذي ابلغهم ان الجيش الفرنسي سيقمع بالقوة كل مظاهرة تمر امـــام السراي . ولكن الاهالي وقد استبدت بهم الحماسة الوطنية لم يأبهوا لوعيـــد المندوب

الفرنسي بل تابعوا السير بمظاهرتهم متخطين الانذار ومطالبين باطـــلاق سراح زعمائهم ولكن الضابط الفرنسي بادرهم باطلاق النار من مسدسه ، وكانت طلقته اشارة لجنوده بفتح النـــار على المتظاهرين العزل من السلاح . وانهمر الرصاص بغزارة على الاهلين وسقط من جراء ذلك ثلاثة واربعون متظاهراً ومتظـاهرة بين قتيل وجريح ، فتراجع المتظاهرون الى الوراء قليلاً وحاول البعض التقـدم من القتلى والجرحى لنقلهم الى المستشفيـات ولكن الجيش كان يعود الى اطلاق الرصاص عليهم وانقضى على الحادث ساعة ونصف الساعة . نزفت خلالهـا دماء الجرحى فاستشهد ستة ؛ منهم الشهيد سعيد البزري ، وثروت صباغ ، وشفيقـة محجوب . اما الجرحى الذين كان الموت على قاب قوسين أو ادنى منهم وتمكن الطب من انقاذهم ؛ فهم الطلاب بشير الشريف، وفاروق اليمن، وعفيف الجردلي والطالبات حكمت صباغ وايفا زنتوت وآمنة دالي بلطة ووفيقـــة هبش ونهلة سنجـــر .

وانتهت المعركة بتفرق الاهلين اثر سقوط هـــذا العدد الضخم من الجرحى والقتـــلى .

وفي اليوم التالي شيعت صيدا الثكلى شهداءها باحتفال مهيب صامت .

اما الاضراب فظل عاماً شاملاً كافة ارجاء المدينـة حتى افرج المستعمرون في ليل ٢١ تشرين الثاني١٩٤٣ عن زعماء البلاد فحل الاضراب وعمت تظاهرات الابتهاج المدينة الباسلة .

فلسطين الذبيحة

بعد ان تآمر الصهاينة مع الدول الاستعمارية على تقسيم فلسطين الى منطقتين عربية واسرائيلية واخذوا موافقة اكثرية اعضاء هيئة الامم المتحدة الذين ضربوا بحقوق السكان العرب عرض الحائط قررت بريطانيا انهاء الانتداب على فلسطين بتاريخ ١٥ ايار سنة ١٩٤٨ وعندئذ اتخذت الدول العربية قراراً بدخول جيوشها

الاراضي الفلسطينية اثر تعدد اعتداءات العصابات الصهيونية على السكان العرب العزل من السلاح . فدخلت الجيوش المصرية من جهات العريش ووصلت طلائعها الى مسيرة ثلاثين ميلاً جنوبي تل ابيب واخترق الجيش اللبناني الحدود الشمالية وكذلك القوات السورية من الشمال والشرق في وجه مقاومة صهيونية ضارية مقدمة العديد من الشهداء لاعادة الحق الى اصحابه ، كما اخترق الجيشان الاردني والعراقي الحدود من الجهة الشرقية والجنوبية ووصلت طلائعها الى مسافة عشرة اميال شمالي تل ابيب . ولكن الدول الاستعمارية وقد شعرت بالخطر يحدق بالصهاينة ، دعت مجلس الامن الى عقد جلسة طارئة قرر فيها توجيه انذار الى الدول العربية بايقاف القتال واعلان هدنة بين الطرفين المتحاربين ، اثر اعتراف الدول الاستعمارية الكبرى بقيام دولة اسرائيل في ارض فلسطين العربية .

ونتيجة للهدنة المفروضة وبتآمر من بعض كبار المسؤولين العرب اضطرت الجيوش العربية الى الانكفاء عن مواقعها وتسليمها لقمة سائغة للصهاينة ونزوح ما لا يقل عن مليون فلسطيني عربي عن ارض ابائهم واجدادهم في مأساة لم يشهد التاريخ شبيهاً لها في عصوره المختلفة .

وقد اقامت الدول العربية مخيمات في اراضيها للاجئين تنطق بالجريمة النكراء التي احدثتها في هذا الشعب المناضل الدول الاستعمارية .

صيدا في معركة فلسطين

لم تتوان صيدا عن الاسهام في معركة فلسطين سنة ١٩٤٨ فتقدم العديد من شبابها للتطوع في معركة التحرير يقودهم الاستاذ معروف سعد — نائب صيدا حالياً — واشتركوا في جيش الانقاذ فابلوا البلاء الحسن في المعارك الدائرة في جهات المالكية ... وقدموا على مذبح الشهادة في روابي فلسطين الشهيد محمد ديب عكره اضافة الى عدد لا يستهان به من الجرحى ..

ولما صدرت اوامر القيادة العربية بحل جيش الانقاذ عاد المجاهدون

الصيداويون الى بلدهم على امل ان تتولى الجيوش العربية عملية القضاء على الصهاينة ؛ ولكن ..

شركة التابلين — الآرامكو —

نالت شركة التابلين الاميركية اجازة من الحكومة اللبنانية بمد انابيب للبترول قطرها ٣٠/ بوصة عبر اراضيها في عام ١٩٥٠ وذلك لضخ البترول من مستودعاتها في حقل « ابقيق » السعودي الى مرفأ الزهراني قرب صيدا على شاطىء البحر الابيض المتوسط . وقد انجز العمل في عام ١٩٥١ في عهد رئاسة الشيخ بشاره الخوري رئيس الجمهورية اللبنانية وكان محافظ صيدا آنئذ الامير عبد العزيز شهاب .

وفي عام ١٩٥٢ بلغ مقدار ما نقل من البترول الخام عبر الاراضي اللبنانية (١٤و٢٢١و٥٨٩) طناً .

ويعمل في شركة التابلاين حالياً (١٦٠) موظفاً وعاملاً لبنانياً ، اما كمية البترول الخام التي تنقل بواسطة المراكب من ميناء الزهراني فتتراوح بين ١٥ و ٢٠ مليون طن من البترول سنوياً .

مصفاة البترول — مدريكو —

ونالت شركة مدريكو الاميركية امتيازاً بانشاء مصفاة للبترول في الزهراني عام ١٩٥٢ وباشرت اعمال بناء المصفاة فوراً فانجزتها في عام ١٩٥٤ حيث بدأت اعمال التصفية ...

وتقدر كمية البترول التي تصفى في المصفاة بـ ١٥ — ١٦ الف برميل سنوياً وكلها تستهلك محلياً .

وتم افتتاح منشئات المصفاة بحضور الاستاذ ميشال الجاهل محافظ صيدا ممثلاً رئيس الجمهورية اللبنانية الاستاذ كميل شمعون .

ويعمل في المصفاة (٢٦٠) موظفاً وعاملاً لبنانياً ، علاوة على بعض الخبراء الاجانب .

زلزال صيدا

في الساعه ٨،٣٠ من مساء ١٦ آذار سنة ١٩٥٦ هز صيدا وجوارها ومنطقة الشوف، زلزال رهيب صدع اكثر منازلها القديمة . وهرع الناس مع اطفالهم إلى الشوارع العريضة والساحات الواسعة وهم يرتدون ثيـاب نومهم وقد تصاعدت اصوات البكاء من الاطفال الذين حملهم أهلهم إلى الخارج تحسباً من عودة الزلزال وتساقط منازلهم القديمة البناء على رؤوسهم .

وقد امضى غالبية الأهلين الليل في العراء . ولكن صيدا وان كانت اكثرية منازلها القديمة قد تصدعت واصيب الاهلون بنكبة وبخسارة مادية كبرى فانها ولله الحمد لم تنكب بخسارة في النفوس .

أما ضواحي صيدا فقد كانت الكارثة فيها أشد وأدهى إذ تهاوت المنازل على الاهلين فقضت على الكثيرين .

وقد جاوز عدد ضحايا الزلزال في جهات صيدا وقضـــائي جزين والشوف المئة ضحية .

وإذا كان الزلزال قد اصاب المنطقة بالضرر فانه افادها بنتائجه إذ تأسست مصلحة التعمير التي بنت في القرى المنكوبة وفي صيدا دوراً جديدة وزعت على المستحقين من المنكوبين .

المساكن الشعبية

على أثر الزلزال الذي نكب اكثرية بيوت صيدا القديمـة واصابها بالتصدع وقيام مصلحة التعمـــير ببناء المساكن الشعبية في منطقة عين الحلوة فقد

تم توزيع الدور الحديثة على المستحقين خلال عدة مراحل . وبلغ مجموع ما وزع من المساكن على ذوي الحاجة حتى عام ١٩٦٦ — الف مسكن.

ويقدر الخبراء في مصلحة التعمير ما تحتاجه عائلات صيدا المنكوبة بمنازلها إلى (١١٣٥) مسكناً شعبياً جديداً بالاضافة إلى المساكن الموزعة حتى الان لتعم الفائدة جميع المتضررين المستحقين .

حوادث عام ١٩٥٨ المؤسفة

تجمعت في سماء لبنان غيوم سوداء غذتها الأيدي المتربصة بلبنان شراً وانقسم الناس في عهد الرئيس كميل شمعون إلى فئتين أولاهما تؤيد تجديد ولايته، وثانيتها تعارضها فاشتدت الخصومات وتطورت بعدئذ فانقلبت الى ثورة. وإذا بالمتاريس تقام في المدن اللبنانية ولعلع الرصاص أثر حادثة اغتيال الصحفي الشهيد الاستاذ نسيب المتني في ايار سنة ١٩٥٨ واهرقت الدماء الزكية الطاهرة في الشوارع على مذبح الانانية والنفعية .

ولكن لطف الله صان لبنان وانقذه من محنته هذه ، وانتهت الازمة في ٢٣ ايلول سنة ١٩٥٨ أثر انتخاب الرئيس فؤاد شهـــاب لرئاسة الجمهورية وخيم الصفاء والوئام فوق ارجاء الوطن اللبناني وعادت الوحدة الوطنية إلى صفوف المواطنين .

صيدا وموقفها المشرف خلال الحوادث

وإذا كانت الدماء الذكية اللبنانية قد اهرقت ظلماً في بعض المناطق فان مدينة صيدا احتفظت بطابعها الانساني المشرف،وبالرغم من ان الثورة اجتاحتها ولبس ابناؤها على اختلاف ميولهم ومذاهبهم رداء الحرب، إلا ان الحكمة كانت رائدالجميع والمحبة المتوارثة المتأصلة في أفئدةالصيداويين نحو بعضهم البعض لم تقف حائلا بين المتصارعين فحسب ، بل جعلتهم يتنكرون للاساليب الملتوية الوحشية

المتبعة في أماكن اخرى ولذا رأينا صيدا تقف صفاً واحداً بقيادة نائبها الاستاذ معروف سعد في وجه كل المحاولات الرخيصة المبذولة لاحداث الفرقة بين ابنائها.

واستطاعت صيدا بوعي الواعين من اشبالها ان تخرج من حوادث عام ١٩٥٨ ناصعة الجبين موحدة الأهداف – لم تهرق على تربتها المقدسة الدماء النقية – محتفظة بطابعها المميز في ان ابناءها ما برحوا يؤلفون الأسرة الواحدة الموحدة.

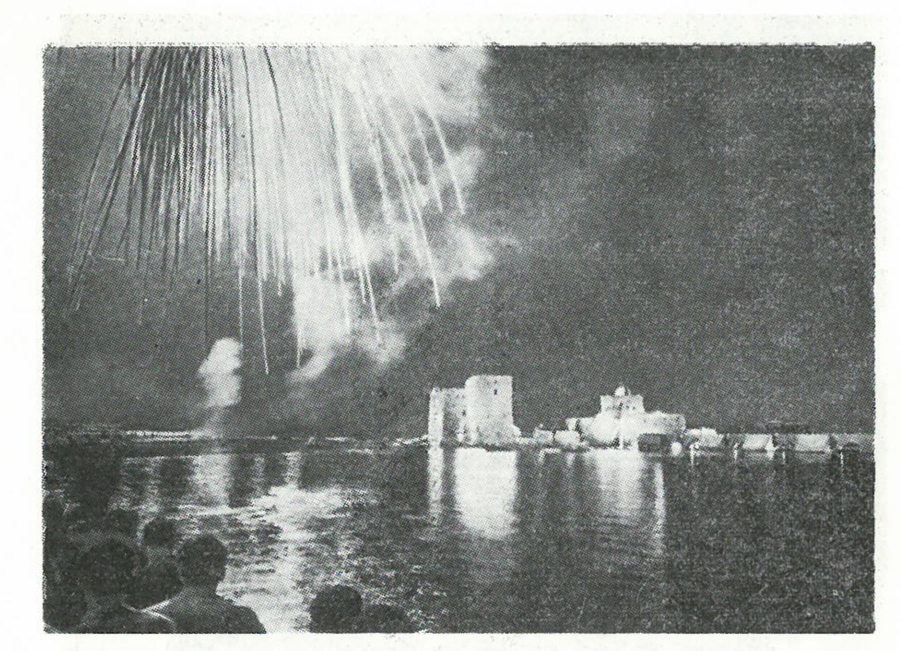
المكتشفات الحديثة

في ربيع عام ١٩٦٣ اكتشف في صيدا داخل مغارة في منطقة طبلون تسعة نواويس انتروبويد ذات هياكل مجسدة من العصر الفينيقي اليوناني تعود إلى القرن الرابع قبل الميلاد . وقد وجد تحت احد هذه النواويس في قبر محفور في الصخر، هيكل عظمي لامرأة من القرن الخامس قبل الميلاد ، يغلب ان تكون اميرة ، عليها جميع حلاها – تاج بديع من الذهب فوق رأسها وعقد من الذهب واساور وحلق وخواتم من الذهب والحجارة الكريمة تفوق جميعها في دقة صنعها صناعة امهر الصاغة ثم خلاخل في كاحليها ، ومرآة على شكل حديث من المعدن المصقول ، وحنجور من المعدن مليء بالكحل الحي ، صالح لأن تستعمله سيدة انيقة في يومنا هذا، وأخيراً تمثال من الفخار على صورتها وعلى شكل حلاها يظن انه صنع على عجل يوم وفاتها . (١)

اعياد الربيع

ورغبة في احياء ما طوته الايام بين جنباتها من ماض حافل بالاثار الجميلة وحاضر مشرق بالحضارة والفنون وتشجيعاً للحركة السياحية في المدينة ، قرر محافظ صيدا الاستاذ غالب الترك اقامة مهرجان شعبي في ربيع ١٩٦٣

١) من محاضرة للاستاذ غالب الترك محافظ صيدا السابق القاها في نادي خريجي الجامعة الاميركية في بيروت بتاريخ ١٥ كانون الاول سنة ١٩٦٤ .



قلعة صيدا البحرية تنيرها الانوار الملونة

ونفذت الفكرة بعد انجاز بناء مسرح عائم على ساحل صيدا في الموقع الجنوبي الغربي الذي يفصل قلعة صيدا البحرية عن البر .

وفي ليالي الجمعة والسبت والاحد الموافق ٧ و ٨ و ٩ حزيران سنة ١٩٦٣ وامام حشد كبير من السفراء والوزراء والنواب والسائحين ووفود الدول العربية والاجنبية الذين جلسوا على مدرج كبير اقيم على الساحل مقابل المسرح العائم الذي سلطت عليه الأنوار المختلفة الالوان ، احتفلت صيدا ومحافظة الجنوب بمهرجان الربيع احتفالاً رائعاً اشتركت فيه الفرق الشعبية من مختلف مناطق الجنوب – شقرا ومغدوشة وصيدا وغيرها – برقصات لبنانية عربية – نالت استحسان المشاهدين وتقديرهم واعجابهم ..



راقصو الفولكلور اللبناني من شابات وشباب صيداء على المسرح العائم

القصر البلدي :

وتم انجاز بناء القصر البلدي الذي بوشر ببنائه في عام ١٩٦٣ وانجز في نهاية عام ١٩٦٥ وقد اشرف على بنائه المهندس عصام الزين .

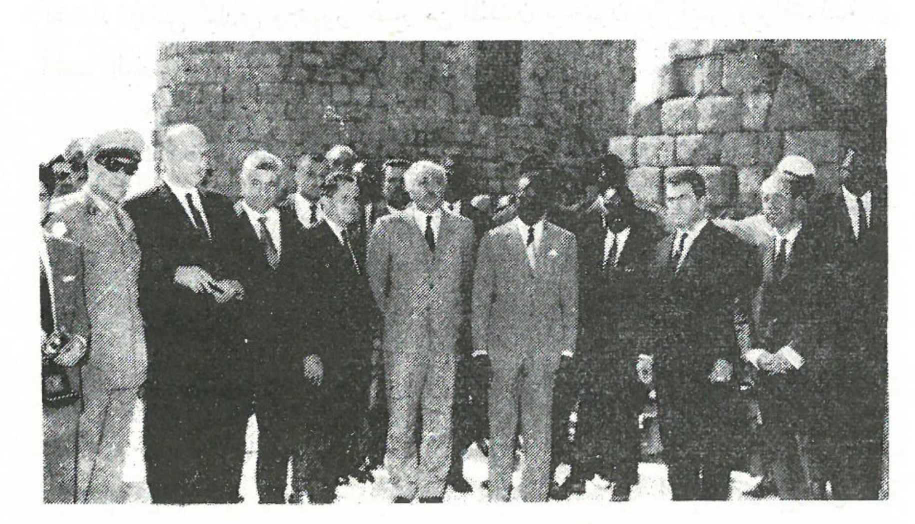
ويضم هذا القصر بناء مؤلفاً من اربعة طوابق مساحة بنائه (٤٥٠٠) متراً مربعاً وفيه بالاضافة الى غرف الدوائر الادارية للبلدية ، مكتبة عامة للمدينة ومستوصف وقاعة للمحاضرات والاجتماعات تتسع لـ (٨٠٠) شخص ويعتبر هذا القصر من اجمل الدور الرسمية في لبنان .

الرئيس السنغالي في صيدا :

تضمن المنهاج الذي وضعته الحكومة اللبنانية لزيارة رئيس جمهورية السنغال

الدكتور ليبولد سيدار سنغور الى لبنان ، مشاهدة معالم صيدا ومناطق الجنوب الاثرية .

وكانت مدينة صيدا – عاصمة الجنوب – على موعد مع الرئيس السنغالي – الاديب الكبير والشاعر الانسان – يوم الجمعة الواقع في ٢٠ ايار سنة ١٩٦٦ . فارتفعت اقواس النصر في شوارعها الفسيحة ترفرف فوقها مئات من الاعلام



الرئيس السنغالي أمام قلعة صيدا والى يمينه الوزير حنين والامير موريس شهاب ونائب صيدا معروف سعد ومحافظ الجنوب هنري لحود .

اللبنانية والسنغالية متصافحة ، وانتشر الالوف من المواطنين والطالبات والطلاب ، على جانبي شارع رياض الصلح وقد ظللت رؤوسهم يافطات بيضاء كتبت عليها عبارات الترحيب بالضيف الكبير . وقامت في ساحة النجمة وامام القصر البلدي حلقات من الشباب تقدم اجمل الالعاب بالسيف والترس تروي بطولات السلف للخلف .

وفي الساعة التاسعة والنصف صباحاً وصل موكب الرئيس يرافقه ممثل

الرئيس اللبناني ، وزير التصميم العام – الاديب المفكر الاستاذ ادوار حنين – فتعالى التصفيق والهتاف بحياة الضيف العظيم وصحبه الكرام . وتوقف الرئيس السنغالي برهة يحيي الجماهير المحتشدة ثم تابع سيره الى مدينة صور لمشاهدة آثارها الخالدة وليعود بعدها الى عاصمة الجنوب .

وعند مدخل صيدا الجنوبي وقف نائب المدينة الاستاذ معروف سعد مع اعضاء المجلس البلدي وجمهور غفير من المثقفين يرحبون بالرئيس ويرافقونه الى القصر البلدي لتناول طعام الغداء .

وهناك التقى بعدد كبير من الرجالات الرسميين فتحلقوا حول المائدة السخية واستمع الضيف ومرافقوه الى الكلمة البليغة التي القاها باسم الجنوب محافظ المدينة الاستاذ هنري لحود الذي قدم لفخامته هدية ثمينة هي عبارة عن طقم كامل لادوات الطعام ، مطعّم القبضات بالعاج ومن صناعة بلدة جزين .

والقى فخامة الرئيس الضيف كلمة باسمه وباسم مرافقيه شكر فيها مدينة صيدا ومحافظها على الهدية الثمينة وعلى الحفاوة البالغة به متغنياً بما شاهده في جنباتها من حضارة وعمران اصيلين . وبعد الغداء توجه الضيف الكبير الى قلعة صيدا البحرية فطاف في ارجائها وابدى اعجابه بآثارها الواضحة المعالم وبجمال موقعها .

وفي الساعة الثالثة والنصف غادر فخامته مع حاشيته ومرافقيه مدينة صيدا مودعاً بمظاهر الاكرام والاحترام .

الفصل الثالث

وضع صيدا الاقتصادي

الزراعة والصناعة :

تزرع صيدا حوالي (٢٠) الف دونم من اراضيها بالحمضيات – الليمون والبرتقال والافندي والجريب فروت والمندرين–عدا اشجار الموز والاسكدنيا، كما تنتج اراضيها قليلاً من الحبوب والزيتون . ويعمل عدد من الاهلين يقدر عددهم بـ (١٨٠) صياد[1] بصيد السمك فيستخرجون من بحر صيدا حوالي الف طن سنوياً يباع القسم الاكبر منه في اسواقها الداخلية وما تبقى ينقل الى بيروت وكان بالامكان الاستفادة اكثر من هذه الصناعة لولا آفة استعمال الديناميت الذي يقضي على بذور السمك وزيادة الانتاج ..

ويزرع في سهول صيدا كافة انواع الخضراوات كالبندورة والبطاطا والبصل والثوم والفاصوليا والخس والباذنجان والبازلا والفول والملفوف والبقدونس والنعناع والكرفس، وزراعتها تكاد لا تكفي استهلاكها المحلي فتستعين بما تستورده التجار من هذه الانواع من المناطق المختلفة ..

١) مسجلا في النقابة بالاضافة الى (٧٠) صياداً فلسطينياً

زراعة الاسكيدنيا في صيدا :

ولا بد لنا ونحن نتحدث عن زراعة صيدا من ان نشير الى زراعة ثمر لذيذ اشتهرت به هذه المدينة واصبح اسمه مقترنا باسمها الا وهو ثمر الاسكيدنيا ..

اما كيف جاء الى هذه البلاد فيروي المرحوم الشيخ احمد عارف الزين في كتابه تاريخ صيدا : ما يلي :

انه في اواسط عام ١٨٥٩ قدم الى صيدا من ازمير بعض الملاحين على مراكب شحنت باصناف البضائع وبعد ان افرغوا وسقها توجه ربان السفينة لزيارة احد الملاكين المعروفين وهو المرحوم خليل كستو وحمل اليه بعض بزور الاكيدنيا فقبلها المومى اليه بطيبة خاطر وسأل الربان عن طريقة زرعها فأفاده . وبعد ايام ارسل بعضها لوكيله ليزرعها في احد بساتينه على سبيل التجربة وقدم ما تبقى لاصحابه . ولقد نبتت البذور واصبحت اشجاراً ومما يذكر ان اقدم شجرة منه كانت في بستان طنطور العائد لآل القطب وقد عاشت هذه الشجرة حتى امد قريب تحمل افخر ثمار الاكيدنيا مما جعل الملاكين يطلقون عليها « ام الشجر » .

وبفضل تشجيع المرحوم الشيخ محمد صالح لطفي عمت زراعة هذه الاثمار بساتين صيدا لدرجة اصبحت معها صيدا تتفاخر بجودة انتاجها لهذا الثمر الذي يعطيها مدخولاً كبيراً يتزايد عاماً اثر عام ... (تاريخ صيدا للشيخ احمد عارف الزين) .

اما الصناعة فقد انشىء في صيدا مصنعان حديثان لتوضيب الحمضيات وصندقتها يمكن اعتبارهما من احدث المصانع واضخمها للتوضيب في لبنان . فالمصنع الاول قام بانشائه السادة مصطفى البساط واولاده – شركة صفا لتوضيب الحمضيات – وقد بدأ العمل فيه عام ١٩٦٠ . ويقوم هذا المصنع في توضيب الحمضيات خلال اربعة اشهر من السنة فقط بمعدل (٢٠٠٠) صندوق

يومياً ويعمل في المصنع خلال تلك الفترة بين (١٥٠ و ١٦٠) عاملاً وينخفض هذا العدد الى (٥٠) عاملاً طيلة ايام السنة .

اما المصنع الثاني الذي يعتبر من احدث المصانع في الشرق العربي فقد أنشأه الحاج علي الزعتري واخوانه عام ١٩٦٢ واشرف على بنائه المقاول المعروف السيد ابراهيم ودبع حداد . وبدأ انتاجه في مطلع ١٩٦٣ وهو يضم الى جانب معمل توضيب الحمضيات مصنعاً حديثاً للنجارة ومرأباً لتصليح سيارات الشركة وبراداً كبيراً خاصاً بالمصنع يستوعب في آن واحد (١٥٠) الف صندوق الخ..

يقوم هذا المصنع بتوضيب كافة أنواع الحمضيات خلال اشهر الشتاء بمعدل يومي يتراوح بين (٥٠٠٠) و (٦٠٠٠) صندوقاً كما يقوم بتوضيب الخضروات والفواكه التالية :

الاكيدنيا	(٢٧,٠٠٠) صندوقاً صغيراً
التفاح	(٩٥،٠٠٠) صندوق
الرمان	(٨,٠٠٠) صندوق
العنب	(٦،٠٠٠) صندوق
الاجاص	(٢،٠٠٠) صندوق
البندورة	(٥،٠٠٠) صندوق
البطاطا	(٢٣,٠٠٠) صندوق
البصل	(١،٠٠٠) صندوق
الثوم	(١،٠٠٠) صندوق

ويعمل في هذا المصنع عدد من العمال الدائمين يتجاوز عددهم الـ (٣٠٠) عامل بينما يعمل فيه خلال ثمانية اشهر (٨٠٠) عامل وعاملة ونيف .

وفي صيدا معملان لصناعة الصابون على الطراز الحديث يعود الأول للسيدين مجيد وجورج خوري والثاني للسيد محمد عربي كالو وولده وجيه . وفيها أيضاً

معصرة للزيتون انشأها على الطراز الحديث السيدان ابراهيم عبود وولده البير ويقدر انتاج المعصرة سنوياً من الزيت الصافي (بـ ١٠٠) طن ومن جفت الزيتون (١٥٠) طناً أما عدد العمال فيها فلا يتجاوز الستة عمال خـلال موسم قطاف الزيتون .

وهناك صناعة السفن التي ازدهرت في العصور القديمة ولكنها تأخرت كثيراً في الربع الثاني من القرن العشرين ومع ذلك فان بعض الورش تنشط الآن لصناعة عدد من الزوارق الصغيرة لاستعمال صيادي الاسماك . كما تقوم الآن ورشة خاصة لصناعة ثلاثة زوارق جميلة على الطراز الفينيقي حتى يستعملها السياح الاجانب في تنقلاتهم بين جزيرة صيدا ومينائها ...

وتنتشر على ساحل صيدا الجنوبي الفواخير التي تقوم بصنـــاعة الادوات الفخارية والجرار .

واشتهرت بلدة كفريا شمال صيدا – بصناعة السلال القصبية الانيقة للزهور وهي التي يستعملها بائعوا الازهار في مختلف البـــلاد اللبنانية وتفنن في صناعتها نساء تلك البلدة الصغيرة .

فروع المصارف في صيدا

	المصرف	المدير
١	– مصرف لبنان المركزي	المدير السيد جان نمور
٢	– الشركة الجديدة لبنك سوريا ولبنان	المدير السيد ايلي محفوظ
٣	– بنك عوده	المدير السيد جورج عوده
٤	– المؤسسة المركزية للبنوك – التونسي سابقاً	المدير السيد شفيق خلاط
٥	– بنك انترا	المدير السيد زهير ابو ظهر
٦	– البنك الاهلي الاردني	المدير السيد انطوان شتوي
٧	– بنك مصر ولبنان	المدير السيد وفيق النعماني

	المصرف	المدير
٨	– بنكو دي روما	المدير السيد اسكندر دي ليفير
٩	– البنك اللبناني للتجارة	المدير السيد نزيه اسطفان
١٠	– بنك فران	المديران السيدان جورج وجان فران
١١	– بنك الشركة الجزائرية	المدير السيد الامير سمير شهاب
١٢	– بنك الانماء	المدير السيد بهيج حمصي
١٣	– بنك بيروت الرياض	المدير السيد امين منصور
١٤	– البنك الافريقي (طرابلس سابقاً)	المدير السيد نزيه بعاصيري
١٥	– بنك الاتحاد الوطني	المدير السيد رياض سلامه
١٦	– البنك الدولي العربي	المدير السيد سليمان مالك
١٧	– مصرف معوشي	مديره السيدان: ميشال وجان معوشي

الفصل الرابع

الحركة الفكرية في صيدا :

إذا ما تحدث المرء عن الحركة الفكرية والادبية والعلمية في البلاد فانه ليخطر في البال ما قدمته صيدا للعالم العربي في شتى المجالات الثقافية والسياسية من رجالات قادوا الحركات النضالية والاستقلالية في مختلف الاقطار العربية :
ونحن ، والحديث عنهم يستوعب مجلداً كاملاً نرى انفسنا مجبرين على ذكر اسماء بعض من نهل العلم فيها كالسادة : فارس بك الخوري — السياسي السوري الكبير — اميل البستاني — النائب والوزير اللبناني النابغة — تعلم في مدرسة الفنون الانجيلية — صيدا — رضا بك الصلح اللبناني الكبير — تعلم في مدارس صيدا .

الدكتور يوسف ابيلا الصيداوي قنصل اسبانيا — نشأ وتعلم في صيدا — ودرس الطب في الجامعة الاميركية في بيروت ، وكان أول من نال شهادته من تلك الجامعة من اللبنانيين سنة ١٨٧٤ وتلاه الدكتور سليم افتيموس إذ نال شهادته سنة ١٨٨٩ وهو أول من نالها من الجامعة الاميركية باللغة الانكليزية .

وديع سليم ايوب الصيدلي — اول صيداوي نال شهادة رسمية في الصيدلة من جامعة بيروت الاميركية سنة ١٩٠٢ .

رياض الصلح — صيدا — السياسي اللبناني الكبير وركن الاستقلال — نشأ وتعلم في مدارس صيدا .

والجدير بالذكر ان أول مدرسة قانونية انشئت في لبنان لتعليم البنات كانت مدرسة البنات الانجيلية الوطنية في صيدا إذ تأسست سنة ١٨٦٢ أيام كانت المرأة نزيلة البيت لا تخرج منه إلا للزواج إذا تم .
وفي الحديث عن الحركة الفكرية في صيدا نرى لزاماً علينا ان نورد في نهاية هذا الفصل موجزاً لحياة نفر من رجالات صيدا الاعلام الذين يفاخر بهم الابناء ويعتز بتراثهم الاحياء ...

الصحافة والطباعة :

ولقد اقدم المرحوم الشيخ احمد عارف الزين في عام ١٩٠٩ على اصدار أول مجلة ادبية اجتماعية شهرية في صيدا اذ اصدر العدد الأول منها في محرم سنة ١٣٢٧هـ الموافق ٥ شباط ١٩٠٩ م واسماها « مجلة العرفان » وقد طبع اعداد السنة الأولى والثانية في بيروت ولكنه مالبث ان اشترى مطبعة خاصة به نقلها إلى صيدا ودعاها بمطبعة العرفان وباشر العمل عليها في ١١ كانون الأول سنة ١٩١٠ .

ولا تزال هذه المجلة الشهرية تصدر تباعاً وحتى يومنا هذا تحت اشراف نجل المرحوم الشيخ احمد عارف الزين الاستاذ نزار الزين .

وهنالك جريدة : « العصر » الادبية الإسبوعية البي نقلها صاحبها الاستاذ يوسف فضل سلامة في عام ١٩٤٣ الى صيدا . ولا تزال هذه الصحيفة تصدر بصورة متواصلة بالرغم من الصعوبات المادية التي يتكبدها صاحبها المفضال ...

شخصيات صيداوية لعبت دوراً بارزاً في المجتمع

رضا بك الصلح — ١٨٥٦ — ١٩٢٧

ولد في صيدا سنة ١٨٥٦ وتعلم فيها علومه الاولية ثم انتقل الى الاستانة حيث تخرج من المدرسة السلطانية التي تخرج المدراء والقائمقامين، فتنقل في الوظائف

الادارية في عدد من المدن اللبنانية والفلسطينية وشغل وظيفة قائمقام للنبطية ثم لصور وأخيراً في صيدا من ٢٣ تموز سنة ١٨٩٥ – ٢٨ شباط سنة ١٨٩٨ . فشجع المعارف فيها وسعى سعياً حثيثاً لتجديد ابنية المدارس الخيرية الاسلامية فتوفق ، وهم بادخال اصلاحات الى المدينة ولكنه حورب من قبل السلطات العثمانية مما اجبره على الاستقالة .

وخلال الحرب العالمية الأولى ظهرت ميوله العربية فالقت السلطة العثمانية عليه القبض ونفته مع اسرته إلى الاناضول حيث بقي هناك الى نهاية الحرب العالمية الاولى فعاد الى بلده .

ولما عقد المؤتمر السوري الاول في دمشق سنة ١٩٢٠ م كان المترجم له ممثلاً لمدينة صيدا هو نفسه . وما ان نودي بالملك فيصل ملكاً على سورية في آذار سنة ١٩٢٩ حتى تعين رضا بك وزيراً للداخلية في وزارة رضا بك الركابي المؤلفة في ٩ آذار وظل فيها حتى استقالت الوزارة في ٢ ايار من السنة نفسها فتعين رئيساً لمجلس الشورى في ٣ ايار سنة ١٩٢٠ في حكومة هاشم بك الاتاسي ومكث في وظيفته حتى سقطت دمشق في ٢٥ تموز سنة ١٩٢٠ في ايدي الفرنسيين فعاد إلى بلده حيث انقطع عن العمل السياسى .

وفي عام ١٩٢٧ انتقل الى رحمته تعالى في بيروت ودفن فيها . ويعتبر رضا الصلح من انزه الشخصيات واكفئها ، ومن اكثرهم غيرة على المشاريع الخيرية والعمرانية .

الدكتور اسكندر البارودي ١٨٥٦ – ١٩٢١ :

ولد في صيدا سنة ١٨٥٦ وتربى فيها وتعلم في مدرسة دير الشير في بمكين ثم في المدرسة الانكليزية في سوق الغرب ثم في الكلية السورية في بيروت . نال شهادة البكالوريوس سنة ١٨٧٥ والشهادة الطبية سنة ١٨٨٢ .

وهو عالم ، طبيب ، اديب وصحافي قدير ، ومرب عمل في حقل التربية والتعليم ، ومشرّع عمل في سلك القضاء .

تميزت حياته بما بذل من مجهود علمي رمى من ورائه الى اغناء الثقافة العربية العلمية بما وضعه من الكتب والمؤلفات في الطب والصحة جعلته من الرواد في هذا الحقل . وهو صحافي عمل في حقل الصحافة العلمية فتولى منذ ١٨٩٥ وطيلة عشرين سنة تحرير مجلة الطبيب التي انشأها عام ١٨٧٨ الدكتور جورج بوست . كما كتب الكثير من الابحاث في مجلتي المقتطف والهلال المصريتين .

وعمل البارودي في حقل التربية والتعليم بضعة سنين اذ علـّم في مدرسة صيدا الاميركية للبنين مدة ثلاثة اعوام وفي الجامعة الاميركية سنة واحدة وفي معهد زهرة الاحسان للروم الارثوذكس في بيروت .

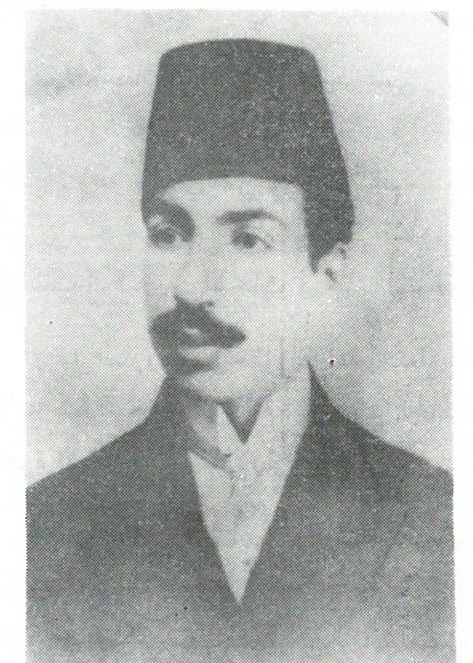
اما في الحقل الاجتماعي والانساني فله خدمات جلى اذ انشأ لمواساة المرضى مستوصفين احدهما في برج البراجنة والاخر في الغبيري . كما خدم في سلك القضاء عضواً في محكمة استئناف جبل لبنان مدة (٢٠) سنة وتوفي في سوق الغرب سنة ١٩٢١ ودفن فيها .

من مؤلفاته :

١ – اضرار المسكرات – طبع بيروت
٢ – حياة كرفيليوس فان ديك – طبع بعبدا
٣ – خير الاغراض في تدبير الامراض طبع بيروت
٤ – السوار المحلي في تدبير الاعلى – طبع بيروت
٥ – النصائح الموافقة في سن المراهقة – طبع بيروت
٦ – مذهب هاللي – طبع بيروت
٧ – المبادىء الصحية للاحداث – طبع بيروت

(يوسف اسعد داغر = مصادر الدراسة الادبية الجزء الثاني)

الشهيد توفيق البساط ١٨٩١ – ١٩١٦ :



الشهيد توفيق البساط

هو ابن المرحـــوم بدوي البساط ولد في مدينة صيدا عام ١٣٠٩ هـ = ١٨٩١ م وفيها نشأ وتعلم علومه الاولية في المدرسة الخيرية الاسلامية التابعة لجمعيـة المقاصد الاسلامية. وبعد تخرجه سافر الى دمشق وهنـاك دخل المدرسة السلطانية للضباط وتخرج منها برتبة ضابط في اوائـل الحرب العالميه الاولى سنة ١٩١٤ .

وفي عام ١٩١٦ اتهمتـــه السلطات العثمانية بخيانة الدولة اثر مجاهرته مراراً بعدائه لها وانتمائه الى جمعية « العربيـــة الفتاة »، وهي الجمعية السرية التي شكلها في باريس سنة ١٩١١ نفر من الشبـــان السوريين واللبنانيين والعراقيين والتي جعلت هدفها «بذل كل جهد لايصال الامة العربية الى مصاف الامم الراقيه الحرة المستقلة » .

وحوكم مع رفاقه الاحرار امام المجلس العسكري العرفي الذي شكـــله في عاليه احمد جمال باشا السفاح . وصدر الحكم باعدامه وقد تم تنفيذ الحكم عليه في بيروت فعلق على المشنقة مع نفر من خيرة رجالات العرب في ساحة البرج – ساحة الشهداء بيروت في ٦ ايار سنة ١٩١٦ ومـــات دون ان يتزوج وهو في ريعان الشباب واشتهر الشهيد الشاب بالعلم الغزير ودماثة الخلق والذكاء الوقاد والوطنية الصادقة ..

مصباح رمضان

١٢٦٧ هـ – ١٣٥١ هـ ١٨٥٠ م – ١٩٣٢ م

ولد في بيروت وتعلم في المدارس الابتدائية ثم اتصل بالطبقة الاولى من اهل العلم والنهضة الادبية كالشيخ ناصيف اليازجي وابنه الشيخ ابراهيم والشيخ يوسف الاسير وابراهيم الاحـدب وسعيد الشرتوني وفضل القصار . ثم دخل الوظيفة كاتباً في الجمرك في مدينة صيدا حيث كانت له موطنـــاً دائماً ، ثم عمل كمفتش للبلديات . واستقر نهائياً في مدينة صيدا كمديراً للجمرك فيها حيث ظهر نبوغه وادبه وشعره .

وهو شاعرفطري المعي ، لطيف المعشر ، خفيف الروح ، كان في الادب والنقد في الرعيل الأول منه مـــع انه لم يتهيأ له الأعداد اللغوي الكفؤ وهو صاحب المقطوعات البديعة والنكات المستملحة والتواريـــخ البديهية وهو ند للسراج الوراق في تشبيهاته وبديعياته . اشتهر بالدعابة والهجاء فكان بهما لا يبارى لنكاته المبتكرة واجوبته المسكتة وبديهياته الحاضرة .

ومع ذلك فانه لم يترك كبير اثر . وكثير من منظومه منشور في مجموعـة مجلة العرفان إذ ربطته بصاحبها المرحوم الشيخ احمد عارف الزين صلات الجوار مدة طويلة مع علاقة متينة من الود الخالص .

وقد طبع له عـام ١٨٧٣ كراس صغير حوى بعض موشحاته من نظمه . وتوفي سنة ١٩٣٢ .

الشاعر حبيب نمور ١٨٦٧ – ١٩٤١ :

هو حبيب بن مارون نمور ولد في صيدا سنة ١٨٦٧ ونشأ وتعلم في مدارسها – المدرسة المـــارونية الوطنيه فالمدرسة الاميركية الانجيلية فمدرسة الاباء اليسوعيين – ثم انتقل إلى مدرسة عينطورة في عام ١٨٨٦ وتخرج منها سنة ١٨٨٨

مبرزاً في اللغتين العربية والفرنسية وملماً الماماً حسناً باللغتين التركية والإنكليزية.

عمل في مهنة التعليم في مدارس صيدا اولاً ثم في مدرسة عينطورة لغاية عام ١٨٩٣ ثم انخرط في سلك وظائف الدولة فمن مأمور للحجر الصحي في اللاذقية إلى مدير لدوائر الريجي في كل من : طولكرم ، طرابلس ، مرجعيون ، صور ، ثم بعلبك وصيدا حيث تقاعد عن العمل في عام ١٩٣٤ .

تزوج في عام ١٨٩٦ من نسيبته نزهه (جولي) كريمة جبور نمور ورزق منها ببنات وبذكر واحد هو المحامى الاستاذ مارون نمور .

موظف نزيه مثالي ، عف اللسان جم التواضع ،صادق الكثيرين من السياسين والادباء والشعراء في عصره مثل : فارس وفايز الخوري وكامل الاسعد ولبيب الرياشي وعيسى اسكندر المعلوف واحمد شوقي وحافظ ابراهيم وخليل مطران.

شاعر مجيد ، قوي الديباجة ، جميل الالفاظ ، قرض الشعر وهو حدث متغزلاً ، ثم انصرف إلى المديح والوصف والرثاء وتسطير القصائد فاجاد وابدع وسار على منوال اليازجي الاب في تأريخ الحوادث في شعره فتفوق على معاصريه من الشعراء في هذا الحقل ...

أول قصيدة نظمها وعمره (١٥) سنه في عام ١٨٨٢ متغزلاً مطلعها :

مابال ثغرك لا ينفك مبتسماً   والبرق يلمع احياناً وينقطع
ولحظ عينيك يرمي اسهماً ابداً   فهل اتيح لها في القلب متسع

ومن اروع منظوماته قصيدته المشهورة « التاريخية » التي نظمها في عام ١٣٢٤هـ — ١٩٠٧م في مدح السلطان العثماني عبدالحميد الثاني وضمنها الفاً وخمسمئة وثمانية وستين تاريخاً تعود كلها لسنة ١٣٢٤ هـ مطلعها :

لواء شكري بسد العدل ناشره   والمدح سؤلي بدر القول ناثره
سليل عثمان حق العدل بحر عطا   بعصرنا حلي اطواق مآثره

وللشاعر ديوان شعر مخطوط يقع في (٥٠٠) صفحة ونيف محفوظ لدى نجله

المحامي المعروف الاستاذ مارون نمور ... نرجو ان يصار الى طبعه قريباً حتى يتعرف الى عبقرية الشاعر ، الادباء من ابناء وطنه .

توفي في صيدا سنة ١٩٤١ ودفن في مدفن اسرته ..

محمد علي حشيشو

١٢٩٩ هـ — ١٣٣٤ هـ   ١٨٨٢ م — ١٩١٦ م

ولد في صيدا سنة ١٨٨٢ ونشأ فيها وتعلم في مدارسها ونبغ في اللغة العربية وآدابها ونظم الشعر صغيراً فكان اديباً بليغاً وشاعراً مجيداً عين استاذاً للغة العربية في المكتب الرشيدي في صيدا .

وابان الحرب العالمية الاولى حوكم في المجلس العرفي في عاليه لوطنيته وقد ظهرت براءته من التهم الملصقة به ومع ذلك فقد نفي الى بعلبك ثم الى بلدة القصير بالقرب من مدينة حمص حيث توفي سنة ١٩١٦ وهو في ريعان الشباب .

له مقالات عديدة وقصائد مختلفة نشرت في مجلة العرفان ، ومن آثاره الادبية :

١ — اثار ذوات السوار —
٢ — شعراء سورية في العصر الحاضر .

رياض بك الصلح :

هو ابن رضا الصلح السياسي العربي وحفيد احمد باشا الصلح ولد في صيدا عام ١٨٩٣ وفيها نشأ وتعلم وظهر ذكاؤه ونبوغه منذ مطلع فتوته واعتنق مبدأ كراهية المستعمرين الاجانب فكان جزاؤه النفي مع والده الى الاناضول من قبل الدولة العثمانية خلال الحرب العالمية الاولى ؛ وافرج عنه مع اسرته عام ١٩١٧ فعاد الى بلدته . وما ان ظهرت طلائع الجيش العربي على الحدود السورية الجنوبية



رسم المرحوم رئيس الوزارة اللبنانيـــة
رياض الصـــلح

حتى اعلن مع نفر من شباب صيدا قيام الحكومة العربية فيها ورفع بنفسه العلم العربي على سارية دار الحكومة . وما ان دخل الجيش البريطاني الى المدينة حتى استقبل القائد بصفته ممثلاً للشريف فيصل في المدينة ، الامر الذي لم يرق للقائد الفرنسي الذي دخل صيدا بعدئذ فانذره بمغادرة المدينـــة والا ضرب السراي بالقنابل فغادر صيدا الى دمشق واجتمع الى والده والى رجال الحكومة العربية فيها وظل هناك يعمل على تشجيع الثورات في لبنان حتى دخل الفرنسيون دمشق اثر معركة ميسلون ففر منها .

حكم عليه الفرنسيون بالاعدام ومصادرة املاكه واملاك والده ولكنه نال العفو فعاد الى صيدا ومنها انتقل الى بيروت واعتكف عن العمل السياسي رافضاً المناصب المغرية الكثيرة التي عرضها عليه الفرنسيون لانه اختط لنفسه طريقاً لم يحد عنه طيلة حياته وهو انه لا يعمل في حكومة تخضع للحكم الاجنبي ...

وسنحت له الفرصة خلال الحرب العالمية الثانية حينما اجتمع الى المرحومين الشيخ بشاره الخوري وعبد الحميد كرامي واتفقوا على خوض الانتخابات النيابية التي انتهت بنجاح انصارهم في شتى الانحاء اللبنانية .

وما ان انتخب الشيخ بشاره الخوري لرئاسة الجمهورية في ٢١ ايلول سنة ١٩٤٣ حتى كلف السيد الصلح بتشكيل الوزارة فالفها من العناصر الوطنية .

عرضت الوزارة على المجلس النيابي مشروع تعديل الدستور اللبناني فاقر بالاجماع ، الامر الذي دفع بالفرنسيين الى اعتقاله مع رئيس الجمهورية وعدد من الوزراء في ١١ تشرين الثاني سنة١٩٤٣فاجتاحت البلاد موجة عارمة من السخط على المستعمرين واقفلت المحلات والمتاجر طيلة احد عشر يوماً حتى اضطر الجنرال كاترو المندوب الفرنسي العام لاطلاق سراح المعتقلين واعادتهم الى مناصبهم في ٢٢ تشرين الثاني سنة ١٩٤٣ .

وظل على رأس الوزارة حتى استقلت البلاد نهائياً واشتركت في هيئة الامم وفي جامعة الدول العربية ..

ترأس السيد الصلح الوزارة اللبنانية خلال عهد الاستقـلال ست مرات في التواريخ التالية :

الوزارة الاولى من ٢٥ ايلول ١٩٤٣ الى ٢ تموز سنة ١٩٤٤ .
الوزارة الثانية من ٢ تموز سنة ١٩٤٤ الى ٩ كانون الثاني سنة ١٩٤٥ .

الوزارة الثالثة من ١٤ كانون الاول سنة ٩٤٦ الى ٧ حزيران ١٩٤٧ .
الوزارة الرابعة من ٧ حزيران سنة ١٩٤٧ — ٢٦ تموز سنة ١٩٤٨ .
الوزارة الخامسة من ٢٦ تموز سنة ١٩٤٨ — ١ تشرين الاول سنة ١٩٤٨ .
الوزارة السادسة من١ تشرين الاول سنة ١٩٤٩ —حتى ١٤ شباط سنة ٩٥١ .

ومنذ ان اجريت الانتخابات اللبنانية عام ١٩٤٣ حتى تاريخ وفاته سنة ١٩٥١ ظل محتفظاً بكرسي النيابة عن مدينة صيدا .

واثناء تلبيته دعوة تلقاها من الملك عبدالله بن الحسين ملك الاردن اغتالته يد اثيمة بتاريخ ١٦ تموز ١٩٥١ في عمان وكان في طريقه الى المطار ليعود الى بلده لبنان فحرمت البلاد من عبقريته ودافق وطنيته ومن اخلاص رجل يندر ان يجود الزمان بمثله على بلده .

الشيخ احمد عارف الزين

١٣٠١ هـ — ١٣٨٠ هـ ١٨٨١ م — ١٩٦٠ م

رائد وطني وعامل انساني ومصلح اجتماعي ومن الوجوه البارزة في حقل العلم والصحافة والاصلاح الاجتماعي . وهو احد دعائم النهضة العلمية والادبية والسياسية الحديثة في لبنان الجنوبي طيلة نصف قرن ..

ولقد كان من الذين بذروا اليقظة الوطنية والوعي العربي منذ العهد العثماني .

عرف بالخلق الرضي واللسان العف والجرأة في الحق . وهو صحفي عمل في خدمة الصحافة اكثر من خمسين سنة محرراً ومنشئاً . وفي عام ١٩٠٩ اصدر مجلة العرفان وقد وقفها على خدمة الثقافة العربية والاسلامية فكانت بحق دائرة معارف في علوم الدين والدنيا وموسوعة مشحونة ادباً وعلماً وتاريخاً

ترجم فيها للعديد من حملة لواء العلم والادباء والشعراء ولا سيما لادباء الشيعة في جبل عامل .

اصدر سنة ١٩١٢ في صيدا جريدة يومية باسم « جبل عامل » جعلها منبراً للدعوة الوطنية . وكان شديد العناية بالقضايا الدينية ولا سيما ما يخص مذهب الشيعة ويعتبر بحق داعية للمذهب الجعفري ، ينشر تعاليمه ويدافع عنه ويذود عن علمائه .

وكانت مجلة العرفان متنفساً لكبار الكتاب وحملة الاقلام في السنوات الخمسين الاخيرة تحمل مقالات فارس الخوري وشكيب ارسلان وأمين الريحاني والخوري عيسى أسعد وعارف النكدي ومحسن الامين وعبد الحسين شرف‌الدين وأحمد رضا وسليمان الظاهر ومحمد مغنية ويوسف أسعد داغر وقصائد لأحمد شوقي وحافظ ابراهيم وايليا ابي ماضي وبشارة الخوري والياس فرحات وجورج صيدح .

ولد في شحور — جبل عامل — ١٨٨١ — وسكن صيدا وعاش طيلة حياته فيها . وانتقل إلى رحمة ربه في مشهد من عمالة خرسان (ايران) ودفن في صحن الامام علي الرضى ١٩٦٠ . من مؤلفاته : تاريخ صيدا — طبع سنة ١٩١٤ ومجلة العرفان التي تولى تحريرها ٤٧ سنة ونيف .

الفصل الخامس

المدارس

المدارس الخاصة

في الوقت الذي نتحدث فيه عن رجالات الفكر والسياسة الذين رفعوا اسم صيدا عالياً في المجتمع العربي نرى لزاماً على مدون وقائع التاريخ ان ينوه بما قدمته المؤسسات الثقافية والرسمية والخاصة من خدمات فكرية واجتماعية، وان يذكر نبذة موجزة عن كل منها انصافاً للتاريخ والحقيقة المجردة .

١ — مدرسة الارض المقدسة للراهبات للفرنسيسكانيات تأسست عام ١٨٥٣ وتخصصت برعاية اليتيمات اللواتي بلغ عددهن عام ١٨٦٠ مئة يتيمة .

اما عدد اليتيمات حالياً فهو (٤٢ يتيمة) و (٩٠) تلميذة يتعلمن بالمجان في ٧ صفوف ويتقدمن في نهاية دراستهن الى الشهادة الابتدائية ويشرف على المدرسة ٣ معلمات و ٤ اخوات ورئيسة راهبة .

٢ — مدرسة صيدا الانجيلية للبنات (سابقاً مدرسة البنات الاميركية) أسسها الدكتوران ادي وفورد سنة ١٨٦٢ وتسلمت رئاستهـــا الآنسة ميسن وكان عدد تلميذاتها سنة تأسيسها ٨ تلميذات .

اما عدد صفوفها حالياً فهو (١٤) صفاً في (٢٠) شعبة وتتقدم طالباتهـا لنيل شهادات الابتدائية والكفاءة والبكالوريا القسم الاول الفرع الادبي . رئيستها

الحالية السيدة وداد خوري جحى ومديرها الأستاذ قيصر جحى ويبلغ عـدد اساتذتها ومعلماتها (٢٥) استاذاً ومعلمة يضاف اليهم (٥) اساتذة متعاقدون للتدريس بالساعات الاضافية . ويبلغ عدد تلميذاتها وتلاميذها (٥٧٥) تلميـذة وتلميذاً وهي من المدارس المرموقة التي قدمت ولا تزال تقدم لصيدا وللجنوب اجل الخدمات التربوية والاخلاقية .

٣ — مدرسة نمونة رشدي تأسست عام ١٨٧٣ وتابعت تأدية رسالتها التعليمية حتى الحرب العالمية الاولى اذ اغلقت ابوابها حينذاك . وفي عهد الاستقــلال تحولت الى الحكومة اللبنانية واصبح اسمها حالياً مدرسة صيــدا التكميلية للصبيان .

٤ — مدارس جمعية المقاصد الاسلامية تأسست عام ١٨٧٧ اثر اجتماع عقده نخبة كريمة من رجالات مدينة صيدا برئاسة محمد فريد خورشيد القائمقام وحضرة محمد كامل المغربي — الذي انتخب لنيابـة الرئاسة — ومحمد محي الدين حشيشو وعبدالله لطفي وناصيف الاسعد ومحمود منح الصلــح وعمر نحولي ومحمد منيب الصلح وعبد السلام زنتوت ومحمد النعماني ومحي الدين الجوهري وحسن الجوهري وعبد اللطيف لطفي وحسين الجوهري وعلي البزري .

وتضم مدارسها حالياً (١٨٤٤) طالباً وطالبة مقسمين على المدارس التالية :

(٥٤١) تلميذة في ثانوية البنات والدوحة يعلم فيها (٢٠) استاذاً ومعلمة ..

(٤١٣) طالباً في ثانوية الذكور التي يديرها الاستاذ محمد العدناني ويساعده (٢٧) استاذاً .

(٢٧٠) طالباً في مدرسة فيصل الاول و (٦٢٠) طالبــة في مدرستي عائشة أم المؤمنين وفاطمة الزهراء .

٥ — المدرسة الوطنية اسسها عام ١٨٧٨ الخوري الياس عطيه وكيل النائب العام الاسقفي لطائفة الموارنة وقد توقفت فترة من الزمن ثم اعاد اليها الحيـــاة

الاب يوحنا الحلو سنة ١٩٦٢ تحت اسم مدرسة مار الياس ،

وتضم المدرسة حالياً ٧ صفوف في (١٠) شعب ويبلغ عدد تلامذتها (٣١١) طالباً ، يديرها الاب يوحنا الحلو ويساعده (٩) اساتذة ويتقدم طلابها للشهادة الابتدائية وقد احدثت في هذا العام صفاً جديداً هو الصف الأول التكميلي .

٦ – مدرسة الفنون الأنجيلية الوطنية للبنين (مدرسة الفنون الاميركية سابقاً) اسسها في صيدا عام ١٨٨٠ المرسلان الاميركيان وليم كنغ ادي وجورج فورد ودرّس فيها المعلمان يواكيم الراسي وفارس عازوري وفي عام ١٨٨١ اسسا فيها الفرع الداخلي الذي ضم (٢٠) طالباً وأول صف احرز شهادة المدرسة في حفلة قانونية عام ١٨٨٩ كان مؤلفاً من خمسة طلاب هم : انيس متري الحلو وحبيب فارس صبحية ويوسف حنا موسى ونسيم متري الحلو وفارس نقولا حنا.
وتعاقب على رئاسة المدرسة : وليم ادي ، جورج فورد ، الدكتور صموئيل جسب ، ستوارت جسب ، نسيم الحلو ، الدكتور فرنك ل . هوايت .

وفي عام ١٩٤٧ انتقلت المدرسة إلى ابنيتها الجديدة في عين الحلوة وقد احدثت فيها ابنية جديدة منذ عام ١٩٥١ .

ويرأس المدرسة منذ عام ١٩٥٨ السيد دجلاس هيل ويساعده الاستاذ ابراهيم مرقس بالاضافة إلى (٤٨) استاذاً يشرفون على تعليم (٦٨٧) طالباً منهم (٢٣٢) طالباً داخلياً .

وتقدم المدرسة طلابها لنيل الشهادة الابتدائية وشهادات ، الكفاءة ، البكالوريا اللبنانية القسم الأول بفرعيه الادبي والعلمي والبكالوريا اللبنانية القسم الثاني – رياضيات – باللغة الانكليزية . وفي المدرسة أيضاً فرع للنجارة وآخر للتجارة .

وتعتبر هذه المدرسة من انجح المدارس وقد قدمت للوطن العربي عدداً كبيراً

من رجال السياسة والاقتصاد والفكر .

٧ – المدرسة الاسقفية للروم الكاثوليك . تأسست عام ١٨٨٥ بادارة الخوري يوسف الزهار .

وتضم المدرسة في الوقت الحاضر (٣١٥) طالباً وطالبة يتعلمون في (١٢) صف وشعبة يديرها الاستاذ اميل شختوره ويساعده (١٤) استاذاً ومعلمة ويتقدم طلابها للشهادتين الابتدائية والكفاءة اللبنانية .

٨ – مدرسة القديس لويس اسسها في صيدا عام ١٩٠٤ الاخوة المريميون وتولى ادارتها الاخ جوزف دي ليونسا ... وقد انتقلت إلى ابنيتها الجديدة عام ١٩٦٠ في الرميلة .

يديرها حالياً الأخ جورج ليون برونيه يساعده (٤٢) استاذاً يعلمون (٨١٠) طلاب في (٢٠) صفاً .

ويتقدم طلابها لنيل شهادتي الابتدائية والكفاءة وتسير هذه المدرسة في الطريق نحو البكالوريا ...

٩ – مدرسة التفوق العالية :

أسستها الانسة اسما مرشد البستاني سنة ١٩٤٩ وضمت في سنتها الأولى (٧٠) طالباً وطالبة في (١٠) صفوف أما عدد طلابها وطالباتها حالياً فيقدر بـ (٢٠٠) موزعين على (١٣) صفاً يشرف على تعليمهم (١٧) استاذاً ومعلمة. والمدرسة تسير وفق المنهاج الرسمي لوزارة التربية الوطنية اللبنانية ويتقدم طلابها إلى شهادات الابتدائية والكفاءة والبكالوريا اللبنانية الفرع الادبي ويساعد الرئيسة الانسة بستاني في الادارة الاستاذ يوسف الحاج .

١٠ – المدرسة النموذجية الابتدائية . اسستها في صيدا الانسة الكسندرا انطاكي عام ١٩٥١ وضمت وقتئذ (٣٠) طالبة .

ويبلغ عدد طالباتها الآن (٥٠٠) طالبة وعدد المعلمات فيها (٢٥) معلمة وصفوفها (١١) صفاً في (١٦) شعبة . وتقدم هذه المدرسة طالباتها لنيل شهادتي الابتدائية والكفاءه. وما برحت الانسة انطاكي تدير هذه المدرسة حتى يومنا هذا .

١١ـ مدرسة رعاية اليتيم. تأسست عام ١٩٥٢ بسعي من الرجل المحسان الحاج احمد رياض الجوهري لايواء الايتام من مختلف الطوائف وتثقيفهم وبعد ان تم بناء الدار لهم فتحت المدرسة ابوابها في عام ١٩٥٩ .

يبلغ عدد الايتام فيها من ذكور واناث (٣٠٠) يتيماً ويتيمة يتعلمون في (٧) صفوف من (١٠) شعب. وتقوم على ادارة المدرسة الانسة فاتنة الجردلي يساعدها (١٢) معلمة ويتقدم المتخرجون منها لنيل الشهادة الابتدائية .

١٢ ـ مدرسة الراهبات (ماريوسف) ، تأسست هذه المدرسة عام ١٩٥٤ ورئيستها الحالية الأم صوفيا ويبلغ عدد طلابها في الوقت الحاضر (٦٢٥) منهم (٥٧٥) طالبة و (٥٠) طالباً صغيراً في الحضانة أما عدد صفوفها فيبلغ (٢١) شعبة وتتقدم طالباتها لنيل شهادتي الابتدائية والكفاءة اللبنانيتين . وهي مدرسة اجنبية ليس فيها من يتعلم بالمجان .

١٣ ـ دار اليتيم العربي ، تضم الدار في رحابها حالياً (٢٠٠) يتيماً ويتيمة بعد ان كان عددهم يوم تأسيس الدار سنة ١٩٥٤ (١٥٠) يتيماً ... وهم يتقدمون لنيل الشهادة الابتدائية اللبنانية ويشرف على تعليمهم وتهذيبهم (١٦) معلماً ومعلمة وتدير الدار السيدة سهام مجذوب الزعتري .

وفي المدرسة فرع للخياطة والتطريز ينتمي اليه (٣٠) طالباً وطالبة .

١٤ ـ اتحاد المدارس العربية ، يضم هذا الاتحاد مجموعة من المدارس هي : ١) المدرسة الاهلية العربية وتديرها السيدة نادرة بيضون ـ ٢) المدرسة

العربية وتديرها السيدة نهلة ادريس ـ ٣) مدرسة صيدا العربية . ويشرف على اتحاد المدارس المذكورة الاستاذ سعد الدين الحبال ويبلغ عدد الطلاب والطالبات في هذه المدارس (١١٣٥)طالباً وطالبة يقوم بتدريسهم (٤٧) استاذاً ومعلمة في (٣٦) شعبة .

وباشر الاتحاد عمله التربوي بين عام ١٩٦٠ و ١٩٦٢ ويتقدم طلاب هذه المدارس لشهادات : الابتدائية والكفاءة والبكالوريا اللبنانية ، والموحدة السورية بالاضافة إلى شهادة مهنية في التجارة والضرب على الآلة الكاتبة ...

١٥ ـ مدرسة الاتحاد الوطني : اسس هذه المدرسة عام ١٩٦٣ الاستاذ صلاح طه البابا وجعلها داخلية وخارجية يدرس فيها حالياً (٤٤٠) طالباً وطالبة منهم (٢٣٠) من الذكور و (٢١٠) من الاناث .

عدد صفوف المدرسة حالياً (٢٠) صفاً وشعبة ويشرف على تهذيب الطلاب والطالبات (٣٣) معلماً ومعلمة اضافة إلى مديرة المدرسة الحالية السيدة مريم عرب البابا وتسير المدرسة وفق منهاج وزارة التربية الوطنية اللبنانية فتقدم طلابها الى شهادتي الابتدائية والكفاءة وتسعى ادارة المدرسة لتقدم طلابها إلى شهادة البكالويا اللبنانية بفرعيها خلال العام القادم ...

المدارس الثانوية الرسمية في صيدا

١ ـ ثانوية صيدا الرسمية للبنين :

تأسست في ٥ كانون الأول سنة ١٩٥٦ وأول مدير لها هو الدكتور محمد المصري . وقد ضمت وقتئذ ٣٧ طالباً في ٣ صفوف أما اليوم فتضم ٤٠١ طالباً وطالبة ويدرس فيها ٣٢ استاذاً وعدد شعبها ١٥ شعبة ويديرها حالياً بقدرة ونشاط الاستاذ مصطفى احمد الزعتري .

وهي تقدم طلابها للبكالوريا اللبنانية بقسميها العلمي والادبي والبكالوريا الثانية بقسميها الفلسفة والرياضيات باللغة الفرنسية كما تقدم طلابها للكفاءة اللبنانيـــة باللغتين الفرنسية والانكليزية .

وتسير هذه المدرسة بحق في طليعة المدارس الثانوية في صيدا .

٢ – ثانوية صيدا الرسمية للبنات :

تأسست سنة ١٩٥٩ واول مديرة لها هي الانسه رياض المغربل وكان عـدد تلميذاتها ١٨ تلميذة يدرسن في صف واحد .

وفي عام ٩٦٤/١٩٦٥ بلغ عدد تلميذاتها ٩٠ تلميـــذة يدرسن في ٤ صفوف ويتقدمن لامتحان البكالوريا اللبنانية القسم الاول باللغة الفرنسية وتديرها حاليـاً بحنكة ومقدرة السيدة حكمت صباغ الخطيب .

٣ – دار المعلمين والمعلمات :

تأسست في ٢ تشرين الاول سنة ١٩٦١ وفتحت ابوابهـا في اوائل كانون الاول ١٩٦١ وكان عدد طلابها ٩٥ طالباً وطالبة يدرسون في صف واحد ذي ٤ شعب وادارها بالاضافة الى وظيفته كمدير لثانوية صيدا الرسمية للبنين الاستاذ مصطفى احمد الزعتري اما في عام ٩٦٤/٩٦٥ فقد بلغ عدد شعبها ١٢ شعبـة ويدرس فيها (١٤) استاذ اصيل و (٤٠) استاذ متعاقد وتضم (٢٢٣) طالبـاً و (٧٢) طالبة ويديرها بكفاءة وحزم الاستاذ نزيه الخطيب .

٤ – المدرسة المهنية الرسمية :

تأسست عام ١٩٦١ وهي تقوم بدور فعال في تغطية الحقل العلمي المهني في المدينة يديرها حالياً الاستاذ جورج حكيم وتضم حوالي (٣٠) طالباً ..
والى القارىء جدولا باسماء المدارس الرسمية الابتدائية والتكميلية في صيدا

١ – مدرسة صيدا التكميلية للبنات
٢ – مدرسة التقدم للبنات
٣ – مدرسة صيدا الجديدة للبنات
٤ – مدرسة الاصلاح للبنات
٥ – مدرسة الشمعون للبنات
٦ – مدرسة صيدا الحديثة للبنات
٧ – مدرسة النهضة للبنات
٨ – مدرسة صيدا الرسمية للبنات
٩ – مدرسة الاصلاح للبنين
١٠– مدرسة صيدا الجديدة للبنين
١١– مدرسة صيدا الحديثة للبنين
١٢– مدرسة النهضة للبنين
١٣– مدرسه الرياض للبنين
١٤– مدرسة القناية للبنين
١٥– مدرسة العهد الجديد المختلطة
١٦– مدرسة عين الحلوة الابتدائية المختلطة

مجموع طلاب صيدا :	ذكور	اناث
المدارس الرسمية الابتدائية	٢٠٠٧	١٦٩٧
المدارس الرسمية الثانوية	٦٨٣	٢٠٣
المدرسة المهنية الرسمية	٣٠	٠٠٠٠
المدارس الخاصة (ابتدائية وثانوية)	٤٢٠١	٤٢١٣
المجموع	٦٩٢١	٦١١٣

الفصل السادس

معالم النهضة الحديثة

المستشفيات :

في صيدا مستشفى حكومي كبير واحد . و ٩ مستشفيات خاصة تعود للاطباء السادة:

لبيب وفؤاد ابو ظهر ، الياس ايليا ، اسكندر الحاج ، سعدالله الخليل ، جوزيف الخوري ، راشد الخوري ، نبيه ورمزي الشاب ، روبير عبود ، فؤاد عسيران . و ٤ مستوصفات مجانية هي :

المستوصف المركزي للبلدية ، مستوصف جمعية المؤاساة والخدمات الاجتماعية ، مستوصف نقابات العمال ، مستوصف الصليب الاحمر اللبناني .

الاطباء :

ويعمل في صيدا الاطباء السادة :

فؤاد ابو ظهر ، لبيب ابو ظهر ، جورج اسطفان ، فرانسوا افتيموس ، لطفي انطاكي ، الياس ايليا ، نلي ولهارس ايوب ، عبد الرحمن البابا ، ناصيف باسيلا ، نزيه البزري ، البير بيروتي ، اسكندر الحاج ، حنا الحداد ، كلير نخله حنا ، رفيق حنينة ، سعدالله الخليل ، انطوان الخوري ، جوزيف خوري ،

راشد الخوري ، سعد الخوري ، سليم الخوري ، عبد الرحمن الزين ، سليمان سليمان ، رمزي الشاب ، نبيه الشاب ، خليل الشامي ، رياض شهاب ، عفيف طنوس ، ادوار عبود ، باسيل عبود ، روبير عبود ، نويل عبود ، عماد عسيران ، فؤاد عسيران ، نزيه كالو ، عبد السلام المجذوب ، جورج نخله ، الياس نجم ، هيلدا نمور ، عدنان نوام ..

الصيادلة :

وفيها ايضاً (٧) صيدليات تعود للسادة :

سليم ايوب ، عاطف البساط ، نقولا حريصي داغر ، فضل الشماع ، محي الدين مرجان ، فردينان نعسان ، فضلو واكيم .

اطباء الاسنان :

أما اطباء الاسنان فهم السادة :

نقولا البرشا — محمد خليفة — الياس الخوري — نسيب سمعان — جوزيف عبسي — جوزيف المعوشي .

المهندسون ، هم السادة :

شامل ابو علوان ، انطوان ابيلا ، حسين علي احمد ، فؤاد اسماعيل ، جان اسود ، محمد انصاري ، خضر محرم بديع ، امين البزري ، فؤاد البزري ، بهاءالدين البساط ، منيف التقي ، امين سليم حمود ، محمود دندشلي ، فرانسوا رزق الله ، فريد رزق الله ، عدنان الزين ، وجيه الزين ، الياس سركيس ، فريد سلطان ، سمير سماره ، محمد السيد ، مصطفى السيد ، عرفان الشماع ، جورج شمعون ، جوزيف صادر ، عبد السلام الصلح ، حكمت العابد ، نبيل عسيران ، الياس عويس ، اندره عيد ، بشارة عيسى ، روبير غانم ، محمد القاضي ، رائف قعوار ، احمد الكلش ، محمد الكلش ، سمير مجذوب ، كمال النقوزي ، عفيف النقيب ، ميشال يعقوب .

المحامون :

الاستاذ اديب البزري ، الاستاذ عبدالله البيضاوي ، الاستاذ غازي البساط ، الاستاذ جورج خوري ، الاستاذ نصري الخوري ، الاستاذ صلاح الخيـــاط ، الاستاذ معين الزين ، الاستاذ جورج سرحال ، الدكتور عبد السلام شعيب ، الاستاذ محمد شهاب ، الاستاذ مصطفى صالح ، الاستاذ علي صباح ، الاستاذ محمد صوفان ، الاستاذ محمد عاصي ، الاستاذ نظمى عزقول ، الاستاذ سميح عسيران ، الاستاذ عاكف عسيران ، الاستاذ حبيب فرهود ، الاستاذ علي فواز ، الاستاذ محمد ابو الفضل القواص ، الاستاذ محمود مرجان ، الاستاذ ابراهيم مغنية ، الاستاذ حبيب نمور ، الاستاذ مارون نمور ، الاستاذ جوزيف هاشم .

الاساتذة حملة الشهادات العالية الذين يدرسون
في مختلف المدارس الثانوية الرسمية والخاصة

١ — المديرون والمديرات :

الآنسة اسما مرشد البستاني ، السيدة وداد خوري جحى ، السيدة حكمت صباغ الخطيب ، الاخ جورج ليون برونيه ، الاستاذ جورج حكيم ، الاستاذ نزيه الخطيب ، الاستاذ مصطفى الزعتري ، الاستاذ محمـــد العدناني ، الاستاذ دجلاس هيل .

٢ — الاستاذات : السيدة رفاه شهاب لطفي — السيدة مهى لطفي .

الانسات : نجوى الامين ، نور الامين ، دلال بعاصيري ، لويزيت حبيب ، عايدة خاطر ، نبيلة دمشقية ، سميرة سيوفي ، رداح شهاب ، سميرة عازار ، فريدة عفيف ، نوال عواد ، نجلا نجار ، صونيا نمور .

٣ — الاساتذة السادة : يوسف ابراهيم ، سمعان ابو شامات ، زيدان ابو صالح ، مفيد ابو ظهر ، مصطفى ابو ظهر ، ايليا ايليا ، جميل ايليـا ، شعبان بركات ،

جورج جرجس ، حسين الحاج ، عبد الفتاح الحسن ، عادل خيرالله ، سليم الحاج داغر ، سلوم الدحداح ، غانم رزق ، نزار الرواس ، جورج زهار ، الدكتور نزار الزين ، رائف الزين ، عفيف الشريف ، عبد المولى الصلح ، جـابي عازار ، علي عاصي ، سليم عبود ، شحاده عبود ، جوزيف عتابا ، عادل عكر ، خيري عوض ، الدكتور سعد الدين عوكل ، رشاد عون ، عبد العزيز فاعور ، ممدوح الكردي ، جـان كرم ، حسن كشتبان ، وجيه كوثراني ، ملحم متى ، حليم مجدلاني ، الدكتور محمد المصري ، ابراهيم مرقس ، نقولا المصور ، بهيج الناشف ، نبيه نمور ، غالب هاشم ، جميل واكيم ، احمد وهبي .

الجمعيات الثقافية

١ — المجلس الثقافي للبنان الجنوبي :

تأسس المجلس سنة ١٩٦٥ ومنحته بلدية صيدا غرفة في القصر البلدي لعقد اجتماعاته الدورية .

وغاية المجلس الثقافي تنشيط الحركة الثقـافية في محافظة الجنوب والتنقيب عن المخطوطات وانشاء مكتبات شعبية عامة لفائدة المجتمع والقاء محاضرات ادبية واجتماعية ترفع من شأن المواطن فكرياً ، وتشجيع الفنون الجميـلة عن طريقة اقامة المعارض الفنية المختلفة .

وهيئة المجلس الادارية تتألف من السادة :

الدكتور عبد الرؤوف فضل الله — الامين العام

السيدة حكمت صباغ الخطيب ، والسادة : سليمان ابو زيد ، حسن الامـين ، فؤاد البوبو ، جورج جرداق ، يوسف حوراني ، زيد الزين ، احمد سويد ، عبد اللطيف شرارة ، صـدر الدين شرف الدين ، كامل العبد الله ، حسين مروه ، جوزيف مغيزل وحسين مكي .

٢ – جمعية الادب والثقافة :

تأسست في صيدا في ٩ ايلول سنة ١٩٥٥ ومن اهدافها ، نشر المعرفة ورفع المستوى الثقافي بين كافه ابناء المجتمع الصيداوي عن طريق ايجاد مكتبة عامة مجانية للمطالعة والقاء المحاضرات والمناظرات الثقـافية وعقد الندوات الادبية والعلمية ، ومساعدة الطلبة المحتاجين على متابعة دراستهم (وفي مدارس صيدا الآن عدد لابأس به من الطلبة يستفيدمعظمهم مما تقدم لهم الجمعية من مساعدات وكتب مدرسية) ومن اهدافها كذلك مكافحة الامية عن طريق التعليم المجاني، ومكافحة الجهل بالارشاد والتوجيه وتتألف هيئة الادارة لهذا العـام من السيد سليم الزعـتري رئيساً، الآنسة نجيبة المجذوب ، الآنسة ندى السيد ، والسادة مصطفى لطفي ، رياض مـكاوي ، احمد السيد ، وغالب مكاوي .

وينتسب الى الجمعية (٩٠) عضواً وهم يعملون بعيداً عن المؤثرات الطائفيـة والحزبية في خدمة المجتمع الصيداوي .

الاندية الرياضية :

صيدا عريقة في محبة ابنائها للحياة الكشفية والرياضية وتهافتهم على انتجاع افيائها .. ومدارسها الاهلية والرسمية كانت ولا تزال الينبوع الثري الذي يروي هذا الحقل وينمي موارده ..

في المدينة عدد من الفرق الكشفية الصغيرة ولكن اهمها هـو فوج الجراح الكشفي الذي تأسس في صيدا حوالي عام ١٩٥٠ ويضم مئـة كشاف ونيف ويعتبر من الافواج المرموقة في لبنان يقوده المفوض عبد المنعم البزري ، ويليـه فوج الكشاف المسلم الذي يقوده المفوض حسين الخليل .

اما الاندية الرياضية فبعضها يعمل بنشاط كـلي والبعض الآخر سادر في سبات عميق . ونحن اذ نتحدث عن الرياضة في المدينة نرى من واجبنا ان نذكر ولو بايجاز بعض الاندية التي رافقت تطور المدينة الرياضي في فترة الاستقلال وما

بعده والتي لا تزال تعمل بالرغم من امكاناتها المادية الضعيفة .

١ – نادي الرابطة الثقافي الرياضي – **تأسس عـام ١٩٣٦ ومن مؤسسيه** السادة : معروف سعد، انور البزري ، صلاح طه البابا وشريف الانصاري .

يقتصر نشاط النادي في الوقت الحاضر على الناحية الثقافية والمطالعة، وامينه العام الحالي المهندس بهاء الدين البساط .

٢ – نادي الفداء الرياضي : اسسه عام **١٩٤٧** السيد توفيـق البساط – (للمصارعة والعاب القوى) .

٣ – النادي المعني – **تأسس سنة ١٩٤٩** – (**لمختلف النشاطات الرياضيـة**) تتألف هيئته الادارية الحالية من الرئيس السيد احمد المجذوب والاعضاء السادة : جوزيف حرفوش ، نزار الرواس ، يوسف قنوتي ، مـارون حرفوش ، نصر الدين القواص ، يوسف البني ، احمد المصري .

٤ – النادي الاهـلي : تأسس سنة **١٩٤٩** ويرأسه السيد عز الدين جرادي (خاص بكرة القدم) .

٥ – نادي خريجي المقاصد الاسلامية : تأسس سنة **١٩٤٥** يرأسه حاليـاً السيد رياض كناني (ثقافي ورياضي) .

٦ – نادي رابطة خريجي المدارس الرسمية : تأسس سنة **١٩٥٣ تتـألف** هيئته الادارية للعام الحـالي من السيد توفيق عسيران رئيساً والسادة : ميسر مرسي ، هلال زنتوت ، نبيه جوهر ، شفيق سعد المصري ، اميـل دبغي ، عفيف حشيشو .

٧ – نادي الساحل الرياضي : تأسس سنة **١٩٥٤ ومن مؤسسيه السادة:** اسماعيل النقيب ، محمود زيدان ، حسيب عبـد الجواد ، يوسف عجرم ، سليم الزين ، نبيه باشو .

وتتألف هيئته الادارية الحالية من السيد ممدوح الكردي رئيساً — والسادة محمد شامدين ، نور الدين سموره ، فؤاد بيضون ، عبد الرحمن بيضون ، ومحمد كيلاني — اعضاء (كافة النشاطات الرياضية) .

٨ — نادي الفروسية : تأسس سنة ١٩٦٤ : يرأسه حالياً الاستاذ سامي شعيب . ومن اعضائه الاداريين السادة : غازي البساط ، محمد البربير ، شوقي صفي الدين ، خضر بديع ، عصام البساط ، عاطف عبسي ، وعمر جنبلاط ، (نشاطه خاص بركوب الخيل والعاب الفروسية) .

٩ — نادي صيدون الرياضي : تأسس سنة ١٩٦٥ وهيئته الادارية للعام الحالي تتألف من السادة : الرئيس احمد الحبلي والاعضاء خليل البيطار ، امين الديراني ، نزار الرواس ، مصطفى شمس الدين ، محمد حسني ، محمود الديماسي . (مختلف النشاطات الرياضية) .

الجمعيات الخيرية والاجتماعية :

١ — جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية :

تأسست هذه الجمعية في عام ١٨٧٧ برئاسة قائمقام صيدا محمد فريد خورشيد — شرفياً — والشيخ محمد كامل المغربي — عملياً .

وكان من ابرز اهداف الجمعية مد يد المعونة الى المحتاجين والمعوزين من ابناء الطائفة الاسلامية ونشر العلم والمعرفة في مدينة صيدا عن طريق انشاء المدارس حتى يتلقى ابناؤهم فيها العلوم الراقية بالمجان او بنصف المجان ، وبرسم عادي بسيط لمن تمكنه حالته المادية من الدفع .

ولقد حققت الجمعية كثيراً من اهدافها واليها يعود الكثير من الفضل في رقي المجتمع الصيداوي لانها انشأت ثانوية كبرى للذكور واخرى للاناث بالاضافة الى

ثلاث مدارس ابتدائية للذكور والاناث تخرج منها ألوف الطلاب في فترة تقارب القرن في عدادهم كثير ممن كانوا قادة في الوعي والوطنية والاخلاق في عالمنا العربي .

اما هيئتها الادارية الحالية فتتألف على الشكل التالي :

السيد الحاج علي البزري رئيساً والسادة : الاستاذ مصطفى احمد الزعتري ، المحامي محمد شهاب ، زهير ابو ظهر ، الدكتور عبد السلام المجذوب ، المهندس احمد كلش ، ومحمد علي الشماع .

٢ — جمعية مار منصور دي بول :

ولها فرعان :

أ — جمعية القديس نقولا وس التي تأسست في أيار سنة ١٩٣٣ . وهيئتها الادارية الحالية هي كما يلي :

الرئيس السيد جورج دبانه . والاعضاء السادة : فردينان نعسان ، جان زهار ، نقولا افتيموس ، الاب سليم غزال .

ب — جمعية القديس لويس تأسست في سنة ١٩٤٣ وهيئتها الادارية الحالية تتألف من :

الرئيس السيد روجيه واكيم . والاعضاء السادة : بسام خوري ، انطوان نصر ، اليكو ناصيف ، سهيل سماره ، وفيليب سماره .

وتوزع الجمعية الاعانات المادية على الفقراء والمحتاجين من مختلف طوائف المدينة شأنها في ذلك شأن فروع الجمعية المنتشرة في جميع انحاء العالم ..

٣ — جمعية الصليب الاحمر اللبناني — فرع صيدا :

اسست جمعية الصليب الاحمر اللبناني فرعاً لها في صيدا سنة ١٩٤٨ وكانت رئيسته الاولى السيدة اوجيني دبانه .

ويضم الفرع في عضويته سيدات كريمات من فضليـــات المجتمع الصيداوي يتجاوز عددهن الخمسين عضوة ، ورئيسة فرع صيدا حالياً السيدة ساميـــة عارف جنبلاط .

٤ – جمعية الشعلة :

هي جمعية نسائية تأسست في صيدا عام ١٩٥٠ غايتها توجيه اعضائهـــا في حقل المثل الاعلى الروحي والادبي ونشر نور المعرفـة في كل الاوساط خاصة في الارياف المهملة ، وتوزيع الملابس على المحتـاجين مرتين في السنة كما توزع الجوائز المالية على الطلاب والطالبات في آخر كل سنة دراسية وتضم الجمعية (٦٤)عضوة.

اما هيئة الجمعية الادارية لعام ١٩٦٦ فتتألف على الشكل التالي :

الاب سليم غزال (مرشد فرع صيدا) السيدة ماري دبانـــه المسؤولة عن الفرع ، السيدة وطفا رزق الله ، امينة السر ، السيدة روز نمور امينة الصندوق.

٥ – جمعية المؤاساة والخدمات الاجتماعية :

تأسست هذه الجمعية عام ١٩٥١ وغايتها خدمة المجتمع الصيداوي واسعاف المحتاجين ومعالجتهم وتعليم الاميات مجاناً ..

أما الاعضاء المؤسسون فهم السادة : مصطفى المرسي ، خيري زيبـاوي ، محمد علي الجردلي ، نزار حريصي ، حسن الصباغ ، رامز المارديني ، باسيلا الجمال.

وتتألف هيئتها الادارية حالياً من السيدات والسادة: نازك مولوي الزعتري، سعدية نقوزي جردلي ، مصطفى المرسي ، خيري زيباوي ، محمد علي الجردلي ، نزار حريصي ، عبد الوهاب البزري .

وانشأت الجمعية مستوصفاً خاصاً للعلاج والتطبيب المجاني كما أسست مدرسة للخياطة وتدبير المنزل وتعليم الاميات وتضم المدرسة بين جدرانهـــا (١١٠) فتيات ويشترك بمؤازرة الجمعية في مشروعها الانساني التعليمي دائرة الشؤون الاجتماعية في صيدا برئاسة الاستاذ توفيق عسيران ..

جمعية رعاية اليتيم :

تأسست سنة ١٩٥٢ برئاسة الحاج احمد رياض الجوهري وهدفها ايواء الايتام ورعايتهم وتثقيفهم على اختلاف مذاهبهم. وتقدم هذه الجمعية للمجتمع الصيداوي اجل الخدمات الانسانية .

اما هيئتها الادارية للعام الحالي فتتألف من السادة :

الحاج احمد رياض الجوهري (الرئيس) يوسف الددا (نائباً للرئيس) السيد محمد سعيد المكاوي (اميناً للسر) عبدالله الجبيلي (محاسباً) الحـــاج حسن المكاوي (اميناً للصندوق) .

٦ – جمعية اليتيم العربي

تأسست سنة ١٩٥٤ برئاسة الدكتور فؤاد عسيران وغايتها انشاء دار لتعليم الايتام وايوائهم حتى يصبحوا شباناً صالحين يعملون لخدمة الوطن وخيره بـدلا من أن يكونوا مشردين وعالة على المجتمع في جنوب لبنان .

٧ – نادي الروتاري

تأسس فرع صيدا سنة ١٩٥٤ . وهدف النادي الاسهام في العمل الاجتماعي والثقافي وتنمية الصداقات بين اعضائه في مختلف انحاء العالم لرفع مستوى المهن التي يمثلها دائماً عضو في النادي ، وخدمة المجتمع الاقليمي بكافة الوسائل الصحية والثقافية والاجتماعية ..

وهيئة النادي الادارية الحالية تتألف من السادة :

الحاج عفيف الصلح رئيساً ، الاستاذ نظمي عزقول نائباً للرئيس ، الصيـدلي نزار حريصي اميناً للسر ، رفيق نمور أميناً للصندوق .

الاعضاء السادة : شفيق خلاط ، الدكتور جوزيف عبسي .

ومن رؤساء النادي السابقين السادة :

المحامي نظمي عزقول ، جورج دبانه ، المحامي شفيق لطفي ، الدكتور نزيه البزري ، الصيدلي سليم ايوب ، المحامي جورج نمور ، شفيق خلاط ، الدكتور سعد الله الخليل ..

٨ – الحركة الاجتماعية في صيدا

تأسست هذه الحركة في مدينة صيدا عام ١٩٦٤ وهي فرع من الحركة الاجتماعية في لبنان التي تأسست في بيروت سنة ١٩٥٨ وغايتها ان تملأ فراغ الشبيبة بتوجيههم نحو خدمة الناس والعمل على تنسيق الخدمات الطبية بين كل المستوصفات والجمعيات الخيرية والاندية الاجتماعية والاسهام في توعية المواطنين للاضطلاع بمسؤولياتهم والتجاوب مع الاجهزة الرسمية وتأدية بعض الخدمات الاجتماعية .

ويشرف على الحركة في صيدا :

سماحة الشيخ السيد موسى الصدر ، الاب سليم غزال المخلصي ، الانسة مليحة عسيران ، والاستاذ عبد المولى الصلح .

٩ – جمعية البر والتقوى

تأسست هذه الجمعية في صيدا عام ١٩٥١ ومن اهدافها : مساعدة المحتاجين وانشاء مدرسة مجانية ومكتبة للمطالعة المجانية . ويقتصر عملها على تقديم المساعدات المادية الموسمية للمحتاجين . ويرأس هذه الجمعية السيد عثمان محمد الحبلي ..

١٠ – جمعية لجنة جامع البحر الخيرية

تأسست سنة ١٩٦٤ . وغايتها : مساعدة الفقراء والمحتاجين واسعافهم عند الحاجة والترفيه عن البؤساء والاسر المستورة وهي تقوم بواجبها عن طريق

تقديم الاعانات الدورية والموسمية للمحتاجين والمرضى وتسهم في تأدية بعض الخدمات الاجتماعية العامة . ويرأس هذه الجمعية الشيخ عمر عبدالله الحلاق ..

غرفة التجارة والصناعة :

أسس الغرفة التجارية في صيدا المرحوم السيد يوسف ابو ظهر في ١٢ ايار سنة ١٩٣٣ واشترك معه السادة :

عزيز الخوري ، محمد محمود البعاصيري ، عمر جبيلي ، الحاج عبد المنعم عسيران ، الحاج محمود السنيورة ، الحاج حسن ابو زيد ، الحاج محمد مرجان ، منير البساط ، صفي الدين قدوره ، محمد حشيشو ، ونجيب الشماع .

وانتسب الى الغرفة وقتئذ (٣٤) تاجراً وصناعياً .. وتزايد عدد التجار والصناعيين المنتسبين اليها فبلغ في هذا العام (١٩٣) تاجراً وصناعياً .

وتتألف هيئتها الادارية حالياً من السادة :
السيد وجيه ابوظهر رئيساً ، السيد شريف الانصاري نائباً للرئيس ، الحاج علي الزعتري ، عازر النحاس ، محمد علي الشماع ، جورج عوده ، الحاج مصطفى البساط ، محمد بطاح ، سامي عسيران ، احمد مختار البابا ، محمد منير الكرجية ، اعضاء .

النقابات الحرفية :

في صيدا ست نقابات حرفية رسمية تضم (٤١٥) نقابياً حرفياً يتوزعون على الشكل التالي :

١ – نقابة اصحاب محلات الاحذية وتضم (٧٥) نقابياً . هيئتها الادارية تتألف من السادة :

مصطفى وهبي ، سعد الدين عجرم ، محمد نقوزي .

٢ – نقابة القصابين وتضم (٥٠) نقابياً رئيسها السيد عمر الحلبي وامين سرها

السيد سليم ابو ظهر .

٣ — نقابة الحلاقين وتضم (٦٠) حلاقاً رئيسها السيد عبد الحفيظ شمس الدين وامين سرها السيد حسين ابو زينب .

٤ — نقابة اصحاب الصناعات الخشبية ينتمي اليها (٦٠) نقابياً رئيسها السيد محمد البيطار وامين سرها السيد كرم سمهون .

٥ — لجنة محلات الحدادة والميكانيك وتضم (٤٠) نقابياً . هيئتها الادارية تتألف من السادة :

بكري سانتينا ، احمد سليم الارناؤوط ، عبد الرحمن ياسين آغا ، سليم عاصي .

٦ — لجنة بائعي الخضار وتضم (١٣٠) نقابياً رئيسها السيد محمد البخور وامين سرها السيد محمود البساط .

النقابات العمالية :

في صيدا (١٣) نقابة عمالية تضم (١٧٨٠) عاملاً موزعين على الشكل التالي :

١ — نقابة سائقي السيارات وينتمي اليها (٣٠٠) سائق يرأس النقابة السيد فؤاد كساب ويتولى أمانة سرها السيد محمد عفيف شمس الدين .

٢ — نقابة عمال النجارة : ينتمي اليها (٢٥٠) عاملاً رئيس النقابة الحالي السيد محمد خضر الصباغ وامين سرها السيد محمد سنجر .

٣ — نقابة عمال الافران : تضم (٧٠) عاملاً . رئيس النقابة السيد احمد سميح الصفدي ، وامين سرها السيد عبد السلام حنقير .

٤ — نقابة عمال ومستخدمي المقاهي والمطاعم والفنادق ومحلات الحلويات ينتمي الى هذه النقابة (١٢٠) عاملاً يرأسها السيد مصطفى جمال ويتولى امانة سرها السيد احمد عبد الحليم البابا .

٥ — نقابة عمال القصابين وتضم (٥٠) عاملاً يرأسها السيد علي الناتوت ويتولى امانة سرها السيد عفيف الديماسي .

٦ — نقابة عمال وعاملات الخياطة : ينتمي اليها (٥٠) عاملاً وعاملة . رئيسها السيد محمد الصباغ .

٧ — نقابة عمال ومستخدمي التجارة وتضم (١٥٠) عاملاً ومستخدماً . رئيسها السيد مصطفى محمود دندشلي وامين سرها السيد محمد الرواس .

٨ — نقابة عمال الميكانيك وتضم (٧٠) عاملاً في الوقت الحاضر وليس لها مجلس ادارة اذ رخص لها مؤخراً في ٢٢ آذار سنة ١٩٦٦ .

٩ — نقابة عمال البساتنة « وهي النقابة الزراعية الوحيدة في لبنان » : تضم حالياً (١١٠) عمال يرأسها السيد احمد الحريري ويتولى امانة سرها السيد عثمان عنتر .

١٠ — نقابة عمال شركة التابلاين وتضم (٢٤٠) عاملاً ومستخدماً . يرأسها المحامي ايوب الشامي ويتولى امانة سرها السيد عفيف يونان .

١١ — نقابة عمال شركة المصفاة (مدريكو) وتضم «١٦٠» عاملاً ومستخدماً يرأسها السيد محمد سعيد المكاوي ويتولى امانة سرها السيد درويش النقوزي .

١٢ — لجنة نقابة عمال المطابع وتضم (٣٠) عاملا يرأس النقابة السيد ابراهيم القبرصلي ويقوم بامانة سرها السيد محمد البغدادي .

١٣ — نقابة صيادي الأسماك وينتمي اليها (١٨٠) بحاراً وصياداً . يرأسها السيد محمد شريف المصري ويتولى امانة سر النقابة السيد سليم جمعة .

الفصل الثامن

حكام لبنان

١٩١٥ — ١٩٢٦

العهد العثماني :

١ — المتصرف علي منيف بك ١٩١٥ - ١٩١٧

٢ — المتصرف اسماعيل حقي بك ١٩١٧ — ١٩١٨

٣ — المتصرف ممتاز بك تموز ١٩١٨ — ايلول ١٩١٨

الحكم العربي

١ — الاميران مالك شهاب وعادل ارسلان ١ — ٧ تشرين الاول ١٩١٨ .

٢ — حبيب باشا السعد من ٧ — ١٩ تشرين الاول سنة ١٩١٨ .

الحكم الفرنسي

١ — الكابتين بوشر ٢٠ تشرين الاول ١٩١٨ — اواخر عام ١٩١٨ .

٢ — القومندان سيشه ١٩١٩ .

٣ — القومندان لابرو ١٩١٩ — آخر آب ١٩٢٠ .

الحكام بعد اعلان دولة لبنان الكبير

١ — القومندان ترابو ١ ايلول ١٩٢٠ - ٢ ايار سنة ١٩٢٣ .

٢ — السيد اوبوار ١٢ ايار سنة ١٩٢٣ — ٢٧ حزيران ١٩٢٤ .

٣ — الجنرال فندنبرغ ٢٧ حزيران سنة ١٩٢٤—١٣ كانون الثاني ١٩٢٥ .

٤ — السيد كايلا ١٣ كانون الثاني ١٩٢٥ — ٢٥ ايار ١٩٢٦ .

رؤساء الجمهورية اللبنانية

١٩٢٦ — ١٩٦٦

١ — الاستاذ شارل دباس ٢٦ ايار ١٩٢٦ — ١ كانون الثاني ١٩٣٤ .

٢ — حبيب باشا السعد ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٤—٢٠ كانون الثاني ١٩٣٦ .

٣ — الاستاذ اميل اده ٢٠ كانون الثاني ١٩٣٦ — ٤ نيسان ١٩٤١ .

٤ — الاستاذ الفرد نقاش ٢٤ تشرين الاول ١٩٤١—١٨ آذار ١٩٤٣ .

٥ — ايوب ثابت (رئيس دولة) ١٨ آذار ١٩٤٣ — ٢١ تموز سنة ١٩٤٣ .

٦ — بيترو طراد (رئيس دولة) ٢٢ تموز سنة ١٩٤٣ — ٢١ ايلول ١٩٤٣ .

٧ — الشيخ بشاره الخوري ٢١ ايلول ١٩٤٣ — ١٩ ايلول ١٩٥٢ .

٨ — الاستاذ كميل شمعون ٢٢ ايلول ١٩٥٢ — ٢٢ ايلول ١٩٥٨ .

٩ — الامير اللواء فؤاد شهاب ٢٣ ايلول ١٩٥٨ — ٢٣ ايلول ١٩٦٤ .

١٠ — الاستاذ شارل الحلو ٢٣ ايلول ١٩٦٤ — حالياً .

المفوضون الساموان الفرنسيون

في سوريا ولبنان

١٩١٨ — ١٩٤٥

١ — السيد جورج بيكو ٩ تشرين الاول ١٩١٨—٨ تشرين الاول ١٩١٩ .

٢ — الجنرال غورو ٨ تشرين الاول ١٩١٩ — ٨ ايار ١٩٢٣ .

٣ – الجنرال ويغاند ٩ ايار ١٩٢٣ – ٣١ كانون الاول ١٩٢٤ .

٤ – الجيرال ساراي ٢ كانون الثاني ١٩٢٥ – ١ كانون الاول ١٩٢٥ .

٥ – السيد دي جوفنيل ٢ كانون الاول ١٩٢٥ – ١١ تشرين الاول ١٩٢٦

٦ – هنري بونسو ١٢ تشرين الاول ١٩٢٦–١١ تشرين الاول ١٩٣٣ .

٧ – الكونت دي مارتيل ١٢ تشرين الاول ١٩٣٣ – ١١ كانون الثاني ١٩٣٨

٨ – السيد جبريال بيو ١٢ كانون الثاني ١٩٣٨ – ١ كانون الاول سنة ١٩٤٠

٩ – الجنرال دانتز ٣٠ كانون الاول ١٩٤٠ – ١٣ تموز سنة ١٩٤١ .

١٠ – الجنرال كاترو (المندوب العام) ١٤ تموز سنة ١٩٤١ – ٨ حزيران سنة ١٩٤٣ .

١١ – السيد هللو (المندوب العام) ٩ حزيران ١٩٤٣ – ٩ آذار سنة ١٩٤٤

١٢ – الجنرال بينيه (المندوب العـام) ١٠ آذار ١٩٤٤ – ٣١ كانون الاول ١٩٤٦ .

اسماء من تولى رئاسة المجلس النيابي اللبناني
ورئاسة الوزارة والوزراء من ابناء صيدا

السيد عادل عسيران : تولى رئاسة المجلس النيابي عدة مرات .
والوزارة عدة مرات .

السيد رياض الصلح رئاسة الوزارة «٦» مرات .

الدكتور فؤاد عسيران الوزارة «١» مرة واحدة .

الدكتور نزيه البزري الوزارة «٢» مرتين .

محافظو صيدا

١٩١٩ – ١٩٦٦

١ – قائمقام – فؤاد عازوري ١٩١٨ – ١٩١٩

٢ – السيد رشيد جنبلاط ، متصرف الجنوب ١٩١٩ – ١٩٢١

٣ – الامير توفيق ارسلان ، متصرف الجنوب ١٩٢١ – ١٩٢٤

٤ – السيد نقولا غصن ، متصرف «ستة أشهر» ١٩٢٤ – ١٩٢٥

٥ – الشيخ كسروان الخازن ، محافظ الجنوب ١٩٢٥ – ١٩٢٧

٦ – السيد عبد الله الخوري سعاده ، محافظ الجنوب ١٩٢٧ – ١٩٢٨

٧ – السيد محمود تقي الدين ، محافظ الجنوب ١٩٢٨ – ١٩٢٩

٨ – السيد كميل الشدياق ، محافظ الجنوب ١٩٢٩ – ١٩٣٠

٩ – الشيخ يوسف زخريا ، محافظ الجنوب ١٩٣٠ – ١٩٣١

١٠ – السيد كميل الشدياق (ثانية) محافظ الجنوب ١٩٣١ – ١٩٣٤

١١ – السيد اسعد عقل ، محافظ الجنوب ١٩٣٤ – ١٩٤٠

١٢ – السيد اديب النحاس ، محافظ الجنوب ١٩٤١ – ١٩٤٣

١٣ – السيد فؤاد صوايا ، محافظ الجنوب ١٩٤٣ – ١٩٤٧

١٤ – السيد اميل خوري (قائمقام قضاء صيدا)[1] ١٩٤٣ – ١٩٥٨

١٥ – الامير عبد العزيز شهاب ، محافظ الجنوب ١٩٤٧ – ١٩٥٢

١٦ – السيد ميشال الجاهل ، محافظ الجنوب ١٩٥٢ – ١٩٥٨

١٧ – السيد غالب الترك ، محافظ الجنوب ١٩٥٨ – ١٩٦٥

١٨ – السيد هنري لحود ، محافظ الجنوب ايلول ١٩٦٥ – حالياً

نواب صيـدا

١٩٢٠ – ١٩٦٦

١ – السيد يوسف الجوهري ١٩٢٠ – ١٩٢٢ عضو في اللجنة الادارية للبنان الكبير .

٢ – السيد نجيب عسيران ١٩٢٢ – ١٩٢٥ المجلس النيابي الاول

٣ – السيد نجيب عسيران ١٩٢٥ – ١٩٢٨ المجلس النيابي الثاني

(١) اضطلع بمهام المحافظ بالوكالة مرات متعددة خلال الفترة المذكورة .

٤ — السيد نجيب عسيران	١٩٢٩ — ١٩٣٢	المجلس النيابي الثالث
٥ — السيد نجيب عسيران	١٩٣٤ — ١٩٣٧	المجلس النيابي الرابع
٦ — السيد نجيب عسيران	١٩٣٧ — ١٩٤٠	المجلس النيابي الخامس
٧ — السيد رياض الصلح	١٩٤٣ — ١٩٤٧	المجلس النيابي السادس
٨ — السيد رياض الصلح	١٩٤٧ — ١٩٥١	المجلس النيابي السابع
٩ — السيد رياض الصلح	١٩٥١ — ١٩٥١	المجلس النيابي الثامن
١٠ — السيد صلاح البزري	١٩٥١ — ١٩٥٣	المجلس النيابي الثامن[1]
١١ — الدكتور نزيه البزري	١٩٥٤ — ١٩٥٧	المجلس النيابي التاسع
١٢ — السيد معروف سعد	١٩٥٧ — ١٩٦٠	المجلس النيابي العاشر
١٣ — السيد معروف سعد	١٩٥٧ — ١٩٥٠	المجلس النيابي الحادي عشر
١٤ — السيد معروف سعد	١٩٦٤ — (حالياً)	المجلس النيابي الثاني عشر

رؤساء بلدية صيـــدا

١٩٠٠ — ١٩٦٦

السيد ابراهيم الجوهري	١٩٠٠ — ١٩١٠
السيد الحاج مصباح البزري	١٩١٠ — ١٩١٤
السيد محمود كالو	١٩١٤ — ١٩١٦
السيد احمد توفيق اسماعيل النقيب	١٩١٦ — ١٩٢٠
السيد الحاج مصباح البزري (ثانية)	١٩٢٠ — ١٩٢٢
السيد يوسف الجوهري	١٩٢٢ — ١٩٢٣
السيد الحاج سعيد البزري	١٩٢٣ — ١٩٣٢
السيد بهيج الجوهري	١٩٣٣ — ١٩٣٧

(١) اثر اغتيال السيد رياض الصلح في عمان تقرر اجراء الانتخاب للمركز الشاغر ففاز بالنيابة السيد صلاح البزري .

السيد صلاح البزري	١٩٣٧ — ١٩٥٤
الدكتور نزيه البزري	١٩٥٤ — ١٩٥٩
الاستاذ معروف سعد	١٩٦٣ — حالياً

ويتألف المجلس البلدي الحالي الذي تم انتخابه في ١٤ آب ١٩٦٣ من السادة: مصطفى القطب ، احمد الحريري ، سليم جمعة ، بدوي النابلسي ، الدكتور جوزيف عبسي ، جبريال رزق‌الله ، عبد المنعم شعيب ، عبـد السلام الاسير ، محمد المجذوب ، الدكتور رفيق حنينه ، المهندس امين حمود ، صلاح طه البابا ، عبد اللطيف البوبو .

المستشارون الفرنسيون في صيدا

خلال فترة الانتداب

١٩١٨ — ١٩٤٥

١ — الـكابتين فيجر	١٩١٨
٢ — القومندان شاربا نثير	١٩١٩
٣ — السيد لوسونير	١٩٢١
٤ — السيد بانسون	١٩٢١
٥ — القومندان مارتان	١٩٢٤
٦ — السيد مار	١٩٢٧
٧ — السيد برنو	١٩٣٠
٨ — القومندان جاكوم	١٩٣٢
٩ — القومندان بتشكوف	١٩٣٤
١٠ — الـكابتين بارت	١٩٣٧
١١ — السيد ديمارسي	١٩٣٩
١٢ — السيد ديمون	١٩٤١ — ١٩٤٥

المفتون في صيدا

١ – الشيخ مصطفى المغربي ١٨٦٠
٢ – الحاج عثمان الزين ١٨٨٦
٣ – الشيخ مصطفى المجذوب الملا ١٩٠٢
٤ – الشيخ بهاء الدين الزين ١٩١٤
٥ – السيد كمال المغربي ١٩١٨
٦ – الحاج حسن الددا ١٩١٩
٧ – الحاج سعد الدين الصلح ١٩٢٠
٨ – الشيخ بهاء الدين الزين (ثانية) ١٩٤٠ – ١٩٦٤
٩ – الشيخ انيس حمود ١٩٦٥ – (حالياً)

اساقفة صيدا لطائفة الروم الكاثوليك

١٦٠٤ – ١٩٦٦

١ – المطران اغناطيوس عطيه ١٦٠٤ – ١٦١٩ إذ انتخب بطريركا على الطائفة الكاثوليكية .
٢ – المطران مرقس ١٦١٩ – ١٦٣٤
٣ – المطران سابا ١٦٣٥ – ١٦٤٨
٤ – المطران ارميا ١٦٤٨ – ١٦٨٢
٥ – المطران افتيميوس الصيفي[١] ١٦٨٢ – ١٧٢٣
٦ – المطران اغناطيوس البيروتي ١٧٢٤ – ١٧٥٥
٧ – المطران باسيليوس جلفاف ١٧٥٥ – ١٧٦٣
٨ – المطران اثناسيوس جوهر ١٧٦٣ – ١٧٨٨

١ - تجد نبذة عن سيرته ص ٣٠٦ من كتابنا .

٩ – المطران اغابيوس مطر ١٧٩٥ – ١٧٩٦
١٠ – المطران اثناسيوس مطر ١٨٠٠ – ١٨١٣
١١ – المطران باسيليوس خليل ١٨٢١ – ١٨٣٦
١٢ – المطران ثاودسيوس قيومجي ١٨٣٦ – ١٨٨٦
١٣ – المطران باسيليوس حجار ١٨٨٧ – ١٩١٦
١٤ – المطران اثناسيوس خرياطي ١٩٢٠ – ١٩٣١
١٥ – المطران نيقولاوس نبعه ١٩٣١ – ١٩٤٦
١٦ – المطران باسيليوس خوري ١٩٤٧ – حالياً[١]

اساقفة صيدا لطائفة الروم الارثوذكس

١٨٥٠ – ١٩٦٦

١ – المطران جراسيموس فرح ١٨٥٠ – ١٨٦٤
٢ – المطران جراسيموس طراد ١٨٦٥ – ١٨٦٧
٣ – المطران ميصائيل اشبريان ١٨٦٧ – ١٩٠٦
٤ – المطران ايليا ديب ١٩٠٩ – ١٩١٤
٥ – المطران ثيودوسيوس ابو رجيلي ١٩٢٣ – ١٩٤٨ (البطريرك الارثوذكسي حالياً) .
٦ – المطران بولس الخوري ١٩٤٨ – (حالياً)

اساقفة صيدا لطائفة الموارنة

١٩١٩ – ١٩٦٦

١ – المطران اوغسطين البستاني ١٩١٩ – ١٩٥٤
٢ – المطران انطونيوس خريش ١٩٥٤ – (حالياً)

١ - كل الاساقفة من افتيميوس الصيفي حتى يومنا هذا هم من رهبان دير المخلص .

الفصل التاسع

المناطق الأثريه في صيدا

آثار صيدا كثيرة جداً منها ما يعود تاريخه الى العصور الفينيقية المختلفة واخرى إلى العقود المسيحية والعربية والصليبية والمعنية والكلام عنها بالتفصيل يحتاج وحده إلى مجلد خاص . ومع هذا فقد رأينا من واجبنا ونحن ندون تاريخ صيدا ان نفرد هذا الفصل للحديث بايجاز عن اشهرها فنقول :

١ – مقام ابا روح (ابو الروح)

يقال انه يعود للصحابي شبيب بن ذي الكلاع وليس ثمة ما يؤكد صحة هذا القول ونسبته الى ذلك الصحابي الجليل، ويرجح بعض المدققين نسبته الى احد تلامذة ذلك الصحابي او الى الشيخ عبد الله الخراساني الذي عرف عنه معرفته للطب والفلك وقد اقام في صيدا ودفن في الموضع الذي كان يقيم فيه واقام له جمهرة تلامذته قبراً ومزاراً (لانه كان يشفي مرضاهم صحياً وروحياً) اطلقوا عليه مزار ابي الروح .

والضريح يقع في غرفة مربعة الشكل تعلوها قبة مبنية بالحجارة القديمة ، يعود تاريخ بنائه الى القرن السابع عشر وهو يقع في الجهة الجنوبية من صيدا على

نشز رملي من الارض قرب الشاطيء ويفصل بينه وبين صيدا نهر البرغوث . وتعتني بالمقام اسرة يحيى البظان .

٢ – مقام الست نفيسة

يعود هذا المقام الى سيدة مغربية مثرية، وقد اشترت تلك البقعة وما جاورها وأوصت قبل وفاتها ان تدفن في ضريح اقامته لنفسها في هذا الموقع .

وهذا المقام يقع في حي الدكرمان في شارع متفرع من بوليفار رياض الصلح ويزوره النساء العواقر فيضئن الشموع فيه ويقدمن النذور حتى تتوسل صاحبة المقام امام الباري ليرزقهن اولاداً . ويعود المقام إلى اسرة آل حمود الصيداوية .

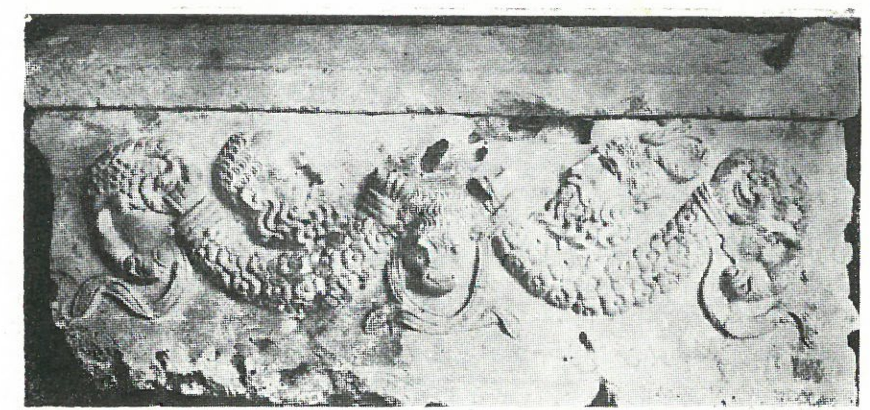
٣ – مقام النبي يحي

وهو مقام مقدس من المسلمين والمسيحيين اذ يعتقدون انه يعود للنبي يحي « القديس يوحنا المعمدان » – وقد دفن جثمانه فيه – وهذا قول فيه كثير من الشك لان يوحنا المعمدان قتل ودفن في الجليل في فلسطين . وكل ما يمكن تأكيده من القول، انه اقيم في هذا الموقع كنيسة ضمت بعض رفات هذا القديس ثم تحولت الكنيسة في ايام المماليك الى مسجد تهدم بفعل الزلازل ثم بني بشكل مزار على اسم النبي يحي .

ويقع هذا المقام شرقي صيدا على تلة مرتفعة في محلة « حارة صيدا » يشرف على المدينة . وتاريخ بنائه الحالي يعود الى الربع الاول من هذا القرن ... وترعى المقام اسرة محمد صالح الصيداوية .

٤ – مقام مار الياس

يروى ان هذا المقام اقيم في مكان هيكل وثني لعبادة الشمس ولما جاء مار الياس قضى على كهنة الهيكل ثم ابطل عبادة الشمس واعاد الناس الى عبادة الله،



صورة جانبية لناووس مكتشف بالقرب من مقام مار الياس

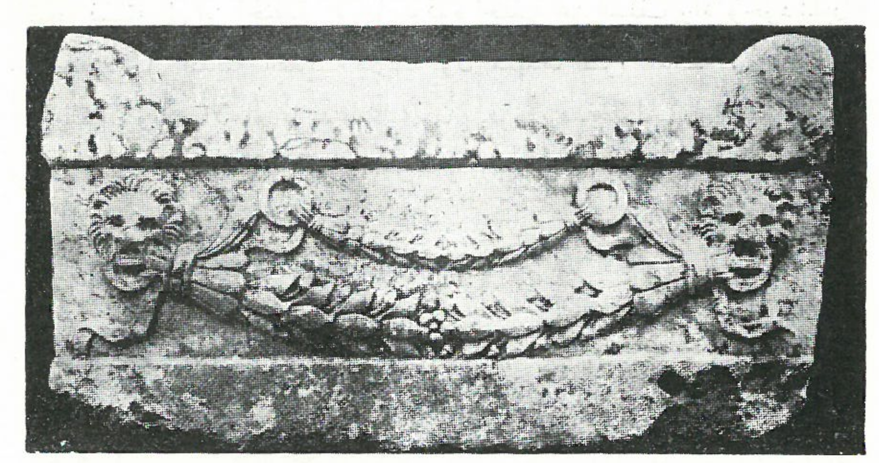
فما كان من الناس الا ان اطلقوا اسمه على الهيكل الذي تحول الى معبد يهودي ثم مسيحي تكريماً لذكراه واجلالاً لمقامه .

ويقع هذا الدير على قمة الجبل الذي يشرف مباشرة على حارة صيدا ويعود الى الطائفة المارونية ويتولى وكالته السيد سعيد رحيم والى جـانب الدير تقع مقبرة تخص الموارنة كانوا يدفنون فيها موتاهم الى عهد قريب. اما تاريخ بنائه فيعود الى القرن السادس عشر . وقد البست جدرانه الحجرية القديمة بطبقة من الكلس في الربع الاول من القرن العشرين لتدعيمه ، فحجبت بهذا آثاره القديمة .

٥ ـ مقام شرحبيل بن حسنة

يعود هذا المقام الى الصحابي الجليل والقائد البطل الذي اشترك في فتـح صيدا صحبة القائد يزيد بن ابي سفيان اذ اقام هذا القائد بعد ان تم فتح بـلاد الشام في صيدا حتى توفي ودفن في المكان الذي اقيم على ارضه وفوق القبر بيت مربع الشكل تعلوه قبة مستديرة في بستان يشرف على مـدينة صيدا من الجهة الشرقية الجنوبية « الحبابية » . ويعود المقام والبستان الى اسرة آل البابا و وكيله المشرف عليه حالياً، هو السيد محمود البابا.

وهنالك مفاوضات تجري حالياً معدائرة الاوقاف للسماح الى دار اليتيم ببناء مسجد ودار للايتام في هذا الموقع .



صورة جانبية لناووس مكتشف في جوار مار الياس

٦ ـ هيكل صيدون

يعتقد اليهود انه يعود الى زبلون « ابن النبي يعقوب » ولذا كانوا يزورونـه للتبرك به وتقديم الهدايا له وتزيينه بـين آن وآخر بالستائر الحريرية والمخملية ذات اللون الاخضر ، ولا يزال فيه ستار منقوش عليه آيات من التوراة باللـغة العبرية حتى اليوم .

ويعتقد البعض انه يعود الى صيدون بـاني صيدا . وهذا الهيكل محترم من المسلمين والمسيحيين واليهود على السواء وفيه ايضاً ستائر مدون عليها بعض الآيات القرآنية الكريمة . والمقام مستدير الشكل تعلوه قبة ، وهو عائد للاوقـاف الاسلامية وتشرف عليه وترعاه « اسرة عوكل الصيداوية » .

ويقع هذا الهيكل او المقام قرب حي البرغوت جنوبي صيدا .

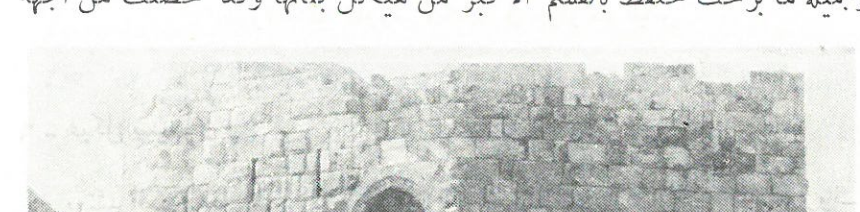
٧ ـ مقام ابو نخله (ابو النخل)

يعتقد انه يعود لمحمد بن الحنفية بن الامام علي بن ابي طالب وليس ما يؤكد صحة نسبته الى ابن الحنفية الا ما يذكره الخلف عن السلف والا وجود القبر في مسجد داخل المدينة القديمة يكاد يكون متهدماً نظراً لقدمه . ومما يذكره الرواة ان والده الامام علي دعا عليه ان يدفن في مسجد ليس فيه منبر للخطابة ولذلك فان المسجد الذي يضم القبر لا يحتوي على منبر للخطابة كبقية المساجد في المدينة .

وابو النخل هو لقب محمد بن الحنفية المذكور .

القلعة البحرية

بنيت في اوائل القرن الثالث عشر من قبل الصليبيين وهي قلعة كبيرة وجميلة ما برحت تحتفظ بالقسم الاكبر من هيكل بنائها وقد حصنت من الجهة



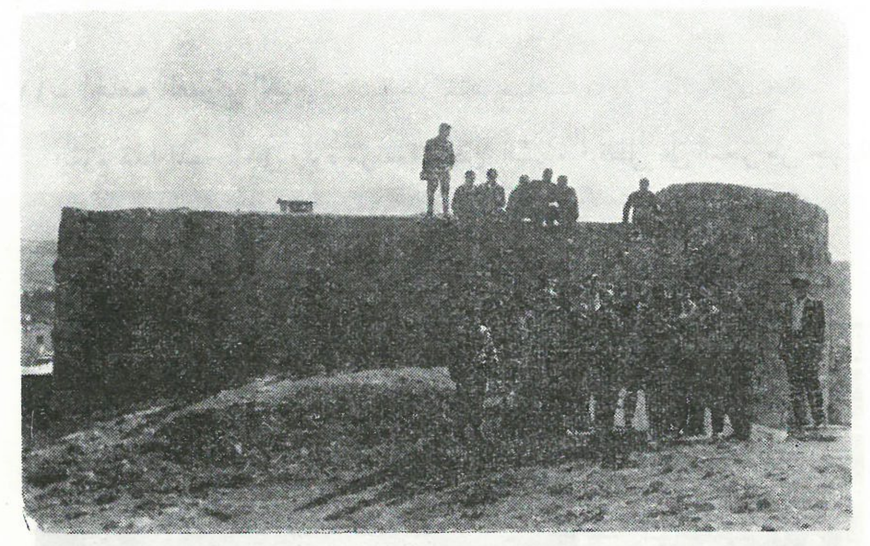


صورة داخلية لقلعة صيداء البحرية

الجنوبية المواجهة للمدينة تحصيناً قوياً لأن الصليبيين كانوا يعتمدون على قوتهم البحرية وتضم القلعة اليوم في قسمها الشرقي برجاً كبيراً له عدة بوابات لا تزال احداها قائمة وعلى سطح البرج يوجد جامع صغير يعود الى عهد المماليك وقد رمم في عهد فخر الدين . اما في القسم الغربي من القلعة فيقوم برج نصف دائري اقامه الصليبيون وقد رمم في عهد ابراهيم باشا المصري وهو لا يزال قائماً .

٩ ـ القلعة البرية (قلعة القديس لويس)

هي قلعة قديمة طبيعية تعود الى العصور الفينيقية الأولى . رممها اليونان والرومان والعرب وأقاموا فيها مراكز للمراقبة والدفاع وقد تهدمت بتأثير الحروب



قلعة القديس لويس – (القلعة البرية)

والزلازل . ولما احتل الصليبيون صيدا عمدوا الى ترميمها واقامة سور حولها ليقيها الهجمات ، واشهر من تولى تحصينها لويس التاسع ملك فرنسا الذي اتخذ مركزاً له في حصنها اثناء اقامته في صيدا بين سنة (١٢٥٠ — ١٢٥٤م) وترك للفرسان الهيكليين امر حمايته بعدئذ ولا تزال آثار قلعة لويس باقية حتى اليوم .

١٠ - هيكل اشمون

يقع الى الشرق الجنوبي من صيدا على مسافة ٣ كيلومترات من المـدينة وعلى مرتفع يشرف على نهر الاولي بالقرب من الجسر المعني القديم في ارض يقال لهـا بستان آل الشيخ وهويعود للاله اشمون معبود صيدا وقد بني ايام الملك بدعشترت بن عازر بن تبنيت ملك صيدا في اواخر القرن الخامس قبل الميلاد الذي بناه لإلهه اشمون الاقدس .

وتعمل الان دار الآثار اللبنانية في اظهار معالم هذا الهيكل الرائع الى عالم الوجود اذ تجري عمليات التنقيب في المكان المشار اليه وقد ظهر للعيان الآن ، باحة الهيكل باعمدته الضخمة وحجارته البيضاء الجميلة .

١١ - الجامع العمري الكبير

يقوم هذا المسجد على ربوة مرتفعة بعض الشيء ، تطل على البحر من جهـة



منظر حديث لصيدا

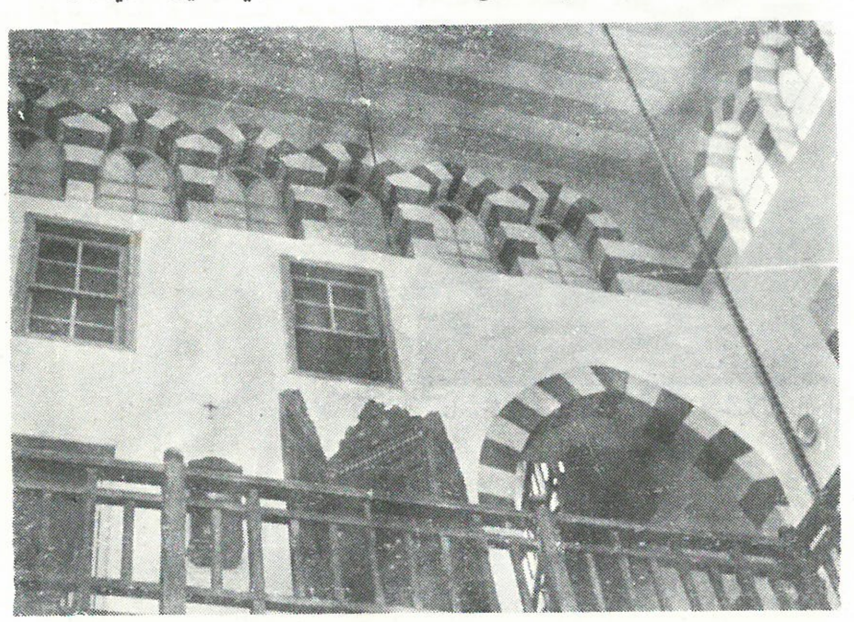
الغرب . وموقعه في احياء صيدا القديمة الى الغرب من كلية المقـاصد الاسلامية للبنين . وهو اوسع مساجد المدينة على الاطلاق ؛ جميل الهندسة ، متين الدعائم ؛ بناه فرسان القديس يوحنا « Les HosPitaliers » في اواسط القرن الثالث عشر ليكون كنيسة تحمل اسم شفيعهم. ثم حوله المماليك مسجداً بعد استعادتهم صيدا في مطلع القرن الرابع عشر ولا يزال .

منظره الحالي يدل على جمال بنائه ؛ وتظهر من ركائزه القوية المتعددة على جوانبه متانة البناء ؛ كما تكشف طريقة هندسة نوافذه وابوابه وجدرانه طرازه الصليبي .

١٢ — قصر آل دبانة

يملك هذا القصر الذي يعود تاريخ بنائه الى أيام الأمير فخر الدين المعني الثاني الكبير في أوائل القرن السابـع عشر — السيد جورج دبانة .

ويعتبر هذا القصر الذي ما برح يحتفظ بطابعه الشرقي الجميل المزين بالزخارف



منظر داخلي من قصر آل دبانة

الايطالية البندقية من اجمل القصور القديمة ويعود الفضل في الحفاظ عليه وبشكله الحالي الى صاحبه الذي يبذل الكثير من عنايته ليظل هذا القصر ينطق عن عظمة السلف الطيب .



قاعة شمعايا الأثرية في قصر آل جنبلاط بالبرامية

١٣ – قاعة شمعايا

تقع هذه القاعة في قصر السيد نجيب جنبلاط في بلدة البراميـــة المشرفـة على مدينة صيدا وقد بني القصر في أوائل القرن التاسع عشر. أما القاعة فقد جدد بناؤها مؤخراً وتعتبر قطعة فنيـة خالدة لما تحويه من نقوش جميلة وتماثيـــل مرمرية وبحيرة قائمة على قواعد هي تماثيـل أسود من الرخام الابيض الايطالي.. وهي من أجمل ما تقع عليـه العين ، مبنيـــة على الطرازين العـربي والتوسكاني .

قائمة

ببعض المراجع العربية المعتمدة

١ – الآباء اليسوعيون

تقويم البشير – « اجزاء مختلفة »

٢ – ابن الاثير

الكامل « ٦ مجلدات » القاهرة ١٩٤٠

٣ – الخوري عيسى أسعد

تاريخ حمص « الجزء الاول » حمص ١٩٤٠

٤ – ا. بواد بار وج. لوفري

صيدا التحسينات الاثرية لميناء صيدا – وزارة الأشغال العامة اللبنانية – بيروت ١٩٥١

٥ – غالب الترك

محاضراته عن محافظة الجنوب

الندوة اللبنانية ونادي الخريجين للجامعة الاميركية – بيروت ١٩٦١ و ١٩٦٤

٦ – الدكتور علاء الدين الخاني وواصف الخيمي ووصفي عفلق

« تاريخ العرب – الحديث والمعاصر » دمشق : وزارة التربية والتعليم ١٩٦٠

٧ – قسطنطين خمّار

الموجز في تاريخ القضية الفلسطينية – المكتب التجاري – بيروت ١٩٦٥

٨ – اميل خوري وعادل اسماعيل

السياسة الدولية في الشرق العربي « ٣ اجزاء » – بيروت
دار النشر للسياسة والتاريخ ١٩٥٩ – ١٩٦١

٩ –المطران بولس الخوري

المدنيات القديمة – المدنية الفينيقيـة – « احاديث ألقيت
في الاذاعة اللبنانية »

١٠–يوسف أسعد داغر

مصادر الدراسة الادبية «الجزء الثاني» الفكر العربي الحديث
في سير اعلامه. منشورات جمعية اهل القلم – بيروت ١٩٥٥

١١–المطران يوسف الدبس

تاريخ سورية – بيروت

١٢ – ل. ول ديورانت

قصة الحضارة (الجزء الثاني) الشرق الأدنى–ترجمة محمد بدران
جامعة الدول العربية – القاهرة ١٩٥٠

١٣ – نقولا زيادة

مدن عربية – بيروت ١٩٦٥

١٤ – الشيخ أحمد عارف الزين

تاريخ صيدا مطبعة العرفان – صيدا ١٩١٣

١٥ – الشيخ طنوس بن يوسف الشدياق

اخبار الاعيان في جبل لبنان (جزءان) بيروت :
مكتبة العرفان ١٩٥٤

١٦ – الأمير حيدر الشهابي

لبنان في عهد الأمراء الشهابيين – تحقيق اسد رستم
وفؤاد افرام البستاني – بيروت – ١٩٥١

١٧ – سعيد عقل

قدموس بيروت ١٩٦٤

١٨ – الخوري بولس قرألي

الأمير فخر الدين المعني ودولة توسكانا (المطبعة الكاثوليكية
بيروت ١٩٣٧)

١٩–محمد كرد علي

خطط الشام « ٦ مجلدات » دمشق ١٩٢٥

٢٠ – وليم لانجر

موسوعة تاريخ العالم (٤ اجزاء) ترجمة الدكتور
محمد مصطفى زيادة – القاهرة ١٩٦٣

٢١ – حليم بجدلاني

دليل صيدا الاثري – المكتبة العصرية – صيدا –١٩٦٥

٢٢ – شاكر مصطفى

في التاريخ العباسي (الجزء الأول) دمشق ١٩٥٧

٢٣ – فؤاد مطر

رؤساء لبنان – من شارل حلو إلى شارل دباس
بيروت سنة ١٩٦٤

٢٤ – الرئيس اول محمد خالد مطرجي

مع أبطالنا في فلسطين دمشق ١٩٥٤

٢٥ – علي ناصر الدين

قضية العرب بيروت ١٩٦٣

٢٦ – صالح بن يحيى

تاريخ بيروت بيروت ١٩١٢

٢٧ – جرجي يني

تاريخ سورية بيروت ١٨٨١

قائمـــة

ببعض المراجـــع الاجنبية المعتمدة

1 — ROBERT BOULANGER — (Liban) (Paris, Librairie Hachette 1955)

2 — MICHEL CHEBLI — (Une histoire du Liban à l'époque des Emirs) 1635-1841) Beyrouth 1955

3 — MAURICE CHEHAB — **III — Tome** Bulletin du Musée de Beyrouth. Imp. Catholique — Beyrouth.

4 — MAURICE CHEHAB — Mosaïques du Liban Imp. Catholique, Beyrouth 1961.

5 — G. CONTENEAU — (Histoire de la Phénicie)

6 — LE CHEVALIER DARVIEUX — (Paris, Payot 1945). Mémoire; 6 Vol. Paris, 1735.

7 — G. DE MOMBYNES — La syrie à l'époque de Mamelouks. Paris 1923.

8 — MAURICE DUNAND — (La Civilisation Phénicienne) Beyrouth 1965.

9 — R. DUSSAUD — La Syrie Antique et médiévale, illustrée; Paris, 1931.

10 — STEPHANE GSELL — Histoire ancienne de l'Afrique du nord. 8 vol. Paris; (acad. desinscr, 1923.) المجلدات الثلاثة الأولى — الخاصة بالفينيقيين وقرطاجة

11 — PHILIP K. HITTI — Syria, A Short History (London; Macmillan & CO. 1959)

12 — LEON HOMO — Histoire d'Orient Paris, Librairie Arthène Fayard, 1945.

13 — H. HOURANI — Syria and Lebanon (London; Oxford, University Press. 1954)

14 — ADEL ISMAIL — Histoire du Liban du XVII siècle à nos jours, Tome I

15 — ADEL ISMAIL — Le Liban au temps de Fakhr Ed-din II Paris, Librairie Orientale 1955) TOME IV

16 — H. LAMMENS — Histoire de la Syrie — 2. V. Beyrouth 1921.

17 — S. MOSCATI — Histoire et civilisation des peuples sémitiques. Paris, Payot 1955.

18 — JACUES NANTET — Histoire du Liban. Paris, Ed. de Minuit 1963.

19 — CHARLES-ROUX — La France et les Chrétiens d'Orient. Paris 1939.

فهرس اعلام الاشخاص

ـ ب ـ

ـ ز ـ

ـ س ـ

ـ ش ـ

— ص —

— ط —

— ظ —

— ع —

– غ –

– ف –

– ق –

— ك —

— ل —

— م —

— ن —

— هـ —

– و –

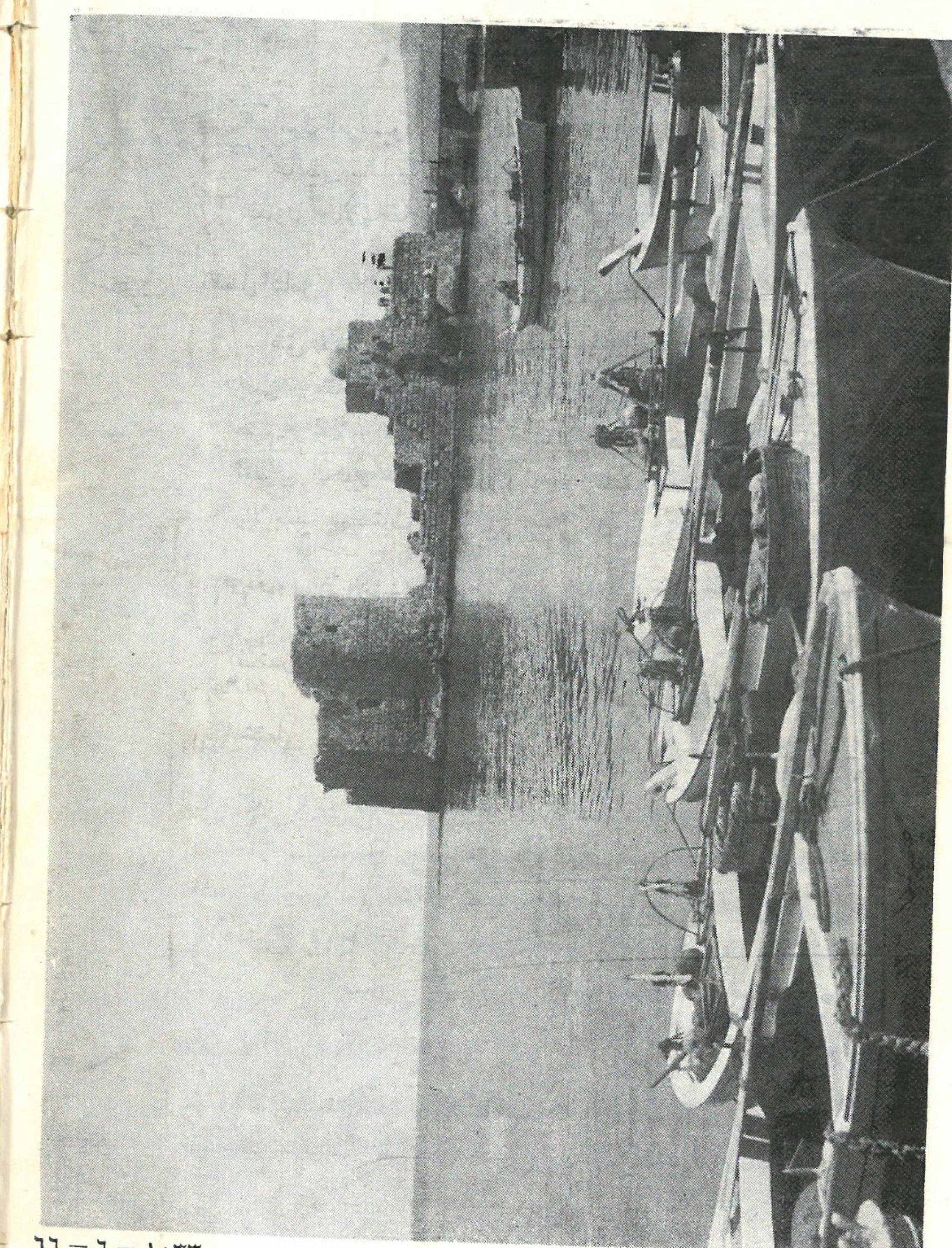
– ي –

المستدرك

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٣٨	٢	العثمانيين	الميثانيين
٦٩	٢١	٣٨٤ - ٣٦٢	٣٨٤ - ٣٦٠
٦٩	٢٢	٣٦٢ - ٣٤٦	٣٦٠ - ٣٤٦
٧٧	٢	محاربي	محازبي
٨٠	١٠	ليسياس	ليسياك
١٧٠	٦	الهندسة البنانية	الهندسة البنائية
١٨١	٩	السني	السنيي
١٩٧	٢١	العثمائيين	العثمانيين
٢٢٠	٣	وامسكتني وحنثت	وامسكتني ، حنثتَ
٢٥٠	٢١	جمع الطوائف	جميع الطوائف
٢٦٠	٢١	والي صيدا والشام	واليي صيدا والشام
٢٦٤	١	والي دمشق وطرابلس	واليي دمشق وطرابلس
٢٩٣	١٥	سليمان باشا والقائد	سليمان باشا ، القائد
٣٠٥	٢٤	للميداني والنجم للمغربي	الميداني والنجم المغربي
٣٥٣	٧	صياد (١)	صياداً مسجلاً في النقابة بالاضافة الى ٧٠ صياداً فلسطينياً
٣٥٧	١٧	يوسف فضل	يوسف فضل الله
٣٦١	١٧	كرفيليوس	كرنيليوس
٣٧٤	١١	١٩٥٤	١٨٥٤
٣٩٢	١	الفصل الثامن	الفصل السابع
٤٠٠	١	الفصل التاسع	الفصل الثامن

المشتمل

ص



القلعة البحرية ومرفأ صيدا (حاليا)

١٠٣٣ – ٦ – ٦٦